رضوى عاشور

الطَّنْطورِيَّة

رواية

الطَّنْطورِيَّة

صورة الغلاف صورة فتوغرافية لشاطئ الطَّنْطُورَة

الطبعـة الأولى ٢٠١٠

رقـم الإيـداع ٢٠١٠/٩٠٦١
ISBN 978-977-09-2829-3

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكـس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)+
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

رضوى عاشور

الطَّنْطورِيَّة

رواية

دار الشروق

الإهداء

إلى مُرِيد البَرْغُوثِي

الفصل الأول

طَرْحُ البحر

خرج من البحر. أي والله، خرج من البحر كأنه منه وطرحته الأمواج. لم تحمله كالسمك أفقيًا، انشقَّت عنه. تابعتُه وهو يمشي بساقين مشدودتين باتجاه الشاطئ، ينتزع قدميه من الرمل ويعيد غرسهما فيه، ويقترب. كان عاريًا لا يستره سوى سروال أبيض مشدود على خصره بحبل، تلتمع حبات الماء على وجهه وكتفيه. شعر رأسه وصدره وذراعيه استقرَّ لامعًا في البلل. كنت أقف أمامه على الشاطئ، لكنني حين أسترجع المشهد، أرى نفسي في البَيْدَر بين أعواد القمح، أتلصَّص عليه وهو غافلٌ عني. أعرف أن البيادر كانت في الجهة الشَرْقِيَّة، تفصل بينها وبين البحر بيوت البلد والسِكَّة الحديد، وأنني كنت أقف على الشاطئ، تراودني الرغبةُ في الهرب، ولا أهرب.

أنا التي بادرتُه بالكلام، سألتُه فأجاب:

- اسمي يحيى، من عين غزال.

ـ وماذا جاء بك عندنا؟

ـ البحر!

تضرج وجهُه بحُمرةِ حياءٍ انتقل كالعدوى إليّ، أو استبدَّ بي الوَجَل فاستبدَّ به من بعدي. ألقيتُ عليه تحيةً متلعثمة وابتعدت.

ولما ابتعدت، أدرتُ رأسي فلم أره، فتأكَّدتُ أنه لا يراني. ركضتُ إلى رفيقاتي فوجدتهن على حالهن، كأن شيئًا لم يحدث، يثرثرن ويلعبن في الرمل.

حكيت. كان كلامي على ما يبدو سريعًا مُلَهْوَجًا. استوقفنني وطلبن أن أعيد الكلام. فعلت. صرن يتغامزن ويضحكن. قلت: ما الذي يُضحك؟ نهضت ونفضت الرمل عن ثوبي وسرت باتجاه البيت.

لم أدخل البيت. تَجاوزتُه إلى شجيرات الصبار الواقعة في نهاية باحته الخلفية. رحت أقطف من ثمرها حتى ملأت القُفَّة التي كنا نتركها بجوارها. حملتها إلى البيت، وأتيت بسكين وصحن كبير وقرفصت بجوار القُفَّة. أُمسك بالثمرة بين إبهام يدي اليسرى والسبّابة متحاشية دوائر الشوك. وبضربة واحدة سريعة أقطع بالسكين طرفها الأعلى ثم الأسفل، ثم أشق القشرة شقًّا طوليًّا، وبطرف السكين، أزيحها قليلًا، ثم أضع السكين جانبًا وأخلِّص الثمرة بأصابعي من غطائها الشوكي، أنقلها إلى الصحن. عادة ما أقوم بذلك بسرعة تدهش شقيقيّ الأكبر؛ إذ لا يُفلح أي منهما، على محبتهما للثمرة، في تقشيرها. تنغرس الأشواك في أصابعهما فيلعنان ويسبّان وأنا أتفرج عليهما

وأضحك. علّقت أمي وهي تراني منهمكة في تقشير الصُبّار، «يِخزي العين، ما الذي جَدّ؟!».

البحر حدُّ البلد، يُعيرُها أصواته وألوانه، يلفّها بروائحه، نشمّها حتى في رائحة خبز الطابون. لا أذكر متى تعلمت السباحة لأنني لا أذكر متى تعلمت المشي أو الكلام. لاحقًا وبعد سنوات، قصدتُ المدن الساحلية. قلتُ بحر بيروت وبحر الإسكندرية هو نفسه، ولم يكن. بحر المدينة يختلف، تُطلِّين عليه من شرفة عالية، أو تمشين على طريق الإسفلت ويكون البحر هناك، يفصلكِ عنه هوةٌ وسياج. وإذا قررتِ الذهاب إليه تأتينه كالغريبة، تجلسين في مقهى من مقاهي الشاطئ أو تحملين معك زوّادة الغرباء: شمسيةً وكرسيًّا وربما منشفةً ولباسَ بحر. زيارةٌ موقوتةٌ كزياراتِ الضيوف، تقضينها ثم تحملين أغراضَك وترحلين.

بيتنا كالعديد من بيوت البلد، متداخلٌ في البحر. أذهب إليه بلا كُلفة أو انتباه، خطوتان في مائه والغرض أن أَغْمُرَ قدمَيّ فتفاجئني موجةٌ تبلِّل الثوب كله. أقفز متراجعة إلى الرمل، يحوِّلني في غمضة عين إلى مخلوق رمليّ، ثم قفزة واحدة وأغطس كاملة في الماء. أسبح وألعب، وحدي أو مع الأولاد والبنات. نتشارك في الحفر ثم «أنا أنا أنا»... أنزل في الحفرة العميقة فيهيلون عليّ الرمل إلى أن يختفي جسدي، يبقى الرأس وحده يُطلُّ مستثارًا من مدفنه الرمليّ الساخن. مقبرةٌ مجلّلةٌ بالضحك وشيطنة الصغار. أصيح بأعلى صوتي كمن أصابها مس: «صا..يدة! صا..يدة!» أدبُّ على الأرض أقفز وأعود أدبُّ وبيدي الآنية النحاسية التي كنت ثبّتُّها بين الصخور

مصيدةً للسمك، فوقع المسكين فيها. أرفع السمكة الفضيِّة من ذَنَبِهَا، أقول مكايدة: «سمكتي دائما أكبر وأحلى». وتمر كالومض الخَاطرة: هل هو الحظ أم مهارتي في نثر الفُتات المبلل في قاع آنية أغطِّيها بقماشة وأثقبها ثقبًا يتيح للسمكة أن تنزلق داخلها وقد أغواها الطُّعْم؟

وفي بحرنا بئرُ سكّر. بئرٌ من الماء العذب مُسْتَقِرَّةٌ بين أمواج المالح. أي والله بئرُ سكّر، ولصقها تمامًا مجلس العِرسان. نقيم أفراحنا على الشاطئ يظهر الشاب بعد أن يحمِّمُهُ رفاقه ويساعدوه على ارتداء ملابسه الجديدة. يغنُّون له: «طِلع الزين من الحمام... الله واسم الله عليه. طِلع الزين من الحمام... الله واسم الله عليه». يظهر على حصانٍ مجلو كأنه العريس. تسكننا الجنادب، نتقافز مثلها، من زفّة العريس إلى صَمْدَة العروس إلى العمات والخالات المنهمكات في إعداد الطعام، يُغنين:

قــولــوا لإمُّـــه تِــفْــرَح وتتهنّا
تــرُشّ الوسايِد بالعُطُر والحِنّا
والــفَــرْح إلنا والعرسان تتهنّا
والـــدار داري والبيوت بيوتي
واحــنــا خطبنا يــا عـــدوِّي موتي

... ...

نندس بين شباب انتحوا جانبًا من الشاطئ وراحوا يَدْبُكون.

نتوقف قرب رجل كبير تملَّكته نشوةُ الغناء فراح، قبل أن يلتئم الجمع، يغنِّي هكذا لحاله، مأخوذًا بصوته وما يردِّده من أبيات.

يفترش العرسُ شاطئ البحر. يتوسَّع. تنوِّره الزغاريد والأهازيج وحلقات الدَبْكَة ورائحة الخراف المشوية والمشاعل. تَنْفَلِتُ ردّات «العتابا» و«الأوف» من صدور الرجال، أي والله، تَنْفَلِتُ انفلاتًا وتحلِّق، كأنها تصل إلى رب العرش فوق، أو تطير متجاوزةً الجيران في القرى القريبة لتؤنس سكان الساحل كله من رأس الناقورة إلى رفح. ثم يُقبل الفرسان يتبارون في الركض والرقص. كلٌّ على ظهر أصيلته، تَرْجُمُ رملَ الشاطئ رجمًا بحوافرها فينخطفُ جسمُها وقوائمُها مقبلةً وهي تُوَلِّي، الشاب على مَتْنِها يميلُ خفيفًا للأمام كأنه مثلها يطير. يسرق المشهدُ قلوبَنا. ننسى البحر. وربما يكون البحر مثلنا مأخوذًا بالفُرجة فينسى نفسه ويستكين، أو تدريجيًا، يغلبُه النعاس بعد طول سهر. نحن أيضًا نسلِّم مثله لخَدَرٍ لطيف. لا ننتبه إلا حين تسحبنا أمهاتُنا فنتبعهن كالسائرين نيامًا. نسكن في فراشنا، لا نعرف إن كنا في البيت أم على الشاطئ، إن كان ما نراه أو يتردد في أسماعنا واقعُ العُرسِ أو حلمُه في المنام.

البحرُ مقيمٌ في البلد، أما القطار فله أوقاتُه، يظهر ثم يختفي كعامورة الليل. نضطربُ من هدير محرِّكاته حين يقترب. اهتزازُ الأرض عند مروره، احتكاكُ العجل بالسكة الحديد، صفاراتُه المتقطعة، صريرُ المكابح لأنه يتوقّف. يمر القطار بالبلد يوميًّا وله محطة شَرقِيَّهُ في زُمّارين. أحيانًا يحمل أهالي مثلنا، وغالبًا ما يركبه عسكر الإنجليز أو مستوطنون لهم غرض يقضونه في حيفا أو يافا، فيذهبون بالقطار ثم

يعودون. يركب شقيقاي باص أبو عصام مرة كل أسبوع، يذهبان إلى حيفا أول الأسبوع ويعودان عند نهايته، يقضيان معنا ليلة الخميس على الجمعة والجمعة على السبت.

بعد أقل من شهر من لقائي بالشاب الذي انشقَّت عنه الأمواج، زارنا شيخ عين غزال. شرب القهوة مع أبي وطلب يدي للزواج من ابن أخيه. قالت أمي:

- اسمه يحيى.

تمتمت:

- أعرف أن اسمه يحيى.

لم تنتبه أمي. واصلت ما تنقله لي من كلام:

- أبوك يريد أن يعرف رأيك قبل أن يعطيه الجواب. قال لهم نِعْمَ النسب وإن شاء الله يصير خير. أبوك موافق ولكنه يقول إن قبلت رُقَيَّة نكتفي بقراءة الفاتحة، ولا نعقد القران إلا بعد سنة تكون أتمَّت الرابعة عشرة. قالت أمي إنها اعترضت وقالت: لماذا نزوِّجها شابًا من عين غزال؟! فقال أبي: أهل عين غزال أخوالنا، تزوجوا من بناتنا من قبل. ثم إن الولد فاهم ومتعلِّم ويدرس في مصر. هو نطق بمصر وأنا صحت: وتغرّب بنتك يا ابو الصادق؟ قال: لن أغرِّبها. الولد سيُتمُّ دراسته قبل أن يدخل بها. اعترضت عليه مرة أخرى: ما دام الشاب يتعلم في الجامعة فلن يشتغل لا بالصيد ولا بالفلاحة، ولن يقيم في بلدنا أو في عين غزال. سيتوظف في حيفا أو اللِّد، وقد يبعد

أكثر فتأخذه الوظيفة إلى القدس، وبصراحة لا أريد أن أغرِّب بنتي. كفاني أن الولدين متغرِّبان في حيفا ولا أراهما إلا يومًا ونصفًا كل أسبوع. وإن كانت ستتغرب تأخذ أمين، ابن العم يطَيَّح عن ظهر الفرس، أمين أولى، وبيروت أقرب من القاهرة. قال لن يبقى في القاهرة، سيعود إلى عين غزال، وإن توظّف في حيفا تركبين القطار فتصلين لابنتك في أقل من نصف ساعة. قلت: ولو قطع اليهود علينا الطريق؟ فاحمر وجهه واكفهرَّ وقال: فال الله ولا فالك. أنهى الكلام: نحن نشتري الرجل لا موقع عمله. الولد عنده ١٩ سنة ومتعلِّم. والنسب يشرّف ويرفع الراس، عمه شيخ عين غزال، رجل شهم وسمعته مثل الذهب. اسألي البنت، وإن وافقت، على بركة الله.

- ما رأيك؟

كانت أمي تتوجه لي بالسؤال.

لم أقل لها: حتى إن كان يعمل في الهند أو السند... قلت:

- أوافق.

جاءت عبارتي واضحة وبصوت عال. نَهَرَتْني:

- سبحان الله، طَقّ شِرْش الحَيا! قولي اللي تشوفوه، قولي الرأي لأبويّ!

في زيارة تالية حضر شيخ عين غزال وإخوته في جاهة كبيرة من أقاربهم ورجال قريتهم. استقبلهم أبي وعمي وشقيقاي وكبار البلد. قرأوا الفاتحة. تمت الطلبة ويحيى في مصر يواصل دراسته الجامعية،

وكانت أمي وخالتي منهمكتين في إعداد الوليمة وقد ذبح والدي خروفين للمناسبة. أمي تروح وتجيء وتكرر في أذني همسًا: ستسوء سمعتك بين النسوة. سيقولون: عروس كسلانة لا تصلح لشيء. همّي وفرجيهم شطارتك. تسلّلتُ من البيت واتجهت إلى البحر، تربّعتُ على الشاطئ ورحتُ أحدِّقُ في الولد وهو يقترب مبلَّلًا ومذهَّبًا. أسترجع المشهد ثم أعود أسترجعه على خلفية صوت الأمواج والأهازيج والزغاريد الآتية من اتجاه بيتنا:

سبّل عيونُه ومـدّ ايـده يحنُّونُه
غزال صْغَيَّر وكِيف أهلُه يبيعونُه
يـا أمـي يـا أمـي عبِّيلي مخـدّاتي
وطْلِعْتْ مِ الدار ما ودَّعتْ خَيّاتي.

الفصل الثاني

عامُورَة الليل

أتخيَّل أمي في تلك الأيام. أستعيد ما قالته وما لم تقله. أسمعها وهي تكرر على جارة من الجارات ما سبق أن قالته لخالتي: قلت له: تغرَّب بنتك في حيفا يا ابو الصادق! قال: اركبي القطار. سبحان الله، أسافر من بلد لبلد لأرى ابنتي؟! وماذا لو جاءها المخاض في نصف الليل؟! وماذا لو أصابها لا قدّر الله، مرض؟! ثم كيف أركب القطار، ومن يدريني كيف أركب القطار، وكيف أنزل منه، وكيف أذهب من المحطة إلى دارها؟! ثم كيف أركب قطارًا معظم ركابه من عسكر الإنجليز ومن المستوطنين اليهود؟! حتى لو تركوني في حالي ولم يؤذِني أحدٌ منهم، كيف أجرؤ على الاستعلام منهم؟! قد لا يفهمون كلامي حين أسألهم، وقد يسخرون مني، وقد يتقصّدون ألا يدلّوني فأنزل في المحطة الخطأ وأضيع بين البلاد، وقد أجد نفسي في كُبّانِيَّة من كُبَّانِيّاتهم، ماذا أفعل ساعتها؟ أدق الباب على اليهود وأقول لهم رجّعوني بلدنا؟! لماذا يختار أبو الصادق الصعب ويقول اقبلوا ما اخترت؟! لماذا لا تسكن ابنتي بجواري فلا يكلّفني الذهاب إليها إلا

أن أنتعل حذائي وأردُّ شالتي على رأسي فأصلها قبل أن تنتهي من غلي القهوة التي وَضَعَتْها على النار حين أرسلت في طلبي؟! ويقول اركبي القطار!

لا أدري إن كان هذا القلق الذي تمكّن من أمي قلقًا عاديًّا لامرأة لم تغادر قريتها، أم تدخَّل فيه وعمَّقه واقعٌ مثقلٌ بالمخاوف جعلها كما جعل غيرها، تحتمي بكل ما هو أليفٌ ويخصُّها. بدت المسافة الفاصلة بيننا وبين حيفا، وهي أربعة وعشرون كيلومترًا لا أكثر ولا أقل، طريقًا وعرًا محفوفًا بالمخاطر أقرب لرحلة السندباد في بلاد الواق الواق، أو مَكْمَن الغولة المترصِّدة بالشاطر حسن. لم تكن هذه المخاوف إلا لاحتمال أن يسكن صهرُها المُرْتَقَب في حيفا. كان الشاب يدرس في القاهرة، لا تعلم ولا أحد يعلم ما الوظيفة التي سيشغلها وأين. سيرحمها الله من رحلة حيفا وكيلومتراتها الأربعة والعشرين، لن يعمل الشابُ في حيفا، ولن تسكن ابنتُها فيها. ستعيش أمي وتموت دون أن تركب القطار. لن تزور حيفا أبدًا ولن تحملها لا دابة ولا سيارة إلى عين غزال ولا إلى غيرها من القرى المجاورة اللهم إلا الفريديس.

ستذهب إليها في شاحنة.

أحكي لأحفادي عن نَهْفَات جدّتهم. أحكي لهم عن جدّهم أيضًا، أقول: كان يحب أن يناكفها. عادة قديمة تعوّد عليها منذ كانا صغارًا لأنه ابن عمها ولا يكبرها إلا بأربع سنوات، أم أمر مستجد اكتسبه بعد الزواج؟ لا أعرف. كان يشاكسها قاصدًا فتأخذ كلامه على محمل الجد. قال لها اركبي القطار، مؤكد أنه كان يلاعبها، لأن

باص أبو عصام كان يذهب كل صباح من البلد إلى حيفا ويعود في المساء، ولم يكن يركب الباص لا عساكر ولا مستوطنون. كان في البلد سيّارتان «دودج» يمكن استئجار واحدة منهما، تحمل من يريد لا إلى حيفا وحدها بل إلى عكا أو الناصرة، أو القدس أو جنين أو صفد، أو يافا أو حتى غزة، غالبًا لاستقبال الحجاج القادمين من السويس. ولكنه قال لها اركبي القطار. يضحك الأحفاد وأشاركهم، رغم وعي بالمفارقة يكاد يتشكّل غصةً في الحلق. هم لا يحتاجون إلى التعوّد على الانتقال من بلد إلى بلد لرؤية جدتهم أو زيارة أعمامهم أو لحضور عرس أو جنازة. لم يعرفوا نظامًا آخر لحياتهم. لم أتعوّد. بعد كل هذه السنين، لم أتعوّد على حركة الطائرات التي تبدو لي أحيانًا كسماء تحتجب من خلفها السماء. أتمتم لنفسي: الله يرحمك يا أمي، لو مدّ الله في عمرك لعرفتِ زمنًا آخر، يُلَقِّنُك التآلف مع مدن بعيدة تفصلك عنها آلاف الكيلومترات، تتعثرين في نطق أسمائها وتتعلقين بها لأن الأولاد هناك. هل قلت لم أتعوَّد؟ أتراجع عن الكلام. تعوَّدت، لا أحد يستعصي على ترويض الزمان.

قلتُ لهدى حفيدتي، معلِّقةً على حلية فضية بحجم الحُمُّصَة ثَبَّتَتْها في طرف أنفها: لو رأتك جدتك! فنظرت لي متسائلة، لم تفهم إن كان التعليق يشي بالإعجاب أم فيه انتقاد ضمنيّ. ابتسمتُ. قلت كنت أصغر منك بكثير، ربما في الرابعة أو على الأكثر في الخامسة، عندما جاء النَوَر إلى قريتنا. استوقفتني: النَّوَر؟ شرحت، ثم واصلت: نصبوا خيامهم في ساحة البلد، وكانت بينهم امرأة تضع أمامها قُفّة بها قواقع بحرية من ذلك النوع الحلزونيّ الصغير، تقول وَشْوشْوها ثم أعيدوها لي فأقرأ لكم الطالع. بدا ذلك مثيرًا للغاية، هي نفسها

كانت تبدو مختلفة تثير حب استطلاعنا بتلك العلامات الخضراء في وجهها، علامة مُدوَّرة صغيرة على طرف الأنف وأخرى أقرب لخطين طوليين تحت الشفة السفلى، والقرط الهلاليّ المثبَّت لا كالمعتاد، فردتان في كل أذنٍ فردة، بل فردةٌ واحدة مشبوكة في جانب من أنفها. كانت لَكْنَتُها في الكلام تختلف وكذلك ثوبها، يتميز عن أثواب أمهاتنا. تقول إنها تقرأ الغيب وتكشف المخبّا، وإن بإمكانها أن تخبرنا بما سيحدث لنا عندما نكبر. ركض كل منا إلى بيته، من أتت برغيف طابون، ومن حمل لها بيضة، ومن أحضرت تمرًا. قرأت لنا الطالِع، ولكننا وقد عرفنا حظوظنا السعيدة، لم ننفضّ عنها بل بقينا متحلّقين حولها، ثم وجدتُ نفسي أشدها من طرف ثوبها وأشير إلى العلامات الخضراء في وجهها وأسألها:

- كيف لوّنت هذا يا خالة؟

ضحكت،

- لم ألوِّنه!

- وُلِدْتِ هكذا؟!

- هذا وشم، ندقُّه عندما نريد. يجمِّل الوجه، هل تريدين وشماً مثله؟

- نعم أريد.

- وماذا تعطينني في المقابل؟

طرت إلى البيت وأتيت بآنية نحاسية وأعطيتها لها. دقّت لي

الوشم. عدت إلى البيت ورأت أمي الوشم على وجهي، ظلت تصرخ فيّ وتتوعدُني بالضرب. ولما عَلِمَت بأمر آنية النحاس تحوّل الوعيد إلى حيّز التنفيذ فضربتني بالعصا حتى خلّصني منها شقيقاي. وبقيت بعدها لسنوات لا أفهم لماذا غضبت أمي إلى هذا الحد. ولماذا كانت تكرر: الآن سيحسبك الناس من بنات النَّوَر.

ماذا كان تعليق أنيس، حفيدي المقيم في كندا، والذي كان يتابع ما أحكيه لابنة عمه؟

ما لا يرد على بال أو خاطر:

- واضح إن تيتة الكبيرة كانت عنصرية، كلامها عن الغجر كلام عنصري، لا يصِحّ، وضرب الأطفال أيضًا غير مقبول.

وأضاف بالإنجليزية:

- It's politically incorrect!

انفجرتُ ضاحكة، ضحكت طويلًا حتى سالت الدموع من عينيّ. قلت وأنا أمسح دموعي: «مسكينة جدتك، الله يرحمها ويرحم زمانها».

أنتظر عودة مريم من الجامعة. أنتظر انتهاءها من مذاكرة دروسها. أنتظر مكالمات الأولاد. أنتظر نشرة أخبار السادسة صباحًا ونشرة الحادية عشرة ليلًا ثم نشرة السادسة في الصباح الذي يلي. تمر الساعات بطيئة وموحشة كأنني أتحرك في أرجاء مقبرة. ثم يأتي الصيف، أو للدقة يأتي الشهر المعيَّن في الصيف فتدبُّ الحياة في البيت. نضطر إلى تنظيم حركة السير لتحاشي الاختناقات المرورية وتعارض

الأمزجة والإرادات، و«ماذا نطبخ اليوم؟» وما تشتهيه البنت ولن يتذوَّقه الولد، ومن يدخن بلا انقطاع ومن لا يطيق رائحة السجائر، ومن يرغب في متابعة مباراة لكرة القدم ومن يريد نشرة الأخبار، والفريق الثالث الذي يرغب في متابعة الأفلام، ومن ينادي من حجرة داخلية: «اخفضوا صوتكم قليلاً.. أريد أن أنام»، ومن يطلب العون من المطبخ لأنه تسبب في كارثة صغيرة محدودة العواقب. أقول «مُرسْتَان».. أنتبه لارتباك ميرا، حفيدتي ذات النظارات التي تقرأ كثيرًا وتأخذ كل ما يقال على محمل الجد، أشرح: أمزح، وجودكم على قلبي مثل العسل.

ونضحك، نضحك بين القفشات والخراريف واسترجاع النَّهفات، ونملأ ثغرات شهور الغياب بحكاية ما حدث لهم أو لي أو لآخرين من أهلنا ومعارفنا الذين يقيمون في عين الحلوة أو في جنين أو تونس أو بقوا في البلاد هناك في الفريديس أو توزعوا في قرى مجاورة لها، من نعرفهم ونراهم من حين لآخر ومن لم نلتق أبدًا بهم وتصلنا حكاياتهم فنتناقلها لتصبح من صلب المشترك العائلي.

سألتني جارتي، وهي طبيبة شابة عرَّفتني عليها مريم:

- أكبر حفيداتك في الجامعة، متى تزوجتِ؟

- قبل أن أُتِمَّ الخامسة عشرة.

- حرام، كنت طفلة!

غيّرتُ مجرى الحديث إذ لم أرَ مناسبًا تقديم قصة حياتي وكشف الحساب لجارة تعرَّفت على ابنتي قبل أقل من أسبوعين ثم فاجأتني

بزيارة وقالت إنها تريد أن تتعرف عليّ. في الوقت متسع لنتقارب ونتصاحب فتعرف بعض حكايتي أو نكتفي بجيرة مهذبة و«صباح الخير»، و«كيف الحال» في لقاءات الصدفة في المصعد أو بباب البناية، ثم تمضي كلٌّ إلى حالها لا تعلم عن جارتها سوى الاسم والعنوان العريض.

بعد شهر العطلة الذي قد يزيد أسبوعًا أو يُختصر لسبب أو لآخر، أُودِّع الأولاد. يتبدَّل جدول طائرات الوصول بجدول آخر لطائرات السفر إلى أبو ظبي، إلى تورنتو، إلى باريس، إلى اللِّد عبر لارناكا أو أثينا، إلى نابلس عبر عمّان والجسر. نذهب إلى المطار، ثم نعود نذهب، ثم نذهب مرة ثالثة ورابعة وأحيانًا خامسة. أمسى البكاء مُبتذلًا، ربما لأن الدموع صارت تستحي من نفسها، لا مجال. يُقَبِّل الأولاد يدي ويمضون بخطى وئيدة، لا يستديرون لأرى وجوههم مرة أخرى. الأحفاد: نهى وهدى وأمين الصغير وأنيس وميرا يتبعون أهلهم بخطى مسرعة، يديرون أعناقهم المرة بعد المرة: «مع السلامة يا تيتة». أتطلّع إلى وجوههم المبتسمة. ألوِّح. يلوّحون.

أمسك بذراع مريم. نعود معًا إلى البيت. فسحةٌ من هدوء لاستعادة الإيقاع المعتاد، للتأمل، للتحمّم، لترتيب البيت، لترميم علاقاتي مع الزرع الذي أوقن أنه مثل الأطفال يغضب من إهماله.

عادة ما يقتضي الأمر أسبوعين، يستعيد بعدها البيت نظافته، زجاج النوافذ وستائرها الخشبية والأبـواب، السجاد والستائر والأثاث، وأدلِّلُ الزرع وأراضيه فيرضى.

بعدها أستأنف النظام اليومي المعتاد: أستمع لنشرة أخبار السادسة.

أوقظ مريم. نفطر معًا. تذهب إلى جامعتها وأذهب إلى البحر. أعبر شارع الكورنيش وأنزل إلى الشاطئ. أخلع فردتيّ حذائي، وأتوغَّل في الرمل حتى تلحقني نهاية الموجة تبلل أطراف ثوبي. وعندما أصعد إلى الطريق المعبَّد، أمشي ساعة أو أكثر. ثم أعود إلى البيت. أغلي قهوة، أتناولها برفقة الزرع في الشرفة.

غريب، بعد سفر الأولاد، ومع أول فنجان قهوة أُعِدُّه لنفسي، دائمًا مع الرشفة الأولى، تأتيني أمي وصوتها وهي تقول في استنكار: «وتغرّب بنتك في حيفا يا ابو الصادق!» أبتسم وأتمتم بالفاتحة على روحها.

الفصل الثالث

شَبَاط الخَبَّاط

نسمِّي العشب في بلادنا «ربيع»، لأن الربيع حين يدور العام ويَحِلُّ موعده، يكسو به التلال والوديان. طبقاتٌ وصنوفٌ وطوائف من اللون الكثيف أو الخشن أو العميق أو الهشّ أو الناعم أو الحَيِيّ الخفيف، وكلُّها أخضر يجمح بلا قيدٍ عليه ولا يحزنون. تنبت في رحابه زهور البر، تتناثر على هواها في المكان، ولا تملك رغم أحمرها وأصفرها ودرجات البنفسج، إلا أن تبقى منمنمةً غارقةً في بحره.

وحدها شجرةُ اللوز تتسيَّد ربيعَ البلد، ملكةً بلا منازع. لا أحد يجرؤ من جيرانها الشجر. حتى بحر البلد يغار من شجر اللوز في الربيع، والزَبَد أيضًا يغار، فأين لأبيضه المسكين بقلب قُرُنْفُليّ يأخذ الناس خِلْسَةً إلى القُرْمُزيّ الصريح؟ ينوِّر اللوز، يسرقُ قلوَبنا ثم يزيد، يتملَّكُها بثمره الهَش المراوغ، لاذعٌ وسكَّر. لا ننتظر تخشُّبه، نمد أيدينا إلى القطوف القريبة. نتسلَّق الأغصان فنحصل على ما نريد. نأكله عن الشجر أو نحمل زوَّادةً منه في جيوبنا أونرفع أذيال الثوب نلمُّه فيها ونطير إلى البيت.

تقول أمي: «شْبَاط ما عليه رْباط». تقول: «شْباط الخَبَّاط يشبُط ويخبُط وريحة الصيف فيه». وتكون الرياح نشطة والأمواج عالية والبرودة ما زالت براحتها، تقُصُّ العظم، كأننا في عِزّ الشتاء، لكننا نعرف أن آذار على بعد خطوتين من البلد. ثم ينوِّر اللوز، كأنه يفتح الطريق ويسمح، يتبعه نوَّارُ المشمش، ومن بعده تُجَنُّ الأشجار وهي تندفع إلى المنافسة، أزهارُها في الأول، ثم بشائرُ الثمار، فنعرف أن نيسان قد ثبَّت قدميه في الأرض، وأن آيَّار يتبعه ليسوِّي القمح في البيادر والفاكهة على الشجر.

فلماذا اختاروا هذه الشهور الأربعة للحرب والضرب وقتل ما لا يحصى من عباد؟

لم أكن أعرف كل التفاصيل، ماذا حدث في حيفا يوم كذا، وكم قتيل راح من برميل البارود الذي دحرجه المستوطنون على جبل الكَرْمِل في شارع كذا، وأي قرية داهموا في الليل بيوتها وسكبوا الكيروسين على مونتها من طحين وعدس وزيت وزيتون، وأطلقوا الرشاشات على أهلها، ولكنني كباقي صبايا البلد كنت أعرف أن الوضع خطير، لا لأننا كنا نسمع بعض ما يتردد على لسان الأهل فحسب، بل لأن شيئًا ما في الهواء كان مستنفرًا وعلى وشك. على وشك ماذا؟ لا نعرف. تكاد مضافة البلد لا تخلو من لقاءات الرجال، يطيلون السهر فيها إلى ساعات متأخرة من الليل. وأحيانًا يوقظنا أبي من النوم ليطلب إعداد لقمة وفراش للضيوف: «تأخر الوقت. سيمضون الليلة عندنا. قَدِّمْنَ ما قُسِم للعشاء، وبكّرن في الصبح لإعداد إفطار لأنهم على

سفر». فنعِّدُ عشاءً سريعًا، ونعِدُّ الفراش، ونبكِّر في الصباح لنقدِّم إفطارًا للرجال المسافرين.

لا بد أن أبي ورجال القرية علموا بقرار التقسيم في حينه وكانوا في اجتماعاتهم تلك يتدبرون أمرهم في كيفية مواجهته. (كان خط الساحل من جنوب عكا إلى جنوب يافا بما فيها قريتنا يدخل بعد التقسيم في نطاق دولة لليهود)، ولكنني لا أذكر أنني سمعت به أو أن الموضوع كان مُثارًا بين نساء البلد وأقراني من الصبايا. كان الخبر الأول الذي نبَّهني هو ما حدث في حيفا في نهاية شهر كانون الأول إذ حكت إحدى الجارات لأمي عن اشتباكات في حيفا بين العمال اليهود والعرب في مصفاة النفط. قالت الجارة إن اليهود ألقوا قنبلة من سيارة مسرعة فقتلوا منا وجرحوا كثيرين. وقالت إنه في اليوم التالي مباشرة انقض العمال الفلسطينيون بالعصي والسكاكين على العمال اليهود، وثأروا منهم وقتلوا من قتلوا. وقبل الفجر هجم عسكر اليهود على بلد الشيخ وعلى حيّ على مشارفها يسكنه عمال في المصفاة من إجْزِم وعين غزال وقرى أخرى في الناحية مع زوجاتهم وأولادهم. دخلَوا على الأهالي بالبلطات والسكاكين والقنابل والبنادق، وخلّفوا وراءهم الجثث في كل مكان. البعض يقول قتلوا ستين من الأهالي والبعض يقول إن القتلى مئات.

قامت أمي مهرولة فتبعتُها، قصدت دار المُخْتَار وطلبت مني أن أدخل المضافة وأنادي أبي. جاء.

- خير يا ام الصادق؟

- سمعت بما حدث في حيفا؟

- سمعت.

- ألن تذهب لترى ولديك؟!

- ربنا يحميهما، لو كان أي منهما أصيب لجاءنا الخبر من مائة جهة. اطمئنِّي، ما حدث حدث في مصفاة النفط، وهي بعيدة عن مسكنهما وعن المدرسة والبنك. عودي إلى البيت، النساء لا يأتين المضافة هكذا ليتحدثن ببابها مع الرجال!

- ولكن الولدين...

قاطعها

- الولدان إن شاء الله بخير وسيأتيان في نهاية الأسبوع، وإن لم يتمكنا بسبب الظروف فسيأتيان في نهاية الأسبوع القادم.

رجعنا البيت. كانت أمي تبكي وتردد: «يارب، يارب تسترها معي ومع أولادي وتنجِّيهم يا قادر يا كريم». يَغُصُّ صوتُها بالبكاء ثم يرتفع مُوَلْوِلًا: «يامّا يا حبّة عيني تتصاوبوا في الغربة ولا حدا داري... يامّا يا حبايبي». صحت فيها: «بكاؤك فأل سيئ يامّا، وحرام! يغضب ربنا فيصيبهما غدًا ما لم يصبهما اليوم». قلتها بنبرة حاسمة كأنني أنهرها. دار في رأسها الكلام فهدأت وعادت تتوجه إلى السماء: «سامحني يا رب، لا أعترض على قضائك، اِحْمِي الصادق وحسن واجبُرهما وأعدهما من بلاد الغربة سالمين غانمين. ألطف بنا يا رب». وكأن الله سمعها وأغلق الباب على آخر كلام فاعتبرته اتفاقًا. تلفتت فجأة إليّ كأنها انتبهت أخيرًا أنني أسير بجوارها وقالت: «واللهِ

والله، لن أعطيك لابن عين غزال إن لم يتعهَّد بالسكن بعيدًا عن حيفا. والشرط نسجِّله في العقد!».

وفي انتظار يوم الخميس، كتمت أمي مخاوفها في صدرها، خوفًا من خرق اتفاق ضمني بينها وبين العليّ القدير، كأن ما قلته لها بشأن الفال لم يكن من عقلي بل إلهامًا منه ينقل لها مشيئته وشروطه. التزمت المسكينة بالشروط وسارت على صراط من الحرص، لا تبكي ولا تشتكي ولا تشير للموضوع، فقط تزداد شحوبًا يومًا بعد يوم، فلما عاد باص أبو عصام من حيفا، راحت دموعُها تنسال من عينيها بصمت. ثم أتى صبي من ناحية الطريق العام يُبَشِّر ويقول إنهما وصلا في سيارة أنزلتهما على مداخل القرية، عند «الباب»، «رأيتهما بعيني» هبَّت أمي واقفة. غسلت وجهها وبدّلت ثوبها وخرجت إلى باحة الدار. لحق بها أبي. رأتهما مُقبلَين من بعيد ولكنها بقيت هادئة كأنها تنتظر أن تقطع الشك باليقين. فلما صارا على بعد خطوات منها يمكنها أن تلمسهما بيديها، أطلقت زغرودة مجلجلة. وإذا بأبي ينزل بكفِّه على وجهها بصفعة مدوِّية أعقبها صياح ساخط: «استحي يا مَرَة، مائة رجل استشهدوا في أسبوع واحد وأنت تزغردين!» انقطع الكلام. الحركة انقطعت. توقَّف أخواي عن المشي. تسمَّرتُ مكاني. وبدت أمي مبعثرة لا تدري ماذا تفعل بهذه الصفعة الأولى التي تلقتها من ابن عمها. ثم تحرك المشهد: واصل أخواي المشي باتجاه البيت. قبّلا يد أبيهما وقبل أن ينتقلا إلى صدر أمهما المتهيئة لضمِّهما، قال أبي:

- الحقا بي في المضافة لتنقلا إلى الرجال أخبار حيفا.

قالت أمي بصوت هامس:

- والعشاء؟

سأل أبي:

- جائعان؟

- نأكل ثم نذهب إلى المضافة.

- لن تموتا جوعًا، أتبعاني إلى المضافة، بعدها تأكلان كما يحلو لكما.

مضافة البلد في بيت المُختار، يجتمع فيها الرجال للحديث والسمر ولمناقشة المستجِّدّ من الأمور وأحيانًا لحل النزاعات. وفي المضافة يتحلّقون حول الراديو لمعرفة الأخبار. النساء لا يدخلن المضافة فلا يصلهن من الأخبار إلا ما يتفضَّل الرجال بنقله لهن، فيتناقلنه بعد ذلك فيما بينهن. وحين وقعت الواقعة، انهار السقف على رءوس الجميع، لا فرق بين رجال ونساء، كبار أو صغار أو حتى رضّع يعتمدون على حليب أمهاتهم لمواصلة الحياة. قلت لا فرق. أتراجع عن الكلام. أعيد النظر فيه. كان هناك فرق. نعم كان فرق.

بعد أسابيع قليلة من زغرودة أمي والصفعة التي أعقبتها، وصل البلد لاجئون. كانت قِيسارْيَة الواقعة على البحر مثلنا ولكن جنوب البلد، سقطت وأُرغم أهاليها على تركها. استضافت قريتنا بعض العائلات. نصيبنا من الضيوف أرملة لها طفلان، طفل في الرابعة من عمره وصبية تصغرني بعام. ستنقل لي وِصَال، صاحبتي الجديدة وأول من تعرَّفت عليه من اللاجئين، السيناريو الذي ستعيشه بعد ثلاثة أشهر قرى الساحل وغير الساحل. لم يكن السيناريو متطابقًا في

كل تفاصيله وإن تطابق في خطوطه العامة. قالت صاحبتي إن عسكر اليهود حاصروا البلد وهاجموها وطردوا الناس من بيوتهم:

- أمي قالت أين نذهب؟ لا عائل لنا يأخذنا إلى بلد آخر ويدبِّر لنا شئون معيشتنا. أصرَّت أن نبقى في البيت. بقينا. وعرفنا أن آخرين فعلوا مثلنا. بعد أسبوع من دخولهم البلد، أخرجونا من البيوت ودمّروها وأرغمونا على الرحيل. فعلوا ذلك في المسلمين والمسيحيين.

استغربت:

- وهل في بلدكم مسيحيون؟
- نعم، إسلام ومسيحية ويهود.
- ويهود؟
- نعم.
- في الكُبّانِيَّة أم في البلد؟
- في البلد.
- كثير؟
- لا، قليل.
- وهل طردوهم؟
- جاءوا ليعطوهم البلد فكيف يطردونهم. هل في بلدكم يهود؟
- كان فيها يهودي واحد ثم انتقل إلى زُمّارين، كُبانِيَّتُهُم في زُمّارين اسمها زِخْرُون يعقوف.

- كبيرة؟

- أي نعم كبيرة. شرق البلد. بيننا وبينها حوالي ساعة مشي.

- بلدنا كمان بنوا فيها كُبَّانِيَّة، يروحوا لها في عشر دقائق مشي. بنوها في حيازة البلد، على الأرض الزراعية. بنوها من سنين قليلة، اسمها سدوت يام. لم أزرها.

- ولا أنا زرت زُمّارين، لكن أبي زارها، لأنه كان فيه مشكلة، والمخفر والمحكمة عندهم. وفيه ناس من البلد تبيع السمك هناك وأحيانًا البيض، وأحيانًا يشترون ملابس من عندهم لأنها رخيصة. لكن أبي يقول إنه منذ الإضراب الكبير في سنة الستة وثلاثين هناك قرار: لا نشتري منهم ولا نبيع. هم أحيانًا يأتون عندنا ليسبحوا في البحر. أو تكون فيه مشكلة فيأتي مختار الكُبّانِيَّة يزور مختار بلدنا. متى ترجعون؟

- أمي تقول سنرجع قريبًا. لا أصدِّقها.

عرّفت صاحبتي على بنات البلد. أخذتها إلى بئر السكر ومجلس العرسان والجزر والقصر المبني على واحدة منها.

لم تندهش.

قالت:

- بلدنا أكبر. الدور أكبر والحارات أكثر وعندنا بساتين أكثر. وعندنا آثار.

- وفي بلدنا كمان!

رافقتها إلى البُرج لكي ترى بنفسها.

لم تندهش.

قالت:

- عندنا آثار أكثر وأحسن. عمدان رخام بيضا مثل الحليب ومعرّقة بلون غريب كأنه دخان. ولو حفرتي في الرمل، تلاقي بلاط وتصاوير كأن بطن الأرض مبني ومبلّط ومزيَّن بالتصاوير.

- كيف؟

- مرة شاب من بلدنا حفر لقي رسمة بجعة ملوّنة، من حجر صغير ملصق في بعضه. بعدها قال للشباب، احفروا أكثر، لقوا بلاط فيه تصاوير بجع وبط وزهور وورق شجر ألوان. شيخ من مشايخ البلد قال هذه آثار من زمن بيزنطة ويمكن من قبلها، ولا أحد منا عرف معنى زمن بيزنطة. قال الشيخ للشباب أكيد فيها لَقَايَا، لو عرف اليهود يأخذون القرية. لا من شاف ولا من دري. تستّروا على الموضوع.

- في بلدنا كمان، فيه شاب عوّام قال إنه غطس في البحر ولقي سفينة كبيرة، ليست من السفن الجديدة التي انكسرت على الشط. سفينة قديمة وفيها أغراض غريبة وملوّنة. لم يقل إلا لأخي وأخي قال لي، ولم أقل لأحد إلا لك. ربما لهذا السبب لم يأتوا إلى بلدنا.

- والله نحن لم نقل لأحد، ولم نخبرهم ولكنهم دخلوا البلد واستحلّوه.

بدت على وشك البكاء، قلت:

ـ لما ترجعوا بالسلامة سآتي لزيارتك في بلدكم.

ثم استدركت:

ـ لو سمح يحيى.

ـ من هو يحيى؟

ابتسمت.

ـ العريس. من عين غزال. جاء أبوه وأعمامه وطلبوني من أربعة أشهر، وقرأوا الفاتحة مع أبي.

ـ ولماذا لما يدخل بك؟

ـ أبي قال تتم الرابعة عشرة قبل كتب الكتاب. يحيى يدرس في مصر، في القاهرة، هل سمعت بالقاهرة؟

قلتها بزهو وأنا أؤكد على كلمة القاهرة بتكرارها وبنطقها بنبرة أعلى من باقي الكلام، وأستبق نظرة الانبهار في وجه صاحبتي.

لم تنبهر.

قالت:

ـ لن أتزوج إلا عندما نعود إلى بلدنا. كيف تتم الطُّلبة.. وأين نستقبل الجاهة، ونحن هكذا بلا دار؟!

كان المثل الذي تقوله أمي دقيقًا: «شباط الخَبَّاط يشبُط ويخبُط وريحة الصيف فيه».

وأي صيف؟!

الفصل الرابع

كيف؟

كان أبي، مثله مثل باقي أهل القرية، يستمع إلى الراديو في المضافة. لم أر هذا الجهاز أبدًا فلم يتح لي دخول المضافة إلا وأنا بنت صغيرة، ولم يكن الراديو وصل بعد. ولكنني كنت أسمع أبي يقول لأمي: سمعت من إذاعة القدس كذا، إذاعة القاهرة أعلنت كذا. أو يعلِّق على ما ينقله له أخواي قائلًا: غريب لم يعلنوا ذلك في الراديو.

في زيارتهما اللاحقة لواقعة الصفعة، حمل أخواي معهما بناءً على طلب أبي، علبتين كبيرتين من الكرتون. فتح الأولى وأخرج منها جهازًا خشبيًا كبيرًا وضعه في صدارة البيت. ثم فتح الثانية وأخرج صندوقًا أسود، قال هذه هي البطارية. لا يشتغل الراديو بدونها. أوصلها بالجهاز ثم أدار زرًّا فيه فانبعث الصوت منه، زَفَر زفرة ارتياح وقال: الآن يمكنني أن أستمع للأخبار كل صباح في رَوَاق.

بدا لي الجهاز مثيرًا بحجمه الكبير وبالأصوات التي تصدر عنه: خرفشة غريبة ثم صوت واضح لشخص يتحدث كأنه معنا في الدار.

ولأول وهلة التفتت أمي مرتبكة ثم أحكمت شالتها على رأسها كأن الاحتمال الغالب أن صوت الرجل الغريب الذي دخل البيت فجأة يعني أنه موجود فيه ويراها. بعدها ارتفع صوت امرأة تُغنِّي. قطعها أبي بحركة ما بأصابعه محرِّكًا زرًّا في الجهاز، فأعقبه رجل آخر يتحدث. قلت لأبي:

- يمكن أن نسمع الأغاني من الراديو؟

- نعم، لكننا لم نشترِه لنستمع إلى الأغاني، بل لنعرف ما يجري في البلاد!

لم يخطر ببالي لحظتها أن ما قاله أبي هو اختيار لما يسمعه. لم أربطه بإرادته وتفضيله بل بوظيفة الجهاز الخشبي. الأغاني مثل حلقات الدَبْكَة وردّات العَتابا والأوف، للأعراس والمناسبات، والراديو مثل المضافة في تلك الأيام، مخصصٌ لمعرفة ما يجري من وقائع وأخبار. ومع الجهاز الخشبي الكبير وصوت الرجال (لم يكن صوتًا واحدًا الذي ينبعث منه بل أصوات متعددة يَسهُل تمييزها)، دخلت البيت عبارات جديدة بعضها مفهوم وواضح (الملوك والرؤساء العرب، العصابات الصهيونية، يافا، تل أبيب)، وبعضها غامض (كأن يشير المتحدث إلى الهيئة العربية العليا أو جيش الإنقاذ أو يقول الهاجاناه والإرجون)، عبارات تقتضي شرحًا من أبي، فأنصت لكلامه وتنصت أمي، ثم يطول الشرح فتقوم أمي لأشغالها، لأنها فقدت الخيط وأضاعتها التفاصيل أو لأنها ملَّت الكلام. سوف تدخل البيت أسماء جديدة، تتردد بعد ذلك على لسان أهل البلد يتعلَّقون ببعضها ويخشون البعض الآخر أو يتوجَّسون منه، ولكنهم في الحالتين ينشغلون بما قالت وما

فعلت، كأن هناك علاقة مؤكدة وإن كانت غامضة بالنسبة لي آنذاك، بينها وبين ما يحدث لنا.

احتل الجهاز الخشبي الكبير مكانةً في البيت، كان موضوعًا في الصدارة يلفت انتباه الزائر، وكانت الأصوات المنبعثة منه ما دام أبي في الدار، متصدرةً مثله. ولكن أمي لم تكن تعيره اهتمامًا. ربما كانت تثقل عليها تلك الأصوات بكلامها التي تكرر أنها لا تفهمه. هل كانت فعلًا لا تفهمه أم كانت تدرء عن نفسها مزيدًا من المخاوف التي لا طاقة لها على حملها؟ تجلس مع أختها وتتبادلان الشكوى والهموم. تقول لخالتي: قلت له ما الداعي لاستمرار الولدين في حيفا؟ استنكر كلامي وقال: تريدين أن يقعدا معك في الدار؟! قلت: يشتغلان في الأرض، أو يشرفان على مراكب الصيد، وعندنا بدل الشختورة خمسة، يتابعان أمرها مع رُيسا المراكب. زجرني، قال: هل علمتهم في المدارس ليفلحا الأرض أو يبيعا السمك؟! وما لها الفلاحةِ في الأرض؟! وماله صيد السمك؟! فتهوِّن عليها خالتي ويكون التهوين مدخلًا لعرض شكواها: على سلامته أبو الصادق، الله يرضى عليه ويحميه، مالي علينا الدار. أبو الأمين مثل الطير لا تعرفي متي يحطّ ومتى يأخذ بعضه ويطير. في الستة وثلاثين قلنا ثورة وعليه حكم وخايفين من الإنجليز. وبعدها؟ يقول جهاد، هو الجهاد من غير نهاية؟! والله تعبت يا زينب ياختي. يوم في الدار وألف في السفر. ويقول أمين لازم يتعلم. وهو لازم يتعلم في آخر الدنيا، وأبقى أنا والولد الصغير وحدنا؟! أمره عجيب أبو الأمين! بلدنا وموجودة، وربنا منعم ومتفضل، ما الداعي لهذه الشحططة؟! تتبادلان الأدوار،

تشتكي زينب فتهوِّن عليها حليمة ثم تشتكي حليمة وتترك لأختها أن تخفف عنها، ويستمر الحديث: «ويا زينب ياختي... ويا حليمة ياختي...».

هل تخيَّلت أمي وخالتي وهما تتسامران في جلساتهما اليومية أن ما حدث لأهل قِيسارْيَة يمكن أن يحدث لهما؟ أرجِّح قياسًا على نفسي وحديثهما اليومي أن قِيسارْيَة بدت بعيدة، بلد آخر لم نره أبدًا أَلَمَّتْ بأهله كارثة فتعيّن علينا أن نشفق عليهم ونساعدهم. وواقع الأمر أن المسافة بيننا وبين هذا البلد الآخر لم تكن أكثر من نصف المسافة بيننا وبين حيفا. ١٢ كم، عشر دقائق بالسيارة. ولا بد أن الرجال وربما بعض النساء، كانوا منتبهين لهذه الحقيقة. لا أذكر مثلًا متى عرفت أن الرجال يُنَظِّمون أنفسهم لمواجهة الخطر، وأنهم يشترون سلاحًا أو أنهم شكّلوا لجنة لتنظيم حراسة البلد. ولكنني أذكر أننا نحن الصبايا صرنا نتفرج على أهالينا وهم يتدربون على التصويب فوق الأسطح. يضعون حبة برتقال على صندوق أو كومة ويُصَوِّبون عليها. وعبارة قالها أبي، في أي سياق، متى ولماذا؟ لا أذكر، قال: يأتيهم السلاح من كل مكان، ونحن نحفى للحصول على بنادق، مرة من صيدا ومرة من دمشق ومرة من المنصورة. بنادق قديمة، لا تعمل إلا لو حالفنا الحظ.

ولكن «شْباط الخَبَّاط» على ما فيه كان هيِّنا ولطيفًا قياسًا بالشهور اللاحقة. عندما نوّرت أشجار اللوز كان البلد كله يعرف أن الحرب تدور هنا وهناك، وأن الحاجة للسلاح صارت كشربة ماء، ضروريةً للبقاء. أصبح الحديث مشاعًا حتى بين نساء القرية عن شراء السلاح.

وصارت أسماء العصابات الصهيونية وزعمائها، أسماء غريبة وصعبة النطق، صارت متداولة بينهن فيعرفن من هم الهاجاناه.. ومن شتيرن ومن إتسيل.. ومن هو بن جوريون. ثم وصل البلد خبر وقوع محمد الحنيطي قائد حامية حيفا ورفاقه في كمين وهم عائدون من لبنان بشاحنتين من السلاح، وبعد أسبوعين سقطت حيفا. لم ينتبه أحد حتى نحن الصبايا والأولاد، أن اللوز اخضرّ على الشجر.

كان الوقت ليلًا حين سمعنا دقًّا على الباب. هبّت أمي مفزوعة، فمن يأتي في وقت متأخر كهذا إلا ليخبر بسوء؟ اندفعت إلى الباب وتبعتها فإذا بشقيقيَّ أغبرين أشعثين. كانا وصلا من حيفا مشيًا على الأقدام عبر الأحراش والسكك الجبلية الملتفّة. ولم يقل أبي هيا إلى المَضَافة لتحكوا للرجال أخبار حيفا. كانت أخبارها وصلتهم قبل يومين، يومان كاد البيت يشتعل من اضطرام واحتقان كل من فيه. أمي لا تكفّ عن الولولة على ولديها اللذين لم يظهرا بعد سقوط المدينة، وتقول إن قلبها يحدّثها أنها لن تراهما ثانية. تتسرّب إليّ مخاوفها فأترك مخاوفي جانبًا وأنهرها وأكرر عليها أنها «تقاطع وتفوِّل عليهما»، ولكنها على غير المرة السابقة لا تنصت لكلامي ولا تقدر على عقد أية اتفاقات مع صاحب الكون ومدبِّر الأمور. تواصل بكاءها السابق للأوان. ويبدو أبي كحقل ألغام، تنفجر ألغامه لغمًا وراء لغم في وجه أمي ووجهي لأن توزيع نوبات الحراسة وتدريب من لم يتدرب من الشباب، لا يكفيه متنفسًا لقلقه على مصير ولديه ومصير البلد.

كيف سقطت حيفا؟ سيتردد السؤال في طول البلد وعرضه. سلّمها الإنجليز لليهود؟ كيف؟ ماذا حدث للحامية؟ ما الذي جرى

ليخرج الناس جماعيًّا إلى الميناء لمغادرة المدينة؟ لا يمكنني الآن أن أنسل الخيوط من بعضها لأعرف ما الذي سمعته من أبي أو أخويّ بعد عودتهما، وما الذي وصلني مما تناقلته البنات عن آبائهن، وما حكاه لي عمي لاحقًا في صيدا، ثم ما حصّلته في سنوات عمري اللاحقة. ولكنني أعرف أن سقوط عاصمة القضاء كان له وقع الصاعقة في البلد، صاعقة تضرب الأرض والسماء فتسري في المكان هِزَّة تشمل الجميع كأنما ينتظرون ليعرفوا إن كانت السماء تقع على الأرض فتشقها شقًا أم تمر الكارثة فيبقى الكون على حاله.

سقطت حيفا، وبعدها بأسبوعين استشهد عبد القادر الحسيني فبدا البلد ـ لا المضافة وحدها ـ بيتًا مفتوحًا للعزاء. عزاء ممتد لأن جنازة عبد القادر الذي لن أتخيَّله ولن أرى صورته إلا بعد سنين، ستشيَّع في القدس وقد وصلت المشيعين تفاصيل مجزرة دير ياسين. سقطت القسطل واستشهد عبد القادر وهو يدافع عنها، وفي فجر اليوم التالي هاجموا دير ياسين المجاورة للقسطل وذبحوا من ذبحوا من أهلها. بعد ثلاثة أيام سقطت صفد. وثلاثة أيام أخرى وسقطت يافا. وبعد سقوط يافا بثلاثة أيام سقطت عكا. ما الذي حدث في صفد؟ سكانها أضعاف أضعافنا، وبلدهم، يقول أهل بلدنا، منيع يقع على أربعة جبال، وكانوا صامدين، ما الذي حدث لتسقط صفد في ليلة واحدة؟ لماذا انسحبت منها الحامية؟ لماذا انسحبت السَريَّة الأردنية؟ والسَريَّة السورية لماذا انسحبت؟ أين ذهب جيش الإنقَاذ؟ ما الذي أخرجَ الأهالي من دورهم؟ وهل يمكن أن تسقط عكا؟ كيف تسقط عكا وهي عكا؟ لم تكن تلك أسئلتي فلم أكن

إلا بنتًا في الثالثة عشرة من عمرها تسمع ما يتردد في بلد بدا كقنبلة موقوتة يعي أهله دقاتها التي تقترب بهم من لحظة الانفجار. ولكن هل تنفجر فينا أم فيهم؟ الشباب يؤكدون أنها تنفجر فيهم. يقولون أعددنا أنفسنا والباقي على الله. يقولون إن الجيوش العربية ستدخل المعركة. لن يترك العرب فلسطين تضيع. أبي يكرر كلامهم وإن كان يبدو أقل اندفاعًا، أو للدقة بدا مندفعًا ومقيدًا بتوجس لا يبدو إلا في انفجاراته. منذ وصول أخوَيّ من حيفا أدرجهما أبي في نوبات الحراسة. لم يكن أي منهما مدربًا على حمل السلاح. تدربا ثلاثة أيام ثم صارا يتناوبان كباقي الشباب، أحدهما يعسكر عند المدرسة وراء السكة الحديد، شرق البلد، والثاني ناحية الكَراكون في الجهة القِبلية بالقرب من الشاطئ.

يصعب عليّ الآن نقل مشاعر أهل البلد، ربما لأنني ساعتها كنت أعيش حالة لا تسمح سني بالإحاطة بها. ربما تساءلت مثل باقي الناس! متى يأتي علينا الدور؟ ربما كنت مثلهم أتشبث بقشة الغريق وأردد مثل الشباب أن عين غزال وإجْزِم وجَبَع الأصغر من صفد ويافا وعكا والتي لا يحرسها سوى أهاليها، صمدت وصدّت العدوان مرة بعد مرة، وأننا مثلهم سنصد أي محاولة لاستباحة قريتنا. هل سنقدر؟ أقطع السؤال. أذهب إلى البحر. أتربّع على الشاطئ. أتابع بالنظر المكان:

الجزر الصخرية راسخة في مواضعها تآلفت مع صخب الموج وحركة الزبد والرذاذ. وتكون السماء غيومًا على غيوم، متراكبة كألحفة سميكة زرقاء داكنة أو رمادِيَّة تُسلم للسواد، تنز رها بغتة رقعةُ فِضَّة.

والبحر من تحتها يشبهها، موزعٌ بين زرقة مسودَّة عميقة ومَشْحات الأبيض وموجات تعلو باتجاه السماء كأنها تناديها أو تلاغيها أو تعترض منبِّهة أنها هناك، فتدفع أمامها ببركة واسعة من فِضَّة خالصة، تذوب تدريجيًا وتختلط بأزرق رماديّ خفيف يلامس رمل الشاطئ.

أو تكون الشمس على غياب، تتصدر مدوَّرةً كحبة برتقال، كأنها حين تهبط قليلًا لن تسقط في الغروب، بل تستقر آمنةً كاملة في إحدى الجزر. والسماء من خلفها لها لون غريب يهبط تدريجيًا بلا كُلفة من الأحمر الصريح إلى البرتقاليّ الداكن إلى لون مُحيِّر لا هو بنيّ ولا لون الرصاص، يلتقي خلسةً بالبحر من وراء الجزر، ويترك للشمس أن تلوِّن الماء من أمامها فتلَوِّنُهُ على هواها فيبدو مرآة عجيبة، ورديةً هنا وفضيةً هناك، وخطوطًا ومَشْحات من الرصاصيّ يتموّج ساكنًا بين هذه وتلك.

لا أفكِّر فيما كان.

لا أفكِّر فيما يكون.

حتى ابن عين غزال بدا بعيدًا، أبعد من قرص الشمس المعلَّق هناك.

الفصل الخامس

عمي وأبي

أعلن عمي أنه سيرحل.

اشتعلت الدار.

كانا قريبين تلازما أكثر من المعتاد في القرى حيث يتلازم الإخوة في السكن والعمل وإدارة شئون حياتهم. ولما تزوّجا عقدا في اليوم نفسه ودخل كلٌّ بعروسه في ذات الليلة، أبي أخذ زينب وعمي الأصغر بعامين أخذ أختها حليمة. تُعَلِّقُ أمي: مثل «طيزين في لباس»، لا يفعل أحدهما شيئًا إلا ويفعله الآخر، حتى عندما اشتركا مع الثوار في سنة الستة وثلاثين كانا يذهبان ويجيئان معًا، ويطوفان في البلاد معًا. ويوم فتّش الإنجليز الدار بحثًا عن السلاح وسكبوا الزيت على الكاز، والكاز على الزيتون والطحين والعدس، كانوا يبحثون عن الاثنين، سألوا عنهما بالاسم، قالوا إن لديهم خَبَرِيَّة بأن الاثنين يخبئان سلاحًا. وكانا خبآ السلاح في الشَخْتورَة والشختورة أقلعت في البحر. تضحك أمي على ما لم تضحك عليه ساعة وقوعه حين داهم

عسكر الإنجليز البيوت بحثًا عن السلاح، والكل يعرف المترتبات: بندقية واحدة ثمنها حكم بالإعدام. الله أكبر! ولكنها تسترجع الواقعة وتضحك. خبأنا البواريد في المركب والمركب أقلعت في البحر. ثم تتنهد: بعدها أبوك ربنا هداه والتفت للزراعة وقعد في البلد. لكن عمك يوم في البلد وعشرة مسافر، يوم في حيفا ويوم في صيدا ويوم في بيروت. مسكينة حليمة، لا عمل نفع ولا بخور.

هل كنت أحب عمي لأنه كان يدللني؟ يُعلن أنني أغلى على قلبه من الأولاد الأربعة، ولديه وولديْ أخيه. يكرر! «ربنا أكرمنا بهذه البنت، سبحان من صوّر». أصر أن أدخل المدرسة. وفاجأ أبي بأنه يريدني أن أذهب إلى كلية المعلمات في القدس، ما إن أُكْمِل الصف السادس والأخير في مدرسة البلد. ساعتها حدثت مشادة بينه وبين أبي، لكن الزلزال كان مؤجَّلا، لم يحدث إلا في تلك الليلة حين أعلن عمي أنه سيرحل.

- يا عيب الشوم، ترحل والبلد مهدّد والشباب يحرسونه ويستعدون بالسلاح.

- لا فائدة!

- لولا أنني أعرفك كما أعرف نفسي لقلت أخي تملّكه الخوف كالنسوان.

انفجر عمي وبدا صوته عاليًا، ولكنه حين واصل الكلام كان الصوت يرتفع أكثر وأكثر فيصل إلى بيوت القرية ويتعداه إلى الشاطئ وربما الجزر، والبحر فيما وراء الجزر.

- حيفا سقطت في يومين، راحت في يومين اثنين يا ابو الصادق. كنتُ هناك، وأنت تعرف. مدينة محاصرة من الجهات الأربع، عشر مستوطنات تطوِّقُها. وفي داخل المدينة، هم يسكنون الجبل ونحن في السهل، ومعهم مدافع ونحن نحتاج أن نسلك كالحواة لنحصل على السلاح. وصلتنا ٢٥٠ بندقية من الشام، لم يستلم رشيد الحاج إبراهيم منها سوى ٨٩ لأن الباقي كان عاطلًا وقديمًا. رفض استلامه. ومع ذلك فعلنا كل ما نستطيع، كل ما نستطيع، طوال خمسة أشهر. كرّ وفرّ وشجاعة واستشهاد. وسقطت حيفا في يومين. والقرى تنفرط كحبات المسبحة. سرور بُرْهُم قال للحنيطي نقضي الليلة في عكا ونؤمِّن طريق السلاح إلى حيفا كي لا نقع في كمين. أراد الحنيطي الوصول بسرعة وتحدّث في التليفون، قال واصلين ومعنا السلاح.

صرخ عمي أكثر:

- فيه عاقل يقول في التليفون واصلين ومعنا السلاح؟! الله أكبر. ماتوا وراح السلاح. لا سلاح ولا قيادة. الحاج أمين يقول: يمين واللجنة القومية تقول: شمال. ٧٠٠ جندي من الجيش الأردني قرب المدينة يتابعون ما يحدث ولا يستطيعون التدخل. هل تتوقع أن يتدخّلوا وقائدهم إنجليزي؟! المسألة واضحة كالشمس. معهم سلاح والإنجليز معهم وهم مدربون ولهم قيادة متماسكة، ونحن...

- معنا ربنا لأننا أصحاب حق.

- أصحاب حق، نعم. الله معنا، أشك.

علا صوت أبي:

- أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم، تكفر فوق البيعة!
- حيفا سقطت في يومين!
- أعرف أنها سقطت في يومين، لكن المجاهدين ما زالوا يقاومون في السهل والجبل من الجليل إلى غزة، فلا يمر يوم واحد دون أن يحققوا انتصارات. والجيوش العربية ستتدخل، حتماً ستتدخل.
- يا خوي المكتوب ينقرى من عنوانه. لن يتدخّلوا، وإن تدخّلوا سيهزمون.
- والحل نهرب؟!
- الحل نستعد، سنة، اثنين، ثلاثة وإن اقتضى الأمر عشر سنين. ربنا عرفوه بالعقل يا ابو الصادق. يدخلون البلد ويدمرونه ويقتلون أهله وييستحلّونه. الحل نحمي الأرواح ونرى ما الذي نفعله بعد ذلك.

أبي يضرب كفًا بكف وقد احتقن وجهه وامتزج أحمره بزرقة مكتومة. خالتي تبكي. أمي قامت تبحث عن بخور لأنها أيقنت أن عينًا أصابتها. تنفرد بالحديث بصوت مسموع وهي تروح وتغدو وتفتِّش هنا وهناك فلا نعرف إن كانت تكلمنا أم تكلم نفسها، ثم تصيح فجأة: أين ذهب البخور؟!

ثم جاء عود الكبريت الثاني:

ـ سآخذ زينب وحليمة ورُقَيَّة وعِزّ.

ـ مجنون انت؟!

ـ عاقل يا ابو الصادق. سآخذ الولايا.

ـ لن تأخذ أحدًا!

ـ المعركة خاسرة فلماذا نعرِّضُهم للموت؟! سآخذهم إلى صيدا وأؤمِّنُهم عند أصحابي وأعود.

ـ عيب عليك يا خوي، أنت من دون الشباب تقول استسلموا؟! والله عيب!

ـ استحلّوا حيفا في يومين، بلدنا سيسقط في ليلة واحدة.

ـ حيفا نصفها يهود، وكانوا متمترسين في الكرمل، هم على الجبل ونحن في السهل. وضعنا يختلف. سيحمي الشباب زمام البلد، والحراسة موزعة من الشمال والجنوب والشرق. والقرى التي في الجبل عرب لا يهود. أهل عين غزال وجَبَع وإجْزِم صدّوا الهجوم ولسنا أقل منهم. ثم لسنا وحدنا كل القرى المجاورة مستعدة للمشاركة في نجدتنا.

لطم عمي خديه. لطم كالنساء. علا نشيج أمي وخالتي. صاح أبي مسلِّمًا:

ـ الله يسهِّل عليك، ارحل أنت وزوجتك وابنك. ولكن أنا حر في أهل بيتي.

ـ وهل صرنا بيتين يا ابو الصادق؟!

- نعم صرنا بيتين!

فزّ عمي واقفًا، قال لخالتي:

- قومي ياحليمة. سنسافر صباح الغد.

قامت خالتي وتبعتها أمي. كانتا تنتحبان. وأنا وعزّ في أذيالهما لا نعرف ما العمل في هذا الموقف الذي لم يرد علينا شبيهٌ له منذ وعينا. لا تتخيل أمي أن أختها الصغيرة ستنتقل للإقامة في صيدا الأبعد من حيفا وعكا بل وربما القدس. وخالتي مفزوعة لمفارقة أختها التي لم تعش يوما إلا في ظلها. ظلتا تبكيان حتى دخل عمي الغرفة ونهرهما، ثم توجه لخالتي بالكلام منبّهًا أنها قد تبقى في صيدا مع عِزّ لعدة شهور. اعملي حسابك. علا نشيج الأختين أكثر. قال: يكفيني غيار واحد. سأعود بعد يومين. ياللا فِزّي أنت وهي، بلا دلع نسوان!

في صباح اليوم التالي ودَّعناهم على الشاطئ. لم يذهب أبي لوداعهم. بقي غاضبًا من أخيه وظل طوال الأيام التالية يكرر بمرارة: «عَرَّى ظهري، الله يسامحه».

لم تنته الأزمة العائلية. ظهر عمي بعد أربعة أيام وحده قادمًا بالبحر. وقال إنه جاء ليأخذ الأطفال والنساء. أبي رفض. رفع على عمي السلاح. فمضى عمي بالمركب التي أتى بها من صيدا ومعه من أراد الرحيل من أهل البلد. نساء وأطفال وبضعة رجال. كنت شاهدة على الواقعة بشقَّيها ولكن عمي سيحكي لي لاحقًا كأنني لم أشهد. يحكيها بكل تفاصيلها بهدوء أحيانًا وأحيانًا باضطراب، وقبل موته بيومين سيناديني ويحكيها لي بتفاصيلها كأنه لم يسبق له حكايتها لي عشرات المرات.

الفصل السادس

السبت ١٥/٥

تتشابه أيام الجمع في اختلافها عِن باقي أيام الأسبوع. نسخِّن ماءً ثلاث مرات فيتحمم أبي أولًا ثم أَخوَاي. يرتدون ثيابهم ويذهبون إلى المسجد للصلاة. وعندما يعودون تكون أمي قد انتهت من إعداد الغداء المختلف عن غداء كل يوم، «لأنه يوم جمعة»، ولأن الولدين «يا حبّة عيني متغرِّبان في حيفا، وعزّابيّة لا يأكلان ما يقوِّتهما طوال الأسبوع». وحتى بعد سقوط حيفا وانتقال الصادق وحسن للإقامة معنا استمرت أمي فيما تعوّدت عليه. يوم الجمعة تطبخ وتنفخ وتشيل وتحط ويا رُقَيَّة هاتي كذا واعملي كذا، «قشِّري لي ها الثومات»، «قطّعي لي ها البصلات»، «خذي لك ها الصحن لِمَرَة خالي أبو جميل، تحب الرّز بالحليب»، «خذي ها الصحن للجارة فالنبي أوصى على سابع جار». أتبرَّم. أقول إن يوم الجمعة إجازتي وإنني أعمل فيه أكثر من أيام المدرسة. وعندما أنهيت الصف السادس ولم أعد قادرة على استخدام تلك الحجة كنت أختفي. أذهب إلى البحر. أقول لن تراني أمامها فتتدبر أمرها.

كان يوم جمعة. مختلف عن باقي أيام الأسبوع وعن أيام الجمع التي تشبهه. لم يتحمم أبي. غادر البيت مبكّرًا. بقي الصادق وحسن نائمين. وعندما استيقظا لم يتحمما بل سألا عن أبي وغادرا على عجل. لم يعد أيٌّ منهم وقت الغداء. بقي الأكل على حاله لا غرفنا منه ولا أكلنا. في البلد صمتٌ غريب جعل الأذان حين ارتفع ساعة الصلاة يبدو أقرب وأوضح، لا يقطعه سوى وشيش البحر وحمحمة حصان هنا أو مأمأة خروف هناك.

في المساء سيتأكد الخبر. لم يعد الأمر هواجس أو توقعات بل بيان مكتوب وقّعه زعماء اليهود وأعلنه بن جوريون في تمام الرابعة مساءً وسط حفل في تل أبيب صوّره المصورون وأذاعته إذاعة الهاجاناه واستقبله المستوطنون بالرقص في الشوارع. قيل إن البيان يكون نافذًا بدءًا من الدقيقة الأولى بعد منتصف الليل حيث ينتهي الانتداب البريطاني فيحلّون محله في حكم فلسطين. يغدو البلد دولة لليهود ويصير اسمها إسرائيل.

لا أذكر من ذلك المساء إلا الصمت.

ولكننا ظهر اليوم التالي سمعنا طلقات نار وجَلَبَة وأصواتًا متداخلة. ركضنا أنا ووِصَال لنعرف ما الخبر. كان كل أهل البلد يتناقلون ما أذاعه الراديو، يعيدون إذاعته كأن كل واحد منهم كبيرًا كان أو صغيرًا، تحوّل فجأة إلى راديو متحرك موصول بسلك بالراديو المفتوح في بيت المُختار وبآذان الرجال المجتمعين حوله. الكل يحكي. الكل يعيد ويزيد. حتى الشباب المرابطون في مواقع الحراسة ظهروا فجأة ليسمعوا التفاصيل. أما الشباب الذين أطلقوا

بنادقهم في الهواء واضطروا للتوقف بعد أن نهرهم الكبار وعنَّفوهم على إهدار الذخيرة، فقد ظلوا واقفين لا يعرفون ما الذي يفعلونه بأنفسهم. رأيت أحدهم يركض في الحارة ثم يقفز ويصيح بأعلى صوته: «وييييي»، ويدور حول نفسه كالمجنون. وآخر يتشقلب في الهواء فيصبح رأسه تحت وقدماه فوق، ثم في ثانية يكون قد عاد كباقي خلق الله واقفًا على قدميه.

عدنا إلى البيت. كانت أمي وأم وصال على علم بالأمر. كررنا عليهم بعض ما سمعناه:

- اليوم الفجر دخلت الجيوش العربية فلسطين. مصر عبرت من رفح والعوجا. سوريا دخلت من جنوب بحيرة طَبَرِيًّا. اللبنانيون عند رأس الناقورة. جيش الأردن عبر من جسر الشيخ حسين وجسر دامية. الجيش العراقي وصل لجسر المجامع و...

قاطعتني وصال.

- والطائرات المصرية قصفت تل أبيب. مرّتين.

صاحت أمي فجأة:

- الله يحميهم. الله ينصرهم. الله لا يضيمهم. الله يبارك لهم في عيالهم ويرفع علمهم ويرجِّعهم سالمين غانمين.

ثم التفتت إلى أم وِصَال التي كانت تبكي:

- ادعي معي، أنت طيبة وبتربي أيتام ودُعاكِ مستجاب.

بدا أن الدعاء المُكَثَّف المفاجئ سيعطل علينا نشرة الأخبار التي أردنا إذاعتها بالكامل. تدخّلتُ:

- اسمعي الأخبار كلها وبعدها ادعي مرة واحدة!

ضحكت وِصَال، قالت:

- القوات السورية تقصف سَمَخ ومستوطنتين بجوارها، منهما مستوطنة كبيرة.

سألت أمها:

- وأين هي سَمَخ؟ وجسر المجامع والجسور الأخرى التي ذكرتِها؟

قالت وِصَال إنها لا تعرف، وقلت إننا سنسأل أبي أو أخويّ.

عادت وِصَال لاستكمال النشرة:

- والقوات العراقية دخلت محطة كهرباء روتنبرج واحتلتها واعتقلت ٤٠ شخصًا من اليهود العاملين في المشروع.

سألت أمي:

- يعني أول ما دخلوا، على المحطة دوغري. والله عفارم عليهم. كيف استطاعوا، ألم يطخّ عليهم اليهود وهم يقتربون من المحطة؟

- المحطة في الناحية الثانية من الحدود. عند الأردن. احتلت القوات العراقية المحطة ثم عبرت الحدود.

ـ عند الأردن؟

لم تصدق. قالت إننا أسأنا الفهم لأن المحطة لو كانت في الأردن كان الجيش الأردني أغلقها وعمل اللازم قبل أن يدخل الحرب.

ـ لا يُعقل أن يترك العدو وراءه ويتقدم. سأستوثق من أبو الصادق وأفهم منه ما جرى.

فجأة قالت:

ـ افتحي الراديو يا رُقَيَّة.

أضافت أم وِصَال ووجهها ما زال محتقنًا من أثر البكاء:

ـ يمكن يكون فيه خبر عن قِيسَارْيَة.

فتحت الراديو. وقفنا نستمع لما يقوله المذيع. دقائق. أشرت لوصَال فغادرنا البيت ركضًا. لا أذكر بمن التقينا ولا من قال ماذا ولَا متى عدنا إلى البيت ولا متى أتيح لنا أن نجلس مع الصادق وحسنٍ ليفسِّرا لنا ما لم نفهمه من التفاصيل. ولكنني أذكر حارات البلد، كانت صاخبة. أذكر نتَفًا وشذرات من أحاديث الناس الذين بَدَوا فجأة أنهم صاروا جنرالات يخططون لمسار القوات. هذا يقول سيتقدم المصريون عن طريق الساحل ويدخلون تل أبيب. وذاك يرجِّح أنهم سيتجهون للخليل ومنها إلى القدس فيحاصرونها من الجنوب ويحاصرها الجيش الأردني من الشرق والسوريون أو العراقيون من الشمال. يطبقون عليهم كالكماشة. فيقول ثالث لا أثق في الملك عبد الله، يقولون إنه اتفق مع اليهود، وحتى إن لم يتفق.. كيف نطمئن لجيش كل قادته إنجليز؟! ربنا يستر. ويؤكد رابع أن

القوات السورية ستتجه إلى حيفا وتحررها. والخامس قرفص فجأة وأمسك بفرع شجرة ورسم خريطة فلسطين على الرمل وراح يشرح تصوره لحركة الجيوش: سيقطعون عليهم الطريق من هنا، يفصلون جنوب فلسطين عن شمالها. يحرِّك عصاته ثانية ويقطع الخريطة بالطول ويقول ومن هنا يعزِلون العصابات الصهيونية التي في الغرب عن تلك التي في الشرق. سحب رفيقه فرع الشجرة ورسم به خريطة أكبر على الرمل وراح يُعيِّن عليها بلدات ومدن وحركة القوات. تكاثرت الأسماء واختلطت الاتجاهات والمسارات ومن سيفعل ماذا. همست في أذن وصال: لا أعرف من خريطة فلسطين إلا موقع حيفا ويافا وغزة والقدس. لم أقل لها إنني شعرت فجأة بالندم لعدم اهتمامي بدرس الجغرافيا الذي كان يبدو لي مُمِلًّا وبلا معنى.

في الليل بقيت ساهرة أنتظر عودة أبي.

عاد. أعددت له عشاء. سألته وهو يأكل عن سَمَخ. قال:

- في غور الأردن. جنوب بحيرة طبريًّا، تبعد عن الحدود السورية كيلومترات قليلة ولكن بسبب وجود محطة القطار أصبحت سَمَخ هي نقطة الحدود بين البلدين. يتوقف المسافر ويختمون أوراقه. وتفتِّش الجمارك أمتعته.

انتهى من عشائه، قال:

- كاسة شاي، الله يرضى عليك يا رُقَيَّة.

لم يكن من عادته أن يشرب الشاي في هذا الوقت المتأخر. أعددت الشاي وحملته له. قال:

ـ يسلموا ها الإيدين. اقعدي يا رُقَيَّة. اقعدي.

خلع حَطَّتَهُ وعقاله ووضعهما بجانبه. خلع حذاءه وتربّع جالسًا. تزحزح قليلًا ليسند ظهره إلى الحائط. كنت أسترق إليه النظر وهو يرشف الشاي. لم تكن حالته كحالة الشباب الذين رأيتهم طوال بعد الظهر. أسترجع جلسته وملامح وجهه. أقول لم يكن فرحًا. هل كان حزينًا أم مضطربًا وينتظر؟

كيف انتقل من الحديث عن سَمَخ إلى الحديث عن خط ـ حيفا ـ درعا ودرعا ـ دمشق، وكيف حمله الكلام إلى رحلة أبيه إلى الحج على الخط نفسه، خط السكة الحديد الحجازي؟ كنت أنصت إليه مأخوذة بالكلام. مأخوذة بتلك الجلسة النادرة التي لم تحدث من قبل ولن أحظى بها من بعد. كان يخصُّني بالكلام. الكل نيام إلا نحن الاثنين وهو يفضي إليّ كأنه ليس أبي الذي يأمر وينهى ولا نجرؤ أنا وإخوتي، على رفع عيوننا خشية أن تلتقي بعينيه. نقف في حضرته كالعسكر في وضع ثابت، لا صوت ولا حركة. ولكنني جلست بجواره. لا أسترق النظر إليه بل أتطلع مباشرة فأنتبه وأنا أنصت لحديثه، أن وجهه جميل، عذب وطيب، وأن لون عينيه المُحيَّر بين الأخضر والأزرق، يغلب أزرقه على أخضره، وأن في شعره شديد السواد ثلاث شعرات بيضاء.

حدَّثني أبي، قال:

حين كنا نذهب إلى دمشق أنا وعمك، كنا نركب القطار من المحطة الشَّرقِيَّة في حيفا فنصل سَمَخ بعد ساعتين وشويْ. ويكون معنا في القطار الكثير من السياح. ينزلون في سَمَخ لأنهم يريدون مشاهدة

البحيرة التي سار على مائها سيدنا عيسى. هناك رصيف يربط المحطة بالبحيرة فيقطعونه لركوب مراكب صغيرة في البحيرة ويتفرجون على مدينة طَبَرِيَّا ثم يركبون القطار عائدين إلى حيفا. أما نحن فنكمل إلى دمشق.

في آخر الحرب العالمية الأولى دارت في سَمَخ معارك عنيفة بين الأتراك والإنجليز. وبعضها دار في مباني المحطة حيث كان القتال من مبنى لمبنى. سَمَخ مهمة لأنها مفتاح الطريق إلى طَبَرِيَّا ودمشق. أيام الثورة في الستة وثلاثين والسبعة والثلاثين والثمانية وثلاثين، كنت أنا وعمك أبو الأمين نتردد كثيرًا على سَمَخ، ولكننا كنا نتحاشى ركوب القطار لأن الإنجليز أنشأوا فرقة نواطير يهودية لتحرس السكة الحديد من الثوار، فرقة درَّبها الإنجليز مع الهاجاناه. وكانوا يفتشون القطارات والجسور والمناطق المحيطة خوفًا من ضربات الثوار. كانت في المنطقة مستعمرات كثيرة.

خط الحجاز يربط حيفا بدرعا ودرعا بدمشق وعمّان، ويصل إلى المدينة المُنَوَّرَة. كانت الناس تسميه السكة الحميدية لأن السلطان عبد الحميد هو الذي تحمّس للمشروع وأمر بالبدء فيه وكان أول من تبرّع لإنشائه. وفي الحجاز كانوا يسمونه «جحشة السلطان».

ضحكت. وكررت وراءه: «جحشة السلطان!» ضحك. واصل:

أنشئ الخط بتبرعات المسلمين، عرب وأتراك وإيرانيين وهنود، واعتُبر وقفًا إسلاميًا. كانت النيَّة أن يمتد من المدينة المُنَوَّرَة إلى مكة ومنها إلى اليمن. ولما راحت تركيا وجاء الإنجليز توقف المشروع. صارت السكة الواقعة داخل فلسطين تابعة لسلطة الاحتلال

الإنجليزي وأسموها بالستاين ريلويز وتنتهي في سَمَخ. بعدها تتبع السكة سلطة الاحتلال الفرنسي في سوريا. يتوقف القطار في الحِمَّة وعندما يصل درعا، يتشعب الخط إلى سكة للقطارات تقصد دمشق وسكة تتجه إلى عمّان.

قبل بداية الحرب العالمية الأولى بسنتين سافر جدك إلى الحج بالقطار. ودَّعته أمي بباب الدار، ورافقه أعمامي، يرحم الله الجميع، إلى حيفا. عمك أبو الأمين كان عمره أربع سنين. تعلّق بأبي وصار يبكي. أشفق عليه أعمامي وقرروا أن يأخذوه معهم. وأنا تطلّعت إليهم. لم أبكِ ولم أقل شيئًا، فقط تطلّعت. قالوا: تعال معنا يا ولد.

ركبنا عربة يجرها حصان إلى حيفا. ودَّعنا أبي في المحطة الشَّرْقِيَّة، محطة سكة الحجاز. صرت أنظر وأتلفّت مبهورًا بكل ما أرى. مبنى المحطة. بوابتها. النصب التذكاري الأعلى من أي شيء رأيته من قبل. القطار. كان ملوَّنا؛ أذكر أن قاطرة فيه كانت مطليّة بالأخضر.. وجزءًا آخر مطليًّا بالأحمر، حتى أسوده كان لامعًا كأنه لون من الألوان. وكلما انطلقت صافرة القطار جفلت كأنني مفزوع ثم أجد نفسي أضحك. أضحك بصوت عال.

اشترى لنا أبي حَلْقوم قبل أن يركب القطار. ولما ركب رأيناه عبر النافذة ورحنا نُلَوِّحُ له بأيدينا. ثم بدأ القطار يتحرك وأنا أنقل عينيّ بين وجه أبي وراء الزجاج المغلق وحركة الدواليب وهي تدور ببطء ثم أسرع. كان هذا اليوم أبهج يوم في حياتي. محفور في ذاكرتي بأدق تفاصيله، حتى مَلْمَسَ الحَلْقوم اللَدِن بين أصابعي وطعم اللوز والسُكَّر الناعم في فمِي، أذكُرُه. في طريق العودة نام عمك. استغرق

تمامًا في النوم، كان يجلس بجوار اثنين من أعمامي في المقعد الخلفي للحنطور، أما أنا فسمح لي عمي الذي يقود العربة أن أجلس بجواره في المقدمة فأرى الحصان كاملا أكاد لو ملت قليلا أن ألمس ذيله، لكن عمي كان يحيط خصري بذراعه خشية أن يصيبني أذى عند أي حركة مفاجئة للعربة أو الحصان. كنا في أواخر الخريف. السماء غائمة قليلا. ربما كانت أمطرت في الأيام السابقة. كان الشجر كثيفًا ومُلَوَّنًا. أخضر وأحمر وبني، والأرض أيضًا ملوَّنة، حمراء أحيانًا وسوداء أحيانًا، وأحيانًا في لون القهوة قبل تحميصها. والتلال ممتدة عن يسارنا حليبيَّة غائمة متموِّجة كأنها ليست تلالًا، والغيوم من فوقها مدهشة تبدو حينًا كخراف بيضاء صوفها كثيف وأحيانًا كبحر من الصَدَف. حتى لسعة البرد أحببتها ذلك اليوم. أجلس بجوار عمي، أحوِّل عينيّ من السماء إلى الأرض ومن الحصان إلى التلال ومن شجرة نتجاوزها إلى شجرة نقترب منها. بدا لي الطريق هادئًا كالحلم لا يقطعه إلا حَمْحَمَة الحصان ووقع حوافره على الطريق.

فجأة توقف. قال: ياللا تصبحي على خير يا رُقَيَّة، الصباح رباح.

لم أنم طويلًا على ما يبدو لأنني استيقظت قبل أمي فوجدت أبي يجلس بجوار المذياع قلت صباح الخير. تطلع فيّ وقال: «عمك حمار يا رُقَيَّة!» فاجأتني العبارة إلى حد الارتباك. لم أفهم إلا بعد يومين أو ثلاثة حين بدا واضحا أن المعارك المشتعلة في مواقع كثيرة تبشِّر بالخير. فسّرتُ كلام أبي أنه تعليق على قرار عمي بالسفر الذي بدا الآن أنه بلا داعٍ. استولى السوريون على سَمَخ وانسحب اليهود منها بعد أن تكبَّدوا خسائر كبيرة. وسقطت المستعمرتان المجاورتان.

وقيل إن الجيش المصري يتحرك باتجاه تل أبيب، وإن القوات العراقية تشن هجومًا عنيفًا على مستعمرة كبيرة اسمها كيشر بالمصفحات والطائرات. وسقطت مستعمرة عطاروت على طريق القدس ـ رام الله، ونجح المجاهدون في صدِّ محاولة اقتحام البلدة القديمة في القدس.

ليلة الأربعاء على الخميس حلمتُ أنني أزور المدينة المُنَوَّرَة. ولما حكيت الحلم لأمي وكانت منهمكة في خبيزها المعتاد يوم الخميس، أضاء وجهها وأكدت أنها رؤية وليست منامًا. «سينهزم أولاد الحرام وتصبح البلاد كلها كالمدينة المُنَوَّرَة».

الفصل السابع

حين احتلّوا البلد

لم أسمع الأصوات. كنت نائمة. وعندما أيقظتني أمي سمعت فسألت. قالت: صَحِّي وِصَال وعَبِد. حطي عَلَف للمواشي يكفيها أسبوعين أو ثلاثة، وماءً كثيرًا. وانثري حبًّا للدجاج، كثِّري. والحصان، لا تنسيْ الحصان. وارفعي تَنكات الزيت عن الأرض لكي لا تصيبها الرطوبة، ضعي مخدة بين الحائط وكل تنكة زيت. ارتدي ثلاثة أثواب، ووِصَال أيضًا، والولد. سألت: أين أبي وأخواي؟ لم تجبني عن السؤال. كانت منهمكة في جمع أشياء على عجل. وأم وِصَال كانت تفعل مثلها. ثم وجدنا أنفسنا نقف أمام الدار. عاودتُ السؤال. قالت إنهم في الحراسة، سيلحقون بنا حين تتضح الأمور. سألتها ما الذي تعنيه بـ«تتضح الأمور» لم تجب. غريب. أمي التي كانت تولول قلقًا على ولديها في حيفا، بدت امرأة أخرى، تلقي الأوامر، تدير شئون قطيعها الصغير بحسم وسرعة، وإن لم أفهم منطق هذه الإدارة. حمَّلتني نُصِّيَة جبن وحملت تَنكَة زيت وأم وِصَال تَنكَة

زيتون. لم أفهم فسألت: كل هذا الجبن وكل هذا الزيت والزيتون، ماذا نفعل به؟! لم تجب.

غادرنا البيت. طبقت أمي البوابة. أغلقتها بالمفتاح الكبير. استغربت فلم أَرَ باب بيتنا مغلقًا أبدًا، ولا رأيت المفتاح: كان حديديًّا كبيرًا أدارته أمي في القفل سبع مرات. وضعته في صدرها. فجأة انتبهت أمي أنني أحمل العنزة الصغيرة التي ماتت أمها، سألت: لماذا تحملين هذه العنزة؟ قلت: سآخذها معي. لم تعلِّق. أَعْلَنَت: سنذهب إلى دار خالي أبو جميل. مشينا في اتجاه داره، تتقدمنا أمي وأم وصَال تحمل كل منهما تَنَكَة في يد وبقجة في اليد الأخرى، وخلفهما أَنا ووصَال وعَبد، تمسك وصَال بيد أخيها وتحمل في اليد الأخرى صندوقًا حديديًّا مربّعًا به أَوراق حملوها معهم من قِيسارْيَة. وأحمل العنزة في يد ونُصَّيَة الجبن في اليد الأخرى. وصلنا إلى دار أبو جميل. كان صوت الانفجارات وصليات الرصاص يأتينا من الشرق من جهة المدرسة، ومن جهة البُرج في الشمال، وجهة الكراكون في الجنوب. أصرّت أم جميل أن نفطر وكررت أن اليوم طويل ولا نعرف ما الذي سيحدث. أعطت لكل منا رغيف طابون. قالت: «كلوا!» لم يقل أي منا إنه ليس جائعًا ولا إننا في منتصف الليل، لا وقت إفطار ولا غداء، ولكننا أكلنا امتثالًا لأمرها الذي جاء صارمًا وحاسمًا. اشتد القصف. قال أبو جميل إنه من الغرب. «يبدو أنهم يضربون من البحر أيضًا». توضأ وبدأ يصلي. سمعنا ديوكًا تؤذِّن، ثم شقشق الفجر ثم سمعنا خطوات واقتحم الدار ثلاثة رجال مسلّحون وساقونا إلى دار المُختار. كانوا يهددوننا بأعقاب البنادق ويطلقون النار فوق

رءوسنا. في الطريق شاهدنا حسن عبد العال الضرير وزوجته عزّة الحاج الهندي ملقيين بالقرب من بيتهما تحيط بهما بركة من الدم، ثم شاهدنا جثة أخرى لشخص لم أتعرّف عليه. عَبد صار يبكي بصوت عال. أفلتُّ العنزة من يدي وحملته. لفَّ ساقيه حول خصري وأحاط عنقي بذراعيه. لم أكن أرى وجهه لأعرف إن كان ما زال يبكي. بقيت العنزة تمشي ورائي.

ساقونا إلى الشاطئ. قسمونا إلى مجموعتين. الرجال في ناحية والنساء والأطفال وبعض المسنِّين من الرجال في ناحية. أول مرة أرى المُجَنَّدات. نساء يرتدين ملابس عسكرية ويحملن السلاح. كلمننا بالعربية ورحن يفتشننا واحدة بعد الأخرى ويأخذن ما يجدنه معنا من مال أو حليّ، يضعنه في خوذة. كلما امتلأت الخوذة يُفْرِغْن ما فيها على بطانية كبيرة مبسوطة على الرمل. لم تنتبه المُجَنَّدة للعنزة ولكنها انتبهت وهي تفتِّشني إلى فردتيّ القرط في أذنيّ. انتزعتهما انتزاعًا. سال الدم من أذنيّ. مسحته بطرف ثوبي. انتقلت المُجَنَّدة إلى تفتيش أمي ووصَال وعَبد وأمه. أخذوا تَنَكَتيْ الزيت والزيتون ونُصِّيَة الجبن. جُرِّدت أمي من خاتمها وقرطها وسلسالها. كنا نقف متلاصقين. أتطلع إلى وجه أمي. شفتاها تتحركان حركة خفيفة متَّصلة، لا أعرف إن كانت تتمتم بالدعاء أو تردد آيات من القرآن أو ترتجف. همست في أذن وصَال: أهكذا استحلّوا بلدكم؟ قالت: لا، لم يوقفونا عند البحر. أَطلعونا من الدور على الباص، ولكنهم أخذوا حُلِيّ النساء ومَا وجدوه معهن من نقود.

كنت أقف في الطرف الأقرب من الرجال. لا تتوقف عيناي عن

التطلّع أملًا في رؤية أبي أوأي من أخويّ. لم أرهم. قدّرت أنهم شردوا في الجبال أو اختفوا في مغارة من المُغُر. رأيت «كيس الخيش»: رجل يقف بجوار عسكر اليهود ورأسه مُغَطًّى بكيس من الخيش به ثقبان يسمحان لعينيه بالرؤية. كان الضابط يتطلع في ورقة في يده وينادي أسماء الرجال فيجيب صاحب الاسم أو لا يجيب. عندما لا يجيب يتقدم كيس الخيش ويشير إليه. أحيانًا يشير بدون نداء. ما إن يشير «كيس الخيش» إلى شخص حتى يُطلعوه. يأخذون مجموعة من الرجال، خمسة أو ستة أو سبعة ويختفون. هل يأخذونهم إلى السجن في زِخرون يعقوف؟ نسمع صليات من الرصاص. هل كانت الحراسة تقاوم؟ أمسكت بيد وِصَال فتطلعت فيّ كأنها ستسألني لماذا أشدُّ على يدها. لم تسأل. اقتربت العنزة مني، صارت تلمس قدميّ ولكنني لم أحملها. قال عَبِد إنه عطشان. قالت له أمه: تحمّل. قلت للمُجَنَّدة: الولد عطشان، ردّت عليَّ بكلمة بذيئة وهي تدفعني بكعب البندقية في كتفي. كان الجو حارًا والشمس حارقة وتعجبت لماذا طلبت مني أمي ارتداء ثلاثة أثواب ولماذا أطعتها. كنت أتصبب عرقًا. أردت أن أسألها. لم أسأل. «ياللا ياللا!» صاحت المُجَنَّدات بصوت عال.

بدأ موكب النساء يتحرك. ساقونا في اتجاه المقبرة. في الطريق رأيت ثلاث جثث ثم جثتين أخريين لم أتعرف على أي منها.

انتبهت وهم يسوقوننا باتجاه المقبرة أن للبلد رائحة غريبة تختلط برائحة البحر والزنبق الأبيض الذي ينبت في الجزر وعلى شواطئها في ذلك الوقت من السنة. لم أميّز الرائحة وإن بقيت في أنفي بعد أن

غادرنا القرية. وأحيانًا بعد ذلك بأيام وبأسابيع، كانت تحضر فجأة ولا أعرف من أين أتت ولماذا كان للقرية هذه الرائحة في ذلك اليوم.

عند المقبرة كانت شاحنتان في الانتظار. تحت تهديد السلاح طلبوا منا الصعود. انتزعت مُجَنَّدة العنزة مني وكنت أحملها. كنا عدة مئات من النساء والأطفال والشيوخ. ربما خمسمائة أوستمائة. حشرونا في شاحنتين وبدأت الشاحنتان في التحرك. صرختُ فجأة وجذبت ذراع أمي وأنا أشير بيدي إلى كومة من الجثث. نظرت أمي إلى حيث أشير وصرخت: جميل، جميل ابن خالي! ولكنني عدت أجذب ذراعها بيدي اليسرى وأشير بيدي اليمنى إلى حيث أبي وأخويّ. كانت جثثهم بجوار جثة جميل، مكوّمة بعضها لصق بعض على بعد أمتار قليلة منا. أشير وأمي تواصل الولولة مع أم جميل على جميل. كانت النساء تولول والأطفال يبكون مفزوعين من نحيب أمهاتهم، والرجال المسنون تجمدوا كالأصنام.

ستُنزلنا الشاحنات في الفريديس على بعد أربعة كيلومترات من بلدنا. وسيتم تسليمنا بالعدد المكتوب في الأوراق إلى مُختار الفريديس. سنتوزع في بيوت الخلق. لم أقل لوِصَال إننا أصبحنا مثلهم لاجئين. لم أقل أي شيء طوال فترة إقامتنا في الفريديس. أيقنت أمي أنني فقدت النطق. ظلت تكرر أن أباها وأخويها سيجزعون حين يعلمون أنها فقدت القدرة على الكلام.

في الفريديس، وفي الطريق إلى المُثَلَّث، وفي طولكرم والخليل وفي الطريق إلى صيدا، وطوال السنوات التي عاشتها في صيدا، ستكرر أمي بلا كلل ولا انقطاع أن ولديها هربا إلى مصر وأن أبو الصادق

اعْتُقِلَ مع من اِعْتُقِلُوا من رجال البلد ولا نعرف إن كان أُفرج عنه ولا يدري أين نحن، أم أنه ما زال في الأسر. همست إحدى النساء أن أم الصادق فقدت عقلها. أجابتها أخرى: غريب عجيب، إنها عاقلة راشدة فيما عدا موضوع زوجها وأولادها. عادت الأولى تقول: ورب العرش أنا كذّبت عينيّ وقلت إن قلب الأم أدرى، وربما اشتبه علينا الأمر ولم يكونوا بين من رأيناهم من القتلى، لولا أن الشباب الذين أخذوهم لحفر المقبرة الجماعية شهدوا أن أبو الصادق وولديه كانوا بين الجثث التي دفنوها.

تقول أمي: الحمد لله أن الصادق وحسن هربا إلى مصر. عندما تهدأ الأمور يعودان بالسلامة. وفي صيدا بعد عام من رحيلنا كانت تُلِحُّ على عمي أن يسافر إلى مصر ليُعلمهما أننا نعيش في صيدا. تقول: مساكين لا بد أن القلق أكل قلبيهما علينا، ونحن نعيش هنا في خير وأمان.

بعد وصولنا إلى الفريديس أخذوا بعض الصبية للعمل في «زخرون يعقوف» مقابل بضعة قروش، يحملونها في نهاية اليوم إلى أمهاتهم لتشتري بها خبزًا؛ وأحيانًا يتحرّش بهم الصبية اليهود في المستوطنة ويضربونهم ويأخذونها منهم فيعودون كما ذهبوا. وأخذوا صبية آخرين وبعض شباب الفريديس إلى بلدنا لجني المحصول. وفي الفريديس صاحت امرأة من بلدنا فجأة: اللهُ أكبر، نجوع والسنابل طولها مترين في أرضنا! وقالت لأختها: قومي معي. اتجهت إلى البلد لتحصد بعض القمح. في المساء عادت أختها بثوب ممزَّق وآثار اللطم واضحة على وجهها وطلبت من بعض شباب الفريديس أن

يساعدوها على نقل جثة أختها التي دهمتها سيارة عسكرية. قالت: داسوها قصدًا ولما حاولتُ الاقتراب لأرى ما أصابها عادت السيارة في اتجاهي فقفزتُ مبتعدة. داست عليها السيارة مرة أخرى.

أقمنا أربعة أسابيع في الفريديس. استضافنا فيها أهل البلد. أنزلوا الفرشات وقاسمونا زادهم، ولكن الزاد كان شحيحًا. مات بعض المسنِّين. أما الرُضَّع فكانوا يتساقطون بشكل غير مفهوم. كل يوم يموت رضيع وأحيانًا رضيعان. دفنَّا في الفريديس خمسة وعشرين طفلًا وربما ثلاثين، والمرأة التي دهستها السيارة العسكرية والمسنِّين الذين ماتوا. ثم استلمنا الصليب الأحمر ونقلونا شرقًا إلى أرض قفر ممهَّدة في المثلث. استلمنا ضباط أردنيون، أحصونا ووقّعوا بالاستلام. ثم حملتنا الباصات إلى طولكرم. أنزلونا في مدرسة قريبة من خط سكة حديد الحجاز. في طولكرم قصفنا الطيران الإسرائيلي. استشهد ابن يحيى العشماوي وابنته. بعدها بأسبوعين أتت سيارات أخرى فنقلتنا إلى دير المَسْكُوبِيَّة في الخليل. كل يوم جمعة كان أهالي الخليل يذبحون خرافًا ويسوونها ويحملونها إلينا مع أرز بكميات تكفي الجميع. مات الكثير من الأطفال ربما ليس من الجوع بل من البرد، أو ربما بسبب كمد أمهاتهم. عدنا، وِصَال وأنا، إلى ارتداء الأثواب الثلاثة واحدًا فوق الآخر. كانت وِصَال تحكي كثيرًا وكنت أنصت لما تقول ولكنني لم أكن أتكلم. لا أَدري حتى الآن إن كنت فقدت القدرة على النطق أم كنت غير راغبة في الكلام. تقول أمي إنني منذ خروجنا من البلد إلى أن وصلنا صيدا، لم أنطق بكلمة واحدة. وكان عَبِد يلازمني كظلي ولا يقبل أن ينام إلا بجانبي. أُدفئ يديه وقدميه

وأظل أربِّت على شعره حتى ينام. ولكنني لم أكن أُغَنِّي له كما كنت أفعل في بلدنا فلم يكن لي صوت.

وفي المَسْكُوبيَّة وصلتنا أخبار الأسرى. أذاعوا في مكبر للصوت عن وصول رسائل عبر الصليب الأحمر. وقفت أمي في الصف تنتظر. لم ينادوا باسم أبي. تفرقت النساء والأولاد بعد أن استلم كلٌّ الرسالة التي تخصُّه. خاطبت أمي المسئول فأعلمها أنه وزَّع كل ما ورده من رسائل.

قضينا في الخليل ستة أشهر ثم بدأ أهل البلد يتوزعون: منهم من أراد اللحاق بأقرباء له في طولكرم أو نابلس أو جنين، ومنهم من تسلل عائدًا إلى الجليل، ومنهم من ذهب إلى سوريا. قالت أمي إننا سنذهب إلى صيدا عند عمي. كيف تذهبين إلى صيدا؟ سألتها أم وِصَال. أخرجت أمي سبعة جنيهات من الذهب، وقالت إنها أفلحت في تهريبها من التفتيش. قالت أم وِصَال إن لها أقارب في جنين. أعطتها أمي ثلاثة من الجنيهات السبعة. ودّعنا أهل البلد ووِصَال وأمها وعَبد. قطعنا نهر الأردن برفقة أسرتين من أهل البلد نقصد إِرْبد. كنا قافلة صغيرة من ستة عشر شخصًا أغلبهم من الأطفال. وكان معنا رجل مُسِنّ يعرف الطريق. كان الجو شديد البرودة والطريق صحراوية بها جبال صخرية جرداء. لم أر بحرًا ولا شممت رائحته. في إِرْبد نزلنا ضيوفًا على عائلة تربطها صلة نسب بالأسرتين اللتين رافقناهما. أقمنا عندهم أسبوعًا ثم قررت أمي أن نغادر لمواصلة رحلتنا إلى صيدا. قال رب الأسرة المُضيفة: «ستحملك السيارة إلى دِرْعَا، في سوريا. تنزلين هناك وتبحثين عن الباص الذي يذهب إلى دمشق. في دمشق

تسألين عن السيارات المتجهة إلى صيدا، إما أن تركبي مباشرة إلى صيدا أو تركبي أية سيارة تتجه إلى راشَيَّا أو مَرْجْعيون أو النَبَطِيَّة. حين تصلين إلى أي منها تكونين على بعد نصف ساعة من صيدا». أعاد عليها الأسماء ثانيةً وأكد عليها ألا تنساها ثم قال: «الله معك». أراد أن يعطيها نقودًا ولكنها قالت: «الله منعم ومتفضل يا خوي. معي والحمد لله».

في صباح اليوم التالي أوصلنا الرجل إلى محطة سيارات فركبنا مع آخرين قاصدين دِرْعَا. أوصى بنا السائق والركاب. عبرنا الحدود. بعد ساعات قليلة كنا مستقرين في مقاعدنا مع غيرِنا من الركاب في سيارة أجرة تتجه من دِرعا إلى دمشق. وصلناها لِيِّلاً فأمضينا ليلتنا في مسجد. «كانت النية»، تحكي أمي لأختها، «أن نبكّر في الصباح فنصل صيدا في اليوم نفسه. نمنا في أمان الله، وفي الصباح وجدت وجه رُقَيَّة أحمر، وضعت يدي على جبينها فإذا بها كالنار. قلت: رُقَيَّة، شِدِّي حيلك، هانت، اليوم نصل دار عمك. ولكن البنت لم تكن تسمعني ولا تراني، مُمَدَّدّة على بساط المسجد كأنها ميتة وتتنفس». لا أذكر أية تفاصيل عن مرضي. لكن أمي تقول إن الحُمّى لازمتني أسبوعين، وإنها كانت تبكي ليل نهار لأنها أيقنت أنني سأموت. «وما الذي أقوله لأبيها وأخويها حين يرجعون بالسلامة، ماتت مني في الطريق؟! ولما بقيت الحُمّى يومين ولا معي ميرمِيّة ولا نعناع ولا أستطيع أن أسلق لها دجاجة تشرب مرقها، سألت أولاد الحلال عن حكيم وذهبت إليه فجاء معي إلى المسجد. طلب ليرة. أي والله جنيه فلسطيني دهب أعطيته له قبل أن يقبل أن ينتقل معي إلى المسجد. فحصها وكتب لي دواء فاشتريته. وعندما شُفِيَت رُقَيَّة لم يبق معي من الليرات الأربع

إلا عشرة قروش». تستعجب خالتي: «عشرة قروش؟ ألم تقولي كان معك أربع ليرات دهب؟» تعد لها أمي على أصابعها بنود الصرف: «ألم نعبر نهر الأردن وندفع؟ ألم نركب سيارات؟ والأكل والشرب ونحن في المسجد والطبيب الله لا يسامحه. واشتريت كَنْزَتين صوف، واحدة لي والثانية لرُقَيَّة ونحن في إرْبد، لأن البرد كان يقُصّ العظم». تعود إلى العد على أصابعها: «واشتريت الدواء. وشيخ المسجد الله يحميه ويبارك في أولاده حمل لي من بيته خبزًا وغموسًا وميرَمِيَّة وحِرامًا نتغطى به». فتعود خالتي إلى سؤال القروش العشرة: «وكيف وصلتِ إلى صيدا؟»، فتشيح أمي بيدها وتتنهد قائلة: «أولاد الحلال كثير». لا تحكي لأختها التي لا تخفي عنها أي شيء، أنها وقفت بباب المسجد وحكت لمن توسَّمت فيه خيرًا من عابري السبيل.

وصلنا إلى صيدا في أول شهر شْبَاط من العام التالي. وحين لقينا عمي وخالتي كنت أرتدي الأثواب الثلاثة، ثوبًا على ثوب، وعليها السترة الصوفية التي اشترتها لي أمي من إرْبد. وكان أول ما نطقت به من الكلام منذ غادرنا بلدنا هو ما قلته لعمي همسًا: أبي وأخواي الاثنان قُتلوا. رأيتهم بعينيّ على الكوم. كانوا بين مائة أو ربما مائتي قتيل، ولكنهم كانوا على طرف الكوم، رأيتهم. ستقول لك أمي إن الصادق وحسن ذهبا إلى مصر، وإن أبي في الأسر. أنا رأيتهم غارقين في دمهم على الكوم.

الفصل الثامن

ولد وبنت

عندما قال لي عِزّ: «رُقَيَّة، أريد أن أتحدث معك»، استغربت طريقته في الكلام. كدت أسخر منه وأعلّق: وهل تريد إذنًا بالحديث معي أو موعدًا؟ لم أقل. انتظرت أن يتحدّث. ولكنه قال: «سآخذك إلى البحر».

سرت بجواره. حين ترك البلد مع أبيه وأمه قبل ثمانية أشهر كنت أفوقه طولًا. أصبح أطول مني. علّقت على الأمر. ضحك، قال في ركبتيّ زُمْبَرَك. كل يومين أسمعه يتِكُّ. فأجد نفسي أطول بفِتر. ضَحِكْت. رائحة البحر واضحة في المدينة وإن اختلطت في البلدة القديمة بروائح أخرى، ولكننا إذ نقترب من الشاطئ تزداد الرائحة تمكّنا من المكان حتى تنفرد به. خلعنا نعلينا وخضنا في الرمل. ثم تربّعنا متجاورين. قال عِزّ: بحر صيدا مثل بحر بلدنا. تطلعت، قلت: بحر بلدنا أحسن. هنا لا يوجد جزر ولا بئر سكر ولا مُغُر. ورائحة البلد تختلف والصوت أيضًا. بقي صامتًا، وأنا كذلك بقيت صامتة أشعر بهواء البحر يتخلل شعري ووجهي وملابسي، أحدّق في حركة

الموج يعلو وينكسر ليعود يعلو. أتابع تطاير الرذاذ، غريب كيف يمكن أن تتداخل صورتان وتتراكبا واحدة على الأخرى؟! أنتِ في صيدا يا بنت، والبحر الآخر هناك تحدده الجزر الصخرية الداكنة ورائحة الزنابق والبيوت كأنها قواقع أو طحالب نبتت في الأصل فيه ثم بقيت ملتصقة به حتى عندما طرحها الموج على الشاطئ. أراهما بحرين، كأنما عينٌ ترى بحرًا والأخرى ترى بحرًا سواه.

قال عِزّ:

- رُقَيَّة أريد أن أتحدث معك.

- ما بك يا عِزّ، تكلّم، ما الذي يمنعك؟

- أريد أن أسألك... هل أنت متأكدة أنك رأيت عمي أبو الصادق وصادق وحسن بين الجثث على الكوم؟

- رأيتهم.

- لماذا تقول خالتي إنه...

قاطعته:

- أشَّرت بيدي. شددتها من يدها. أشّرت. كانوا أمام عينيها. لم تر، كأنها فقدت البصر لحظة ثم استعادته. لا أدري كيف ولماذا.

- هل رأيتهم وحدهم أم رأيت آخرين؟

- رأيتهم مع الآخرين. والشباب الذين أخذوهم من الفريديس لدفن من قُتلوا شهدوا أنهم دفنوهم مع الآخرين. قالوا إنهم

دفنوا مائة وعشرين، بعدها بيومين أو ثلاثة. وقالوا إن آخرين دُفنوا قبل ذلك، يوم استحلّوا البلد.

- تذكرين يوم غادرنا البلد بالمركب؟

- أذكر.

- ونحن في الطريق رأيت جثثًا. رأيت شخصًا طافيًا على الماء. صرخت وركضت إلى أبي وأنا أشير بذراعي. ولكن أبي وضع يده على كتفي وقال: مات منذ أيام. سرت رجفة شديدة في بدني، انتبه أبي. قال: أنت رجل الآن يا عِزّ، ألست رجلا؟! لم أبك. لم أبك حتى وأنا أرى آخرين تطفو أجسامهم على سطح الماء. سألت رَيِّس المركب فأخبرني أن مراكب عديدة غرقت في الطريق لأنها صغيرة وتحمل أكثر من حمولتها، أو لأن رَيِّس المركب لم يكن ماهرًا بما يكفي. كنت أحب ركوب الشختورة والإبحار فيها. لم أعد أحبها، لا المراكب ولا البحر ولا السفر.

- هل تحب المدرسة الجديدة؟

- في المركب، حدث أمر آخر.

- ماذا حدث؟

- بدأت امرأة تصرخ ثم اشتد صراخها، ثم سمعت أحدهم يقول إنها تلد. ثم جاءت أمي وقالت أعطني مُديتك. المدية الحمراء التي أهداها لي أمين، هل تذكرينها؟

- الموسى الكبّاس؟

- نعم، لم أفهم لماذا طلبتها أمي. سألتها. قالت نحتاجها في الولادة. وأنا تخيّلت أنهم سيشقون بها بطن المرأة فأصابتني رجفة وقرفصت وصرت أغالب البكاء حتى لا يوبّخني أبي.

- وبعدين؟

- لم أر شيئا لأن النساء كن يحطن بالمرأة التي تصرخ ويشكّلن ساترًا بأجسامهن. بعد فترة سمعنا صوت وليد يبكي. وقالت النساء: الحمد لله، قامت بالسلامة. رأيت الصغير ملفوفًا بشال أمي. ولما أعادت لي أمي المدية ترددت في أخذها. استغربت أمي ثم ضحكت وقالت قطعنا بها حبل السرة. وضعتها في جيبي ولكنني منذ وصلت إلى صيدا خبأتها. لم أعد أحملها. لا أريد.

قلت:

- بنا نتمشى على البحر.

أحطت كتفيه بذراعي ومشينا. طال الصمت ثم عدت أسأله عن المدرسة.

- أحبها لأن فيها ملعب كرة قدم.

- كنت تحب المدرسة لأنك كنت الأول.

- لم أعد الأول لأن المُدَرِّس يسألني فجأة فلا أعرف ما الذي كان يتحدث عنه وما هو السؤال. لو كرره أجيب، وإن لم

يكرره أقف أمامه معقود اللسان، فيوبِّخني ويضحك مني الأولاد. في البداية كانوا يضحكون، الآن صاروا أصحابي. يهمسون لي لتذكيري بما كان يقوله المدرس أو لمساعدتي على الإجابة، أحاول التقاط ما يهمسون به ولكنني لا أفسِّره إذ أكون مضطربًا. ولكن حين نلعب الكرة تأخذني اللعبة فلا أفكر إلا في الكرة وهي تنتقل من جانب إلى جانب، أتابعها بين أقدام اللاعبين أو أتطلع في اتجاهها وهي تطير فأطير مثلها لألحق بها. عرّفتني الكرة بكل أولاد المدرسة فصرنا أصدقاء.

- لم يعد لي صاحبات. عمي يقول إن معظم أهل البلد ذهبوا إلى سوريا، ولا نعرف بعد أين يسكنون. لا أدري إن كنت سأراهم مرة أخرى.

- ليست مشكلة.

- كيف؟

- سيصبح لك أصحاب جدد، وأصحابك القدامى سيبقون أصحابك حين نرجع إلى بلدنا. لم يكن أصحابي هنا يعرفون أي شيء عن بلدنا فحكيت لهم. عندما نعود سيأتون لزيارتي. صرت أعرف صيدا وأصبحوا يعرفون الطَّنْطُورَة، وعندما يزورونها سيعرفونها أكثر.

- ولكن حين يصبح لي أصحاب هنا سأتركهم حين نرجع.

- حين تعود الأمور كما كانت، تركبين القطار أو سيارة فتصيرين عندهم، وهم أيضًا يزورونك في البلد. ومن يدري قد يعمل

يحيى في القدس أو في اللِّد فتسكنين هناك ويصبح لك أصحاب في القدس وفي الطَّنْطُورَة وفي صيدا وربما في حيفا أو في بيروت حين نذهب لزيارة أمين، أو في القاهرة لو أخذك يحيى إلى هناك. فتتسع الدنيا وقد صار لك أهل وأصحاب ومعارف في كل البلاد.

لم أرتح للكلام عن يحيى. لم أذهب باتجاه صورته أو فكرته منذ غادرنا البلد.

الآن أنظر من بعيد:

ولدٌ وبنت يتربّعان على الرمل. لا يعلم إلا الله ما الذي ينتظرهما من مخبآت الغيب. صغيران على شاطئ وعر ومن أمامهما البحر صاخب تتواصل أمواجه، تعلو ثم تنحسر وتعود تعلو وتنكسر. شمس قوية تلوّح جسديهما وهي معلقة فوق كالقضاء. يجلسان متجاورين على بحر صيدا، يتحدثان بصوت خافت كأنهما كبار. أنظر من بعيد: صغيران على بحر الطَّنْطُورَة كأنهما جروان. تجري البنت فيجري الولد في إثرها. تقفز في الماء فيقفز. يرفعهما الموج. يغمرهما. يسبحان كأنهما سمك. يتسابقان. يتقافزان. يتشاجران. يعلو صوتهما ينشر كلامه وضحكاته مجلجلًا. يكبران قليلا ثم يكبران أكثر فلا يجوز أن يسبحا معًا؛ هو يسبح مع أترابه من الأولاد وهي تسبح مع البنات. في البيت يلتقيان، يتقارب رأساهما، يتطلعان في كتاب واحد ثم يقفز أحدهما فجأة كأنما لدغته عقربة: اختلفا. يبدأ الصياح. يعلو ولا يأتي الصمت إلا لأنهما أصبحا متخاصمين. يقسم كل منهما أن لسانه لن يخاطب الآخر طول العمر. عمر قصير يدوم ساعة أو ساعتين ولو

طال، فنصف يوم. يتصالحان بعدها لأنهما نسيا أنهما تشاجرا، أو لأن أحدهما يريد من الآخر شيئًا يجعله يتناسى الخصام.

وتنظر من بعيد. تراه تحت شمس حزيران على بحر صيدا بعد أن استحلَّها الإسرائيليون. ما لم يعشه معها على بحر الطَّنْطُورَة قبل أربعين سنة، يعيشه على بحر صيدا. كأن التاريخ يُكرر نفسه ويعيد، وإن كبَّر المشهد. الخلق أكثر، أكثر بكثير. والعسكر أكثر. والسلاح والسيارات المدرعة. كيس الخيش تناسخ: واحد هنا وآخر هناك وثالث ورابع. كلٌّ يتطلع عبر الثقبين في الكيس الذي يغطي رأسه ويشير. وكلما أشار تسري الرجفة نفسها بين الصفوف لأن الكل يعرف ومن زمان، أن من عيَّنهم أكياس الخيش سيمضون الآن في صف طويل إلى الإعدام أو معسكر الاعتقال. ليس في زِخْرون يَعْقوف ولا إجليل أو صَرَفَنْد بل في مكان ما هنا في قلب صيدا أو على مشارفها.

سيأتي عِزّ إلى بيروت تسللًا. لوهلة لن تتعرف عليه بسبب بياض الشعر المفاجئ أو لسبب آخر. سيجلس بجوارها ليسمع منها أكثر عن أخيه. لتسمع منه ما حدث في صيدا. يحمل الطفلة النائمة على ركبتيها إلى فراشها. ويبقيان إلى طلوع الفجر يحكيان. أرملة وكهل أبيضّ شعره تمامًا في أربعة أشهر أو أربعة أيام. ولدٌ وبنت... تنظر من بعيد.

الفصل التاسع

محاكمة الأولاد

يقول الأولاد إنني كنت أمًّا صارمة، يقولون إن والدهم كان أحنَّ عليهم. أكرر في استنكار: «أحنّ؟!». يستعيدون الوقائع. يؤكدّون الكلام:

ـ كنت تتدخلين في كل التفاصيل. تصرِّين أن يكون الواحد منا ملاكًا!

يضحكون كالجوقة ثم ينفرد صادق بالكلام:

ـ نعم، رُتبة ملاك هي الحد الأدنى المقبول! يأتيك الواحد منا بالشهادة ويكون ناجحًا بل متفوقًا فيكون تعليقك: ولكنك لست الأول، لماذا لست الأول؟! ما الذي ينقصك لكي تكون الأكثر تفوُّقًا؟!

يكمل حسن:

ـ ويوم سرقنا البرتقال من البستان الكبير، ونحن بعد في صيدا، يا ألله! كارثة وحَلَّت بالكون!

ضحك عَبِد:

- تريدين الحق أم ابن عمه؟ في طفولتنا كرهنا المُخَيَّم وكرهنا فلسطين، وكرهنا أنك أمنا. كانت كلها مسطرة تقيسين بها سلوكنا صباح مساء، إن لم يكن القياس حسب الطلب فالمسطرة جاهزة للضرب!

أقطع كلامهم، أقول تفترون عليّ. سأصنع لنفسي فنجان قهوة أشربها وحدي عقابًا لكم لأنكم كالقطط تأكل وتنكر. يتبعونني إلى المطبخ. يتحلَّقون حولي. يُعِدُّ أحدهم الصينية ويمسك الآخر بالبكرج يعيِّر فيه الماء بفنجان. يقف عَبد أكسلهم في شئون البيت وأطولهم لسانًا، يقلِّد صوتي وطريقتي في الكلام:

- «أولاد المُخَيَّم يجتهدون في المدرسة صباحًا ويعملون مساءً لكسب قوت يومهم ويتفوَّقون رغم أنه ينقصهم كل شيء، ما الذي ينقصكم؟!» يمكن يا جماعة لاحظت في طفولتنا علامات تخلّف عقلي أو رأت ما يؤكد أننا نزلنا من المريخ! أو يمكن بابا كشف علينا وهمس في أذنها مذعورا: غريب يا رُقَيَّة، في الأولاد الثلاثة عيب خَلْقِي لم يرد عليّ من قبل. مكان القلب، حجر صغير ناعم بحجم بيضة كبيرة. أملس وصلد. لا دم ولا لحم ولا أعصاب. معجزة مخيفة. لا حول ولا قوة إلا بالله!

يقهقه. يصيح:

- ماما، لم نهبط من المرِّيخ. ولا جئنا لبنان للسياحة.

يواصل:

- المُخَيَّم تعيش فيه أو خارجه هو حكايتك لا مهرب لك منها. وزميلك في الصف ينقلب عليك فجأة فلا تعرف ما الذي أغضبه، لتكتشف بعد يوم أو يومين أنه عرف أنك فلسطيني وأن وجودك، مجرد أنك موجود وأنك أنت لا غيرك أمر مستفِزّ يثير الغضب أو الاستياء أو على أقل تقدير، القرف. كأنك حشرة سقطت لسوء حظه، في صحن الحساء. فتعرف قبل أن تعرف بزمان، معنى الكتائب ومعنى القوات وما الذي ينتظرك على أيديهم، وأنك ابن مخيم حتى لو حالفك الحظ ولم تسكن فيه!

يتدخّل صادق:

- ماما كفّيت ووفّيت. كانت صرامتك ضرورية لتربيتنا كما يجب. والنتيجة واضحة.

ثم عبارة أخيرة ساخرة:

- أم صادق يا شباب قوية تفِلّ الحديد!

أتعجب من صورتي في وعيهم وهم أطفال لأنني كنت أحاول أداء وظيفتي كأم وزوجة، لا تقتصر مهامها على بيت نظيف ولقمة هنيّة لثلاثة صبية شهيتهم مفتوحة «كبار بُطن، ما شالله» تنمو أجسامهم كالمعجزة فتحملهم سيقانهم أعلى فأعلى يوميًا تقريبًا، فيصبح البنطلون الذي احتاج تقصيرًا يوم شرائه، إلى فك ثنيته وتطويله، ثم يحال إلى الأصغر ثم لا يصلح لأي منهم فيأخذه صاحب النصيب.

تمضي الحياة كالقطار السريع يمر خطفًا، من مواليد يطلبون رضعة الثدي وتغيير القماط المبلّل وغسل مؤخراتهم، إلى أطفال يكوِّنون جملًا مفيدة ويقولون نعم ويقولون لا أكثر من نعم لأنهم يكتشفون إرادتهم وأنفسهم. ثم إذ بهم، في غمضة عين، صبية يقبلون على المرآة ويستعجلون الزغب يريدونه شاربًا ويعتنون بمظهرهم لأن صبيّة ما على الأبواب. أتابعهم، أتابع كل صغيرة وكبيرة وألف شيء بينهما لأنني أريد... ما الذي كنت أريده؟ كنت معهم في القطار ولم أكن، لأنني منذ ذلك اليوم الذي أركبونا فيه الشاحنة ورأيت أبي وأَخَوَي على الكوم، بقيت هناك لا أتحرك حتى وإن بدا غير ذلك. ربما كنت أبالغ لأنني كنت أعرف بشكل غامض وغير موعيّ به تمامًا أنني خارج القطار. وقد يراوغني التفسير ويكون السبب مختلفًا. يقولون كنتِ صارمةً معنا. يقولون كان أبي أحنَّ علينا منك. أستغرب. أتساءل: ما الذي تفعله امرأة تشعر أنها بالصدفة، بالصدفة المحضة بقيت على قيد الحياة؟ كيف تسلك في الدنيا إن كان وجودها، كل السنين والشهور والأيام واللحظات الحلوة والمرة التي عاشتها، فضلةَ حركة عشوائية لقدرٍ غريب؟ كيف تسلك في الدنيا؟ تعي ضمنًا أو صراحةً أنها عارية، عاريةٍ من المنطق، لاستحالة إيجاد أية علاقة بين السبب والنتيجة أو للدقة استحالة فهم الأسباب حين تتساقط على رأسها نتائج لا تفهم نتائج ماذا، ولم تفعل أي شيء ولم تع بعد أي شيء، لا لأنها صغيرة فحسب بل لأن وقوع السقف على رَأسها كان نقطة البداية، فلماذا سقط السقف في الأول لا الآخر؟ ماذا تفعل؟ كيف تتعامل مع الدنيا؟ أقول: اختياران لا ثالث لهما، إما أن يجتاحها حس عارم بالعبث، لا فرق، تعيش اللحظة كما تكون وليكن ما يكون ما

دام المعنى غائبًا والمنطق لا وجود له والضرورة وهم من بدِع الخيال؛ أو تغدو، وهذا هو الاختيار الآخر، وقد وفّرها الزلزال، كأنها الإنسان الأخير على هذه الأرض، كأن من ذهبوا أورثوها حكايتهم لتعمّر الأرض باسمهم وباسم حكايتهم، أو كأنها تسعى في الدنيا وهم نصب عينيها ليرضوا عنها وعن البستان الصغير الذين حلموا ربما أن يزرعوه. تصيبها حُمَّى من نوع غريب، حُمَّى الزراعة، زراعة عجيبة خارج الأرض، لأن الأرض سُرقت واستحالت الزراعة إلا في الحيِّز المنزلي.

هل كنت أعي كل هذه الأمور وأنا أخرج من تحت الأنقاض؟

حين خرجت من تحت الأنقاض كان في العقل خَدَر كما الخَدَر الذي في الجسم. حيوانٌ صغيرٌ خائفٌ. فقط. بعدها، بعدها بوقتٍ قصير رُحت ككل مخلوقات هذه الأرض، أسلك بما يضمن لي البقاء. أنا متأكدة أنني كنت أعي، وإن بشكل مبهم، هذين الخيارين، حتى وإن لم أتمكن من صياغة الأمر كلامًا كما أفعل الآن وأنا على مشارف السبعين قادرة على النظر من فوق تلة العمر، أكشف سفح التلة، ثم خطوتان يمينًا أو يسارًا أو رجوعًا للخلف وأكشف السفح من الجانب الآخر والأراضي الممتدة في القريب والبعيد. أعرفُ لأنني اخترت. واخترتُ رغم أنني كنت مذعورة حتى من يد أرادت أن تربِّت عليّ بحنو أو تحملني إلى بر أمان.

قصد عمي أن يطلب يدي لابنه أمين في وجودي. قال لأمي:

- سنأخذ رُقَيَّة لأمين، ما رأيك؟

- وابن عين غزال؟

- الدنيا تغيّرت، لا نعرف أين هو ولا أين أبوه. ولو كان يريد رُقَيَّة لبحث عنها. مرّ أكثر من عام منذ سقط البلد. انتظرناه فلم يأتنا منه لا حس ولا خبر.

- الرأي رأيك يا ابو الأمين، رُقَيَّة ابنتك، ومن يُرِدْها يطلبها منك.

استدار لي عمي وقال:

- ما قولك يا رُقَيَّة؟

لم أنبس بحرف. في الليل بكيت لا لأنني أريد يحيى فقد بدا بعيدًا وقد طوته الأيام مع ما طوت، حتى صورته وهو يخرج من البحر لم تعد تأتيني. بكيت دون أن أعرف سببًا لبكائي. ثم أتى أمين من بيروت وتم كتب الكتاب، وكان عمي شاهدي على العقد. أعلن أمام الحضور: «يا أمين أعطيك ابنتي رُقَيَّة، ستكون زوجتك وأم أولادك، لكنها قبل ذلك وبعده، ابنتي وابنة أخي، يسهر عليها بدلًا من الشهيد الواحد، ثلاثة. فلتكن حبة عينك كما هي حبة عيني وحبة عيونهم». مسح أمين عينيه. ووقّع على العقد.

تدخّل عِزّ، قال موجهًا كلامه للشيخ: «كيف نعقد القران ولم يطلب مني أمين رُقَيَّة. أطلبها مني الآن يا أمين وإلا... » ضحك، فضحك الحاضرون.

هل أرادني أمين أم غصبه أبوه على الزواج مني لأنني ابنة عمه وابنة خالته ويتيمة الأب والأخوين؟ وما الذي يريده وهو الطبيب

الشاب من بنت لم تتم دراستها الثانوية؟ ما الذي يريده من لاجئة تنزل ضيفة على عمها الذي ينزل بدوره ضيفًا على عائلة صديق له من صيدا؟

سوف أركب القطار بلا جلبة وسوف أبقى أيضًا خارجه. أُعطي أمين المتوقع من زوجة صالحة، الود والصغار واللُقمة والبيت النظيف، وأعطيه نفسي في اللحظة الحميمة فازداد ارتباكًا لأنني بعد كل لحظة حميمة سوف أتساءل ماذا حدث؟ فيبدو لي أن هذا من طبائع الأمور. يُقبِل الرجل على امرأته ثم يأخذها فتُسلم له نفسها وربما تفاجئها متعة لم تتوقعها ولا تدري من أين جاءت فتزيدها ارتباكًا على ارتباك.

بعد تخرجه من الجامعة عمل أمين طبيبًا في وكالة الغوث. لم يسعَ إلى السفر إلى الخليج كغيره ممن لم يجدوا عملًا في لبنان. كان يُكَرِّر أنه محظوظ لأنه وجد العمل الذي يريده في المدينة التي يريدها. أنجبت أولادي الثلاثة في صيدا، ثم انتقلنا إلى بيروت لأن أمين انتقل للعمل مع الهلال الأحمر الفلسطيني. سكنّا بالقرب من الطريق الجديدة لا تفصلنا سوى عشر دقائق مشيًا، عن سوق صبرا. وعندما أنشئت مستشفى عكا عند الطرف الجنوبي من مخيم شاتيلا انتقل أمين للعمل فيها. كان منهمكًا في عمله، يغيب عن البيت كثيرًا. فكان لقاؤه بالأولاد كالعيد. يحرِّره عمله من الأوامر والنواهي وضبط سلوك ثلاثة صبية يمكن أن ينزلقوا من شيطنة الصغار إلى شياطين. أمين هادئ بطبعه، طويل البال وقليل الكلام. لم أره يومًا يوبِّخ ولدًا، حتى

عندما يخطئ. يقول: «أَصْلُه يرُدُّه، لا تخافي». هل كان أمين مثلي خارج القطار وهو داخله أم أن عمله كطبيب وفّر له قطارًا خاصًّا ينتمي إليه ويروِّض الوحشة في روحه؟ لا أدري بل أتساءل أحيانًا إن كنت عرفت حقًّا أمين. أفتش عنه في الذاكرة ونحن في البلد. كان اسمه حاضرًا أكثر من شخصه، يكبرني بسبع سنوات، لا يأتي إلا في العطلة الصيفية. ما إن انتهى من الدراسة في مدرسة البلد حتى أرسله عمي إلى المدرسة الثانوية في عكا، بعدها انتقل إلى بيروت لدراسة الطب. حتى في العطلة لم أكن أراه إلا ساعة يلتئم شمل العائلة على غداء أو عشاء، أين أمين؟ تجيب أمه شاكية: لا يرفع عينيه عن الكتاب، أقول له ستفسد نظرك من كثرة القراءة. أحيانًا يخرج مع شباب البلد للسباحة. لم تكن تربطني به علاقة. كان قريبًا وبعيدًا، على غير أخيه عِزّ الدين الذي يصغرني بعام. تقول أمي كأنهما «روسِيَّة». نتشاجر أنا وعِزّ بانتظام كل يوم. نتضارب. لا يستغني أيٌّ منا عن الآخر. نلعب معًا، ونتسابق في السباحة والغطس وقطف اللوز وتقشير الصبّار. في الغالب يسبقني فأُجَنّ لأنني الأكبر. حتى في المدرسة كان قادرًا على حل مسألة حساب يستعصي عليَّ حلُّها. ويملأ الدار: «رُقَيَّة حمارة، أكبر مني بسنة ولا تستطيع حل مسألة الحساب!» أقاطعه: «كذّاب، تسعة أشهر فقط لا سنة!». أكرهه وأقرر ألا أطلب مساعدته في شيء. بعد يومين أعود له وأطلب. أعرف عِزّ الدين. أتساءل: هل أعرف حقًّا أمين؟ أعاشره. أقضي له حاجاته. تمتزج في وجوه أولادنا الثلاثة بعض من ملامحي وملامحه، وربما كنا نتشابه لأننا أولاد عم وأمي شقيقة أمه، وربما كما يحدث غالبًا للأزواج بعد طول العشرة

يمسي وجه كل وحركة جسده مرآة للآخر. أمين طيب، لم يسئ لي يومًا، يكتفي بالحديث الهادئ، ولو عاتب مرة يكون العتب تلميحًا. لا عنف في المعاملة ولا شجار. هل هي وصية عمي يوم زواجنا تُملي عليه هذه المعاملة أم أنه يشفق على ابنة عمه وقد صارت أم أولاده، يتيمة ولا أخ لها تلجأ إليه إن جار زوجها عليها أو أهانها بالفعل أو الكلام. حين يقول أحبك في اللحظة الحميمة أو يقول باعتداد: «رُقَيَّة ست الناس وأم الأولاد»، ويقبِّل يدي فجأة، يصيبني اضطراب مفاجئ لأنني وأنا أعرف كل شيء عن أمين لا أعرف أمين، أو ربما لا أعرف نفسي. لا أعرف ما تريده رُقَيَّة من هذه الحياة.

اختلَّ الميزان.

الفصل العاشر

القفز.. هل يصنع حَكْيًا؟

هل أحكي حياتي حقًا أم أقفز عنها؟ وهل يمكن أن يحكي شخص ما حياته فيتمكّن من استحضار كل تفاصيلها؟ قد يكون الأمر أقرب إلى الهبوط إلى منجم في باطن الأرض، منجم لا بد من حفره أولًا قبل التمكُّن من النزول إليه. وهل بمقدور فردٍ مهما بلغ من قوة ونشاط أن يحفر بيديه المفردتين منجمًا؟! المهمة شاقة تتولاها أيدي كثيرة وعقول وروافع وجرّافات ومعاول للحفر وأخشاب وحدائد ومصاعد تهبط إلى الباطن تحت أو تُعيد من نزلت به إلى ظاهر الأرض. منجم عجيب غريب يتعيّن عليك النزول إليه مفردًا لأنه لا يخص سواك وإن وجدت فيه ما يخصّهم، ثم إنه قد يسقط فجأة على رأسك، يُكَسِّرها أو يطمرك كاملًا بركامه.

وربما كان الأمر أشبه بصُرّة لا منجم، ولكن هل يمكن أن يصرّ شخص ما حكايته في منديل ويمد به يده إلى الآخرين قائلًا: هذه حكايتي، نصيبي من الدنيا؟ ثم كيف تَنْقُلُ صُرَّة بحجم الكف أو صُرَّة كبيرة كتلك التي تحملها النسوة على رءوسهن وهن يشردن

شرقًا عبر الجسر، حكاية عمر بكامله، مشتبكٍ بطبيعة الحال مع أعمار الآخرين؟

لم أحك عن عمي أبو الأمين. لم أحك حكاية أمي في صيدا، ولا حكاية عِزّ الدين. لم أحك حكاية حالي. حين حدثني حسن عن مشروع كتابه الجديد، قلت له: لو كان جدك أبو الأمين على قيد الحياة لحكى لك ما يملأ مجلّدات. كان مع الثوار منذ الستة وثلاثين وتنقّل بين المدن والقرى. وكان مع المقاومة عامي ٤٧ و٤٨، وبعد أن أطلعونا من البلد عاد إليها تسللا. لا أذكر كل التفاصيل ولكن أذكر الكثير مما قاله وبإمكاني أن أعيده عليك. قال: يُهمني أن أسمع منك ما حكاه لك جدي، لكنني أريد الآن شهادتك عن الخروج من البلد.

كان حسن يجمع شهادات أهالي قرى الساحل الفلسطيني، عن التهجير في عام ١٩٤٨.

لم يأخذ مني حسن في تلك الزيارة شهادتي، ربما لأنه لاحظ في اليوم التالي واليوم الذي تلاه أنني كنت شاحبة الوجه. لم أقل إنني أعاني من آلام شديدة في المعدة، تناولت مسكِّنًا وتحاملت على نفسي حتى سافر. ودّعته في أمان الله ثم لزمت الفراش أسبوعًا. هل انهار على رأسي المنجم في تلك الليلة وأنا أستعيد بعض التفاصيل استعدادًا للإدلاء بشهادتي؟

عمي كان يختلف. لم يكن يمرض حين يستعيد ما جرى، كان يحكي كثيرًا ويستفيض في الكلام. يحكي عن حامية حيفا، لجنتها القومية، الصالح والطالح من قياداتها، الاشتباكات التي جرت فيها طوال خمسة أشهر ثم ما جرى في يومين وليلتين سقطت فيهما المدينة

وخرج منها أهلها. لا يُغفل أيًّا من العناصر: الأهالي، المجاهدون، الجيش البريطاني، العصابات الصهيونية، الحاج أمين، جيش الإنقاذ، القاوقجي والملوك والرؤساء العرب. يحكي باليوم والساعة والحي والشارع والعطفة والزاوية، كأنه ينشر حيفا كاملةً أمام السامعين، فيروا بأم العين بحرها وكَرْمِلَها ومصفاةَ نفطِها وخطوطَ سككِها الحديدية، الضيِّق منها والعريض، الخط الحجازي الذي يربطها بدمشق عبر دِرْعَا، وخط يافا واللِّد الذي يحمل المسافرين إلى القنطرة ومنها إلى القاهرة، وخط بيروت وطرابلس يعبر إلى رأس الناقورة مرورًا بنفق طويل. وخط عكا، الذي كان يركبه أمين كل صباح للذهاب من حيفا إلى مدرسته في عكا. يعيِّن المحطات ويتوقف عند محطة سكة الحجاز، المحطة الشَّرْقِيَّة، الأكبر والأعرق. يصف مبنى المحطة وبوابتها الحديدية ولون القطارات. يقول كانت بنيةً في الثلاثينيات ثم طُليت بالأخضر الفاتح في الأربعينيات، تحمل حرفي PR «بالستاين ريلويز». يعيّن أسماء الأحياء والشوارع، يرسم حدودها بكلامه، حتى أسماء شركات الباصات تجد لها مكانًا في روايته.

وكانت صيدا تدخل الحكاية لا لأنه يقيم الآن فيها وكان قبل الهجرة يتردد عليها، بل لأنها كانت المحطة الأساسية في تهريب السلاح، وكان يقوم به. يأتي السلاح من ليبيا، يشتريه الحاج أمين من مخلَّفات الجيش البريطاني والألماني ويرسله بالمراكب إلى صيدا. ترسو عند مدرسة المقاصد الإسلامية، فيستلمها معروف سعد. «الله يسعده ويحميه معروف. كان يعمل في المدرسة ناظر القسمِ الداخلي. يستلم السلاح في الليل ويأتي بمن يُعِدُّه ويُشحِّمُه ثم يسلِّمه لنا. فنحمله في المراكب عائدين إلى فلسطين. وأحيانًا كانت الأسلحة والذخائر

تأتي من مصر من حلمية الزيتون مقر الحاج أمين، أو من مستودعات الجيش المصري أو من مرسى مطروح أو السلّوم، تُنقل إلى بور سعيد فتحملها المراكب إلى شاطئ صيدا. ويتم إفراغها في المقاصد».

وكان للجيوش العربية والملوك والرؤساء والقادة نصيب من الحكاية. يحكي ويصنِّف ويتهم ويدلّل بالوقائع، ويسبّ ويلعن ودائما يختتم الكلام بالعبارة نفسها: «الله يرحم الشهدا، عسكر وضباط ومتطوعين». يدهشنا كل مرة بتفصيلة جديدة. يتحدث عن المتطوعين اليوغسلاف الذين استشهدوا في يافا بعد ثلاثة أيام من سقوط حيفا. «كانوا عشرين يقودهم إبراهيم بك وهو من تركستان. حاصرهم اليهود في محطة السكة الحديد في المنشية. أبادوهم». يحكي عن ابن مفتي الأناضول الذي تطوع «عندنا في حيفا» واستشهد قبل سقوط المدينة بستة أسابيع. «شيعناه واللوز في أوله، فتّح نواره على الأغصان». يتكلم عن مجاهد جاء من الهند، «أي والله من الهند. اسمه محمد عبد الرسول، حضر من هناك واستشهد عندنا في فلسطين».

لم يكن عمي أبو الأمين حاضرًا حين احتلّوا البلد، ولكنه كان أول من عاد إليها من العائلة. يقول عدت إلى الطَّنْطُورَة. هنا تبتدئ الحكاية وهنا أيضًا تنتهي. لم ينقل عمي شيئًا مما رآه في قريتنا عندما عاد تسلُّلًا بعد شهرين. هل عاد إليها مرة واحدة لم يطق تكرارها أم أنها كانت بداية لزيارات لاحقة، أقرب لحج دوري وإن كان حجًا عجيبًا يتم خلسة ويبقى طي الكتمان؟

مرة واحدة فقط حكى عمي أبو الأمين عن زيارته. قال: هناك نصب تذكاري مثلّث الأضلاع من الرخام الأبيض أقيم عند قبة

راحيل، في مفترق الطريق إلى القدس وبيت لحم والخليل، نُقشت على النصب أسماء الشهداء الذين اشتركوا في المعارك التي دارت جنوب القدس. فلسطينيون ومصريون وسوريون وليبيون وسودانيون ويمنيُّون. مدفونون هناك. زرتهم. قرأت عليهم الفاتحة. وزرت مقبرة الشهداء العراقيين في جنين. فيها أكثر من ستين شهيدًا. يتعجَّب عِزّ، يقول: لكن المقبرتين في الضفة الغربية، كيف ذهبت إلى الأردن من الأرض المحتلة في فلسطين. يبتسم عمي أبو الأمين، تتسع ابتسامته، يجيب: الله يسامحك يا عِزّ قسّموا بلدنا ثلاث شُقَف. هم قسّموا، أنا لاقسَّمت ولا قبلت بتقسيم!

لسنوات طويلة لم يستوعب عمي أبو الأمين حقيقة أنه لاجئ، ربما لأنه لم يأتِ صيدا غريبًا بل كان يألفها لسنوات طويلة قبل إقامته الدائمة فيها، يسكن فيها أسابيع وأحيانًا شهورًا، له أصدقاء ومعارف لا في صيدا وحدها بل في صور والنبطية وبنت جبيل. زملاء وأصدقاء لم تبدأ حكايته معهم بضياع البلد بل هم أنداده الذين يأتون لزيارته في حيفا وفي الطَّنْطُورَة كما يذهب لزيارتهم في بلداتهم. يملك أن تطول زيارته لهم بلا حرج، لأنه لم يأتهم لاجئًا في بلدهم، يطلب فيتكرَّمون، ولأنه يوقن أنه مستقبلًا سيعود يستضيف من ضيّفوه ويردّ التحية بأفضل منها.

حين نزلنا صيدا كنا ضيوفًا على صديق من أصدقائه هؤلاء. لا صديقه اعتبرنا ضيوفًا ولا هو اعتبر نفسه ضيفًا فقد كانا صديقَيْ عمر يتشاركان في نوعين من العمل. جاهدا معًا منذ الستة وثلاثين وشاركهما أصدقاء آخرون، وكوّنا خبرة في شراء السلاح وتهريبه

بعيدًا عن عيون السلطات البريطانية والفرنسية ومن بعدها العصابات الصهيونية، وكانا شركاء في ملكية عدة مراكب صيد، يتيح منتوجها الإيفاء بمتطلبات المعيشة ويُستخدم الفائض في عملهما الجهادي.

بعد عام من الانتظار، قرر عمي استئجار شقة في صيدا القديمة، فانتقلنا إليها. لم نسكن المخيّم. كان بإمكان عمي ولسنوات أن يغضّ الطرف عن معناه فلا يرى فيه سوى محطة. محنة عابرة، ثقيلة نعم، لكنها وإن طالت، لن تطول. وحين طرحت أم الأمين ضرورة التسجيل في وكالة غوث اللاجئين. انفجر فيها غاضبًا: «وهل تحتاجين معونة يا امرأة، ينقصك كيس طحين؟ يا عيب الشوم!». سكتت خالتي وربما دارت الفكرة في رأسها وقالت إن زوجها على حق. ولكن عِزّ الدين عاد لطرح الموضوع وقال إن المسألة ليست كيس طحين وعلبة سردين بل لها علاقة بحفظ الحقوق، وبدخول المدارس والجامعات والالتحاق بالوظائف. قال لا بد من التسجيل. سبّ عمي عِزّ الدين وأعلن وقد اشتعل وجهه بالغضب: لست لاجئًا ولن أطلب معونة من أحدْ!

كان يقف على محطة القطار ينتظر الركوب عائدًا من حيث أتى، فأي عبث مطالبته بتسجيل وقفته والحصول على بطاقةِ هويةٍ للانتظار؟ أخذ عِزّ أوراق أبيه وأوراق العائلة وسجّل الأسرة بمعرفته في الوكالة. ولم يعرف عمي إلى أن مات بعد ٢٧ عامًا من إقامته في صيدا أنه مسجّل لاجئًا، وأن عِزّ الدين كان يستلم المعونة بانتظام، يحملها إلى أمه وخالته مرة ويوزِّعها في الغالب على بعض المحتاجين.

ربما لا تكون صورة الانتظار على المحطة دقيقة، لأن عمي وإن

كان يقاوم فكرة قبول وضعه وهو منهمك في عمليات محدودة عبر الحدود المستجدّة، كان يتمثل يومًا بعد يوم واقعًا مغايرًا لا يُقرُّ به ولا يعترف وإن كان يتسلل إليه خلسة. كانت المُخَيَّمات تتخذ شكلها الحالي، يصعب تجاهل وجودها أو إنكارها. وكان بعض معارفه ينقل له ما يتعرض له سكان المُخَيَّمات من قيود وضغوط من قبل المكتب الثاني والسلطات اللبنانية. يصيح فجأة بالصوت العالي: «الله أكبر يحتاجون إذنًا من السلطات للخروج من المخيم؟ هل هو سجن؟!» وكنت حبلى في ابني الثاني، عندما قامت السلطات بالتهجير القسري للاجئين بعيدًا عن القرى الحدودية ونقلهم إلى المُخَيَّمات وقد صدر قرار بمنع سكن الفلسطينيين في القرى الجنوبية المتاخمة لأراضيهم. وكان لعمي أصدقاء يسكنون في بنت جبيل، ينزلون مثله ضيوفًا على شركاء لهم. اضطروا نزولًا على القرار إلى الانتقال إلى مخيم عين الحلوة. أذكر عمي وهو يضرب كفًا بكف. كان غاضبًا ولكن اضطرابه كان يغلب على غضبه، يكرر أنه لا يفهم. الملوك والرؤساء العرب، لا يرحمون ولا يتركون إلى رحمة الله سبيلًا! لماذا ينقلون الخلق بعيدًا عن أرضهم ما داموا إن عاجلًا أو آجلًا سينتقلون للعودة إليها؟

عاش عمي ينتظر، وأمي كذلك، وإن كان انتظارها مغايرًا. توارى شاغل العودة للبلاد خلف انتظار عودة ولديها وزوجها. تكرر: لم يرسل الولدان خبرًا من مصر ولا أبو الصادق أرسل من أسره جوابًا. وكلما سمعت أن رجلًا ما من أهل القرية أو من غيرها وصل إلى صيدا وكان من بين الأسرى، تبحث عنه وتذهب لزيارته، تبارك له في الأول ثم تسأل: هل التقيت بأبو الصادق؟ وتعود إلى البيت لتحكي ما قاله الأسير المحرر، وفي كل مرة تكرر الكلام:

«طوِّل أبوالصادق. أكيد جاسوس من الجواسيس أخبرهم أنه كان في ثورة الستة والثلاثين فأصبحت التهمة تهمتين فقرروا أن يسجنوه فترة أطول من غيره. طوّل!». وفي يوم حاولت خالتي برفق أن تمهِّد لأختها القبول بما حدث. قالت: يا زينب يا ختي يقولون إن بعض الرجال ماتوا في الأسر، يمكن أبو الصادق منهم. فزّت أمي كمن لدغتها عقربة وقالت: فال الله ولا فالك. أعوذ بالله منك ومن أفكارك! ولثلاثة أسابيع تالية كان وجه أمي مُمْتَقِعًا يزيد امتقاعًا إن اضطرت إلى الحديث مع خالتي أو التواجد معها في نفس الغرفة.

لم يطل الانتظار بأمي، انتظرت حتى تزوجتُ من أمين. غنّت وزغردت وسَحَجَت يوم كتب الكتاب ويوم الدُخلة. وفي صباح اليوم التالي زارتني مع خالتي في بيتي الجديد في صيدا. جاءتا محملتين بالزُوَّادة المعتادة للعروسين. بعدها بأسبوع واحد وجدتها خالتي ميتة في فراشها. قالت خالتي: ليلة الأمس قالت لي يا حليمة يا اختي، الحمدلله زَوَّجْتُ رُقَيَّة فانتقلت في أمان الله للعيش في دار زوجها. بإمكاني الآن السفر إلى مصر للبحث عن الصادق وحسن. فلما قلت لها إن مصر كبيرة ولا نعرف لهما مكانًا فيها. قالت: قولي لأبو الأمين، إن وافق نذهب معًا، وإن لم يوافق أذهب وحدي. لن أعود إلا وهما معي. ونامت. مسحت خالتي دموعها ثم قامت. دخلت غرفة أمي وعادت. مدت لي يدها بمفتاح حديديّ كبير. قالت:

- مفتاح داركم يا رُقَيَّة.

- غريب. لم أره منذ غادرنا الدار. أين كانت تخبئه؟

- كانت تعلّقه في رقبتها. لا تخلعه حتى حين تنام أو تتحمم.

أقول لها يا زينب يا أختي الحبل سيهترئ. حين تتحممين اخلعيه ثم علِّقيه ثانية. لا تقبل. وذاب الحبل كما توقعت. أتت بحبل جديد علَّقَتْهُ به وبقيت على عادتها تنام به وتتحمم به.

أخذتُ المفتاح. عدت إلى بيتي بعد انقضاء أيام العزاء الثلاثة. قلت أعطي المفتاح لأمين ليحفظه مع الأوراق: شهادة ميلاده وشهادة تخرجه وإذن العمل. انتبهت: لا أوراق عندي سوى بطاقة الهوية الصادرة عن الأمن العام اللبناني. عدلت. قلت أعيده لعمي أبو الأمين لأنه مفتاح داره فالدار واحدة. يضعه في جيب قُنْبَازِه العميق ويروح يتحسسه من حين لآخر فيشعر... يشعر بماذا؟ وضعته على راحة كفي اليسرى وتأملته. مفتاح حديديّ قديم، داكن اللون صقيل. يملأ الكف وله ثِقَل. تحسسته بأصابع يدي اليمنى فتعرَّفت عليه لمسًا بعد أن عرفته بالنظر. فجأة ابتسمت وقررت أنني غبية، أبحث عن البعيد والبسيط الواضح أمام عينيّ. أمسكت بالحبل الدقيق بكلتا يديّ ورفعته ثم أدخلت رأسي فيه. صار المفتاح معلّقًا في رقبتي. أمسكت به ورحت أتأمله من جديد. ثم أدخلته تحت الثوب. شعرت بملمسه الحديديّ على لحم الصدر. مثل أمي سيبقى المفتاح معلّقًا في عنقي. في الصحو والمنام. لا أخلعه حتى في الحمام. وكلما تهرأ الحبل استبدلت به حبلًا جديدًا.

بعد سنوات عندما انتقلنا إلى بيروت وشاركت في محو أمية النساء في شاتيلا وتعيّن عليّ أن أزور نساء المُخَيَّم لإقناعهن بأهمية الأمر، اكتشفت أن ما ورثته عن أمي كان شائعًا. استغربت. كيف تفعل النساء الشيء نفسه، دون سابق اتفاق؟ أذكر زيارتي الأولى. ولأنها

الأولى كنت حيية مرتبكة، لا أعرف إن كانت ستبدو تطفلًا أم أمرا مرحبًا به. استقبلتني أم إبراهيم، خِتْيَارَة ستينية تعيش مع ابنها وكِنَّتِها وأحفادها. عرَّفتها بنفسي. قلت إنني من الطَّنْطُورَة وإنني زوجة الدكتور أمين في الهلال الأحمر الفلسطيني. قالت نحن من سَعْسَع، هل تعرفينها؟ وفَّرت عليّ الحَرَج لأنها لم تنتظر جوابي. راحت تحكي لي عنها وعن المجزرتين اللتين وقعتا فيها. قالت: راح لي بنت في المجزرة الأولى في شْبَاط. كان عمرها خمس سنين. دفنّاها هناك في البلد. في تشرين أول، بعد أن أعلن اليهود دولتهم بخمسة شهور، هجموا مرة أخرى، قاموا بمجزرة ثانية واستحلّوا البلد وأطلعونا.

مدّت أم إبراهبم يدها في صدرها وأرتني المفتاح المعلّق في حبل حول رقبتها. قالت: مفتاح دارنا.

لا حقًا سوف أعرف أن أغلب نساء المُخَيَّم يحملن مفاتيح دورهن تمامًا كما كانت تفعل أمي. البعض كان يريه لي وهو يحكي عن القرية الذي جاء منها. وأحيانًا كنت ألمح طرف الحبل الذي يحيط بالرقبة وإن لم أر المفتاح. وأحيانًا لا ألمحه ولا تشير إليه السيدة ولكنني أعرف أنه هناك، تحت الثوب.

* * *

ضحك عمي أبو الأمين وقال: مبروك عليكم صادق.

كان الرضيع بجواري على الفراش. تطلَّعت إلى عمي وبدا لي أنني سأقول شيئًا. لم أقل. كنت واهنة بعد ليلة طالت كأنها أبد. انفلت مني الصوت أمام تلك الفأس التي تضرب بلا رحمة أسفل ظهري. تَرُجُّ

البدن. لا ترُجُّه. تزلزله. يتشقق ويبدو على وشك أن يتطاير شظايا أو ينهدم ويتداعى ويتحول إلى أنقاض. ثم يسكن الألم قليلاً كأنه يتبدد أو يوشك. دقيقتان وتعود الفأس تضرب من جديد، هل هذا ما يشعر به الشجر حين تضرب جذعه فأس الحطاب؟ لا فأس ولا شجرة. جسمي يزلزله المخاض. تمسك خالتي بيدي وتقول: «هكذا الولادة الأولى، ستمر على خير إن شاء الله. الولادات القادمة تكون أسهل». لو أنها تكفُّ عن الكلام. لا أطيق الصوت، لا أطيق الفأس. أتشبث بيدها وأشدّ لعل الشدّ على يدها يحول دون ضربة تشطر الجسد نصفين. صحت أطلب أبي. صحت باسمه عاليًا حتى بدا أن صيدا كلها تسمع الاسم فتأتي به إليّ فيكفّ الفأس عني ويحمل لي الخلاص. فجأة كفّت. انزلق على ما يبدو الوليد. أغلقت عيني. أو ربما انغلقت العينان والأذنان. كأنني رحتُ في النوم أو سقطتُ في غيبوبة. لم أسمع صرخة الوليد. لم أره حين أمسكت القابلة بقدميه ورفعته وتبسّمت وهي تعلن أنه ولد والحمد لله، ثم تشرع في قص حبل سرته ومسح ما علق بشعره وجسمه من ماء البطن. لا بد أنها وضعته بجواري وأنا غائبة. لا أعي سوى جسمي المشدود تحت وطأة ألم لم يعد تمامًا هناك، كأنه تسلل من اليقظة إلى المنام. كلهم رأوا الولد قبل أن أراه. بعد سنوات حين وضعت حسن ثم بعدها حين جاء عبد الرحمن كنت واعية فرأيت وسمعت. مددت يدي لأحمل الولد الجديد. أما صادق فوجدته مُنَمْنَمًا في أقمطة بيضاء، على الفراش بجواري، حين نبّهني صوت عمي وهو يقول: حمدلله على السلامة. مبروك عليكم صادق. فتحت عينيّ فرأيت وجه أمين شاحبًا منهكًا كأنه أمضى ليلته في المخاض. ابتسم لي ابتسامة حيية وقَبَّل رأسي. لم يقل شيئًا.

لوهلة أردت أن أدير ظهري إلى الحائط، لأنني متعبة أرغب في النوم أو في الذهاب بعيدًا وحدي. وجدت نفسي أتطلع في الولد، أتملّاه: شعره أسود أملس تغطي خصلاته أعلى الجبين. صغير الوجه والتقاسيم، في وجهه استطالة وعيناه مغلقتان. ويدّاه تظهران من الأقمطة كقطعتي عجين مدورتين طريتّين، كأن يدا ما ضغطت على كل واحدة منهما عدة مرات فتكوَّنت في العجين غمازات أنبتت أصابع دقيقة يصعب تحديد طولها، وهي هكذا منقبضة مغلقة. لم أستطع إلا أن أتطلّع في الوليد. حمّلته لي خالتي، فإذا به بين ذراعيّ. شعرت بنغبشة في صدري لم تحدث لي من قبل. لن أميّز ساعتها أنها دفق الحليب.

لم تحضر أمي ولادة أيٍّ من أحفادها الثلاثة. هل كان يفرحها الاسم أم يحزنها، هل كانت تباركه أم تقترح اسما آخر يكون له بديل؟ توقف التفكير في تلك الليلة على السؤال الذي مر كالخاطرة سريعًا في البال، ليستقر ربما في زاوية ما ويعود لاحقًا بعد أسبوع وأسبوعين وثلاثة، ثم يختفي تمامًا ولا يعود.

عمي أبو الأمين هو الذي سمّى صادق وسمّى حسن. سماهما بعد أن وضعتهما فهو لا يسمّي قبل الولادة. يطمئن أولًا على صحة الوالدة والوليد ثم يسمِّي. وعندما حملت الولد الثالث أعلنتُ وأنا بعد حبلى في شهري الخامس: إن جاءت بنت أسميها وِصَال، وإن كان ولد يكون عبد الرحمن.

الفصل الحادي عشر

الشاب الذي يضحك

أعلن عِزّ الدين وهو يضحك:

- حظ يفلق الحجر! في يوم واحد ملوخية، ووظيفة ومنحة. طبعًا الملوخية أهم. أكلنا الملوخية. الآن عليّ أن أختار: الوظيفة أم الدراسة في الجامعة؟ بصراحة، اخترت.

يحب عِزّ الملوخية ويحبها أكثر حين أطبخها له. يحوّل المائدة إلى مهرجان ضاحك. يعلن بصوته الجهوري: ملوخية رُقَيَّة لا يُعلى عليها، تُسوِّيها أفضل من أمي وخالتي وكل نساء صيدا. أغمز له بطرف عيني لأنني أعرف أن خالتي تنزعج من هذا الكلام. ولكنه يتجاهل إشارتي ويسهب في التغزُّل في أكلته المفضلة شرط أن تكون من صنع يديّ، فهي تقوِّي القلب وتَرُمُّ العظم وتطيل العمر وتؤكد أن العرب لن يغلبهم أحد مهما بدا غير ذلك. والمؤكد أنها ستعيد لنا فلسطين!

نضحك.

لا أدري كيف يكون البيت وحال عمي وخالتي لو لم يكن عِزّ مقيماً معهما. كان يسحبهما بتلقائية إلى فورة حياة، ذهابه وإيابه وتعليقاته وأحاديثه وطرائفه التي لا تنتهي، والأخبار السياسية التي ينقلها لأبيه فينصت إليه باهتمام يعقبه حوار ممتد حول الممكن وغير الممكن. يبدو لي أحياناً أن عِزّ قادر على عقد الصداقات مع النسمة العابرة. يعرِّف الجميع بالجميع فيصبح أصدقاؤه أصدقاءً لبعضهم. وأصحاب أصحابه أصحابه. يفتح لهم البيت يعرّفهم على أمه وأبيه ثم يعرّف الأهل بالأهل فيتزاورون ويتصادقون. لا ينقطع الضيوف عن البيت: هذا صاحبي من عَمْقَا، هؤلاء الشباب من الزيب ويسكنون عين الحلوة، هذه الأسرة من الطيرة دعوتهم على الغداء عندنا. ما رأيك يا أمي في ابنتهم، أليست جميلة؟ «عيناها صغيرتان يا عِزّ.. البنت التي جاءت مع أخيها من يومين، بنت الصفصاف، أحلى، عيناها كحيلتان وكسمها كالغزال!» تتبرم خالتي من كثرة الضيوف ولكنها تنهمك في استقبالهم وتضييفهم فيأخذونها وهي لا تدري إلى حكاياتهم ونهفاتهم وما جرى وصار. وحين يذهبون يكون الإرهاق قد هدّها فتنام نومًا عميقًا وهادئًا، رغم كل شيء. ويكتسب أبو الأمين مكانة بين شباب كُثر، يُحيّونه في شوارع صيدا وحين يرونه في المقهى يقبلون عليه مستبشرين ويترددون على بيته للسؤال عنه وطلب مشورته والإنصات إلى حكاياته.

قلت لعِزّ:

- ما دمت ستسافر للإقامة في بيروت سأطلب من خالتي وعمي الانتقال للإقامة معنا.

- ومن قال لك إنني سأنتقل إلى بيروت؟

- ألم تقل إنه جاءت منحة؟

- لن أقبل المنحة!

تدخَّل أمين:

- ماذا تقصد؟ منحة من الوكالة للدراسة في الجامعة الأمريكية، أي مجنون يرفضها؟!

- تخرجت من المدرسة واكتفيت. معروض عليَّ العمل مدرِّسًا في الوكالة. عقلي يقول لي اقبل الوظيفة يا ولد، فتبقى مع الخِتيارِيَّة ومع أصحابك وتقوم بعمل تحبه.

- نحن هنا مع الخِتيارِيَّة. وأصدقاؤك لن يطيروا، ثم إن بيروت ليست أمريكا، يمكنك العودة في نهاية كل أسبوع.

تركتهما يتحدثان وقمت لأعد القهوة.

عدت بالقهوة فوجدتهما واجمين. قدَّرت أنهما اختلفا فحاولت أن أبدد التوتر بالحكي عن جملة جديدة كوّنها صادق فبدت لي طريفة، لم يهتما. شرب عِزّ القهوة وقال: «بخاطركم» وغادر، سألت أمين.

- تشاجرتما؟

- اختلفنا. قلت له إنه أحمق. سيندم على قراره حين يجد شبابًا كان متفوِّقًا عليهم، صاروا مهندسين وأطباء ورجال قانون، وبعضهم حصل على الدكتوراه وصار أستاذًا جامعيًا وهو

محلّك سر، مدرِّس في وكالة الغوث بالتوجيهي. لم يعجبه الكلام. انزعج.

ـ أعتقد أنه لا يرغب في ترك والديه.

ـ هذا تفكير طائش. تركت والديّ لأتعلم قبل أن أبلغ الثالثة عشرة من عمري.

ـ الأمر يختلف. هو يشعر أنه مسئول عنهما.

ـ أنا المسئول. أنا الأكبر. ولن أقصِّر. سأطلب منهما الانتقال للإقامة معنا.

ـ أعتقد أن عِزّ يريد الزواج.

ـ هل قال لك ذلك؟!

ـ لم يقل ولكني أعرف أنه يحب بنتا من المخيم. ويريد الزواج منها.

ـ هل عرّفنا بها؟

ضحكت:

ـ هي الوحيدة التي لم يأت بها لزيارتنا ولا لزيارة دار عمي.

ـ وكيف عرفت؟

ـ حكى لي.

ـ لم يحكِ لي!

ـ من صَفُّورْيَة.

ـ رأيتِها؟

ـ رأيتُها.

حرك أمين يده اليسرى مشرعًا أصابعه كالمروحة:

ـ كيف؟

حكيت لأمين عن البنت. وصفتها ونقلت له ما أعرفه عن أهلها.

رغبة عِزّ في الزواج من هذه البنت أمر مؤكد، أظنه سبب ميله إلى عدم قبول المنحة، وربما يريد الوظيفة للحصول على مرتب. يعمل في الصيف وأحيانًا أثناء العام الدراسي ويدّعي أنه يفعل لأنه يحب العمل، أو لأن «فلان» أحرجه فلم يتمكن من رد طلبه، ولكنني أعرف أن الوضع المالي للأسرة لم يعد على ما يرام. اضطر عمي لبيع مركبين من مراكبه ولم يبق سوى مركب واحد، والبيت مفتوح وعمي على عادته، كريم لا يرد طلبًا لمحتاج. لا عِزّ ولا عمي أبو الأمين تحدثا في الأمر بل استنتجتُ من حديث خالتي فنبّهت أمين، خجل أن يتحدث مع أبيه ولكنه عرض على عِزّ أن يعطيه جزءًا من مرتبه كل شهر بانتظام. رفض عِزّ وقال له: لك زوجة وابن، ورُقَيَّة حبلى. وربنا منعم ومتفضل ولا ينقصنا أي شيء. قال ذلك وأكَّده. ولكني الآن وهو يعلن أنه يُفضِّل العمل قلت لنفسي مؤكد هذا سبب وقد يكون السبب الأول لا الثاني في رفض مواصلة الدراسة.

استلم عِزّ عمله الجديد في وكالة الغوث في أول شهر تشرين الأول، وفي يوم التاسع والعشرين منه احتلت القوات الإسرائيلية غزة وبدأ

العدوان الثلاثي على مصر. اشتعلت صيدا بالمظاهرات وكنت أتابع الأخبار وردود الأفعال في لبنان وأنا في الفراش وقد وضعت ابني حسن. وأذكر أنني كنت أحمله بين ذراعي رضيعًا دون الثلاثة أشهر حين أعلن عمي أنه سيذهب إلى مصر:

سألته خالتي باستغراب:

- لماذا مصر؟

فنظر إليها مستنكرا السؤال:

- لأنها مصر!

قالت خالتي وهي تتصعَّب:

- لو كانت أختي زينب معنا لقالت لك خذني معك لنبحث عن الولدين.

تنهّدت:

- الله يرحمها ويكافئها على صبرها. أكيد أنها الآن تعيش معهم في الجنة.

أفلت مني الكلام:

- ألم يكن أحسن أن يرحمها في حياتها ويبقي لها ولو واحدًا من الثلاثة!

- خير يا رُقَيَّة؟! له حكمته التي يعجز عنها العباد. قولي الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهٍ سواه.

لم أقل شيئًا.

ذهب عمي عبر البحر إلى بورسعيد، وعاد بعد ثلاثة أسابيع ليستقبل الناس الذين توافدوا عليه كأنه عائد من الحج. يتصدر الجلسة ويحكي: زرت بورسعيد، وبور فؤاد وبور توفيق والإسماعيلية والسويس، والقاهرة طبعًا. يقول: رأيت القناة وسبحت في مائها. يقول: ركبت القطار إلى القاهرة وحضرت حفلًا لأم كلثوم. وذهبت إلى السينما وشاهدت قبل العرض فيلمًا اسمه الجريدة الناطقة رأيت فيه عبد الناصر كأنه أمامي شخصيًا وهو يخطب من على منبر الأزهر والناس تهتف له ثم تحمل سيارته. ورأيت فيه الطائرات وهي تقصف بور سعيد. يقول: استعلمت عن الحي الذي يسكن فيه عبد الناصر، ومشيت فيه. سأله الشباب ولماذا لم تطلب أن تلتقي به؟ يقول عمي وقد احمر وجهه قليلًا: القاهرة كبيرة، لم أعرف بمن أتصل ليأخذني إليه. ثم إنه مشغول، أحبابه كثر، تصوروا لو طلب كل من يحبه زيارته، هل يتفرغ للزوار أم يُرَكِّز جهده في إدارة شئون البلاد؟

بعد عودة عمي بشهرين أسرّ لي عِزّ بأن أباه باع نصف المركب ليوفر ثمن رحلته إلى مصر. لم يخبرني. لو عرفت لدبرت له الأمر، كان بإمكاني استدانة المبلغ ثم إعادته ما دمت صرت موظفًا ولي دخل. ولكنه لم يقل لي. ضحك عِزّ، ضحك ضحكة طويلة عالية وقال: الله عليك يا ابو الأمين، مَلِك! فضحكت.

الفصل الثاني عشر

الصفُّورِيَّة تدخل الحكاية

تطلع عمي مرة أخيرة في المرآة ورفع يده إلى عِقَالِه كأنه سيعدّل وضعه قليلًا فوق رأسه ثم عاد وأنزلها دون أن يلمسه. ضحك عِزّ معلِّقًا على اهتمام أبيه بمظهره:

- سيظنون أنك العريس يا ابو الأمين!

فأجابه أبوه وهو يبتسم:

- ولهم حق. لم أر عريسًا مثلك يذهب للطُلبة هكذا، لا حَطَّة ولا عقال ولا حتى سُترة. قميص وبنطلون كأنك من عمال سكة حديد حيفا.

- الدنيا حر.

- لكنك عريس، تلبس بدلة فيكون لك هيبة.

- نترك الهيبة للجيش والشُّعْبِة الثانية!

تعلَّق صادق بأبيه وألح في الخروج معه. رفض تُ فبكى. قال جده:

«بنا يا صادق». أمسك بيده واتجه نحو الباب، يتبعه أمين وعِزّ الدين. بقيت مع خالتي وحسن في البيت. وراحت خالتي تسألني للمرة العاشرة أو العشرين عن العروس، شعرها وطولها وعرضها وأصلها وفصلها.

- ورموشها طوال؟

- حلوة يا خالتي، رموشها طوال وعيناها كحيلتان ودمها خفيف وتدخل القلب.

- وصوتها عالٍ وتفسّر الكلام أم مثل بنت الجيران، تتكلم بسرعة وبصوت واطي فلا أفهم ما تقول؟

- كلامها واضح يا خالتي.

- قلتِ لها كم أخت؟

- ست أخوات.

- خلفتهم كلها بنات، ربنا يستر. وما الذي يفعله عِزّ بزوجة لها ست أخوات. الله يعينه!

تسكت دقائق وتغيب كأنها تتأمل مواصفات كِنّتِها التي لم ترها بعد. ثم تعود تسأل:

- كم تبعد صفُّورْيَة عن بلدنا؟

- لا أدري

- نواحي حيفا؟

- لا، قريبة من الناصرة.
- ولما استحلّوا البلد، أطلَعوهم؟
- حاصروا البلد ثم ضربوها بالطائرات.
- شرَدَوا؟
- طلعوا مشي على لبنان، نزلوا في رُميش وسكنوا عند معارف. بعدها بعدة شهور رجعوا.
- رجعوا بلدهم؟ وما الذي أخرجهم ثانية إلى لبنان؟
- قبل أن يصلوا صفُّورْيَة أمسكوا بهم واعتبروهم متسلّلين وسجنوهم في الناصرة ثم حملوهم في شاحنات وألقوا بهم عند الحدود.
- وأتوا صيدا؟
- وضعهم اللبنانيون مع آخرين في ثكنة جيش سنة أو أكثر في منطقة اسمها القَرْعُون، ثم نقلوهم على عين الحلوة.
- أول مرة حَدَا من بلدنا ياخد امرأة من صَفُّورْيَة.

عادت تسأل:

- وشعرها أملس أم خشن مثل بنت الجيران؟

ضحكتُ،

- لم ألمسه يا خالتي. لا أعرف. شكله أملس. تضفره في جديلة. هل تشربين معي قهوة؟

تنهّدت:

- أشرب.

أعطيتُها حسن وقمت إلى المطبخ لغلي القهوة. كنت أغالب الضحك. بدا الأمر أقرب إلى التحقيق. لم لا تنتظر يومين فترى بنفسها عروس ابنها؟! لم يكن بوسعها الانتظار. مسكينة خالتي تتهيَّب من بنت غريبة تنتقل للإقامة معها وتشاركها دارها ومطبخها وابنها. تكرر: لو كنا في البلد لتزوج عِزّ من صبية من صباياها، أو أخذ بنتًا من بنات عين غزال أو إجزِم أو جَبّع، «أخوالنا، تزوجنا منهم من قبل وعاداتهم مثل عاداتنا، صفُّورْيَة؟ لم أسمع بهذا البلد ولا أعرف عنه شيئًا. ربنا يستر!». كان قلقها معلنًا. أما عمي فلم أفهم سببًا لاضطرابه وهو في طريقه إلى عين الحلوة لطلب البنت. ما الذي يربكه؟ طلب عروس لابنه من أغراب لم يلتقِ بهم أبدًا أم افتقاده لأخيه وأقربائه من أهلِ البلد، الجاهة المعتادة التي تصاحب أهل العريس عند الذهاب للطُلبة؟ أم كان يخشى الذهاب إلى المُخَيَّم؟

ربما لم يكن اضطرابًا بل شيئًا آخر يترسّب كالقهوة بعد غليها، تبقى هناك داكنة ومركزة ومُرّة، ومنفصلة عن الشراب الذي يمتعنا مذاقه. كان عمي فرِحا مستبشرًا بزواج ابنه الأصغر وفكرة العروس التي تقيم معه في بيته. ولكنه حين ذهب ليطلبها مساء ذلك اليوم الربيعي من العام ١٩٥٧ تعيّن عليه أن يدخل المُخَيَّم الذي لم يكن دخله من قبل.

بعد قراءة الفاتحة أراد عمي أن يُعَجِّل بكتب الكتاب والدُّخلة

ولكن أنسباءه أعلموه أنهم يحتاجون بعض الوقت ليخبروا أقاربهم في المُخَيَّمات الأخرى. مال أبو البنت على عمي:

ـ اللي عليك عليك يا أبو الأمين، لا بد أن تصل الدعوة لكل أهل البلد. تمكّنوا من الحضور خير وبركة، لم يحصلوا على تصاريح، هذا الله وهذه حكمته!

ـ أية تصاريح؟

ـ يا ابو الأمين الله يرضى عليك. علينا أن نحصل على تصريح من الشعبة الثانية ليسمحوا لضيوفنا بدخول المخيم، تصريح خطّي مكتوب. سنُقَدِّم الطلب صباح الغد. وعلى ضيوفنا أن يقدِّموا طلبات للحصول على تصاريح بمغادرة مخيماتهم، وأهل صفُّورْيَة ما شاء الله كثار وموزعون في عين الحلوة وفي المِيَّة ومِيَّة، وفي برج الشمالي قرب صور وفي ويفل في البقاع، وفي نهر البارد نواحي طرابلس. لا بد أن نتصل بهم ونعرف ظروفهم ومتى يتمكنون من الحصول على تصاريح.

لم أحضر هذا الجزء من الحديث إذ كنت في غرفة داخلية أغيّر أقمطة حسن. ولكن عِزّ رافقنا أنا وأمين ونحن عائدان إلى بيتنا في المساء، قال لأمه وأبيه إنه يريد أن يُمَشِّي رجليه قليلا. وعندما وصلنا إلى البيت قال أريد فنجان قهوة من يد رُقَيَّة. وصعد معنا. كان متحرِّقا للكلام. أعاد عليّ كلام أبي العروس والتفت إلى أمين:

ـ لاحظت الوجوم الذي ساد المكان.

ـ لاحظت، ولم أفهم تمامًا ما جرى. حاولت صرف انتباههم

بالحديث عن مشروعات الوكالة في رعاية صحية أفضل للأهالي، وأنني أطمع في تنظيم دورات تدريبية لإعداد الشباب والبنات على الإسعاف يتحول لاحقًا ربما إلى معهد للتمريض. وفعلًا أثار الكلام انتباههم، ولكن أمي بقيت واجمة.

- وجم أبي عندما تحدث أبو كريمة عن التصاريح، لا لأنه لم يسمع بها من قبل بل لأنه كلما سمع يقرر أن يُسقط الأمر وينساه كأنه لم يسمع به. فجأة وجد عرس ابنه والإعداد له مرهونين بتصاريح من الاستخبارات العسكرية اللبنانية. سيضطر لمعايشة التفاصيل فكيف يُسقطها؟!

- وأمي ما الذي ضايقها؟

تدخَّلتُ في الحديث:

- خالتي ضايقها أن عدد أهل العروس سيكون أكثر من عدد أهل العريس. كأننا بلا عِزْوة. وسمعتها تقول لعمي لِـمَ لا ترسل لأهل الطَّنْطُورَة في الشام، ربما كان بينهم مقتدرون يستطيعون السفر.

ضحك عِزّ، قال:

- همست أمي في أذني: من سيطبخ لكل هؤلاء الناس؟! ماذا لو أتوا بمئة شخص. لسنا في البلد وليس معي إلا رُقَيَّة وجارتنا المريضة وابنتها التي لا أفهم كلامها. فهمست: لا تقلقي. نرتِّب الأمور لاحقًا. ولا داعي لهمس قد يصل آذان

الضيوف. عادت تهمس: ولهم أقارب سيأتون من البقاع ومن بعلبك. ولو طلعوا ألفًا ماذا أفعل؟ فقمت وجلست على مقعد آخر!

ضحك عِزّ. قهقه وقام واقفًا.

- سأعود إلى البيت لأطمئنهما قبل أن يناما. كنت أتحرَّق للتعليق على لحظة الوجوم المفاجئ. لم يكن باستطاعتي النوم دون التعليق. فضفضت واسترحت. تصبحون على خير.

حصل البعض على تصاريح ولم يحصل البعض الآخر. ولم يتمكن أغلب المدعوين الذين يسكنون طرابلس والبقاع من المشاركة في العرس فلم تضطر خالتي للطبخ لألف شخص. ورغم القلق الذي لازمها كانت تغني وتهزج وتُرحِّب بالضيوف، وامتد جسر الفرح من بيت العروس والبيوت المجاورة التي يسكنها أهلها وأقرباؤها في المُخَيَّم إلى دار عمي في صيدا القديمة. نصب الشباب حلقات الدَبْكَة في المُخَيَّم وفي صيدا حيث شارك أهل الحيّ في الدَّبْكَة وردّات العتابا والميجانا والأوف. حتى الزفة تمت كالمعتاد، جاء عمي بحصان من أحد أصدقائه. زيَّنوه وركبه عِزّ بعد أن حممه أصحابه في حمام المير وغنوا له: طِلع الزين من الحمام... الله واسم الله عليه، ويا ابو الحطة والعقال منين صايد ها الغزال؟ وغنيت مع خالتي وأم العريس وأخواتها:

قــولــوا لإمُّـــه تـفــرح وتتهنّا
تــرُشّ الوسايِد بالعُطُر والحِنّا

والـفـرح إلنا والـعـرسـان تتهنّا

والـــدار داري والبيوت بيوتي

واحـنـا خطبنا يـا عـــدوِّي موتي

وكان صادق الصغير يُصفِّق بيديه ويشارك في الغناء.

وغنّت خالتي يا ظريف الطول فأبدعت. وزادت على الأغنية المعروفة أبياتا لم أكن سمعتها من قبل:

يا ظريف الطول وقَّف تاقولَّك

رايح ع الغُربة وبلادك أحسن لك

خايف يا ظريف تروح وتتملَّك

وتـعـاشر الـغـير وتـنـسـاني أنـا

يا ظريف الطول يا بو سنٍ ضحوك

ياللي رابي في دلال امك وابـوك

يا ظريف الطول يـومٍ غرّبوك

شعر راسي شاب والضهر انحنى

يا ظريف الطول متغرِّب ع القوم

لا تبعد عنَّا وتحطّ علينـا اللـوم

إن شا الله ترجع نرجع ع الكروم

نحصد القمحات ونجمع زرعنا.

يا ظريف الطول حِلُو يا دلُّوع
واللي يطيح البير يحسب للطْلوع
احنا اتفرّقنا وعلى الله الرجوع
والمفرّق والمجمّع ربنا

دخلت بنت صفُورْيَة البيت وأقامت فيه وتوسّعت، فوجدت خالتي المسكينة نفسها تنكمش في حيِّز يزداد ضيقًا، و«الغريبة» كما تشير إليها في غيابها، تشاركها نظام البيت وما نطبخه اليوم وكيف نطبخه، و«هذه الكنباية هنا أفضل...»، و«هذا الشباك المغلق يجعل البيت خانقًا، نبقيه مفتوحًا على الفضا أحسن...»، و«عنك يا مَرَت عمي، أنا سأطبخ...». تشكو لي خالتي همسًا وهي تتلفت حولها: «أكلت عقل عمك وابن عمك. حتى الأولاد أكلت عقلهم. قويّة بنت صَفُّورْيَة!». «الحمد لله أنهم يسكنون هنا في المخيم. لو تزوجها عِزّ ونحن في بلدنا كان سيسكن في بلدهم فلا نراه إلا في الأعياد».

ولما كان معظم سكان صَفُّورْيَة لجأوا إلى لبنان، فقد دخلت القرية لا العروس وحدها دار أبو الأمين، وجود كثيف يُشعر خالتي أنها بلا عِزْوة ويستقبله عمي بترحاب وفرح. حملت له كِنَّته أهلها ليصبحوا له أهلًا بل حملت معها صَفُّورْيَة نفسها لتصبح جزءًا من حكايته. فيحكي ما جرى فيها وصار كأنه كان هناك حين اضطر أهلها

لمغادرتها باتجاه رميش. بل إنه قرر ذات صباح: «علينا واجب لا يجوز التقصير فيه»، فذهب إلى رميش ليتعرف على أفراد العائلة التي استضافت أنسباءه يوم خرجوا من قريتهم، وحمل معه هدية «مِحْرزة» من السمك. شكرهم ودعاهم إلى زيارته في صيدا، وأقام لهم ولَيمة كأنهم أنسباؤه لا أسرة استضافت أسرة بنت سوف تصبح بعد تسع سنوات كنّته.

ولكنه لم يتردد على المُخَيَّم. لا يذهب إليه إلا اضطرارًا.

الفصل الثالث عشر

مقال عن الانتظار

«كان يقف على محطة القطار ينتظر الركوب عائدًا من حيث أتى، فأي عبث مطالبته بتسجيل وقفته والحصول على بطاقةِ هويةٍ للانتظار؟!». قلت هذا الكلام سابقًا في وصف عمي أبو الأمين. أعيد النظر فيه. ليس عبثًا أن نحصل على بطاقة هوية للانتظار. ثم إن بطاقة الهوية دائمًا فيها اختصار، تلخيص لحكاية طويلة عريضة مركَّبة وممتدة وغير قابلة للتلخيص، اختزال لا يفي، ولكنه يشير.

الانتظار.

كلنا يعرف الانتظار.

أن تنتظر ساعة، يومًا أو يومين، شهرًا أو سنة أو ربما سنوات. تقول طالت، ولكنك تنتظر. كم يمكن أن ننتظر؟ حكت لي مريم عن المرأة التي انتظرت زوجها عشرين عاما. قلت لها احك لي أكثر. قالت: «هذه حكاية معروفة في الأدب القديم. ذهب الرجل إلى الحرب. ودامت الحرب عشر سنين. وفي طريق عودته ضاع». من

الذي ضاع؟ سألْتُ. قالت اسم الرجل، اسمٌ غريب يصعب تذكّره. قالت: «ضاع عشر سنين أخرى، وبقيت زوجته تنتظر. يحوم حولها الرجال، يرغبون فيها ويطلبونها للزواج، وهي تغزل على نولها، تقول حين ينتهي الغزل أقبل بواحد منكم. تغزل على نولها في النهار، وفي الليل تنكث الغزل». شدَّتني الحكاية، ولكنني قلت لنفسي إن الحكاية ناقصة، ليس هكذا الانتظار، فهو ملازم للحياة لا بديلٌ لها. تنتظر على محطة القطار، وتركب في الوقت نفسه قطارات تحملك شرقًا وغربًا وإلى الشمال والجنوب. تخلِّف أطفالا وتكبِّرهم، تتعلم وتنتقل إلى الوظيفة، تعشق أو تدفن موتاك، تعيد بناء بيت تهدَّم على رأسك، أو تُعَمِّر بيتًا جديدًا. تأخذك ألف تفصيلة وأنت وهذا هو العجيب، واقفٌ على المحطة تنتظر. ماذا تنتظر؟ ما الذي تنتظره رُقَيَّة على وجه التعيين؟

يرهقها التفكير. يرهقها تعيينه بالكلام، ولكنها تعرف أنها وهي تنتظر، خلَّفت ثلاثة أولاد. على المحطة. ثبّت أمين النُّطفة. وتحت مظلة الانتظار وضعت طفلًا أسمته صادق، ثم أعقبته بطفل ثانٍ سمَّته حسن، وبعدهما جاء عبد الرحمن.

يبحث الولد كِجْرو وليد مغمض العينين عن حلمة الثدي، يعرف طريقه باللمس أوالشم، يتعلّم الرضاع. يكبر قليلًا، يقبض بيده الصغيرة الناعمة إصبعها ويغلق قبضته عليه. يبتسم. يحبو. يُزَغْدِم كالعصافير. يمشي. يكوِّن جُملةً مفيدة ثم ينطلق في الكلام. يركض. إلى المدرسة. إلى الجامعة. إلى المرأة. إلى بيت يخصُّه وأولاد. يتبدَّل المشهد كما في فيلم يُجمل أعمارًا في ساعتين. رُقَيَّة دون الرابعة

عشرة تتبع أمها في الطريق إلى صيدا بلا كلام. رُقَيَّة دون الخامسة عشرة يدخل بها أمين. رُقَيَّة في الرابعة والعشرين وراءها ثلاثة أولاد أصغرهم رضيع. مع أمين في بيروت. الأولاد في المدارس. الأولاد في الجامعات. في المظاهرة. خلف متراس ويهددهم في المواجهة متراس. الأولاد في الطائرات. رُقَيَّة تجلس على السلم تحت القصف في بيروت، تنثني حتى يكاد رأسها يلمس الركبتين تضم مريم التي هبطت عليها كأنما من السماء. نبدأ من جديد. مريم تحبو. مريم تمشي. تكوِّن جملةً مفيدة. تركض إلى المدرسة. إلى الجامعة.

حكاية غير قابلة للتلخيص.

ثم ما موقع الخوف من وقفة الانتظار؟

الخوف المُضْمَر كمياه جوفية مقيمة في الصحو والمنام، والخوف الصريح لحظة ترتج المدينة فجأة. دقائق ثم تنتبه أن البناية التي تحوَّلت إلى ركام يتصاعد منه اللهب والدخان، بصدفة غير مفهومة، هي بناية الجيران لا البناية التي تسكن أنت فيها.

حكاية غير قابلة للتلخيص.

كان الانتظار قائمًا بذاته، صحيح، أشبه بالأرض التي نقف عليها. ولكن ذلك الشيء الآخر أيضًا، كان دائمًا هناك. يراكم نوايا تعلن عن نفسها فجأة، وإلا كيف أفسر سلوك عمي أبو الأمين وما حدث بعد عام السبعة وستين، وذلك التغيير المفاجئ، في المُخَيَّمات (هل كان مفاجئًا حقًّا أم كان انتقالًا طبيعيًا إلى النتائج بعد المقدمات؟) التغيير الواضح في وجوه الصبايا والشباب، في نظرة العينين، في الوقفة

والمشية واللفتة ومعنى المكان. ليت مريم هنا لأطلب منها أن تفصِّل لي أكثر حكاية تلك المرأة التي انتظرت عشرين عامًا. بنيلوب. قالت إن اسمها بنيلوب. لا أحد ينكث غزله وإن بدا غير ذلك. لا أحد يتجمَّد في فعل الانتظار.

كان عمي يواصل رحلات تسلله إلى البلد. لا يمكنني نقل التفاصيل لأنني لا أعرفها ولأن أبو الأمين المُغْرَم بالحكي والكلام، كان يتكتم أمر رحلاته. يتغيّب عن الدار، أسبوعًا أسبوعين وأحيانًا شهرًا فيبدو أنه خرج إلى البحر مع الصيادين. ولكن مخاوف خالتي ولاحقًا مخاوفنا جميعًا في انتظار عودته، كانت تؤكد أننا نعرف ما لم يقله وأنه ذهب هناك. ليفعل ماذا؟ ذهب وحده أم مع آخرين؟ خطّط وحدَّدَ هدفًا يستدعي المخاطرة أم ذهب فقط لأنه يرغب في الذهاب؟ لا يقول. لا يسعفنا سوى الخيال.

وحين انطلق صوت عبد الناصر من على منبر الأزهر ذات يوم من أيام الجمعة في خريف العام ١٩٥٦ كانت صيدا وصور والنبطية وبنت جبيل وبلدات وقرى أخرى تُنصت تمامًا كما ينصت المُخَيَّم. وكان الصغار بذلك الزُّنْبَرَك العجيب في ركبهم يقفزون فجأة من صغار إلى شباب. والزُّنْبَرَك على ما يبدو لا يقتصر على الرُّكَب التي تطيلهم بدلًا من الشبر أشبارًا. هل كان للمُخَيَّم رُكَب وزُنْبَرَك لينتقل مثلهم بلا حس ولا خبر من حال لحال، ويتطلب مثلهم أن يجلس مجددًا أمام المصور ليلتقط له صورة تعكس الشكل الجديد؟

وجاءت السبعة وستون.

ما الذي فعلته فينا؟ قالت بنت صَفُّورْيَة إن أباها وأعمامها

وأخوالها وكل من تعرف من أهل صَفُّورْيَة وربما من تعرف ومن لا تعرف من أهل القرى الأخرى في المُخَيَّم أخرجوا مفاتيح دورهم واستعدّوا بهوياتهم وأوراق الطابو التي تثبت ملكيتهم للأراضي والبيوت. قالت إن أمها كانت تستفسر: هل نعود كما جئنا مشيًا على الأقدام، أم تحملنا سيارة إلى هناك؟ ولما قال أبوها الله أعلم، توتَّرت وقالت أريد أن أعرف ما الذي أبقيه وما الذي أتخلّص منه؟ كانت بسطت من حولها كل ما في البيت من ملابس وأغراض. هذه تطويها بعناية لأنها ستحملها معها وتلك تكوِّمها جانبًا لأنه لا حاجة بها وستتركها بالباب ليأخذها صاحب النصيب. ثم تتوقف حائرة فجأة وهي تمسك بسترة صوفية اشتغلتها بيديها لأصغر البنات وصغرت عليها، لا تدري إن كان عليها التخلّص منها لأن أحدًا لن يستخدمها أم تحتفظ بها لأنها تذكِّرها بفرحتها يوم أتمتها وبفرحة البنت يوم ارتدتها للمرة الأولى في العيد الصغير. فجأة تحدِّث بنتًا من البنات أو نفسها، تقول: عندنا موقد هناك في الدار أكبر وأحسن. لا داعي لحمل الموقد. وفراشنا هناك جديد. لم يعد جديدًا، مر زمان. نأخذ الفراش. مدفأة الكيروسين تنفعنا في الشتاء، سآخذها معي، هل يمكن استئجار شاحنة لنقل الأغراض؟ ثم تلتفت فجأة إلى زوجها وتسأله هل نحتفظ ببطاقة وكالة الغوث؟ رأيي أن نمزقها، ما رأيك؟ يجيب: سنمزقها ما إن ندخل أرض فلسطين.

لم تفعل خالتي كما فعلت حماة ابنها. لم تفرز ملابس أو أغراضًا. ظُهر الخامس من حزيران أعلنت خالتي: لن نتصرف كأننا بلا أصل وننكر الجميل، نرحل هكذا بلا سلام أو كلام. بدأت في برنامج

مُكَثَّف من الزيارات، يشمل الجيران وجيران الجيران، في حي السبيل وأبو نخلة والأحياء المجاورة. كل يوم تقوم بزيارتين أو ثلاث، تقول بخاطركم، وتُعبِّر عن الشكر والامتنان وتدعو لزيارتها في البلد وتؤكد: «دارنا واسعة وأهلًا وسهلًا بالجميع. أمانة لا تطوّلوا علينا، سنكون في الانتظار».

ولما جرى ما جرى. وأعلن عبد الناصر أنه يتنحّى تمامًا ونهائيًا عن منصبه، بدا لي أننا سننكث الغزل كالسيدة في الحكاية القديمة.

كنت حمقاء.

مجرد أم لصغار لم تتعلم بعد إلا القليل فلم تنتبه أن خروج الناس بالملايين لمطالبة عبد الناصر بمواصلة الطريق كان يشير.

لم أنتبه إلى أن فوجئت ذات يوم بأن المُخَيَّم غادر مكانه. همّ وسار من الأطراف إلى مركز البلد واستتبّ فيه. وكلما حاصره الجيش، أو أطلق عليه النار، تصدّر أكثر وتمركز في الحكاية.

صار عمي أبو الأمين يشرب قهوته بسرعة في الصباح ثم يرتدي قُمْبَازَه والجاكيت ويضبط الحَطَّة والعقال، ويمسك بعصاه ويعلن لخالتي بصوت جهوري: «لا تنتظريني على الغداء يا حليمة، سأقضي اليوم في المخيم، لديَّ شغل كثير». يرفع العصا ثم يدق بها على الأرض، ويمضي. وأحيانًا يطول به السهر هناك فيطلب من شاب من شباب التنظيمات عنده تليفون أن يتصل بفرن أبو نخلة أو بالمقهى المجاور للبيت، فيأتي ولد يطرق الباب، يفتح له عِزّ فينقل له الولد الرسالة: اتصل بنا عمي أبو الأمين، يقول لا تنتظروه لأنه سيقضي

الليلة في المخيم، الشباب يحتاجونه. فيضحك عِزّ الدين وتأتي أمه وزوجته لتعرفا ما الخبر. ويقول عِزّ وهو يواصل الضحك: سيقضي الوالد الليلة في المخيم، احذري يا ام الأمين شايفلك الخِتْيار كأنه ابن العشرين، ويمكن حاطط عينيه على صبية هناك!

ولأن أمين وعِزّ كانا يعملان في المُخَيَّم فسينقلان لنا مدى شعبية أبيهما بين أهله وشباب الفدائيين. تشعَّب نشاطه، ينقل معارفه وخبراته بالطرق والمسالك على الجانب الآخر من الحدود، يساعد في التدريب على تمييز الأسلحة واستخدامها، والأهم ربما أنه كان يحكي حكايته فيفصِّل ذكرياته مع الشيخ القسَّام، وثورة الستة والثلاثين، ومعارك السبعة والأربعين والثمانية والأربعين، وما حدث يوم كذا في قرية كذا، والدروس المستفادة. لم يعد جمهوره يقتصر على أهل بيته وبضعة أصحاب يلتقي بهم في المقهى في البلدة القديمة بل امتد ليشمل شباب المُخَيَّم وغيرهم من أهل صيدا والشباب القادمين من قريب وبعيد.

يصطحب عمي صادق ويُلحقه بفريق الأشبال، يحمل لحسن ورقًا أبيض مقوى يبسطه أمامه وهو يقول: ارسم الخريطة يا ولد، ارسمها كبيرة وبالألوان. فيبسط حسن الورقة البيضاء على الأرض وينحني كالساجد عليها، يُحدِّد خطها الخارجي بالقلم الرصاص، يستخدم الممحاة ليعدل خطًا أو يدقق منحناه. ثم يفتح علبة الألوان ويبدأ بالبحر يلوّنه بالأزرق، ثم ينتقل إلى صحراء النقب ويلوِّن بالأصفر، ثم ينهمك في تعيين المدن والقرى. وبعد نصف يوم من الانهماك ينادي جده، ويقول: ما رأيك يا جدي؟ ينحني أبو الأمين

على الخريطة، يحاول أن يثني ركبتيه ويركع ليتأمل التفاصيل، فلا تساعده الركبتان فيتربَّع جالسًا أمام الخريطة، يتطلع فيها. يضحك فيظهر سنه الذهبي الذي ركّبه له طبيب شاب يظل يذكره بالخير، يقول: «الله يسعده ويحميه أينما كان. تعلَّم في جامعة القاهرة وفتح عيادة أسنان في حيفا». كان حسن ميّز الطَّنْطُورَة بكتابة اسمها بخط أكبر من الذي استخدمه في كتابة اسم حيفا ويافا والقدس، وعيّن مكانها بدائرة كبيرة لوّنها بالأحمر كأنها لا حيفا عاصمة القضاء. يدقق أبو الأمين أكثر في التفاصيل ثم يزحف ويجلس على الخريطة ويمد يده ويتناول القلم من حسن ويضيف بلدات وقرى لم أسمع عنها لا أنا ولا أمين. ويقول، وهنا، نسيت هذه القرى من جبل عامل، هذه قرى لبنانية واستولى عليها اليهود منذ الهدنة في الـ ٤٨: المطلة وإبل القمح، الذوق الفوقا والذوق التحتا والمنصورة. يُعَيِّن موقع كل قرية بدائرة صغيرة حمراء، ثم ينزلق بيده إلى أسفل قليلًا وهنا هونين والخالصة والعباسية والناعمة والصالحية والزاوية، متجاورة، بين الواحدة والأخرى أقل من نصف ساعة مشيًا على القدمين. ثم ينزلق بيده أكثر: وتحتها إلى الشرق قليلًا، قَدَس والمالكية. عمك معروف سعد دافع عنهما وهو يحارب في فلسطين. كان الشباب يأتون من طرابلس وبعلبك وبنت جبيل وغيرها ويتدربون هنا في صيدا، في ساحة باب السراي، وبعدها يتجهون إلى شمال فلسطين. المالكية مهمة يا ولد. يضع دائرة حمراء كبيرة حول المالكية. ثم يتجه بيده إلى يسار الصفحة وقبل أن يصل إلى أزرق البحر، يتوقف: وهنا كفر بُرعم والنبي روبين وطربيخا. يعود يحدِّق إلى الخريطة ويقول: أين الشجرة؟ لا أرى

الشجرة. هنا، يُعيِّن الموقع بالأحمر، شرق صفُّورْيَة بشويّ، شايف حطّين؟ انزل قليلًا وغرِّب شوي. عارف عمك ناجي يا ولد؟ ناجي العلي الرسّام اللي من عين الحلوة؟ أصله من الشجرة، وفي الشجرة استشهد عبد الرحيم محمود. هل تذكر ما قاله يا ولد؟ فيتلعثم حسن الذي يجد صعوبة في فهم الشعر وحفظه، يتدخل صادق وينشد:

سأحمل روحي على راحتي   وأُلقي بها في مهاوي الردى
فإما حياةٌ تسـر الصديـقَ   وإمـا ممـاتٌ يغيـظ العـدا

- تمام تمام. احفظها يا حسن. ولا تنس الشجرة مرة أخرى، عمك ناجي بِدُّه يزعل منك لو نسيتها.

ثم ينتبه فجأة أن عَبِد الصغير يتربَّع بجواره على الخريطة، يطالب بالانتباه فيقول له:

- شو حافظ يا عَبِد؟ ياللا قول.

فيغني عَبِد:

مـــوطـــنــي مـــوطـــنــي
الجـلالُ والجمـالُ والسـناءُ والبهاءُ
فـــــي رُبـــــاك
فـــــي رُبـــــاك
الحيـاةُ والنجـاةُ والهنـاءُ والرجـاءُ
فـــــي هـــــواك

فـــــــــــي هـــــــــواك

هـــــل أراك هـــــل أراك

سـالمًـا مُنعَّـمًـا وغـانمًـا مُكَـرَّمَا

هـــــل أراك فـــــي عـــــلاك

تبـلـغ الســماء تبـلـغ الســماء

مـــوطـــنـــي مـــوطـــنـــي

يتدخَّل صادق:

- تبلغ السِّماك لا السماء. السماء غلط!

- الله يرضى عليك يا صادق، خِفّ عن عَبِد شوَيّ. شاطر يا عَبِد. ممتاز.

يمد أبو الأمين يده إلى جيبه ويعطي عَبِد ثلاث حبّات من الملبس الذي صار يحرص على شرائه والاحتفاظ به في جيبه منذ صار جدًّا له أحفاد.

الفصل الرابع عشر

عَبِد قيسَارِيَة

لم يترك لي فرصة تأمله، لم يتح لي التوقف لأربط بين الصغير الذي ودّعته قبل خمس وعشرين سنة في المسكوبية بالخليل، والرجل الذي يقف أمامي. فتح ذراعيه واسعًا وضمَّني وسط دهشة الأولاد وارتباك أبيهم. أبعدني قليلًا ليتأملني. قال وهو يضحك ضحكة حرة عالية: عيناك لم تتغيرا والوشم طبعًا. قلبت عليك البلد، ذهبت إلى صيدا، وإلى عين الحلوة، وعندما قالوا ذهبوا إلى بيروت سألت في صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة. لو كنت أعرف اسم زوجك لسهل عليّ الأمر. عدت إلى صيدا ثانية فقالوا لي: هل أنت متأكد أنهم من الطَّنْطُورَة، أهل الطَّنْطُورَة يسكنون الشام. بقيت أسبوعًا كاملًا حتى وجدت ختيارًا قال لي إنه يعرف ابو الأمين واصطحبني إليه. فدلَّني على عنوانكم في بيروت.

ثم جُمَلٌ بَرْقِيَّة عن وِصَال، عن أمه، عن نفسه. سألني عن أمي. قلت رحلت. تسلم راسك. لحظات صمت ثم يعود الحديث يجري بشكل عادي. بدا عاديًا. ثم تركته مع أمين والأولاد ورحت أُعِدُّ العشاء.

أصبح عَبد أطول مني، كيف؟ حملته إلى البحر وهو يرتعش ويقول لا أريد، أكرر سنسبح سويًا، ستحب البحر، صدّقني. تصله الموجة فيزداد تشبثًا بعنقي، ثم يبدأ في البكاء. كيف أربط بين الصغير الخائف وهذا الشاب النحيل الوسيم الذي أقبل عليّ بلا حرج وضمّني كأنه أحد شقيقيَّ وقام من بين الأموات. نسيته؟ لم أنسه ولكنني سلّمت بغيابه. هل سلّمت؟ قال: كنت أعرف أننا سنلتقي. ويوم تخرّجي من المدرسة، ويوم تخرجي من الجامعة قلت لوصَال كيف أبلّغ رُقَيَّة أنني تخرّجت؟ ترى هل تزوجت رُقَيَّة وكم ولدًا خلّفت؟ قال: تزوجت وصَال ولها خمسة أولاد وبنت واحدة، ما رأيك يا صادق نطلبها لَك؟ ضحك صادق: لو حلوة، موافق! قال: أعمل في بيروت. الله يعينك يا ابو صادق سأظلّ أزعجكم بزياراتي. احسبني شقيق رُقَيَّة أو ابنها البكر أو ضيفًا ثقيلاً ولصقة كوكس. أمرك إلى الله.

أقبل عَبد على الطعام بنهم قال: أشهى أكلة تناولتها في حياتي. بعد ذهابه علّق عَبد الصغير: أكل كالمجوع، لم يُبق لنا شيئًا للغد. زجره أبوه. ضحكتَ. كنت في حالة مزاجية طيبة كأنني سعيدة، ولكنني في الليل لم أتمكن من النوم. أتى عَبد بالبلد كله كأنه كان يحمله لي معه وتركه سرًا ومضى. أي هدية؟! أي هدية؟! لم لم تفكر أمي كما فكرت أم وصَال بحمل صندوق حديدي صغير فيه الأوراق؟ كانت هناك صورة لأبي وأخويّ التقطت لهما في حيفا. أذكر أبي يعتمر الحَطَّة ويرتدي قمبازًا وعليه سترة يبدو منها حزام جلدي يحيط بخصره وعن يمينه الصادق يرتدي ما يليق بموظف شاب في البنك العربي: بدلة وطربوش، وإلى يساره حسن في بنطلون وقميص. لماذا أتى لي عَبد بهم وكأنهم أهله هو لا أهلي. لا أحدِّق فيهم كثيرًا، أعرف أنهم هناك

مستقرّون في زاوية ما مغلقة بإحكام في قلبي، لكن عَبد أطلقهم عليّ ككلاب مسعورة؟ أي صورة هذه؟ كيف أشّبِّه أبي وأخويّ بكلاب مسعورة؟ الذاكرة ربما، ذاكرة الفقد كلاب مسعورة تنهش بلا رحمة لو أُطلقت من عقالها. كيف أنسِل الصورة الآمنة والابتسامة الرائقة أمام عدسة المُصَوِّر من الجثث الثلاث هناك على الكوم؟

كان لأبي هيبة، لأنه أبي؟ لأنه قوي البنية عريض المنكبين؟ لأنه يركب حصانًا طويل العنق والقوائم والذَّنَب وله وجه جميل؟ أم لأن للحَطَّة والعقال ونادرًا ما كان يشاهد بدونهما، هيبة؟ (حين يغتسل أو يتوضأ أو يذهب إلى النوم يخلعهما فيبدو بشعره الأسود المطروح إلى الخلف، أصغر سنًا). أتطلع إليه، ممشوقًا مرفوع الرأس، مستقرًا على متن حصانه، يمسك بزمامه فينقاد له ويتهادى به لأنه يقترب من البيت. أتطلع وهو يغادر، فأرى ظهره وكتفيه والحَطَّة من الخلف. يسير به الحصان سيرًا رقيقًا ليِّنًا ثم يجري ثم يتوسّع في جريه ويستقيم تدريجيًا فيه. أتطلع حتى يصير أبي وحصانه كأنهما خيال جسم واحد يبتعد شيئًا فشيئًا حتى يغدو نقطة مراوغة في الفضا. هل كان أبي في الأربعين؟ في الثانية والأربعين؟ تقول أمي إنه دخل بها وهو في الثامنة عشرة. وكان الصادق أكبرنا في الثانية والعشرين حين استحلّوا البلد. لم يكن يُشبه أبي، كان أقرب لأمي، صغير الحجم أقل جُرمًا من أخيه الذي يصغره بست سنوات. يبدو رغم طربوشه وبدلته تلميذًا في المدرسة الثانوية، أما حسن ابن المدرسة الثانوية فقد حملته ركبتاه فجأة وظل يزداد طولًا حتى تجاوز أباه. كان مثله عريض المنكبين وقويّ البنية. الوجوه واضحة، حين أستدعيها تأتيني بسهولة وتلازمها الصورة على الكوم. ألا يمكن الفصل بين الصورتين؟

تعقدت علاقتي بالسماء، تعقَّدت إلى حد الفساد منذ تلك اللحظة التي رأيتهم فيها على الكوم. ولم تكن «لماذا؟» مهما علت وصعدت وَألَحَّتْ لتجد ردًا مقبولًا ولا معقولًا. لم أقل «لماذا؟» أقصد لم أنطق بها وربما لم أع أنها هناك تتردد في صدري صباح مساء وعلى مدار الليل والنهار. لم أَقل شيئًا. تحصَّنتُ بالصمت. والآن يأتيني هذا الشاب الوسيم الضاحك الذي يُفرط في الأكل ليقول هكذا ببساطة «عَبد من قيسَارْيَة» فيفتح عليّ باب جهنم الذي أوصدتُه منذ زمان. يُطلَق عليّ كلاب الذاكرة. لِـمَ لا تذهب عني بعيدًا يا ولد؟ لِـمَ لا تتركني وحالي. تناسيت حتى بدا أنني نسيت. ثم إن هناك صادق وحسن وعَبد، آخرين أتشاغل بالتحديق فيهم كأنهم الأصل، كأنني نسيت الأَصل. ما الذي تريده مني يا ولد؟

قال أمين: «ما بك يا رُقَيَّة؟ تتقلبين كثيرًا، هل أعطيك حبة مهدئة؟».

لم أجب. غادرت الفراش وبقيت في الشرفة إلى أن بدت الخيوط الأولى لفجر وشيك. صنعت لنفسي فنجان قهوة ثم نزلت إلى البحر.

قلت لعَبد في زيارة تالية: «اِحْكِ لي عن وِصَال».

قال: «جميلة ما زالت، ولكنها تبدو أكبر منك سنًا. ربما هو الفرق بين حياة المُخَيَّم في جنين وحياتك في بيروت». تطلعت في عينيه. هل ينتقد؟ بدت النظرة عادية. قال: «تزوجت من فلاح من مرج ابن عامر، لاجئ مثلنا ويسكن المخيم. كانت السنوات الأولى صعبة. ثم اشترت أمي آلة خياطة بالدين وصارت تخيِّط للجيران. بعدها

تزوجت وِصَال وأنا حصلت على منحة من الجامعة الأردنية. ومشي الحال. كنتَ أدرُس في عمان وأعود إلى جنين في العطلة الصيفية وإن تيسّر الأمر أذهب مرة كل شهرين أو ثلاثة. وعندما احتُلَّت الضفة عدت إلى جنين متسللًا مرتين».

صرّ ربع قرن من مجريات حياته في منديل وقال هذا ما حدث.

يزورنا عَبِد بانتظام، مرة كل أسبوع على الأقل، أدعوه لتناول الغداء معنا. وأحيانًا يتصل بي ويطلب أن نلتقي لنشرب فنجان قهوة على مقهى من المقاهي المتناثرة على شاطئ البحر. أمين يقول إنه شاب محترم وإن بدا قلقًا بعض الشيء من ألفةٍ لم يعهدها بيني وبين أي شخص آخر، رجل أو امرأة. ولكنه لم يعلق، ترك التعليق لعَبَد الصغير الذي راح يعلن بمناسبة ومن غير مناسبة ضيقه بهذا الضيفَ الذي «طلع لنا كعفريت العلبة». يتصيَّد له السلبيات: يتحدث كثيرًا، يضحك بصوت عال، ينسى أنه ضيف وعلى الضيف ألا يطيل الزيارة وألا يُفرط في الأكل، ألم تعلِّمينا ذلك، فلماذا لا تقولين إنه قليل الذوق؟! أنهره تمويهًا على ضحكة تكاد تُفلت مني حين أنتبه أن عَبد الصغير بكل بساطة يَغَارُ منه، ويزعجه أنني سميته على اسمه. صادقَ لم يكن هنا، كان منشغلًا في مراهقته ودراسته وأسئلة كونه فلسطينيًّا في لبنان. أما حسن فقد تعلّق به لأنه أعجب بالشخص هكذا ببساطة، لأن المحبة من عند الله أم لأن نوع العمل الذي كان يقوم به عَبد كان يثير اهتمام ولد في الرابعة عشرة من عمره لديه أسئلة ويبحث عن مجال يتيح له متابعتها؟ لاأعرف حتى الآن وبعد كل هذه السنين هل أثّر عَبد في حسن فاختار مجال عمله ومشروع حياته أم أنه العكس، تعلّق الصغير بالكبير لأنه وجد في فكره ومشاغله ما يفي بحاجته.

غريب، يمنح الرجل نطفة ثم ثانية ثم ثالثة، يُثَبِّت كل منها في ذات الرحم لتنمو بلا حرج في حيِّزها المغلق ثم تخرج إلى الدنيا الواسعة، كل منها لا تشبه إلا نفسها شكلًا وروحًا. غريب! لم يكن أخي الأكبر يشبه أخاه، ربما يلمح الغريب في الوجه شبهًا، ولكنهما كانا يختلفان، هذا صغير نحيل وذاك طويل عريض. أتذكرهما يضحكان، عيونهما أتذكرها بوضوح وصوتَيْهمَا كذلك. كان في الصوت شبه ولكن عينيْ الصادق كانتا سوداوين كحلاوين وعيني أخيه الأصغر كأبيه مُحَيَّرتين بين الأزرق والأخضر. أتذكّر الصادق وهو يحملني على كتفيه ويركض بي إلى البحر. أتذكّره وهو يحول بين أمي وضربي لأنني عصيتها. أتذكر حبهما للصبّار، حركة وجهيهما حين تدخل الأشواك في أصابعهما، تخشبهما كجنديين في الطابور وهما يستمعان إلى أبي في البيت، وصخبهما حين يغادرنا أبي فينفردان بنا. يمكنني بسهولة استحضار مشيتيْهما متجاورين وهما يغادران في طريقهما إلى حيفا أو وهما يُقبلان عائدين باتجاه البيت. أسأل عَبِد الكبير:

- هل تذكر الصادق وحسن؟

قال:

- لا أذكر ملامح الوجه ولكنني أذكر أن الأكبر، حسن...

قاطعته:

- حسن الأصغر.

- كان أطول وأكبر جسماً فاستقرَّ في ذاكرتي أنه الأكبر. حملني حسن عن الأرض مرة ودار بي ثم قال عندي لعبة أفضل. لا

أدري كيف وضعني على كتفيه ثم أمسك بيديّ وقلبني قلبًا وأنزلني واقفًا على قدميّ. في أقل من دقيقة كنت أقف على كتفيه ثم إذ برأسي عند قدميّ ثم إذ بقدميّ واقفتين على الأرض وقد عاد رأسي مكانه فوق. طالبته بإعادة اللعبة فأعادها عدة مرات. وفي كل مرة يمتزج الخوف بالمتعة بالتوقّع بصياحنا معا. كان يصيح ليجعل اللعبة أكثر إثارة وكنت أصيح لأنني خائف أو ربما أقلّده. سافر وانتظرته طوال الأسبوع لكي نلعب اللعبة نفسها. كل يوم أسأل أمي: كم يوم تبقَّى على يوم الخميس؟ أحسب الأيام على أصابعي ثم أعود أحسبها. عدة مرات كل يوم! وفي ليلة الخميس أتطلّع بزهو إلى الإصبع الواحد المتبقّيِّ على يوم الخميس كأنني بمشقة الانتظار وصلت إلى اليوم الذي أريده. كأنني كنت صائماً مثلًا وتحمّلت إلى أن وصلت إلى ساعة الإفطار.

ضحك، قهقه حتى اغرورقت عيناه بالمدموع.

- وأذكر أن الأصغر...

استدرك:

- أقصد الأكبر الصادق أعطاني خمسة قروش وقال لي اشترِ بها شكولاتة من الدكان. أعطيت القروش الخمسة لوصَال فاشترت خمسة ألواح شكولاتة صغيرة وزعتها علينا، أنا وأنت وعِزّ وأم الصادق وأمي. فقسمتُ اللوح الذي أعطته لي بيننا لأنها لم تأخذ لنفسها شيئًا. ولما أكلتُ الشكولاتة وجدتها

لذيدة جدًّا فعدت إلى وصَال أطالبها بالنصف الذي أعطيته لها. كانت أكلته. بكيت فَأعطيتني أنت الشكولاتة التي أعطتها لك وِصَال.

- غريب، لا أذكر.

- أنا أذكر، بوضوح. أذكر أيضًا أنك كنت تعطينني كل شيء. وتحملينني فأحيط رقبتك بذراعي. ولا أنام إلا بجوارك.

تورَّد وجهي حياءً. غيَّرتُ الموضوع:

- هل تذكر كم كنت تخاف من البحر وتصيح وتبكي وأنا أحاول تعليمك السباحة؟!

الفصل الخامس عشر

وِصَال

مدَّ لي عبد الرحمن يده بسماعة التليفون، قال:

- تكلمي!

أمسكت بالسماعة. وضعتها على أذني. سمعت صوتها فعرفته وإن سألت بارتباك: «وِصَــال؟!»، ثم انقطع الصوت. لا لم يكن الخط التليفوني هو الذي انقطع بل صوتي كأنني عدت إلى الفريديس وفقدت القدرة على الكلام. هي ملأت الصمت بالترحيب والتعبير والأسئلة.

أخذ عبد الرحمن مني السماعة وقال لوِصَال:

- رُقَيَّة تبكي. لم أكن أعرف أنها تحبك إلى هذا الحد. أردت أن أفاجئها. لم تكن تعرف أنك على الخط. لم تكن تتوقّع. ياالله خيرها في غيرها. سأتصل بك غدا.

أين كانت كل هذه الدموع؟ لساعة أو لساعتين كانت دموعي تنهمر. أمسحها وأعود أمسحها. أتمخَّط ثم أعود أمسحها. لا ينتبه

العابرون في المركز أن امرأة في مكتب زميلهم تبكي، وأن البكاء في داخلها وإن قيّده الصمت يمكن أن يرتفع ليملأ أسماع المارة في الشارع. لم أنتبه إلى أن عَبد غادر المكتب إلا عندما عاد يحمل علبة مناديل وَرَقِيَّة وكوب ماء وشريط حبوب ما. مدَّ لي يده بحبة وكوب الماء فتناولتهما منه.

جلس في مواجهتي صامتًا. ثم انتبهت لصمتي وصمته ودموعي فملأني الحرج. مسحت وجهي ونهضت. قلت: آسفة يا عَبد. آسفة جدًّا. اتجهت إلى المصعد. فتبعني. حملنا المصعد معا. وما إن انغلق علينا بابه حتى فتح ذراعيه على اتساعهما وضمَّني، ضمَّني بقوة ثم قبَّلني. أراد مرافقتي إلى البيت فرفضت. ما الذي حدث؟ مشيت في شوارع بيروت، لا أدري إن كنت أقصد البيت أم لا أقصده. هل كنت أمشي أم أهرول أم أركض؟ أنظر من بعيد: امرأة في الخامسة والثلاثين تمشي كأنها تركض أو تركض ركضًا غريبًا مشتتا على غير الركض ولا يقصد أي مكان. لماذا؟ تريد الهروب من حكاياتها؟ من مشاهد أطلَّت من مكامنها على غير توقُّع حين ظهر عَبد قبل أيام وأعقبه صوت وِصَال، فانفتح على مصراعيه الباب المَغلق منذ سنين بقفل ومفتاح كبير وسُقَّاطَة. كيف ينفتح هكذا باب عتيق وثقيل دون صوت ولا صرير؟ انفتح وكان ما كان. ثم يضمها الولد في المصعد، يضمها بقوة فتذهب إليه كأنها كانت تنتظره منذ سنين. ماذا حدث؟ قبَّلته كما قبَّلها، لماذا قبَّلها ولماذا قبَّلته؟ تركض من السؤال، من نفسها، من عَبد الذي ظهر لها فجأة في هيئة رجل كأنه أخ من أخويها عاد من بين الأموات. وهل يُقَبِّل

الأخ أخته هكذا على الشفتين. كانت ترتجف كالمحمومة. توقفت فجأة في الشارع. جلست على الرصيف. جلست دقائق أو ساعة أو ربما ساعتين. ولما هدأت قليلًا سارت باتجاه البيت.

كان الأولاد ينتظرون. يتوقَّعون أمهم كاملة بلا نقصان. ها هي تقف في المطبخ تعد الغداء كأن شيئًا لم يكن. ها هي تجالسهم على مائدة الغداء. يسألون لماذا لا تأكلين؟ رأسي يوجعني. سأنام. وتنام. وفي الليل تقول لأمين: اتصلت بي وِصَال من الأردن. باقي العبارة على طرف لسانها: وعبد الرحمن قبّلني في المصعد. لم تقل. انعقد اللسان، كأنه قرر نيابة عنها أنه لن يقول.

ما الذي أفعله بهذه القبلة؟ أين أذهب بها؟ سأنسى الأمر كأنه لم يحدث. سأضيِّعُها قاصدةً فتضيع. ذهبتُ إلى وِصَال، لجأت إليها كما لجأت هي وأمها وأخوها الصغير لنا ذات يوم بعيد. تمترست وراءها. أحدّق في صوتها. بدا الصوت قويًا وقريبًا إلى حد مؤلم. من قال إن التليفونات تسمح بالوصل؟ لا تسمح. تؤكد المسافة وهي تحملك حملًا على تمثُّل ما تعرفه، تتمثله الآن على جلدك كحد السكين يمس العصب، يقطع لحمك الحيّ ويصيب. أتى لي صوتها قريبًا وواضحًا وأنا في الجانب الآخر، كامرأتين يفصلهما حاجز من زجاج، كأنه الحاجز الذي يفصل السجين عن زائره، الأدق: يفصل السجين عن السجين. فليكن، سأستعد وأحدثها كما حدثتني. أضبط الغصة والرعشة وقناة الدمع. غدًا.

ولكنني في اليوم التالي لم أذهب إلى المركز الذي يعمل فيه عبد الرحمن ولا في اليوم الذي تلاه. لم أذهب ولم يأت. وحين مر أسبوعان لم يظهر

فيهما راح حسن يسأل عنه. لماذا لم يأت؟ أخذ رقم تليفونه واتصل به. قال: ماما، دعوته غدًا على العشاء. لم أعلِّق. استيقظت فجرًا كأنني ضبطت ساعة منبّهة. نبّهتني فكرته أو صورته أو ربما خوفي من اللقاء به. هل يمكن أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه. كيف نعيدها؟ أتى في موعده. تشاغلت بإعداد العشاء وانشغل أو تشاغل بالحديث مع أمين والأولاد. لم أحدّثه بشكل مباشر ولا تطلّعت إليه ولا هو تطلّع. مرت الليلة بسلام. لم يعد يأتي لزيارتنا إلا لو دعاه أمين أو أحد الأولاد. لم يعد يدق الباب على غير موعد فنفتح فيقول وهو يضحك: «الضيف الثقيل وصل».

وذات صباح دق الباب. كنت أنظِّف البيت وما زلت أرتدي قميص النوم. فتحت. كان عَبد يقف أمامي. قال أعرف أن أمين والأولاد ليسوا في البيت. أردتَ أن أصبّح عليك، وأقول لك بسرعة كلمتين. ظل واقفًا بالباب، ولدقيقة أو دقيقتين وقفت أحدِّق فيه لا أعرف ما الخطوة التالية. ضحكت فجأة. قلت: أهلين تفضل. قلت: دقيقة. غيّرت ملابسي بسرعة ثم ذهبت إليه. قلت: سأصنع لك فنجان قهوة. فارت القهوة. ملأت بكرجا آخر بالماء وألقمته ثلاث ملاعق بن. وقفت أتابعه. لماذا أتى عَبد؟ فارت ثانية.. هل سوَّيْتُ قهوةً من قبل؟ ناداني من حجرة الجلَوس. قال: رُقَيَّة، لن أطيل، سأقول كلمتين وأذهب. فارت منك القهوة، أليس كذلك؟ قلت بصوت فاجأني علو نبرته: لم تَفُر. يللا ياللا دقيقة وأكون معك. مرة ثالثة. ثبَّتُّ عينيّ على البكرج وأبعدته قليلًا عن مركز النار. غلت القهوة. صببتها في فنجانين، قدَّمت له فنجانًا ثم حملت فنجاني

وجلست على المقعد المقابل. رشفة، ثم مع الرشفة الثانية انسكب مني الفنجان. ضحكت لمدارة الحرج، قلت: لا أدري ما الذي أصابني اليوم. ضحك، فضحكت. ثم ضحكنا أكثر، ثم قمت لأغيِّر ملابسي مرة أخرى. وعندما عدت كان واقفًا يستعد للانصراف، قال: لا بد أن أذهب إلى عملي. انحنى قليلا وقبَّل رأسي ونزل السلم بخطوات سريعة. لم يلتفت.

الفصل السادس عشر

بيروت (١)

تقول خالتي إن ثلثي الولد لخاله، تكرر المثل الدارج عندما تنتبه فجأة للفتة أو نظرة أو نبرة صوت أحد الأولاد تذكّرها بولدَيْ أختها. وكانت على حق، صادق يشبه خاله حسن، طويل وعريض مثله. وحسن يشبه خاله الصادق، قَطْعَة الجسم الصغير ولون العينين والعذوبة والهدوء. يبدو صامتًا وحييًا إذ ما قيس بأخيه الأكبر. صفاتٌ أخذها عن خاله وعن أبيه، لأن هذه أيضًا صفات أمين. أما عَبد الصغير فيختلف لا لشيطنته التي لا ينفع فيها زجر أو عقاب بل لدهائه وخفة دمه وردودٍ دائمًا على طرف لسانه، تخرجه من أي مأزق كالشعرة من العجين، وتثير الضحك وتجعله وهو الأصغر متصدِّرًا في الكلام. صاخبٌ وثرثار وكثيرُ الحركة، يطالب بلا كلل بالانتباه. تعلّق جدّته: «هذا بَنْدوق، لحمة فاطّة من قِدر». كان واضحًا تعلّقها بالولدين الأكبر، بصادق لأنه أول فرحتها بالأحفاد، وبحسن لأنه «راكز وطَيِّب وحنون» وعَبد؟ تشيح بيدها مقطبةً «فنا يُقْشُره. هو وقِلْتُه واحد». هو أيضًا ناصبها العداء، لا يردُّ عليها حين تناديه،

يقول ردِّيت والله ردِّيت، ماذا أفعل، سمعها ثقيل؟! تطلب منه شراء غرض من السوق. ينزل ويعود. «أين يا عَبد..؟»؛ «آخ.. نسيت!». وما بدأ عفرتة صغار أو عقابًا طفوليًا على تفضيلها أخويه عليه، استمر أسلوبًا يحكم العلاقة بينهما إلى أن رحلت.

عندما انتقلنا من صيدا إلى بيروت في خريف العام سبعين، كان صادق التحق بالسنة الأولى في دراسته الجامعية. وكان حسن تلميذًا في نهاية المرحلة الإعدادية. شابان لا يُخشى عليهما. يقرآن الصحف ويتابعان الأخبار. انتقلنا في شهر أيلول وكانت المعارك دائرة في عمان بين الفدائيين والملك حسين. يتابع الولدان ما يجري يومًا بيوم، ويشتركان معنا في التعليق والتحليل والتوجُّس والقلق. أما عَبد الصغير فكان في الابتدائي لا تستوقفه الأخبار كثيرًا لأنه منشغلَ بكرة القدم أوبنصف درجة أعلى، حصل عليها منافسه في الصفَ. هل قلت إن صادق وحسن كانا واعيين لا يُخشى عليهما؟ أعيد النظر في الشِّق الثاني من العبارة. في العام التالي والعام الذي يليه كنت أزداد قلقًا عليهما. يعود صادق إلى البيت فأعرف من هيئته أنه كان في المظاهرة. هو لا يقول، ولكنني أعرف، وأحيانًا أرجِّح من وجهه الشاحب أن شابًا ما أو ربما شباب أصابهم رصاص الجيش. أو يعود حسن ممتقع الوجه وأكثر صمتًا من المعتاد، تؤلمه معدته. أغلي له ميرَمِيَّة أو نعناعًا، ولكنه يبقى موجوعًا. وحين يعود أبوه يفحصه ولا يجد ما يقلق، ولكن صادق بعد أيام يحكي لي ما الخبر: مجرد سَمِّة بَدَن، زميل له في المدرسة سبّ الفلسطينيين وأبو عمار وقال إن عصاباته المسلَّحة تستحق الحرق. وأنا قلت له إن معدته آلمته لأنه

لم يضرب الولد، لو كنت ضربته لما جرؤ أن يعيد مثل هذا الكلام، بقي ردك محشورًا في معدتك فصارت توجع. قلت له: من يضربك اضربه، ومن يهنك امسح به الأرض. لا أتفق مع صادق، فالمدرسة في نهاية المطاف مدرسة لا ساحة للضرب والقتال. أخاف من رصاص الجيش وميليشيات الكتائب وما تنويه لنا من شر. أخاف من اشتباك في المدرسة يتسبب في عودة الولد من المدرسة ودمه يسيل. أخاف من بيروت. أَسِرُّ لأمين بمخاوفي. فيطمئنني ويقول: نسكن بعيدًا عن أحيائهم. وأبو عمار متحالف مع القوى الوطنية وهي تزداد قوةً يومًا بعد يوم. حتى الجيش لن يظل قادرًا على ممارسة كل هذا البطش، للقوات الوطنية ميلشيات ولنا فدائيون. لا تخافي.

ربما بسبب هذا الخوف اقترح عليّ أمين أن أواصل دراستي، أو ربما لاحظ أنني أزداد انكماشًا وانطواءً، لا أخرج ولا ألتقي أحدًا من الجيران، حتى عَبِد الكبير لم يعد يتردد على البيت، لا يأتي إلا لِمامًا وفي المناسبات.

في البداية استخففت بالاقتراح، ربما لأنني استشعرت حرجًا من فكرة العودة للدراسة وقد صار ورائي ثلاثة أولاد، أكبرهم في الجامعة. ماذا لو فشلت، ماذا يقول الأولاد؟ ألحَّ أمين ثم انضم إليه صادق وحسن؟ يقولون ما المانع؟ حاولي، لن تخسري شيئًا ثم بإمكانك التوقف إن استصعبت الأمر.

عدت للكرّاسة والكتاب. وصار لي بدلًا من المدرِّس الواحد مدرِّسان، يساعدني صادق ويساعدني حسن. عَبِد الصغير لا يعجبه استثناءه من اللعبة فيعلِّق: لو ماما درست لوحَدها أفضل، لستم

مدرسين، والأستاذ الخايب يخيِّب التلميذ! أو تقول لمعة عينيه إنه مستمتع بتبدّل الأدوار، وانتقال سلطة الصح والخطأ من هنا إلى هناك. يضحك. يسأله صادق بنبرة لا تخلو من تأنيب:

- لماذا تضحك؟

يجيب عَبِد:

- صورة مضحكة مرّت برأسي، هو الضحك حرام؟!

أستيقظ في الخامسة كعادتي كل صباح، أنهمك في أشغال البيت إلى أن يصحو أمين والأولاد. نتناول إفطارنا، ويذهب كلٌّ إلى سبيله. أمضي النهار أدرُس حتى عودتهم. وفي المساء أسأل «المدرِّسين» عما استعصى عليّ فهمه.

قال أمين إنني أتقدم بسرعة مدهشة وإن بإمكاني التقدم للبكالوريا في العام ١٩٧٣.

لم أتقدم.

لم أكن أعرف غسان كنفاني شخصيًا ولا أتابع كتاباته في الجرائد والمجلات. لم ألتق أبدًا بالدكتور أنيس الصايغ. لم يحدثْني أحد عن القادة الثلاثة في الفردان، لم أسمع باسم أي منهم، ولو كنت سمعت نسيت لأنني لم أكن أعرف دور أي منهم ولا مكانته.

قرأت لغسان كنفاني قصة قصيرة وقعت في يدي مصادفةً ونحن نقيم في صيدا. أذكر منها العنوان: «أرض البرتقال الحزين». لم أكن أذكر من القصة سوى سطر واحدٍ يقول: «وعندما وصلنا صيدا،

في العصر، صرنا لاجئين». من قالها وفي أي سياق؟ لا أذكر. بقيت العبارة تتردد في سمعي لأيام وليال كأنها بيتٌ من الشِعر. حدّثت عِزّ الدين عن القصة فحمل لي بعد أسبوع رواية وقال هذه هي أفضل ما كتب غسان. قرأتها في ليلة واحدة: رواية عن ثلاثة فلسطينيين، صبي وشاب وكهلٍ يحاولون الوصول إلى الكويت تهريبًا داخل صهريج ماء فارغ. يعطّل حرس الحدود الشاحنة فيموت الثلاثة خنقًا داخل الصهريج. قائد الشاحنة أودى بهم إلى الهلاك رغم أنه كان يريد مساعدتهم. وقتلتهم الحدود. لم أقرأ شيئًا آخر لغسان لا كتب ولا مقالات، ولا كنت أتابع المجلة التي يرأس تحريرها. ولكن عِزّ الدين كان يعرفه شخصيًّا ويتكلم عنه بإعجاب شديد. يقول: هل تصدِّقين يا رُقَيَّة، وُلدنا في نفس السنة، وهو صحفي ينشر مقالاته في عدة صحف ومجلات، ويكتب قصصًا وروايات، ويرسم، وهو نشيط في العمل السياسي، ومن قيادات التنظيم؟!

أذكر اليوم بوضوح. يوم من أيام شهر تموز. بيروت نار. الرطوبة خانقة. الأولاد ذهبوا إلى شاتيلا للمشاركة في برنامج صيفي. ودّعتهم في الصباح وأنا أكرر: اليوم شديد الحرارة. امشوا في الظل. اشربوا ماءً كلما أمكن وإلا أصبتم بضربة شمس.

بعد ساعة أو أقل دق عَبد الصغير جرس الباب كالمجنون. دقَّه بشكل متواصل كأنه لا يطيقَ الانتظار. ولما فتحت اندفع إلى داخل البيت، قال:

- اغتالوا غسان كنفاني. غادر بيته وركب سيارته، أدار المفتاح فانفجرت السيارة فيه وفي ابنة أخته.

دار في البيت كالضبع مرتين ثم سمعت صفقة الباب، صفقة رجَّت البيت فركضت لأنادي عليه. كان يسمعني أكيد، إذ كنت أسمع خطواته وهي تنزل مسرعة على الدرج. لم يجب. أغلقت الباب وجلست على كرسي بلا حركة.

بعد ١١ يومًا جاءني خبر محاولة اغتيال أنيس صايغ الذي لم أره أبدًا إلا بعين الخيال لأن عَبد الكبير كان وهو يتحدث عن عمله في المركز يصفه لي فأعرف أنه مقتدر في عِلْمِه صارم في عمله، دقيق ينشد الإتقان من كل من يعمل معه من الباحثين. رجل صغير الحجم، قصير وبه امتلاء، أصلع وله عينان نافذتان، تمتزج فيهما الطيبة والذكاء، هكذا وصفه لي عَبد.

حين سمعت بخبر الانفجار في مركز الأبحاث وجدت نفسي أركض في الطريق. أوقفت تاكسي وقلت شارع السادات. بدت لي حركة السيارة بطيئة بسبب الزحام. طلبت من السائق أن يتوقف. نزلت. بدأت أركض. كنت أصبت بخلل مؤقت في عقلي لأنني وأنا أركض كنت أتحدث مع أخويّ، أقول لهما اتركاه. لماذا تريدان أن يلحق بكما؟ اذهبا بعيدًا الآن، أتوسَّل إليكما. أقولها في الأول بهدوء ثم بصوت مَوْتُور ثم أصيح فيهما بالصوت العالي. عندما وصلت المركز قيل لي إن الشباب حملوا الدكتور أنيس إلى قسم الطوارئ بمستشفى الجامعة الأمريكية. سألت: والآخرون؟ أكَّدوا أن أحدًا غيره لم يصب. كررت السؤال. أكَّدوا الجواب. نزلت ركضًا إلى الشارع. سيارة أجرة أخرى. في المستشفى التقيت عَبد. وكان وجهه أزرق والنظرة في عينيه مبعثرة. قال: ما زال على قيد الحياة، الأطباء يجرون

له جراحات. أصيب في وجهه، وفي عينيه وأذنيه وفي يده اليسرى. اذهبي إلى البيت سأطمئنك بالتليفون. بقيت جالسة.

في المساء أعلن أحد الأطباء الثلاثة أنه اضطر لبتر ثلاثة من أصابع اليد اليسرى. وقال الطبيبان الآخران إنهما فعلا كل ما يمكنهما للعينين والأذنين. قد نستطيع الحفاظ على شيء من قدرته على السمع والإبصار. طلبوا من الشباب أن يتركوا المكان. بقي والده القسيس وهو رجل مسنّ لم يتوقف عن الصلاة همسًا، وزوجته واثنان من أشقائه هما أخته وأخوه.

«بنا يا رُقَيَّة» قال عَبِد. غادرنا المستشفى. أوصلني إلى باب البيت ومضى.

لم أركض في الطرقات يوم واقعة شارع فردان ولا حضر أُخواي لأتشاجر معهما وأجّن فأهشّهما كالذباب، لأن الخبر حين أعلن في اليوم التالي كان البلد يغلي ويفور. كأن مئات الآلاف من البشر تناسخوا بين الليل والنهار في جسد واحد لحيوان خرافيّ له رهبة وجلال، يتقدم وئيدًا بخطوات تُزَلْزِلُ الأرض. رأيت ذلك بأم عيني في جنازة غسان كنفاني في شهر تموز. ثم لاحقًا وبعد تسعة أشهر في جنازة كمال ناصر وابو يوسف النجار وكمال عدوان، رأيته ثانية فتمثّلت ما لم أتمثّله تمامًا في المرة الأولى.

أنظر من بعيد. امرأة خرجت مع زوجها وأولادها الثلاثة وعمها وابن عمها وزوجته وأخيها الذي لم تلده أمها وأطياف أمها وأبيها وشقيقيها الذين بقوا في مقبرة مجهولة وجماعية هناك، وكل من تعرف

هنا من أصحاب وجيران، وما لا يُحصى من بشر لا تعرفهم، يزحفون بامتداد عدة أميال. يودِّعون شابًا راح غيلةً وقبل الأوان. يمشون إلى مقبرة الشهداء. يلمحون أو لا يلمحون زوجته وطفليه. ولد وبنت، الأكبر صبي في العاشرة مرفوع على الأكتاف. يهتف فيغرق صوته في أصوات مئات الآلاف. تنظر المرأة خلفها. ترى الموج يهدر ويموج. تنظر أمامها. تراه. تنظر عن يمينها وعن يسارها. تتطلّع في وجوه أبنائها، تراها واضحة كاملة كأنها لم تطوها الذاكرة أو تنقضي اللحظة منذ زمان. تتملّاها: صادق تضيق عيناه كأنه يريد أن يتَّقي الشمس فيعلو صوته هادرًا بالهتاف يؤكدّه بحركة ساعده وقبضة يده. حسن صامت مثلها، تموج قسمات وجهه كأن الوجه غدا مرآةً ينعكس على صفحتها الموج. أما عَبد فتكاد لا تتعرف على وجهه، لماذا استطال هكذا وتـدوَّرت العينان وتدوَّر الفم وبقي مفتوحًا على صرخة مُصَوَّرة بلا صوت. تتساءل هل يمكن قراءة المستقبل في وجوه صبية يمشون في جنازة؟

أنظر من بعيد. امرأة خرجت مع زوجها وأولادها الثلاثة وعمها وابن عمها وزوجته وأخيها الذي لم تلده أمها وأطياف أمها وأبيها وشقيقيها الذين بقوا في مقبرة مجهولة وجماعية هناك، وكل من تعرف هنا من أصحاب وجيران، وما لا يُحصى من بشر لا تعرفهم يزحفون بامتداد عدة أميال. يودِّعون أربعة شهداء، ثلاثة رجال وامرأة قُتلوا في غرف نومهم في فردان. يمشون إلى مقبرة الشهداء. تنظر المرأة خلفها. ترى الموج يهدر ويموج. تنظر أمامها. تراه. تنظر عن يمينها وعن يسارها. لا الجنازة جنازة ولا الحِداد حِداد.

أنظر من بعيد. أتأمل المرأة. في السابعة والثلاثين. تأخَّرَت في التقاط الدرس. تأخَّرَت. مدهشٌ وغريب ويثير فيها بسمة حزينة بعض الشيء، وفيها من العرفان الكثير. موقع الدرس: الجنازة، موضوع الدرس: الحياة. تُسلِّم بالجنازة. تُسلِم للحياة.

الفصل السابع عشر

شجر شاتيلا

النحلة تشبيه جيد. نعم صرت نحلة. أعد الطبخة. أعد الفطور. يستيقظ أمين والأولاد. أُفَطِّرهم. يذهبون إلى أشغالهم. أغسل الصحون وأرتب البيت ثم أنزل إلى شاتيلا. لا أعود إلى البيت إلا بعد العصر. لكل يوم جدوله. دروس محو الأمية للكبار. دروس التقوية لأطفال المرحلة الابتدائية. طباعة بيانات على الآلة الكاتبة عندما يقصدني الشباب لطباعة البيانات. زيارات لا يخلو الجدول الأسبوعي واليومي أحيانًا منها. نساء أدخل بيوتهن لأول مرة أو نساء تعرَّفت عليهن سابقًا فوجبت الزيارة للعزاء أو التهنئة أو ربما لحل إشكال عائلي قصدنني فيه. صرت أعرف زواريب المُخَيَّم ونواحيه من بيوت متراكبة لأسر تنتمي في الغالب لقرى الجليل الأعلى، أتت جملةً من قراها إلى جنوب لبنان ثم انتقلت لاحقًا إلى شاتيلا. جاءوا من مجد الكروم والصفصاف والبروة ودير القاسي وسعسع والخالصة وغيرها. لم أتعرَّف على أحد من الطَّنْطُورَة في شاتيلا. سألت مرة أومرتين ثم منعني الحياء من مواصلة البحث. نساء المُخَيَّم يجبلن

سبع مرات. وأحيانًا عشرًا أوأكثر. يذهب من يذهب ويبقى ولد أو اثنان، وإن حالف الحظ، ثلاثة. لماذا لم تخلِّف أمي إلا ولدين اثنين؟ ذهبا. لم يبق لها أحد. لم تَدُر في رأسي أسئلة من هذا النوع قبل تردُّدي على شاتيلا. في صيدا كنت منشغلة بالخِلْفَة ورعاية الصغار. لم أذهب إلى عين الحلوة إلا زيارات معدودة لأسرة كريمة للقيام بواجب تهنئة أو عزاء. ولما انتقل عِزّ للإقامة في عين الحلوة كنا نقيم في بيروت.

لم أتقدم لامتحان البكالوريا كما أراد أمين والأولاد.

لم ألتحق بالجامعة.

تَعلَّمْتُ في المُخَيَّم.

صارت لي عائلة أخرى. ممتدة. أطفال. صبايا. نساء في مثل سني. ختاير كل خِتْيَارة منهن مثل أمي تعلِّق مفتاح دارها بحبل حول رقبتها. في شاتيلا تعلَّمت أن عالم النساء أرحم من عالم الرجال. الرجال منخرطون في الفصائل، لكل فصيل مكتبه ومنطقته وشبابه المسلَّح. يختلفون فيشتبكون كالديوك. يا إلهي ديوكٌ مسلَّحة! وديوكٌ في البيت أيضًا. يعودون لنسائهم يأمرون وينهون. والمرأة غارقة في مهام يومها. تنقِّي العدس والأرز. تُعِدُّ مجدَّرة لسبعة أو عشرة أو خمسة عشر شخصًا. تلفّ ورق وتحشو كوسا. تخبز على الصاج. تصنع لَبْنَة من الحليب. تكبس الزيتون. تردُّ شالتها وتذهب للعزاء أوالتهنئة. تردُّ شالتها وتأخذ طفلًا من الأحفاد إلى المركز الطبي أو إلى المستشفى لأن أمه نُفَسَا لم ينقض على ولادتها سوى ثلاثة أيام. تعود مهرولة لكي تُطبِّق الطبخة للغداء. تغسل أكوامًا من الملابس. ملابس لا

تنتهي. تشكو من ابنتها الصغرى العنيدة التي تصر على مواصلة تعلمها والعمل مع الفدائيَّة.

ـ وما الغلط يا خالة في أن تكون مع الفدائيَّة؟!

ـ هو أنا ضد الفدائيَّة. أنا معهم من قلب ورب. يوم ما طلع المكتب الثاني ودخل الفدائيَّة على المُخَيَّم، رقصت وسحجت وغنيت وزغردت. كان المُخَيَّم مثل العيد والرصاص يلعلع كأنه عندنا بدل العرس مائة عرس. الله يجبرهم ويحميهم ويبارك فيهم، الفدائيَّة. الله يهديهم ويهدِّي نفوسهم، مش كل ما دقّ الكوز في الجَرّة يرفعوا السلاح على بعض! الفدائيَّة على العين والراس، بس البنت تطلع من الصبح ولا ترجع إلا المسا، وتقول باتدرّب على السلاح؟! ربنا عرفوه بالعقل يا بنتي!

مالت عليَّ وراحت تحدثني همسًا:

ـ كلام بيننا يا ست رُقَيَّة لا يطلع برّه: جارتنا رأتها مرتين تقف مع نفس الشاب. سَألْتُها: ما الموضوع؟ قالت: زميلي في التنظيم. قلت لها: زميلك لا تقفي معه بشكل متكرر، لا يصّح. لو رايدك يتقدم يخطبك. نسأل عنه. هو من دار من؟ ضَحِكَتْ وقالت إنها لا تفكِّر في الزواج. ولا هو يفكِّر فيه. قلت لها إذن لا تطيلي الوقوف معه فتصبح سيرتنا على ألسنة الناس.

تطلّعت فيّ وعلت نبرة صوتها قليلًا:

ـ كله إلا الشرف يا ست رُقَيَّة!

ثم عادت تهمس:

- تقف مع الشاب والناس تخمِّس وتستِّت، ومن يقول كلمة تصبح ثاني يوم كلام.

البنت وفَّت التسعة عشرة وتقول إنها لا تفكِّر في الزواج! في سنها كان ورائي ولد وبنت وحبلى في الثالث.

- زمن غير زمن يا خالة.

زمن يختلف. جميل؟ بدا لي ساعتها أنه جميل. أتطلَّع: ثقةٌ ما أو أمل أو ربما قوة في الوجوه، في هيئة الشباب والصبايا، في مشيتهم وجلستهم وحركة اليد حين تلوِّح هكذا بتلقائية، ولفتة الرأس حين تلتفت. في ضحكاتهم، في نبرة الصوت وهم يتحدثون أحاديث كل يوم. ألحظهم. أتحدث معهم. لكنني أسعى للقاء خِتياريَّات المُخَيَّم. أحب أن أنصت لحكاياتهن حتى وإن كانت حزينة في البداية. فالحكايات دائمًا تبدأ بهناك، ما حدث حين «استحلّوا البلد وأطلعونا فشردنا إلى لبنان». تمضي الحكاية، ولا تمضي تمامًا، لأنها وهي تتقدم إلى الزمن التالي تظل ترجع وتسترجع. تتشابه الحكايات وأيضًا تختلف كالوجه وهو يحكي.

يضيء وجه أم نبيل وهي تحكي عن شجرة الرمان «تجدينها عن يمينك عندما تقصدين باب الدار». تصف طولها وحجمها وشكل فروعها وأخضر أوراقها في الأول ثم «بعدين» حين تُجَنُّ وتزهر. وعندما تصل أم نبيل إلى الثمرة لا تتحدث عنها، بل ببساطة تمد يدها وتقطفها وتفتحها وتفرط حبّاتها أمام عينيك فترى أحمرها

القرمزي ينتقل بقدرة قادر من كفيها إلى لسانك يستطعم حلاوته اللاذعة.

غريب. كل امرأة شجرة. أقصد كل امرأة ولها شجرة. هناك. ليمونة أم سمير. برتقالة أم إلياس. خرّوبة أم هنية. لوزة أم العَبد. نخلة أم الناهض. توتة أم محمد. تينة أم صباح «تينها خُضَاري حلاوته تغوي العصفور، يحطُّ عليها قبل الفجر وينقر». يُشرق الوجه ثم يُظلم لأن الحكاية تمر بالصعب الذي يُحكى أو الأصعب الذي يستحيل حكيه. ثم يعود يُشرق لأن «ربنا فرجها ووجد أبو العيال عملًا» أو «اشترينا بقرة. صرنا نبيع حليبها ونطعم الصغار»، أو تخرّجت البنت واشتغلت، والولد سافر إلى الخليج وصار يحوِّل أول كل شهر جزءًا من راتبه»، أو لأنه «في عِزّ الكرب والبلاء واللقمة شحيحة، قَلَبْنا الميزان. أي والله قَلَبْنَاه».

تحكي أم الياس:

ولاد الحرام، قبل أن يطردونا بأربعة أشهر احتلوا أراضي البلد الزراعية وكانت تقع إلى الغرب منا. وأقاموا فيها خنادق ومراكز عسكرية. صارت القرية مفصولة عن أراضيها. نحن في جهة وزرعنا في جهة. حل موسم الحصاد. قلنا سيفسد المحصول، ما العمل؟

في البداية قام الشباب بالاستكشاف فعرفنا مواقع خطوطهم وأماكن تواجدهم والأوقات التي تمر فيها دورياتهم. في الليل لم يكونوا يمرّون في المزارع بل على الطريق المرصوف، يمرّون بالسيارات. عرفنا واتكلنا على الله. كل ليلة ننتظر المغرب ثم نتسلل عبر الوادي، ونسير

في طريق ملتف يوصِّلنا إلى حقولنا. نذهب بالعشرات، رجالاً ونساء وصبية وصبايا. نمشي في الوادي كالأشباح، بلا ضوء ولا صوت ولا نَفَس، إلى أن نصل إلى أرضنا نجمع ما تيسَّر من محصول التبغ، ومع شروق الشمس أو بعدها بقليل نقطع الوادي عائدين. مرات كان الشباب الواقفين على التلة لتأميننا يستشعرون خطرًا فيُشاغِلون جنودهم بإطلاق النار فينشغل جنودهم بالرد، لا ينتبهون لوجودنا ونحن نمشي تحتهم في الوادي نسمع أزيز الرصاص وهو يتطاير فوق رءوسنا.

تحكي أم الناهض حكاية مماثلة وإن كان المزروع ليس التبغ بل القمح. تقول:

لما استحلُّوا البلد شردنا إلى القرى المجاورة ننتظر على أمل أن يساعدنا جيش الإنقاذ الذي كان يعسكر على بعد كيلومترات قليلة. ولما انقضى شهر آيار وجاء شهر حزيران، قلنا سيهلك المحصول على عيدانه، والزاد شحيح وعيالنا جوعى. قلنا نواجههم وليكن ما يكون. انتشر الخبر في القرى المجاورة فأتى الشباب للمساعدة. انطلقوا. من معه بندقية حملها ومن لا يملك بندقية تسلّح بعصا أو سكين. و«الله أكبر الله أكبر» هجموا. خاف اليهود. هربوا. تضحك أم الناهض. كان القمح محصودًا وفي الأكياس. رأوا الشباب هاجمين وسمعوا الصوت فتركوا الأكياس وهربوا. تركوا في الأرض ثلاثة مدافع رشاشة مرفوعة على مسند وموجّهة نواحينا. وسبع حصَّادات، مكن كبير حصدوا به قمحنا. ولما دخل الشباب البلد، قبل أن يتفقَّدوا بيوتهم أرادوا أن يتأكدوا أنه لم يبق منهم أحد في البلد فقصدوا دار

العَبِد درويش وأحمد إسماعيل سعد. وكانوا حوَّلوهما إلى مقر لهم. لم يجدوا أحدًا منهم؛ وجدوا الشاي ساخنًا ومصبوبًا في الكاسات، ووجدوا كميات من القهوة والسكر والمعلَّبات. وصناديق كرتون. باحة الدار كلها صناديق. فتحوها. ماذا وجدوا؟ أولاد الحرام جمعوا كل ما يمكن نقله من البلد وعبّوه في الصناديق. ثيابنا وثياب رجالنا وعيالنا، لا مؤاخذة يا ست رُقَيَّة، حتى الكلسونات! والحرامات والمناشف والملاءات والمخدات. صار الرجال يضربون كفًا بكف ويقولون: الله أكبر لا تكفيهم سرقة الأرض والمحصول فيطمعون حتى في الثوب الذي نرتديه والحِرَام الذي نتغطّى به؟! تصدقي بالله يا ست رُقَيَّة حتى الغربال لم يتركوه. كان فيه صندوق فيه الغرابيل التي جمعوها من الدور. هل كانوا ينوون بيعها؟ إعطاءها لأهلهم في الكُبَّانِيَّة؟ تسليمها للوكالة اليهودية؟ الله أعلم. المهم، قرر الشباب ترك الصناديق على حالها مؤقتًا. حمل كلٌ كيسًا من أكياس القمح إلى القرية التي ينزل فيها عياله. أعطونا القمح لنطحنه ونطعم الصغار. وعادوا إلى القرية لأنهم قرروا تأمينها قبل عودتنا إليها. يومان والثالث جاء حوالي مائة من عسكر جيش الإنقاذ. قالوا إنهم سيتكفَّلون بحماية البلد وطلبوا منهم إخلاءه لأنهم يتوقعون قصفًا شديدًا. غادر الرجال القرية ولحقوا بنا. بعد يومين بدأت المعارك وصار اليهود يقصفون من مراكزهم جهة الغرب وجيش الإنقاذ يرد عليهم من القرية وضواحيها. ثم انسحب جيش الإنقاذ وسقط البلد. وهاجم اليهود القرى المجاورة وشردنا إلى لبنان. بعدها عاد أبو الناهض وثلاثة آخرون ليعرفوا ما الذي صار في بيوتنا. وكان أبو الناهض خبأ عشرين ليرة تحتِ النخلة. أمسكوا بهم واعتقلوهم.

ولما أفرجوا عنهم أركبوهم شاحنة مع عشرات من المعتقلين من قرى أخرى. ربطوا عيونهم ثم أنزلوهم عند نقطة الحدود مع لبنان. قالوا اركضوا إلى هناك. من يتطلع وراءه يُقتل. صاروا يركضون واليهود تطلق النار عليهم.

الله يرحم الجميع. أبو الناهض واثنين من الذين ذهبوا معه استشهدوا. والثالث هو الذي حكى لي.

حين أنصت لا أكون خارج القطار. لا أقفز داخله لأن القطار الذي لخّصت به وضعنا يختفي. والأرض تتكور كحضن، مفارقة لا أفهمها وتربكني، لأن الختِيارات كن يحكين عن سرقة الأرض ومن فقدوا من أهلٍ وأولاد. ويحكين عن المُخَيَّم في البدايات. الخيام التي يثقلونها بالحجارة كي لا تطير. سقوف الزنكو والوقوف في طوابير الماء. قبضة المكتب الثاني وعملائه، و«ممنوع تزوروا بعض في المسا، وممنوع تجلسوا أمام البيوت، وممنوع وممنوع...». يسترجعن مخاوفهن يوم سمعوا أن الحكومة تنوي طرد الناس من شاتيلا وهدم المخيم، ويوم تردد الكلام عن بناء جدار عال حول المُخَيَّم لأن شكله لا يناسب بيروت والسياح الذين يرغبون في الاستمتاع بجمالها. ويوم حاصر الجيش المُخَيَّم وصار يطلق عليه النار بلا سبب مفهوم.

وبمعضلة غريبة عجيبة لا أفهم كيف، تؤمِنُني الحكاية.

تضحك أم محمد وهي تحكي لي عن التحاق ابنها الثاني بمدرسة المُخَيَّم في العام التالي لوصولهم. تقول:

- كان عمره أربع سنين، شكله أصغر من سنه. فصيح. لا يغلبه أحد. قام الصبح وسأل:

- وين محمد؟

- راح المدرسة.

- وليش ما فيّقتيني أروح معه؟ وين هي المدرسة؟

لم أقل له. غضب وترك الدار. ظل يسأل إلى أن وجد المدرسة. كانت غرفة واحدة أصلها غرفة حمام، والمدرس شاب صغير وطويل البال. شاف صبي حافي طوله شبر ونص داخل عليه. سأله:

- وين رايح؟

أشار إلى أخيه:

- عند محمد. أنا اخوه. اسمي سعيد. اتولدت في ليلة القدر فسمّوني سعيد لكن ستي بتناديني مبروك.

ضحك المدرس، قال له:

- ارجع البيت يا سعيد وبكره هات والدك والأوراق، نسجّلك في المدرسة.

قال له:

- أبوي بيطلع من الدار الفجر لأنه خبّاز وما بيرجع إلا في الليل، باكون في سابع نومة. شو العمل؟! يوم الجمعة. قبل الصلاة أجيبه معي.

- يوم الجمعة المدرسة مسكّرة.

- ليش مسكّرة؟ افتحوها من شان أبوي يجيلكم. وشو بدكم في أبوي؟ هو انا اواللا هو اللي بده ييجي المدرسة؟

- لازم يجيب شهادة الميلاد ويوقع طلب أنك تدخل المدرسة.

- أنا باوقّع؟

- إنت تعرف تكتب اسمك؟

- ولا أبوي بيعرف يكتب اسمه. بيختم بصباعه. هات الحبر الأزرق وأنا باختم لك!

ضحك المدرس، قال له:

- بدل والدك، هات والدتك وهات الأوراق نسجلك في المدرسة. والبس لك حفّاية أو صندل. لازم الأولاد في المدرسة...

قاطعه محمد:

- ما هي الحفّاية لابسها محمد!

- ماشي. ارجع داركم، وبكره بنكون جبنالك كرسي تقعد عليه. كيف تتعلم وأنت واقف؟

قال سعيد:

- فيه مكان.

في آخر الصف حوض لا فيه لا مية ولا حنفية. دوغري راح سعيد على الحوض ونط تربّع فيه. قال للأستاذ:

ـ أنا قاعد ومتريّح. اتفضل شغّل المدرسة كيف ما بدّك.

تضحك أم محمد فيزداد وجهها الصبوح توردًا ويهتز صدرها الممتلئ. ترفع طرف كمها تمسح الدمعة التي فرّت من عينها. تقول: شوفي النصيب يا ست رُقَيَّة. سلك سعيد في المدرسة أكثر من محمد الكبير. أتمَّ الابتدائي والإعدادي والثانوي. يروح المدرسة الصبح والمسا يشتغل. ودخل الجامعة وتخرّج وتوظّف الحمد لله.

الفصل الثامن عشر

مشاغل عائلية

لم تغفر خالتي للصفُّورِيَّة أمرين. أولهما حسب قولها، إن بنت صَفُّورْيَة لم يرتح بالها إلا عندما سحبت ابن عمك إلى المُخَيَّم عند أهلها. لا تصدِّق عِزّ الذي يكرر المرة بعد المرة أن الانتقال إلى عين الحلوة كان اقتراحه ولم تشر به زوجته، لأن المدرسة التي يدرِّس فيها هناك، ولأنه يضطر للبقاء في المُخَيَّم بسبب عمله مع الشباب إلى وقت متأخر من الليل. «السكن في عين الحلوة أريح لي». ولكن أم الأمين لا تصدِّقُه، وفي هذا السياق يأتي السبب الثاني الذي أشارت له خالتي تلميحًا وتلويحًا وهمزًا ولَمْزًا ثم بصريح العبارة. فقال لها عِزّ:

- يا أمي. ذهبنا إلى الطبيب. عندي مشكلة. وكثّر خيرها أنها ستبقى معي رغم أنني غير قادر على منحها أطفالًا.

وما إن سمعت خالتي هذا الكلام حتى زادت همًا وغمًا وقالت:

- هذا الكلام لا يصدَّق وغير معقول، ولم يحدث أبدًا لأي من رجال العائلة.

- يا أمي، ذهبنا إلى الطبيب وأكَّد أن المشكلة عندي.

- اذهب لحكيم غيره. أكيد أن الحكيم الذي استشرته من جماعتها واتفقوا معه على قول هذا الكلام.

استدركت:

- ولماذا تذهب؟ سأبحث لك عن عروس فتعرف بعد شهر أو شهرين أنك بخير. تحبل امرأتك وبعد تسعة شهور يأتي الولد.

ضحك عِزّ وقال:

- ما رأيك نذهب معًا للطبيب الذي تختارينه لتسمعي منه بنفسك أن ابنك غير قادر على الإنجاب.

ساعتها قررت خالتي وإن لم تعلن قرارها لابنها، أنه لا جدوى من الكلام لأن البنت سحرت له وربطته فلن يتركها ويبقى «لا وَلَد ولا تَلَد». سلَّمت أمرها لله وإن لم يمنعها ذلك من دعوة تُشهده فيها على بنت صفُّورْيَة وما فعلته فيها وفي ابنها.

نذهب إلى صيدا في عطلة نهاية الأسبوع. يحملنا أمين بسيارته الرينو. الأولاد يحبون صيدا. حسن أكثر الأولاد تعلُّقا بالمدينة، يقول إنه يحب رائحتها ويحب زواريب البلدة القديمة ومعمارها، ويحب البساتين الممتدة حولها، والبحر. يقول، في بيروت نكاد لا نشعر برائحة البحر. هناك رائحة البحر صريحة ونافذة وتختلط برائحة زهر البرتقال. يحب حسن رائحة زهر البرتقال. في موسمه، لا ينتظر عطلة نهاية الأسبوع، يعود من المدرسة ويقول اشتقت لجدي، سأذهب إلى

صيدا. وواجبات المدرسة؟ سأتمها حين أعود. أعرف أنه لا يكذب بل يشتاق فعلًا لجده ولكن لماذا يشتاق له أكثر في موسم زهر البرتقال؟ ساعة للذهاب وأخرى للعودة، ثم ساعة أو ساعتان هناك، فيضطر حين يعود للسهر لإتمام واجباته وقد يسهر لإتمامها حتى الصباح.

حين تذهب الأسرة إلى صيدا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع أو للإقامة مع عمي وخالتي في العطلة الصيفية يخرج حسن ساعة أو ساعتين ثم يعود. يلازم جده. لا يمل من الإنصات لحكاياته. صادق وعَبِد يختلفان، ما إن يصلا إلى صيدا حتى يبحث كلٌّ منهما عن أصحابه فلا نكاد نراهما إلا ساعة النوم. وعندما نودِّع عمي وخالتي لنعود إلى بيروت، تكرر خالتي على أمين ما اعتادت قوله في نهاية كل زيارة: الله يرضى عليك يا أمين. ما الداعي للعمل في بيروت؟ عد للعمل في صيدا. يلتم شملنا، وقد تتمكن من إقناع عِزّ بالرجوع إلى بيته بدلًا من سكنه هناك وسط الأغراب في المُخَيَّم.

في طريق العودة، يكرر حسن كلام جدته. لا يفهم ما المنطق في ترك صيدا؟ يلِّح على أبيه في إعادة النظر في موضوع إقامتنا في بيروت. وألمح ابتسامة ماكرة في عيون صادق وعَبِد. بعد سنين، فقط بعد سنين، سوف أفهم لماذا كانا يبتسمان.

عندما نكون في صيدا يشكو عِزّ من تصرفات عمي أبو الأمين. أصبح موضوع المشاركة في المظاهرات مصدر توتر دائم بينهما. «لأنك لم تعد صغيرًا يابا. سيقتلك رصاص الجيش في مظاهرة من هذه المظاهرات. لن تستطيع أن تركض حين يفتحون علينا النار. اعتبر أنني أنوب عنك. الشباب كلهم ينوبون عنك». لا يجدي

الكلام. لا يكتفي عمي بالمشاركة في مظاهرة تنطلق من ساحة باب السراي في صيدا القديمة أو من عين الحلوة بل يسافر من بلد إلى بلد «لأنه واجب».

قرر الجيش إغلاق مكتب فتح في الخيام. أعلن عمي:

- سأذهب إلى الخيام.

- الجيش أقام نقاط تفتيش وحواجز على طول الطريق. كيف تذهب؟

- وكيف لا أذهب؟ أهالي الخيام يتظاهرون من أجلنا ونحن نتفرج عليهم؟! ثم إنني أعرف طرقًا ملتفة تبتعد بنا عن نقاط التفتيش، سأدلُّ السائق عليها.

في السنوات اللاحقة سيتكرر المشهد. كلام عِزّ ورد عمي. يقول عِزّ ما يقول وأبو الأمين يركب رأسه وسيارة أجرة وينطلق إلى المظاهرة في صور، في الخيام، في النبطية، في بنت جبيل، في الرشيدية. حتى عندما نظَّم الإمام موسى الصدر قبل عام من وفاة عمي مظاهرة شارك فيها ما يقرب من مائة ألف شخص للمطالبة بالإصلاح السياسي وتسليح أهالي القرى الحدوديَّة، لم يقتنع عمي أن المظاهرة للشيعة من أهالي القرى الجنوبية. رد على عِزّ:

- يا عيب الشوم. لم يقصِّروا فينا، كيف نقصِّر فيهم؟!

أصبحت المظاهرات على الجدول الأسبوعي لعمي وغدا القلق بندًا ثابتًا على جدول عِزّ. يشكو:

- سيموت برصاص الجيش في واحدة من هذه المظاهرات. يعاني من ألم دائم في ركبتيه. لن يتمكن من الركض ولا تحاشي الرصاص. والله كاد قلبي يتوقف يوم مظاهرات الاحتجاج على حصار الفدائيين في كفر كِلا. كان رصاص الجيش مثل المطر، والمتظاهرون يتساقطون بالعشرات، قتلى وجرحى، وأنا مشغول بأبو الأمين وأبو الأمين ولا سائل، متصدّر في المظاهرة يهتف كأنه في العشرين. مرّت بسلام. ولكنه كان أصغر بخمس سنوات. الآن تجاوز السبعين ولا أدري كيف أمنعه؟!

يضحك عِزّ بغِلّ. يقول:

- سيقتلونه. ماذا أفعل، أحبسه في البيت؟! أربطه في رجل السرير؟!

لم يمت عمي برصاص الجيش في مظاهرة. لم يصب كما أصيب العشرات من الشباب الذين يفوقونه قدرة على الركض والمناورة. لم يضطر عِزّ لحبسه في البيت أو ربطه في السرير. اضطره المرض لملازمة الفراش. يطلب من خالتي أن تتصل بي تليفونيًا في بيروت ثلاث مرات وأحيانًا أربعًا في اليوم الواحد. يقول:

- كيف حالك يا رُقَيَّة؟ أردت أن أسمع صوتك.

أحدِّثه دقيقتين أو ثلاثًا ثم يعطي السماعة لخالتي.

قررت أن أنتقل للإقامة معه لبعض الوقت.

جلست مع صادق وحسن وعَبد وقلت لهم إنني سأبقى في صيدا أسبوعين أو ثلاثة وربما أكثر إلى أَن يتحسن وضع عمي. اعترض عَبِد:

ـ عنده جدتي وعمي عِزّ وزوجة عمي. نحن أيضًا نحتاجك!

علَّق صادق ساخرًا:

ـ عَبِد يحتاج الرضعة كل ثلاث ساعات، يا حرام لن يحتمل!

لكزه عَبِد في كتفه وقال دون أن يبتسم:

ـ هاهاها. دمك خفيف!

زجرتهما.

قال حسن:

ـ لا تشغلي بالك. سندبِّر أمورنا.

قلت:

ـ حسن يعرف كيف يُعِدُّ لكم وجبة سريعة. إن أمكن يا حسن، أو تشتري لهم ما يأكلونه. صادق مسئول عن ترتيب البيت وعَبِد يغسل الصحون.

ـ يوميًّا؟!

ـ نعم يوميًّا! لأن صادق سيُرَتِّب البيت يوميًّا وحسن سيُدَبِّر لكم الطعام يوميًّا!

قال عَبِد:

- والغسيل؟

- أحضروه معكم في نهاية الأسبوع فأغسله وأكويه.

- ولماذا لم تكلفي بابا بأية مهام؟ هذه تفرقة.

- استحِ من حالك. أبوك يعمل في المستشفى من طلعة النهار حتى الليل.

عاد عَبِد للتبرم:

- سنموت من الجوع. نعيش أسبوعين على المعكرونة والرز والبيض والبندورة المقليّة؟ حسن لا يعرف غيرها.

- يا عَبِد، الله يرضى عليك، عندك خمستاشر سنة. مطلوب تكفّ عن الزَنّ والوَلْدَنة وتسمع كلام صادق وحسن.

- كمان!

- ولو سمعت أنك تشاجرت مع أي منهما سأقاطعك!

- كأنني إسرائيل!

- لا أمزح.

- موافق لكن عندي شرط...

استدرك:

- شرطان: عندما نأتي إلى صيدا في عطلة نهاية الأسبوع تطبخي لي مرة مقلوبة ومرة مسخَّن ومرة كُبَّة باللبن.

ـ موافقة. والشرط الثاني؟

ـ تعملي لنا فطاير زعتر وفطاير سبانخ وكُبّة نأخذها معنا ونحن عائدين إلى بيروت.

ـ موافقة.

ـ كل أسبوع.

ضحكت وضحك صادق وحسن. التفت عَبِد إلى أخويه وقال وهو يبتسم بزهو:

ـ تعلَّما فن المفاوضة. أمَّنْتُ لكما فطائر وكُبَّة تعين على أيام المجاعة والكوارث الغذائية للشيف حسن!

الفصل التاسع عشر

المكان ١٩٧٥

لم يتمكن أمين والأولاد من الحضور إلى صيدا في نهاية الأسبوع التالي ولا الأسبوع الذي تلاه. كانت الطرق مقطوعة بين بيروت وصيدا. توقّفت حركة السير، عمَّت الإضرابات والمظاهرات والحرائق شوارع بيروت وطرابلس وصور وغيرها. في صيدا سقط العشرات في الاشتباكات بين الأهالي والجيش. ولم تتوقف المعارك التي استمرت خمسة أيام إلا بعد انسحاب الجيش من المدينة. هدنة قصيرة أتاحت للأهالي تشييع شهدائهم وإحصاء جرحاهم وتَفَقُّد ما أصاب بيوتهم من دمار وتسقُّط الأخبار من جهة المستشفى في بيروت.

بدا يوم الأربعاء السابق يومًا عاديًا، غائمًا ومُحَمَّلًا بالمطر.

في صيدا مظاهرة.

ما الجديد؟

أهل صيدا كثيرًا ما يتظاهرون للتعبير عن رأيهم.

على رأس المظاهرة معروف سعد، كالمعتاد، والدكتور نزيه البزري نائب صيدا في البرلمان. مظاهرة للصيادين المحتجين على الحكومة لمنحها حق احتكار صيد السمك ٩٠ يوما في ذروة موسم الصيد، لشركة خاصة يملكها الكبار ويرأسها كميل شمعون، رئيس الجمهورية الأسبق. ينهمر المطر بقوة. يقل عدد المتظاهرين. ثم تنطلق رصاصة تقصد معروف سعد. تصيبه. يحملونه إلى مستشفى الدكتور لبيب أبو ظهر. في العصر ينقلونه إلى بيروت. قيل أصيب بنزيف وهبوط حاد في ضغط الدم.

اشتعلت صيدا.

اشتعل لبنان.

تطيل خالتي الصلاة لأنها تدعو إلى الله أن يشفي معروف ويعيده إلى بيته وناسه سالمًا غانمًا. «قادر على كل شيء يا كريم يا لطيف، يا رحمن يا رحيم». وأنا يتملَّكني الصمت، صمت معجون بخوف واضح وثقيل. وعمي كثير الكلام، يصمت فجأة مثلي. يلتزم فراشه ويُبقي عينيه مغمضتين فلا نعرف إن كان يقظًا أم نائمًا. تناديه خالتي: «صاحي يا ابو الأمين؟»، يجيبها بزفرة دون أن يفتح عينيه.

يوم الخميس ٦ آذار، بعد تسعة أيام من إصابته، استشهد معروف.

انتشر الخبر قبل أن يُذاع رسميًا. قيل إن الحكومة كانت تنتظر نقل جثمانه إلى صيدا قبل إعلان الخبر. ولكنه وَصَل الناس في الجنوب فزحفوا باتجاه بيروت. التقوا الجثمان في منتصف الطريق فمضوا خلفه عائدين به إلى صيدا حيث شُيِّع في اليوم التالي مِن المسجد العُمَري الكبير.

شاركتُ في الجنازة.

لم أكن خطوت داخل البيت عند عودتي ولا أغلقت الباب خلفي حين سمعت عمي ينادي:

- تعالي يا رُقَيَّة.

- يسلم راسك يا عمي.

- كيف كانت الجنازة؟

- شيَّعته صيدا كلها. جاءت قيادات الحركة الوطنية من بيروت، وآلاف الأهالي والوفود من الجنوب والبقاع والشوف وبيروت وطرابلس. حملوا نعشه في قارب صيد. وصيّادو السمك حملوا قاربًا مجللًا بالسواد ومملوءًا بالزهور. الشباب حملوا صوره ولافتات مكتوب عليها «بطل معركة المالكية» و«شهيد الفقراء» وشعارات القوى الوطنية اللبنانية والفصائل الفلسطينية والوفود التي جاءت من الدول العربية. الرجال كانوا يبكون ويهتفون. والنساء كن يبكين ويزغردن وينثرن أوراق الورد والريحان وماء الزهر.

زفر عمي فجأة، قال:

- البركة في الشباب. سأنام.

اتصلتُ ببيروت. لم يكن بالبيت إلا حسن. قال إن الجنازة في بيروت كانت كبيرة جدًّا. حملت نعشًا رمزيًا وسارت به من الجامع العُمَري حتى مقابر الشهداء. وكانت هناك مسيرات ومواكب وجنازات رمزية في أماكن أخرى متفرقة.

ـ كان فيه إطلاق نار؟

ـ إطلاق نار وأناشيد ومكبرات صوت تذيع كلمات حماسية وخطب.

ـ حين يعود أبوك وصادق وعَبِد اتصل بي، حتى لو تأخروا. لن أنام.

من الجمعة إلى الجمعة التالية التزم عمي أبو الأمين الصمت. خالتي تقول إنه ربما فقد النطق. تجلس على السرير بجواره وتظل تحدِّثه وتسأله فلا يجيب. وعندما تُلِحُّ يرد بعبارة مقتضبة ثم يُغلق عينيه ويدير لها ظهره كأنه سينام. ولكنه حين أتى أمين والأولاد مساء الجمعة اللاحقة حيَّاهم وقال لهم إنه يريد أن يتحدث معهم. قال: «غدًا، إن عشنا».

في الصباح طلب مني عمي أن أساعده على تغيير ملابسه. حملت له طست ماء دافئ وصابونة وكوزًا ومنشفة. ساعدته على الاغتسال وتغيير ملابسه. أفطر ثم طلب أن أعِدَّ له فنجان قهوة. شربه ثم قال: «نادي الأولاد».

جلسوا حوله.

قال:

ـ أريد أن أحكي لكم.

لمحت مشروع ابتسامة على وجه عَبِد، ولوهلة بدا لي أن الولد سيقِلُّ عقله ويقول له لا داعي لأننا نعَرف. زجرته بالنظر فالتقط رسالتي وبقي صامتًا.

بدأ عمي الكلام بالحديث عن معروف سعد. قال:

«تعرَّفنا عليه أول ما تعرَّفنا عام الخمسة وثلاثين عندما كان يُدرِّس في مدرسة البُرج في حيفا. طوال عامين كان يدرِّس ويشاركنا في المقاومة المسلحة. يعود إلى لبنان يومي الخميس والجمعة وفي العطلة الصيفية ليسهم في تنفيذ قرارات المقاطعة، ويعمل مع الشباب هنا في الجنوب لمنع تصدير الخضراوات والفواكه عبر الحدود الفلسطينية اللبنانية، إلى المستوطنين وسلطات الاحتلال البريطاني. ينتظرون الشاحنات القادمة من بيروت عند نهر الأوَّلي أو في صور أو النبطية أو مرجعيون، ويقطعون عليها الطريق. يُنزلون السائق ويلقون بصناديق الخضرة والفواكه».

غريب. والله غريب. تحدّث عمي ساعتين أو ثلاثًا أوربما أربعًا. يجمع حبات الكلام من هنا وهناك. يسلسلها أمام عيوننا كالمِسْبَحَة. يحدِّد المكان. يحدّد الزمان. ينتقل من زمان إلى زمان. ومن مكان إلى مكان سواه. ومن تاريخ معلوم إلى وقائع شخصية كان هو نفسه شاهدًا عليها وطرفًا فيها. يذكر القادة والزعماء، «الله لا يسامحهم». يذكر رفاقه، «يرحم الله الشهداء». يستحضر صورهم. يتركها معلقةً على الجدار في خلفية الكلام. ويواصل:

قلت لنفسي سيعيش عمي ألف عام. سيتعافى من مرضه ويغدو بألف خير.

قال حسن فجأة:

- استرح قليلًا يا جدي. استرح الآن وفي المساء تُكمل لنا الحكاية.

قال:

- مضى عهد الراحة يا حسن. اسمع يا ولد اسمع. قد تروي الحكاية يومًا لأولادك.

هل خِلت دموعًا في عيني حسن. تطلّعتُ ثم غضضتُ الطرف. رحت أنصت كما ينصتون.

يقولون في بلادنا «حلاوة الروح». سمعت العبارة كثيرًا. بدا لي أنني أفهم معناها. لم أفهمها إلا في ذلك اليوم.

بعد عودة أمين والأولاد إلى بيروت، لم يحدِّثني عمي إلا عن الطَّنْطُورَة وعن أبيه وأمه وأخيه. يحكي لي مُطَوَّلًا عن طفولته. يستفيض في التفاصيل. لا يُنهي حديثه إلا باستعادة يوم اختلف مع أبي حول الرحيل، ويوم عاد من صيدا ليحمل النساء والأطفال فرفع عليه أخوه السلاح. يقول كنتِ معنا يا رُقَيَّة. وكنت شاهدة. هل نسيتِ؟ أقول لم أنس يا عمي. ولكنه يعيد عليّ كل ما جرى كأنني قلت له: نسيت. ودائمًا يختتم الكلام بالعبارة نفسها: لم يفهمني أخوي. غضب عليّ. ذهب دون أن أودِّعه. وكلما عدت إلى البلد تسللًا، أزور قبر أمي وأبي ولكني لا أعرف مكان قبره لأصالحه وأراضيه.

يبكي عمي. فأنتقل من مقعدي وأجلس على الفراش بجواره. أربِّت على كتفه وأهدِّئه.

ثم رحل.

بعدها بسنين سيقول لي عِزّ: يبدو لي أحيانًا أن أبو الأمين بالحدس

أو بشيء كالإلهام عرف أنه لن يتحمّل هول الأيام القادمة. هل كان يتحمل يا رُقَيَّة، «لبنان الحر» التابع للإسرائيليين؟ هل كان يتحمّل حصار تل الزعتر وتحالف سوريا مع الكتائب؟ هل كان يَعْقِل أن جماعة عرفات و«أمل» يقتتلون في الجنوب أو أن «أمل» تحاصر المُخَيَّمات؟ كأنه بالحدس عَرف، فقال لنفسه: زمانك انتهى فارحل مع صحبك ومجايليك.

الفصل العشرون

الزُّنْبَرك

أعرف خالتي ربما أكثر مما أعرف نفسي. قلت لها ما إن انتقلت للإقامة معنا في بيروت، إنني مرهقة من أشغال البيت. اقترحت أن تتولى أمور المطبخ. تمنّعت قليلاً ثم قَبلَتْ. كنت موقنة أن هذه تكون الخطوة الأولى لإشعارها بأنها في بيتها لا ضيفة.

اعترض عَبِد:

- لا أحب طبيخ ستي.

نهرتُه. قال:

- كل منا يكره ويحب هكذا، أمر الله.

ضحك صادق، قهقه:

- عَبِد صار فيلسوفًا!

تمادى الولد:

- أنت تحبين رائحة الزنبق البريّ، صح؟ وحسن يحب رائحة زهر

البرتقال، لا اعتراض! وعمي عِزّ يحب الملوخية، تطبخون له ملوخية. وأنا لا أحب طبيخ ستي! أموت من الجوع أم أغصب نفسي على قبول ما أكره؟!

قلت بحزم:

- ستتعود على طبيخها وعندما تتعود عليه تحبه! وإن لم تأكل من أكلها أنت حر. مُت من الجوع. عندك زيت وزعتر أو يكون عشاؤك ملحًا. افعل ما تشاء! انتهى الكلام!

اشتدت المعارك في البيت وزادها اشتعالًا أننا اضطررنا لجمع الأولاد الثلاثة في غرفة واحدة لنُخلي غرفة لخالتي. ولما كانت غرفة الأولاد لا تحتمل ثلاثة أسِرَّة فضلًا عن المكتبين اللذين يدرس عليهما صادق وحسن، أوصينا نجارًا على سرير بطابقين. ولما وصل السرير الجديد قرر عَبد أنه يريد الطابق الأعلى. أعجبته فكرة الصعود على سلم خشبي إِلَى فرشته وإمكانية أن يطل على أخيه من فوق كأنه الكبير. بعد أسبوع قال إن ركبتيه تؤلمانه من الطلوع والنزول، وإنه يُفَضِّل الطابق الأول. ولأن حسن كان زميله في السرير، تنازل له عن مكانه بهدوء. عاد عَبِد بعد أيام يتبرَّم من السرير.

- وأنا نائم تأتيني كوابيس. أشعر طوال الوقت أن حسن سيسقط على رأسي فأموت، ثم إنه يطلق غازات وهو نائم. وتأتي الرائحة في أنفي مباشرة كأنها موجهة قصدًا إليّ. ثم كيف تطالبونني بالتفوق وأنا بلا مكتب؟! المكتب في حجرة تيتة وهي تنام كالدجاج بعد صلاة العشاء فأجلس إلى مائدة الطعام، أو في المطبخ. لو رسبت أنتم المسئولون.

مشاكل السرير والمكتب والتي تثير كلما طرحت «غرفتي التي احتلّتها تيتة»، ظلّت داخل دائرة لا تتعداها إلى علم خالتي. ولكن العداء في عشرات المواقف الأخرى، كان سافرًا ومعلنًا وكالحلقة المُفْرَغَة. يسيء عَبِد التصرف مع جدته فأنهره وأعاقبه، فيُرجع العقاب إلى سته ويتمتم أنها «عجوز النحس لم تحمل لنا سوى سَمِّة البدن وتعكير المزاج». فأدَّعي أنني لم أسمعه لأن الإقرار بأنني سمعت يقتضي دورة جديدة من الزجر والمحاسبة والعقاب.

قال صادق ضاحكًا يعلِّق على الوضع:

- لا يكتفي عَبِد بالحرب الأهلية التي نعيشها في الشوارع، قرَّر أن نعيشها في البيت. سوبر حرب بره وميني حرب في البيت!

انزعج عَبِد من الكلام:

- لا أثير حروبًا. جدَّتُك كبرت ومسايرتها صعب ثم إنها احتلّت غرفتي!

- أنت تشبه الكتائب، تقوم بكارثة ثم تسبق بالصوت: اعتدوا عليّ!

ما الذي حدث؟ أمسك عَبِد بتلابيب أخيه وراح يصيح كالمجنون. «لا تشبِّهني بالكتائب! كيف تشبِّهني بالكتائب؟! والله لولا أنك أخي لقتلتك». دفعه صادق بعيدًا وأوقعه على الأرض. حال حسن بينهما وهو يصيح. دخلت الغرفة لأجد صادق باركًا فوق أخيه. خاصمت صادق وعَبِد أسبوعًا كاملًا. يمشي صادق ورائي في البيت وهو يقول: لماذا تغضبين مني؟ هو الصغير وتهجّم عليّ. فأقول لأنك

الكبير وكان عليك أن تتصرف بشكل مختلف. يحاول استرضائي أما عَبد فقرر أن كل من في البيت متواطئ ضده حتى حسن، «حكى الحَكاية غلط، ويدّعي الحياد، ولا شيء اسمه الحياد!».

هل لعَبد وجوه مختلفة أم كان الفارق بينه وبين أخويه أنه في ذروة المراهقة لم يجد سبيلًا إلى كتمان ما نكتمه كلنا من اضطراب. لم أفهمه، لم أفهم حروبه الصغيرة البلهاء، ولا ضرورة اختلاقه للمشاكل. أنظر من بعيد، أشعر بتلك النغبشة التي شعرت بها للمرة أولى يوم ولادة صادق. لأنه بعيد؟ لأنه صار رجلًا جميلًا رغم ما تعرّض له من عذاب؟ لأنني فهمت ولو متأخرًا أن الولد لم يكن يعرف ما الذي يفعله بنفسه، بالسخط داخله، رجولة في مطالعها هشّة خضراء تتساءل هل تقتضي الرجولة حمل السلاح والقتل؟

علّق صادق:

- لا يمكن الخلط بين الصغير والكبير. المقاسات كما المقامات، محفوظة!

رد حسن:

- باستثناء الأحذية!

قال صادق وهو يرمق عَبِد بنظرة ماكرة:

- إن كان المقياس الحذاء، يكون عَبِد...

تدخَّل عَبِد مقاطعًا:

- وإن كان المقياس العقل تنعكس المقامات. يصير الأكبر أصغر، والأصغر أكبر. والوسط يبقى في الوسط!

كانوا يضحكون وهم يواصلون مبارزاتهم الكلامية المعتادة. مؤكد أنهم كانوا غافلين عن فعل الزُّنْبَرَك ومفاجآته. انفلت في الركبتين فإذ بعَبد في عامين اثنين ينتقل من صبي قصير ونحيل يبدو الأصغر بين زملاء صفِّه في المدرسة، إلى شاب يفوق أخويه ووالده طولًا. هل يقتصر فعل الزُّنْبَرَك على طول الجسم وعرضه؟ لا أدري إن كان عَبد كفَّ عن سخافاته بفعل الزُّنْبَرَك الذي كَبَّرَهُ بين يوم وليلة، أم أنَه توقف عن تلك السخافات لأنه وجد منفذًا لطاقته. تحول فجأة إلى شخص مشغول: تلميذ جزء من الوقت، ويحمل السلاح ليحرس موقعًا ما يُعيَّن له جزء من الوقت، وكادر في المُخَيَّم له مسئولياته جزء من الوقت. يأتي البيت متأخرًا. يأكل المتوفر وينام ساعات قليلة. يستيقظ على رنين المنبه. «لدي امتحان غدًا، ولم أدرس بما فيه الكفاية». قال لي أمين: «كدت أنصحه بالتفرغ لدراسته، على الأقل حتى ينتهي من البكالوريا ثم خجلت من نفسي. كأننا نقول أولادنا للمستقبل وأولاد المُخَيَّم للدفاع عنا، حتى الموت إذا اقتضي الأمر». كلام أمين يَطِنُّ في أذني. أقول لنفسي إنه على حق، ولكن قلبي لا يسمع الكلام. كانت الحواجز في الطرقات. الحواجز الطيَّارة والحواجز الثابتة. والقتل على الهوية هنا وهناك. والاختطاف. وأكون في البيت كأننا في أمان الله ثم أسمع الصليات المتتابعة من هذه الجهة أو تلك، أو الصوت المفاجئ والثقيل لانفجار. ويكون ولد من الثلاثة خارج البيت أو يكونون جميعًا لا أدري أين، أو يكون أمين في المستشفى، ذهب للتوّ أو أمسى الوقت متأخرًا وربما في طريقه إلى البيت. يركبني الفزع ويتوحَّش الخيال.

أنتظر الجميع ولكنني أنتظر عَبد أكثر. وفي الليل لا أنام إلا عندما أسمع دورة المفتاح في الباب. أنتبه لخطوته. أقول: عَبد؟ أسمع صوته فأُسلّم بالنعاس. جدته تكاد لا تراه. لا يبدو أنها تفتقده. وحين يتصادف وجوده في البيت ذات نهار، ينحني عليها مداعبًا طمعًا في قبلة، أو يقول ضاحكًا: «هل تتزوجيني يا ستي؟!»، تتشبث بالعلاقة القديمة، تتمتم وهي تشيح بيدها بعيدًا: «قَشَل!»، يضحك ويقول «بخاطركم»، ويذهب.

الفصل الحادي والعشرون

هدية أمين

قلت كان يركبني الفزع ويتوحَّش الخيال. أستدرك: لم يكن الخيال بل الأرض. تتوحَّش وتستأنس كل وحشيّ. هل كانت رُقَيَّة في كامل عقلها في تلك الأيام؟ قبل أن يستيقظ الأولاد، قبل صباح الخير وغلي القهوة، تنزل إلى الشارع لشراء الجرائد. تحملها إلى البيت. تقرأ العناوين الكبيرة والصغيرة والتفاصيل والتعليقات والمقالات، الصفحة الأولى والأخيرة وما بينهما. قبل صباح الخير، تشتري الجرائد. تعود بها إلى البيت. تتركها مطويَّة كما حملتها. لا تلقي نظرة حتى على العناوين. لا تشتري الجرائد. يأتي بها أمين أو الأولاد. في المساء يسأل أحد الأولاد: «أين جرائد اليوم يا أمي؟» «لا أدري». تساعد الولد في البحث ثم تتذكر: «استخدمتها في تنظيف زجاج النوافذ». «وضعتها في قاع سلة المهملات». «أعطيتها لجامع القمامة». «ألم تنتبهي أنها جرائد اليوم؟» لا تعلِّق. لا تقول: بلى انتبهت. ثم تعود تبكر في النزول لشراء الجرائد...

تقول لحسن وضِّح لي رسماً أحياء بيروت وضواحيها. تعرف

أين بيروت الشَّرْقِيَّة وبيروت الغربية. تعرف المتحف. تعرف ساحة الشهداء ومنطقة الفنادق وموقع الأسواق. تعرف أين خلدة وأين الناعمة وأين الدامور. لا تعرف أين بالضبط تقع عين الرمانة، أين حي الغوارنة، أين سبناي؟ أين النبعة وأين المسلخ والكارنتينا، أين الأشرفية، وأين فرن الشبّاك. تعود تطلب من حسن أن يرسم لها خريطة ثانية. «رسمت لك خريطة يا أمي. أين الخريطة التي رسمتها لك؟». تنظر إليه بتساؤل كأنها هي التي تنتظر منه الإجابة. تنتبه. تقول: «مزقتها».

أمين يقضي اليوم في المستشفى ويعود مرهقًا. لا يسهبُ في الكلام. ولو تكلم لا يشير للحرب ولا لعدد من وصله من الجرحى والقتلى. حسن يستعد لامتحان البكالوريا، لا تعرف كيف يحجز أصوات القذائف بعيدًا عما يدرسه في الكتاب. صادق يتردد على الجامعة لاستخراج شهاداته وأوراق تخرجه. تعرف أنه مع غيره من الطلاب يحتكّون بالإدارة وبشباب الكتائب، ويعتصمون أو يتظاهرون لكن منطقة الجامعة الأمريكية آمنة نسبيًا فلا قذائف تسقط عليها والحرب فيها محكومة ولها حدود.

عادت رُقَيَّة إلي الصمت القديم، لم تفقد القدرة على الكلام، تحدِّث خالتها لتطمئنها، تتبادل أحاديث مختصرة مع حسن أو صادق أو عَبد أو أمين، ولكن إذا لم تقتض الضرورة، يتوارى في الصمت الكلامَ. يسكن متمترسًا فيه.

تتعجل سفر صادق إلى الخليج ليعمل هناك. تتعجل سفر حسن إلى مصر للالتحاق بالجامعة. «ألا يمكن أن نرسل بعَبِد مع حسن

إلى مصر ليدرس في مدرسة ثانوية هناك؟». على غير كل الأمهات تريدهم أن يتركوها ويذهبوا. يسافروا إلى مكان بعيد. أي مكان.

سافر الولدان. لم يبقَ سوى الانتظار. تنتظر عودة أمين من المستشفى في وقت متأخر من الليل. تنتظر عَبد الذي يعود ليلة ويتغيب ليلتين أو ثلاثًا. ترعى خالتها. أنظر من بعيد: أعرف أن حاجاتها ومطالبها وأحاديثها، المختل منها والموزون، كانت رحمة تبدد وطأة الانتظار.

ثم جاء أمين بمريم.

حملها ذات ليلة ووضعها بين يديّ، قال:

- ستكون ابنتنا، غدًا سأبدأ في الإجراءات الرسمية للتبنِّي.

أحيانًا يركب المرء الغباء أو تغشى عيناه فيفقد كلَّ قدرةٍ على الإبصار. قلت:

- انتهيت من تربية أولادي، فلماذا تأتي لي برضيعة وتقول ابدئي من جديد؟ ثم إن خالتي صارت كالأطفال تحتاج الرعاية صباح مساء، هل أهتم بها وأرعاها أم أنتبه لهذه الصغيرة التي تحتاج كل شيء من الرضعة إلى تنظيف مؤخرتها إلى تعليمها المشي والكلام؟

كنت غاضبة لا أفهم لماذا يختار أمين تبنِّي رضيعة يضعها بين يديّ ويذهب إلى المستشفى هكذا ببساطة كأنه لم يخلِّفها وراءه؟ كان هادئًا كعادته. تطلع فيّ، قال:

- انظري إليها يا رُقَيَّة، حين حملوها لي لفحصها تطلعتُ في

وجهها فأخذت قلبي. قلت جاءتنا بنت، هبة من السماء. دمّرت القذيفة البيت، ذهب الكل، الأم والأب وربما الإخوة والجيران. وحدها هذه الطفلة كان مكتوبًا لها الحياة. حملها الإسعاف إليّ من تحت الأنقاض. لم يكن ظاهرًا في جسمها لا جرح ولا كدمة ولكنهم تصوروا أنها لا بد أن تكون مصابة بنزف داخلي أو إصابة لا تبين. فحصتُها. تمام. تطلعي في وجهها يا رُقَيَّة، ما أجمل هذا الوجه!

لم أتطلَّع.

أنظر الآن من بعيد: أحمل مريم إشفاقًا ربما، لأنها رضيعة ولا أم لها، حرام. أقوم لها بالمطلوب، كأنها ابنة جارة عليّ الاعتناء بها حتى تعود أمها وتستردّها مني. ثم ذات ليلة اشتد فيها القصف، حملتها وأمسكت بيد خالتي وانتقلنا للجلوس على السلم، احتضنت البنت. تطلعت في وجهها فشعرت بتلك النغبشة في صدري كأن الثديين أوشكا على إدرار الحليب. وغُصَّة ربما في الحلق وغلالة من دمع يتفلَّت. لا أعرف حتى الآن إن كنت في تلك اللحظة وأنا أحتويها تمامًا بين ذراعيّ، أقي رأسها الصغير من قذيفة محتملة، إن كنت أحميها أم أحتمي بها.

صارت لي ابنة.

أجمل وأغلى ما خلّفه لي أمين.

أقول وجهها كالملاك. أراجع نفسي: لم يَرَ أحدٌ منا ملاكًا، ها هي أمام عيني أجمل من خيالنا عن الملاك.

نعم، كان عشقًا واضحًا وصريحًا. ربما يفوق الأمومة التي لا يفوقها شيء. لأن الحب يأتي تراكمًا وبعد تمهيد، شهور الحمل التسعة والولادة ثم تجد الولد بين يديك وهو منك، من لحمك وصلب أبيه. ولكن مريم جاءتني هكذا بلا تمهيد. أنكرتُ كما ينكر العاشق، يومًا يومين أسبوعًا أو ربما أسبوعين، ثم قبلت بحقيقة العشق. وكان عشقًا في زمن الحرب حيث القتل على الهوية. وصليات الرصاص وانفجارات القذائف والديناميت والسيارات المفخخة وتهجير الخلق من بيوتهم وأحيائهم بلا ذنب سوى أنهم مسلمون أو مسيحيون، والفوضى والسرقات واختلاط المسعى النبيل بنهم لصوص صغار. ومريم بين يديّ تُغَرْغِر كعصفور، فيتأكد لي مع كل صباح أن في هذه الحياة رغم كل شيء، ما يستحقُّ الحياة.

فرح عَبد بالبنت، يداعبها حين يمر بالبيت مرورًا يطمئن علينا أو يأكل أو ينام. أمين يستبشر بوجهها في الصباح، يتأملها وهي نائمة حين يعود من المستشفى في آخر الليل. وحدها خالتي لم تفهم لماذا ظهرت هذه الرضيعة بلا مقدِّمات واحتلّت ما احتلّت من اهتمام. وفي ذات يوم، قالت:

- يا رُقَيَّة لم أرد أن أسبب لك غمًّا ولكن عليّ أن أُفطّنك: رأيي أن أمين تزوَّج عليك وهذه البنت ابنته من امرأة أخرى.

- ولماذا يا خالتي يأتي لي بابن المرأة الأخرى، لِـمَ لا يتركها لأمها؟

ـ الله أعلم! ربما لم يتزوج، وهي ابنته بالحرام.

ضحكت. كنت اعتدت على نَهْفَات خالتي المستجدة وشكوكها في الآخرين.

ـ يتيمة يا خالتي وحملها له الإسعاف من تحت الأنقاض. لم يعرفوا لها أهلاً ولا حتى أقارب من بعيد.

ـ أنت حرة. نبّهتك وعملت ما عليّ. الأيتام في بلد فيه حرب، كثار، ولهم ملجأ يأويهم. لماذا أتى بهذه البنت ولم يأت بباقي الأيتام؟!

ـ كل شيء قسمة ونصيب يا خالتي.

الفصل الثاني والعشرون

١٩٨٢

تُعلِّمُك الحرب أشياء كثيرة. أوَّلها أن ترهفَ السمع وتنتبه لتقدِّر الجهة التي يأتي منها إطلاق النيران، كأنما صار جسمُك أذنًا كبيرة فيها بوصلة تحدد الجهة المعيَّنة بين الجهات الأربع، أو الخمس، لأن السماء غدت جهة يأتيك منها أيضًا الهلاك. ثانيها أن تسلِّم قليلًا وألا تخاف إلا بمقدار. القدر الضروري فقط. لو زاد خوفك مقدار ذرة، غادرتَ بيتك بلا داعٍ لأن القصف في الناحية الأخرى من المدينة، يتحوّل خوفك إلى مرَض خبيث يأكل من جسمك كل يوم حتى يأتي عليه. فتوفِّرك القذيفة ويقتلك الخوف. ولو قلّ خوفك مقدار ذرة، ولم تسارع إلى هبوط الدرج إلى الملجأ أو الجلوس على السلّم بعيدًا عن النوافذ والشرفات، تقتلك القذيفة هكذا في غمضة عين، لأن القصف يقصد الشارع الذي تسكنه، وربما البناية التي تقيم فيها. وتُعَلِّمُك الحرب ثالثًا أن تنتبه حين تضطر لمغادرة البيت أن تأخذ الأهم فالمهم. مثلا زجاجة ماء أو السيدة العجوز التي قد تضيع منك وأنت تُتَمِّم على صغيرتك وأعضاءِ جسمك. والمؤكد أن هناك رابعًا

وخامسًا وسادسًا تتعلمه من الحرب، لكن دائما تتعلم وإن ورد هذا في الأول أو في الختام، أن تتحمَّل. تنتظر وتتحمَّل لأن البديل أن يختلَّ توازنك، باختصار تجنُّ.

وكانت الحرب تسلمنا إلى حرب. ومن حرب إلى حرب... ماذا؟ هنا تتعثر الجملة ويرتبك الكلام لأنني لا أعرف كيف يمكن تلخيص ما عشناه في تلك السنوات. لا أعرف طريقة لنقل المعنى وأتساءل عن جدوى الدخول في التفاصيل. وليست التفاصيل تفاصيل. كل تفصيلة حكاية تخص مئات البشر وربما الآلاف. خذ مثلًا السبت الأسود في ختام العام ٧٥. اختطفت الكتائب ٣٠٠ مسلم وقتلت سبعين آخرين وردَّت الحركة الوطنية بالاستيلاء على منطقة الفنادق وبعدها انفلتت الفوضى وعمليات النهب في قلب بيروت. حكاية كبيرة أم تفصِيلة من مئات التفاصيل؟ وقبلها قُتل ٦٣ من العمال السوريين وأُجبر الآلاف منهم على الفرار. يا إلهي، مجرد خيط واحد في النسيج، أو شرر واحد من لهب الحريق. وبعدها حصار تل الزعتر وجسر الباشا وضبيّة وأحياء الصفيح في المسلخ والكارنتينا وحيّ النبعة، تفاصيل؟ ثم الاجتياح الإسرائيلي في ٧٨ ومئات الآلاف من الجنوب الذين توافدوا على بيروت الغربية. ثم الاجتياح الأكبر في ٨٢.

كنا في الحصار. في عِزّ الصيف والحصار.

دق الباب. فتحت. كدت أصيح لا لأنني تعرّفت على حسن بل لأن الولد الواقف بالباب أمامي بدا لي ظلًّا لحسن. قلت اختل عقلي وغلبته التخيُّلات. قلت الظلال أطول. قلت ولكن هذا ظله، صورة مطابقة وأصغر. كأنه حسن في الصف الأول الثانوي ومريض. قال:

ماما. أحطته بذراعيّ وتشبثت. صار يتفلّت مني. لم أنتبه أنه كان يكتم البكاء. تركته يُفلت ورحت أحدِّق فيه. أتحسس وجهه وعنقه وكتفيه.

- كنتَ مريضًا؟

ضحك.

- المرض أسهل.

- احِكي لي ماذا جرى لك؟

- من يحكي لمن؟

- أبوك وعَبِد بخير. عمك عِزّ... لا نعرف...

- عرفت من أبي.

- متى رأيته؟

- ذهبت إلى المستشفى أولًا؟!

هل لمس نبرة عتب في الكلام. ابتسم. ليس ظله. إنه حسن، ابتسامته الحيية وعيناه العذبتان.

- خفت أن آتي مباشرة إلى البيت.

تلعثم.

- قلت أذهب أولا إلى المستشفى. في المستشفى أجد أبي فأسأله عنك. وإن لم أجده أجد من يقول لي الأخبار. أين ستي؟

دخل يسلِّم على سته:

- كيف وصلت يا ستي؟

- من القاهرة. ركبت الطائرة إلى دمشق ومنها بالبر إلى بيروت.
- حمد لله على السلامة يا ستي. الطريق فيه فدائية ولّا إسرائيلية؟
- فيه فدائيين في أماكن وإسرائيليين في أماكن.
- وعين الحلوة؟
- ما لها؟
- ما مريت عليها تطمئن على عمك عِزّ ومرته؟
- لا يا ستي طريق دمشق من ناحية وصيدا في ناحية ثانية.
- حمد لله على السلامة يا ستي، اشتقنا لك.

سيبقى حسن معنا طوال فترة الحصار. يعمل في الدفاع المدني. يوزِّع الماء والخبز والجرائد على الأهالي. يتردد على جريدة السفير. يساعد في بعض الأعمال التطوّعية في الجريدة.

ويوم الرحيل خرجت بيروت آلافًا ومئات الآلاف تنثر الأرز وأوراق الورد على الشباب المكدسين في الشاحنات لتحملهم برًّا إلى الشام أو إلى المرفأ حيث السفن تستعد لترحيلهم من لبنان. سارت مريم تتقدمنا أنا وأمين، تمسك بيد عَبد من ناحية وحسن من الناحية الثانية. كانت ترتدي ثوبًا صيفيًّا يكشف عن نحرها وذراعيها. وشعرها كما صففته لها، ملموم في ذيل حصان. تحدّث أخويها ثم تستدير إليّ وإلى أبيها وتضحك.

عانقنا عَبِد.

صعد إلى الشاحنة.

لوّحنا له.

وإذ بمريم تطلب من امرأة تحمل سطلًا من الأرز حفنةً منه. رفعها حسن عن الأرض فحركت ذراعها بكل عزمها وفتحت قبضتها فجأة فتناثر على رأسها الأرز الذي قصدت به أخاها. ضحكَتْ. صاحت بأعلى صوتها: «ارجع بسرعة يا عَبد». ضاع صوتها في الزحام، وزمجرة الشاحنات وهي تبتعد وآلاف الأيدي تلوِّح وتمد جسورًا بالنداء، تهتف وتغني وتنثر الأرز وأوراق الورد وتبكي. وشمس آب حاكمة بأمرها. «الله معك، الله معكم». «ديروا بالكم ع حالكم». «مع السلامة». «نلتقي قريبًا إن شا الله».

فجأة قالت مريم: ماما هل يمكن أن تشتري لي آيس كريم؟ تطلّعتُ فيها. تتطلّعتُ إلى حسن وأمين. للحظة، انسلتت الروح كأنني فجأة أموت. ثم نفسٌ عميق، التفتُّ إلى مريم: بنا لنشتري لك الآيس كريم.

في المساء سمعت دورة المفتاح في الباب. قلت: أيهما عاد مبكرًا حسن أم أمين؟ وإذ به عَبِد يقف بالباب. قال بصوت غريب قبل أن يخطو إلى داخل البيت: «قبل أن تدخل الشاحنة إلى الميناء قررت أن أبقى في بيروت». وبسرعة دخل إلى غرفته وأغلق الباب.

في الصباح قال لمريم: «قلت لي أرجع بسرعة. سمعت كلامك». حوَّطته بذراعيها وضحكت. انفلت منها وغادر الحجرة. سمعت نشيجه المكتوم.

الفصل الثالث والعشرون

الذباب

كيف احتملت؟ كيف احتملنا وعشنا وانزلقت شربة الماء من الحلق دون أن نشرق بها ونختنق؟ وما جدوى استحضار ما تحمَّلناه وإعادته بالكلام؟ عند موت من نحب نكفِّنه. نلفُّه برحمةٍ ونحفر في الأرض عميقًا. نبكي. نعرف أننا ندفنه لنمضي إلى مواصلة الحياة. أي عاقل ينبش قبور أحبابه؟ ما المنطق في أن أركض وراء الذاكرة وهي شاردة تسعى إلى الهروب من نفسها، شعثاء مُعَفّرة مُروَّعة مسكونة بهول ما رأت؟ لماذا أركض وراءها، هل أريد قتلها لأعيش، أم أسعى لإحيائها وإن مت بعدها لأنه... لأن ماذا؟ أصيح فجأة: ملعون أبو الذاكرة. يلعن أمها وسماءها ويوم كانت ويوم تكون. ملعون أبو الذباب.

أنا رأيت بأم عينيّ الذباب.

عند حفرة عميقة وتتسع.

ورجال إسعاف بقفازات وكمامات واقية،

ينثرون مسحوقًا أبيض،

يأتون بالجثث على نقالات،

يضعونها جثة بجوار جثة.

يبسطون عليها مجتمعةً ملاءة-غطاء

من البلاستيك

الذي تُصنع منه أكياس القمامة.

يعودون بنقالاتهم إلى الأزقة ليأتوا بجثث أخرى.

يذهبون ويجيئون.

من طلعة النهار إلى غروب الشمس.

رائحةٌ

وسحبٌ

من ذباب.

اتركيها شاردة. لتذهب. ليتها لا تعود.

ابسطي كما رأيتهم يفعلون، ملاءة تغطي ما رأيت طوال سنوات، ويوم الرائحة والذباب.

اتركي يا رُقَيَّة الصفحةَ للبياض.

الفصل الرابع والعشرون

نابلسيّة تدخل العائلة

قفزتُ قفزةً تختزل من الحكاية خمس سنين. أعود عن قفزتي وأسترجع الشريط. ما زلنا في نهاية العام ١٩٧٧.

اتصل صادق من أبو ظبي، قال إنه تعرّف على بنت من الضفّة أعجبته يريد أن يتقدم لخطبتها. قال أبوه كيف نخطبها لك وليس بإمكاننا دخول الضفّة؟ قال سأرتِّب الأمر. يمكن أن نلتقي جميعًا في عمّان.

أرسل صادق صورة العروس ورسالة طويلة يصفها ويحكي عن ظروف التقائه بها وما عرفه عن أهلها.

حكيت لخالتي:

ـ صادق يريد أن يخطب.

ـ من بلدنا؟

ـ لا، من نابلس.

- عمك أبو الأمين الله يرحمه، زار نابلس في الزَمَانات. قال كنافة أهل نابلس ليس لها مثيل، ولكنهم يقدمونها قبل الغداء!

استدركَت:

- لكن بنات نابلس قوايا وكلهن ما شا الله، ناصحات.

ضحكتُ وأريتها الصورة. تطلّعت فيها ثم أشاحت بيدها:

- ضعيفة ومَسْلِيّة مثل عود القصب.

- ألم تقولي إن نساء نابلس بدينات، ها هي كغصين البان!

- غدًا تنصح من أكل الكنافة.

- المهم أعجبته. وأهلها طيبون.

أشاحت خالتي بيدها وقالت مستسلمة:

- يالله، إن شا الله حظك يكون أفضل من حظي فلا تأخذه النابلسية إلى نابلس فلا نراه.

- ماذا جرى لك يا خالتي. نابلس تحت الاحتلال لا يستطيع صادق زيارتها.

- ألا يقول السادات إنه ذاهب ليطلب منهم إنهاء الاحتلال؟

- وصدَّقتِ كلامه؟

- لم أصدِّق.

- سنلتقي بأهلها في عمّان. نطلبها منهم ونتمم الزواج هناك.

- لن يقبلوا!

ـ سيقبلون يا خالتي لأننا لا نستطيع دخول الضفة، الأمر لا بيدنا ولا بيدهم.

ـ لو قبلوا يكونون راغبين في تزويج ابنتهم والسلام. عندها كم أخت؟

ـ ثلاث.

ـ الحمد لله بَلا أخفّ من بَلا. هلكتنا الصفُّوريِّة بأخواتها الست، أعوذ بالله.

يعلق عَبِد على مشروع أخيه:

ـ تجاوزنا الحاجز رقم واحد، عقبال الحاجز رقم اثنين. بعدها ينفتح أمامي الطريق.

أضحك:

ـ عندك مشروع؟

ـ مشاريع: بيضا وسمرا وطويلة وقصيرة والخامسة خارج المواصفات، تحمل بندقية وتحكي في السياسة وحليفتنا لأنها من جماعة كمال جنبلاط. وفوق البيعة قمر ودمّها خفيف.

ـ إذن الخامسة هي عين المراد.

ـ لا داعي لإغضاب الأخريات!

ولا أعرف الحدود بين الجد والهزل وإن كان لديه صديقات متعددات أم أنه مفردٌ لم تسكن قلبه بعد سوى خيالات البنات.

حسن سافر للدراسة في مصر. لا أعرف إن كان سعيدًا أم تعيسًا. يقول القاهرة كبيرة والنيل آسر ولكنني أفتقد البحر وصيدا ورائحة زهر البرتقال. أرسل له بصور مريم وأحدّثه في الرسائل مطوّلًا عنها. يقول: تسعدني أخبار مريم لكنني أقرأ الرسالة مرتين، أتصور أنني قفزت عن فقرة وعندما أعيد قراءتها أتأكد أنك في رسالة من خمس صفحات لم تقولي كلمة واحدة عن نفسك. كيف حالك يا أمي؟

طلبت من حسن أن يتصل بوِصَال في جنين ويخبرها أننا سنذهب إلى عمّان لنخطب لصادِق، ويسألها إن كان يمكن أن ألتقي بها هناك.

أصر أمين أن يصحبنا عِزّ إلى عمان. قلت:

- ومن يرعى خالتي؟
- نتركها مع زوجة عِزّ، تأتي من صيدا وتقيم معها حتى نعود.
- ولكن خالتي لا تطيقها.
- الله يعينها كريمة، تتحمّل أمي ثلاثة أيام.

جاء عِزّ وزوجته من صيدا. واقترح عِزّ أن نترك مريم مع زوجته لأنها «صغيرة ورحلة البر إلى الأردن ترهقها وترهقك». لم أقبل.

في صباح اليوم التالي حملتنا سيارة أجرة عبر المصنع إلى دمشق ومنها عبرنا حدود الرمثا في طريقنا إلى عمّان. حملت مريم على ساقي وجلست في المقعد الخلفي بجوار عِزّ وعَبد. أما أمين فجلس في المقعد الأمامي بجوار السائق. ما إن انطلقت السيارة حتى استدار أمين

وتطلع في مريم وابتسم ابتسامة كبيرة وقال: «على بركة الله. عين العقل يا رُقَيَّة أنك أتيت بمريم».

التقينا في فندق. وجدنا صادق وحسن ينتظران في بهو الاستقبال. ولم يكن صادق أو حسن رأى مريم من قبل. طبع صادق قبلةً سريعة على رأسها ثم انشغل بأبيه وعمه، وانشغلتُ بتفحص حسن. زاد نحولاً فبدا أصغر حجماً كأنه تلميذ في المرحلة الإعدادية. «ألا تأكل في مصر يا حسن؟». يضحك للسؤال. يحمل مريم بين يديه ويكرر: «أفهم الآن لماذا تكتبين ثلاثة أرباع الرسائل عنها، إنها مدهشة، من أين أتت بكل هذا الجمال؟».

جلس صادق مع أبيه وعمه لمناقشة تفاصيل الخطبة وانضم إليهم عَبد. وصعدتُ إلى الغرفة أحمل مريم وفي ذيلي حسن. وفي المساء ذهبنا إلى بيت عم العروس.

بدت لي العروس لطيفة وودودة، أصغر مما تخيلت وإن أكد صادق قبلها وبعدها أنها تصغره بعامين فقط. كانت غرفة الاستقبال واسعة جدًّا مقاعدها كبيرة لها أطر ذهبية تتوسطها طاولة مستطيلة كبيرة مغطاة بلوح من الزجاج وعليه منافض من الكريستال كبيرة الحجم وعدد من المسابح الثمينة على ما يبدو، لأنها معروضة كأنها تحف. واستوقفتني ثلاث لوحات كبيرة معلّقة على الجدار، لكل منها إطار ذهبي. الوسطى لحمّال أو سقّاء يحمل على ظهره صورة للمسجد الأقصى. وعلى الجانبين لوحتان إحداهما لبحر بليد والثانية لمائدة عليها صحن فيه فواكه كابية الألوان.

كانت الغرفة مزدحمة بالنساء والرجال. فلم أعرف إلا قبل

انصرافنا بقليل، مَن مِن النساء أم العروس ومن خالتها ومن زوجة عمها ومن الأقرب ومن الأبعد. انتحى الرجال جانبًا للحديث في ترتيبات الزواج. بعدها انتقلنا إلى غرفة طعام. كانت المائدة وباقي الأثاث في هذه الغرفة كذلك، ضخماً يزدحم به المكان، الكراسي وخزانات الأطباق.

وعندما عدنا إلى الفندق سألني أمين في وجود عِزّ وصادق وباقي الأولاد:

- ما رأيك يا رُقَيَّة في العروس.

- لطيفة، مبروك.

قال صادق:

- لم أفهم يا أمي ما الذي جعلك فجأة وبدون مناسبة تقولين «نحن من اللاجئين. أهلنا يسكنون مخيم عين الحلوة، ولنا أهل في مخيم جنين».

استغربت تعليقه، قلت:

- أليست هذه الحقيقة؟

قال:

- لا اعتراض، لكن الكلام كان مفاجئًا وبدون مناسبة. ثم من هم أهلنا الذين يسكنون مخيم جنين؟

- وِصَال وأمها.

- ليسوا أقارب بل من معارفنا.

ـ هم أهلي. لم يبق لي سوى عِزّ وكريمة في عين الحلوة، ووِصَال وأمها في جنين، وعَبِد أيضًا وإن كان يقيم في بيروت، فهو من مخيم جنين.

تدخل عِزّ لينهي توترًا راح يتشكل حولنا دون انتباه:

ـ أشهد أن الملوخية كانت محترمة، درجة واحدة وتصل إلى مستوى الملوخية التي تسوينها يا رُقَيَّة. لو زادت درجتين تفوقها. انتبهي لو كانت البنت تطبخ كأهلها تكون راحت عليك فأذهب إلى بيت صادق قاصدًا الملوخية.

ضحك صادق، قال:

ـ إذن لا بد من السعي من الآن لنحصل لك على تأشيرة لدخول الإمارات.

ـ نعم. وأكتب سبب السفر: الملوخية.

ضحكوا. جاريتهم بالابتسام ولكن قلبي كان منقبضًا. قلت:

ـ سأضع مريم في السرير.

ـ ثم تلحقين بنا؟

ـ لن أتركها في الغرفة وحدها، قد تستيقظ وتفزع لوجودها وحدها في مكان غريب.

قال صادق:

ـ كان أفضل لو تركتموها مع زوجة عمي في بيروت.

قال عِزّ:

- هذا ما اقترحته.

لم أعلّق. حملت مريم وصعدت إلى الغرفة، تبعني حسن. وضعت البنت في السرير وجلست معه. تحدثنا طويلًا عن مصر ودراسته والأوضاع في بيروت. ولكن أيًا منا لم يشر لا للزيارة ولا العروس ولا بيت أهل العروس. لم نشعر أننا تجاوزنا منتصف الليل إلا عندما جاء أمين. طبع قبلة على رأس مريم المستغرقة في النوم وقال لحسن:

- عِزّ وأخواك ينتظرونك في المقهى. تصبحون على خير، سأنام.

الفصل الخامس والعشرون

وِصَال (٢)

ليس من عادتي الاعتناء إلى هذا الحد بما أرتديه من الثياب، ولكنني وأنا استعد لزيارة وِصَال بدّلت ملابسي ثلاث مرات. أرتدي ثوبًا، أتطلع في المرآة ثم أَقرر أن أرتدي سواه. عدت أوصي أمين بمريم، إن جاعت تفعل كذا، لو بلّلت نفسها تقوم بكذا، وهو يضحك ويقول: «ياللا اذهبي في أمان الله». ثم «بنا يا حسن»، وكان قرر أن يصحبني.

حملتنا سيارة أجرة إلى مُخَيَّم البَقْعَة. بحثنا عن البيت لبعض الوقت وأخيرًا وصلنا إلى العنوان. كان الباب مفتوحًا. صفَّق حسن. أتت امرأة ارتبكتُ لرؤيتها إذ لم أعرف إن كانت وِصَال أو كانت سواها. كانت في مثل عمري. مدَّت يدها وسلَّمتَ وهي تؤهِّل وترحِّب فعرفت أنها ليست وِصَال.

لسنوات سوف أستعيد لحظة اللقاء في ذلك البيت الصغير الكائن في مُخَيَّم البَقْعَة على مشارف عمان، في مطلعِ العام ١٩٧٨. لأن

وصَال حين دخلت الغرفة لم تمد يدها بالسلام بل فتحت ذراعيها واسعًا وضمتني، ولأنني وأنا أضمُّها كنت موقنة أن الرائحة التي ملأت أنفي لم تكن وهمًا. كانت صاحبتي بنت قِيسارْيَة التي جاءتني الآن من جنين، تحمل رائحة البحر. أقول إنه التمني يخلق الوهم ويغذِّيه، ثم أقول بلى، لم تأت الرائحة من عقلي بل من جسمها وثوبها وشعرها، نفذت إلى أنفي ومن أنفي إلى رأسي وصدري وأحشائي، فكيف تكون من صنع الخيال؟

حملت لي وِصَال ثوبًا قالت إنها بدأت في تطريزه منذ تلك المكالمة التليفونية التي أجراها عَبد من بيروت. قالت إنها انتهت منه قبل ثلاثة أعوام وبقيت تنتظر اللقاء. غالبتُ البكاء وأنا أتأمل شغل يديها في ثوب حملته لي عبر الجسر من جنين. لم يكن مُفَصَّلًا إذ تركته لأفصِّله حسب الحجم والمقاس. ثلاث قطع من القماش، أولاها كبيرة لجسم الثوب من القَبَّة إلى القدمين، طرَّزَت صدره ودائرة الذيل، والقطعتان الأصغر للكمين على طرف كل منهما نفس وحدة التطريز. لم تختر لي قماشًا أسود كالمعتاد بل لونًا فاتحًا محيَّرًا أقرب للسُكَريّ، طرَّزته بخيوط تندرج فيها كل تلاوين الأزرق وتدرّجاته من السماوي الفاتح إلى البحريّ العميق. تأملتُ الثوب. لم أجد ما أقوله. انعقد لساني وشعرتُ أن هديتي لا تليق. أبقيت ساعة اليد والقلب المعلّق في سلسال من ذهب وزجاجة العطر في حقيبتي. كررت على نفسي: لا تليق بالمقام. انتبهت على صوت حسن يقول: «عليّ أن أذهب. هل ستعرفين الطريق أم أرجع لاصطحابك بعد ساعتين؟». وبعجلة لم أفهمها قال لوِصَال «بخاطرك يا خالتي». قبّل يدها وخرج مسرعًا.

وِصَال هي التي فتحت باب الكلام. جذبتني جذبًا فدخلتُ بخطًى وجلة ثم انفكَّت عقدة لساني، صرت أسمعها وأحكي لها كما تحكي لي.

ثم سألتْ:

- متى تعودين إلى بيروت؟

- غدًا.

- الله يسامحك يا رُقَيَّة. ابقي يومًا آخر، يومًا واحدًا وبعدها سافري في أمان الله. أريد أن أتعرَّف على الدكتور أمين وصادق وعَبد الصغير، وأريد أن أعرف ذلك الشاب الجميل الذي حط كفَرخ الحمام، دقيقة وطار. غدًا نتناول الغداء معًا إن شاء الله.

- حاضر يا وِصَال.

في الفندق، بعد أن نامت مريم ونام أمين، تطلَّعتُ طويلًا في المرآة. أرى نفسي وبجواري مباشرة وِصَال في ثوبها الفلاحي المطرَّز وجسدها الممتلئ الخصيب. لماذا بدت أكبر مني سنًا، أكبر بسنوات؟ غدت طويلة ممتلئة يزيدها ثوبها الفلاحي والزِنَّار امتلاءً. وبقيتُ كما كنت دائمًا، نحيلة. يُبرز نحافتي الثوب المحبوك على الجسم والذي ينزل من الخصر ضيقًا إلى أن ينتهي بعد الركبة بقليل. ربما كان شعري المطروح إلى الخلف والمربوط في شريطة دقيقة سوداء، يجعلني كبنات المدارس وقد تجاوزتُ الأربعين؟ هي كانت تُغَطِّي شعرها بشالة بيضاء تكشف عن خصلة شعر اختلط سواده ببياضه.

أنقل عينيّ بين الصورتين، أتساءل. ليست النحافة هنا والامتلاء هناك، بل الثياب ربما أو الهيئة أو الفارق بين اليدين أو الوجه أو الجبين. بالصدفة أم لأسباب أخرى؟ هل هو الفرق بين بيروت وجنين أم لأنها زوجة فلاح وابن مُخَيَّم وزوجي تعلّم في الجامعة الأمريكية في بيروت فغدا طبيبًا فانتقلنا بلا انتباه من مكان إلى مكان؟ هل اختلفت طريقتي في الكلام؟ كيف كنت أتكلم؟ كيف أتكلم الآن؟

أُحَدِّقُ في الصورتين. أستغرب. أرتبك أمام أسئلة ليست واضحة تمامًا ولا أجد سهولة في الحصول لها على جواب. شيء واحد كان واضحًا، لا شك عندي فيه، أن وِصَال التي عرفتها صبية هناك في البلد والمقيمة الآن بعيدًا في جنين، وفي لقاء واحد بعد ثلاثين عامًا من الفُرْقَة، فتحت ذراعيها واسعًا واحتضنتني فبدا كأن شيئًا لم يكن، وشعرت أنني أريد أن أتعلَّق بأذيالها وأن أتبعها حيثما تذهب أو أينما تكون.

غَيَّرت ملابسي وبحذر تعوّدتُه لكي لا أُنَبِّه مريم أو أمين، رقدت على الفراش. ثم غلبني النعاس. حلمت أنني في بلدنا، أكرر أن الهدية لا بد أن تكون باقة من زنبق بلدنا. أشم رائحته أتتبعها علَّها تقودني إليه. لا أجده. أعود لأمي باكية: من قطف الزنبق؟ كان هنا وهنا وهنا وهناك، هل يُعقل أن أحدهم قطفه كله؟ وهل تبقى رائحة الزنبق حتى إن لم يعد هناك؟ تَهوِّن أمي عليّ، تقول: زهور البر كثيرة، عندك شقائق النعمان، والسوسن والأقحوان وعصا الراعي والخزامى، فلتكن هديتك باقة منها. ولكنني كنت أريدُ الزنبق. أبحث عنه في طول البلد وعرضه، من البُرج شمال القرية إلى قبليِّها عند الكراكون،

ومن الشاطئ إلى المدرسة شرق السكة الحديد، لا أثر للزنبق البريّ رغم أن رائحته كانت نافذة من حولي تملأ المكان.

في اليوم التالي ذهبنا جميعًا إلى وِصَال، باستثناء صادق الذي فضَّل أن يمضي اليوم مع عروسه وأهلِها. وعندما ودَّعتنا بالباب، حمَّلتني تنكة زيت وقناني من الزيتون، قناني بلاستيك من قناني المشروبات الغازية الكبيرة، كَبَسَت في داخل كل منها قدر ما تتسع من الزيتون. قالت: الزيت من زيتوناتنا في جنين. كذلك الزيتون. كبسته لك بنفسي وأحكمت إغلاق القناني حتى لا تتغلبي في نقله إلى بيروت.

ومن مطلع العام إلى نهايته أكلنا من زيت وِصَال وزيتونها. كان دائما بالبيت وكما هو معتاد مونة من زيت وزيتون. ولكن زيت وِصَال وزيتونها كانت فقط للمناسبات، في الأعياد، عند عودة حسن مِن القاهرة في الإجازة الصيفية، عند قدوم عِزّ وزوجته من عين الحلوة، أو مجيء عَبد الكبير في زيارة من زياراته النادرة الآن. أغرف بعضًا منه وأضعه علَى المائدة مع باقي الأكل. يضحك أمين ويقول: هذا ما لا تسخى به رُقَيَّة إلا في المناسبات الخاصة جدًّا. وفي الأعياد أيضًا أزور قبر أمي وعمي في صيدا. وكلما زارت وِصَال عمّان تتصل بي تليفونيًا، فيكون اليوم كالعيد. تنقل لي أخبارَها وأخبار أسرتها وأُجمل لها أخبارنا. أقول مريم تكبر يوما بعد يوم، فتقول وهي تضحك: ابني الصغير لا يكبرها إلا بتسع سنوات، سينتظرها. فأضحك وتضحك. «وديري بالك ع حالك يا رُقَيَّة»، «وديري بالك ع حالك يا وِصَال». أعيد السمّاعة مكانها ولا أعرف إن كنت ما أشعر به حزنٌ أم ارتياح، أم شيءٌ ثالث معلَّقٌ بين الاثنين.

الفصل السادس والعشرون

أين نحن يا مريم؟

حسن هو الذي اقترح عليّ كتابة حكايتي. قلت:

- لست بكاتبة!

قال:

- احك الحكاية، اكتبي ما رأيته وعشته وسمعته، وما تفكّرين فيه، وإن صعُبت الكتابة احك شفاهةً وسجّلي الكلام، بعدها ننقله على الورق. هذا مهم يا أمي، أهم مما تتخيّلين.

كررت:

- لست بكاتبة. كل حِرفة لها أصحابها. لم أكن، حتى وأنا تلميذة صغيرة في المدرسة، مُتَفَوِّقة في الإنشاء. كانت تدهشني قدرة بعض زميلاتي على تدبيج الكلمات، أيًّا كان الموضوع الذي تعيّنه لنا المعلمة.

قال:

- يا أمي ما أطلبه ليس إنشاءً بل شهادة. تذكرين ذلك اليوم الذي طلبتُ منك تسجيل شهادتك عما حدث في بلدنا وقلتُ لك استجمعي التفاصيل واستعدِّي. مرضتِ ولم يتح لنا ذلك لأنني بعدها سافرت. ما أريده منك شهادة مثلها وإن كانت مطوّلة مفصّلة، على الأحداث الكبيرة والصغيرة أيضًا. اكتبي ما يعِّنُّ لك وأحك بالطريقة التي تريدين.

قلتُ:

- ليتني أعرف كيف. ثم إن الحكاية صعبة. لا تُحكى. مُتَشَعَبِّةٌ. ثقيلة. كم حرب تتحمل حكاية واحدة؟ كم مجزرة؟ ثم كيف أربط الأشياء الصغيرة على أهميتها بأهوال عشناها جميعًا. احك أنت إن أردت، لديك تفاصيل كثيرة منها، وما ينقصك أزوِّدُك به، أعني إن كان لديّ ما أضيفه. أنت تجمع شهادات الناس، وتقرأ ما لا حصر له من الكتب وتبحث وتسجِّل وتؤلِّف. اكتبها أنت ولو لديّ ما أضيفه سأفعل.

قال:

- لو لم أكن واثقًا من قدرتك لما أثقلتُ عليك بالطلب.

قلت بحسم:

- لا أعرف كيف.

رفضت. ولكن الفكرة دارت في رأسي. لازمتني كضيف ثقيل لا يريد الذهاب. قلت لنفسي: لا أقدر ولا أريد. طردتها وأغلقت

الباب. بعد سنوات عاد حسن للإلحاح عليّ. ثم فاجأني ذات مساء بدفتر كبير كتب على غلافه عبارة «الطَّنْطورِيَّة». قال:

- اكتبي أي شيء. اكتبي عن بلدنا، عن البحر، عن الأعراس... أعيدي بعض ما حكيتِه لنا ونحن صغار. أما الكوارث فاكتبي منها ما تطيقين، والإشارة حتى الإشارة قد تفي بالغرض.

تبسّم فجأة وذكّرني بالواجبات التي كان يطلبها مني عندما كنت أستعد لشهادة الثانوية.

- اعتبريها من هذه الواجبات، كأنها فرضٌ مدرسيّ. الفرق أنني لا أطالبك بها للأسبوع القادم. ابدئي في الكتابة ثم نرى ما يكون.

غيَّرت الموضوع:

- كنت تدرِّس لي اللغة العربية والإنجليزية والتاريخ والجغرافيا والعلوم الاجتماعية وصادق يتعهدني في الرياضيات والعلوم. وكنتَ أفضل منه في التدريس.

قال:

- وربما كنتِ تميلين للمواد التي أعينك عليها أكثر، فتتصورين أنني أفضل من صادق في شرح الدروس؟

ضحك:

- وعَبِد ينظر إلينا بغِلّ لأنه خارج اللعبة ولا يعرف طريقًا للمشاركة فيها.

ضحكت.

ورَّطني حسن. كان الدفتر ينتظر. والعنوان يُراوِد. والصفحات البيضاء تُوَسْوِس. ألست الطَّنْطوريَّة؟ غواية. أشيح بوجهي. أقول اذهبي لا أريد. في الليل حين أرقد على سريري لأنام أجدها في الفراش تنتظر.

ذات صباح أمسكت بالقلم فإذا بي أكتب عن الشاب الذي طرحه البحر عليّ. مغامرة خاطفة في باب العشق، تنتبه الحواس. تتحفَّز.

ممتعٌ ومثير أن أستحضر على الورق أمي وأبي وبحر البلد وعُرسًا من زمان.

ممتعٌ ومعضلٌ أن أصف شجرة لوز في الربيع، (أكتبها مرة واثنتين وثلاثًا. أقول: لا فائدة. ملكةٌ في أرضها، لا أملكُ زحزحتها إلى الورق).

مبهجٌ أن أنقل أغنية فيتردد في أذنيّ تلاوين الصوت وإيقاعاته، ثم أتوقف. أتساءل كيف تكون أغنية وهي مسجونة في الورق، عارية من لحنها إلا لمن يعرفها وسمعها أو غنَّاها من قبل؟

ثم أتوغَّل في شجون الذاكرة والكلام. أقول ورَّطني حسن. وها أنا بعد كتابة دفترين وعشرات الصفحات أعجز عن مواصلة الكلام. كيف أحكي الشهور الأربعة الثانية؟ كيف حكيت الشهور الأربعة الأولى؟ هل حكيتها؟ حكيت النِتْفَةَ التي عشتها، نتفةً متشابكة مع آلاف النِتَف، عاشها غيري في الشهور نفسها فهل تكتمل الحكاية إلا بهذه النِتَف جميعًا؟

شهور أربعة هنالك في بلدنا. وأربعة مثلها هناك في بلدنا الثاني الذي نُصنَّف الآن فيه غرباء. أربعة وأربعة. محض مصادفة؟ من مقدرات الغيب؟ غيبٌ عشوائي. جزّار. لا يكتفي بذبائح معدودة يُعَلِّقُها في واجهة دكانه ويقتطع منها ما يطلبه الشاري. يذبح شهوةً. هيئة مُثلى لأفظع الكوابيس. ولكن كوابيس النوم تقتصر في الغالب على بضع صور صامتة وخوف المطارَد أو الشعور بالاختناق. الكوابيس وديعةٌ وطيبةٌ ولها حدود. هنا يفيض الجنون: طائرات تقصف. بوارج. مدفعيات ثقيلة. قنابل. عبوات ناسفة تنفجر بها سيارات تبدو قبل دقائق من الانفجار أليفة كقطط نائمة. حرائق. ينقطع الماء. تنقطع الكهرباء. والخبز ينقطع. تذهب للبحث عنه، تنفجر الأرض بين قدميك. سماء الله تعاديك على مدار اليوم. حصار من الجهات الست. قنابل فراغية تُسقط البنايات فتهوي على ساكنيها مخلفةً حفرةً عميقةً تصغر أمامها فكرةُ الهاوية وخيالاتُنا عن الجحيم. قنابل عنقودية تواصل الانفجار كأنه أبد. تبكي مريم من ضغط الصوت على أذنيها. أغلق لها أذنيها بسدّادتين. أحيطها تمامًا بذراعيَّ. هل يسمع الصوت الجنين؟ ليتها جنين. تقول مريم: احِكي لي حكاية. فأرفع السدّادة من إحدى أذنيها، ألصق بها شفتاي وأحكي. تسمع قليلًا وتعود تبكي من شدة الصوت.

في هذا الجحيم الأرضي ستتوثق علاقتي ببيروت. غريب. كيف؟ ولم يعد بحرُها اليومي الأليف بحرَها ولا أرضُها أرضَها ولا السماءُ سماء. وبيتك والبيت الملاصق والبيت الملاصق للبيت الملاصق وباقي البنايات في الشارع الذي تقيم فيه وفي الشوارعِ المجاورة، وعلى بعد عشر دقائق مشيًا باتجاه سوق صبرا أو أبعد قليلًا في أزقة شاتيلا أو في

الناحية الأخرى باتجاه جسر الكولا والفاكهاني، تفاجئك بها لم تألفه منها. أصابتها قذائف هنا وهنا وهنا وهناك. زجاج تحوَّل في لمحة من ألواح مستقرَّة في نوافذ تعكس ضوء الشمس وتلاعبه، إلى نثار على الأرض. تمرُّ عليه السيارات وأقدام المارة فينطحن مُصدرًا صوتًا كأنه أنين. شرفات، سواتر خشبية، أسقف طارت ولم تكن مجنَّحة، فسقطت أنقاضًا على الطريق. وحتى الحوائط تحت القصف، فقدت كياستها المُسَلَّم بها وكشفت المستور في البيوت. أرفع رأسي، أتطلع فأرى فِراشًا، ملابس، مقعدًا، نصف طاولة، أواني طعام مُعَلَّقة في العراء. أو أسرة محظوظة لم يقتلها القصف فاجتمع شملها في غرفة سقط عنها حائطها الرابع وترك للمارة أن يرفعوا رءوسهم ويقولون: «مسا الخير» أو يغضّون الطرف ويمضون كأنهم لم يروا. أمشي باتجاه الفاكهاني. جامعة بيروت العربية. شارع عفيف الطيبي. ما الذي حدث للشارع؟ بناية أبو إياد، مركز التخطيط، الإعلام الموحَّد، اتحاد الكتاب والصحفيين. كلها مدمّرة. شارع واحد من شوارع بيروت. أين ذهب الشارع؟

يعود أمين إلى البيت كلما سنحت له الفرصة، عند وقف إطلاق النار. لا يداوم بانتظام في مستشفى عكا لأنه منشغل بإعداد مراكز طبية ووحدات طوارئ في هذا الحي من بيروت الغربية أو ذاك. وعَبد الصغير مع المقاومة لم أره لأسابيع. لا أدري في أي موقع أو خلف أيِ متراس، في قلب بيروت أو على مشارفها؟ عند المطار في مواجهة الجنود الإسرائيليين أم عند المتحف في مواجهة الكتائب أم على شاطئ البحر في مواجهة البوارج؟ أين عَبد الآن؟ حسن مع الدفاع المدني، يُوَزِّع الخبز والماء والجرائد، ويداوم كلما تمكَّن في جريدة السفير. أين حسن

في هذه اللحظة؟ أين أمين، أين عِزّ وزوجته؟ يشرد الخيال وراءهم. يهيم في الشوارع باحثًا عنهم. أتركه شاردًا وأسرع باصطحاب مريم وخالتي إلى ملجأ البناية. وعند انتهاء الغارة أو وقف إطلاق النار، أخرج إلى الشوارع لأتفقَّدها. أتفقَّد بيروت أو رُقَيَّة وأعود آخذ مريم بين ذراعيّ وأحاول أن أنام.

عند مدخل الشقة أحتفظ بحقيبة صغيرة وكيسين يمكن حملهما على عجل عند اشتداد القصف. تركض مريم إلى السلم قاصدة الملجأ وهي تحمل الكيس الأصغر، كما علمتها. فيه شموع وبطارية لوكس وقدّاحة. وفي يدها الأخرى راديو ترانزيستور صغير. أتبعها بخطى أبطأ، في يدي حقيبة بها منشفة وبعض الملابس وعلبة إسعافات سريعة وكيس آخر به زجاجة ماء وبعض الأرغفة وعلبة بلاستيكية بها جبن أو لبنة أو زيتون. بيدي الأخرى أمسك بيد خالتي. أقودها ببطء هبوطًا على السلم باتجاه الملجأ.

لم أخبر خالتي بما حدث في صيدا وعين الحلوة. لم أُحدِّثها عن تدمير المُخَيَّم ولا الاعتقالات ولا القتل الجماعي. لم أقل لها إنه لا خبر عن عِزّ وزوجته منذ أربعة أسابيع. ولكنها علمت بالاجتياح. قالت:

- يعنى بِدْنا نرجع بلدنا؟

لم أجب. قالت:

- مالك يا رُقَيَّة. هل صار سمعك ثقيلًا؟ سألتك، بِدْنا نرجع بلدنا؟

قلت:

- سمعتك يا خالتي. سمعت السؤال. كيف نرجع؟ قلت لك الإسرائيلية دخلوا لبنان. احتلوا الجنوب كله ووصلوا قرب بيروت.

- فهمت. لكن ممكن الفدائية يغلبوهم، ممكن ولّا لأ؟

- ممكن.

- ولما يغلبوهم يلحقوهم على فلسطين ونرجع بلدنا. ماذا يقول عِزّ؟

- الخطوط مقطوعة مع صيدا. لم يقل لنا الأخبار من جهته.

- هو بخير؟

- بخير يا خالتي.

- والمقاومة؟

- مالها المقاومة؟

- بخير؟

لوهلة بدا لي أنني سألطم وجهي أو أصيح فيها: «ما أدراني إن كانت بخير أو لا». الأكيد أن الإسرائيليين احتلّوا الجنوب كله والشوف ووصلوا إلى مشارف بيروت، ودمَّروا عين الحلوة وأخذوا نصف رجالها إلى الموت أو المعتقل.

ربتُّ على كتفها. قلت:

ـ الحمد لله يا خالتي. المقاومة بخير.

اعتدلت جالسة في سريرها وقالت:

ـ أعطني سيجارة من دخّان أمين.

لم أعلِّق. ناولتها سيجارة. قالت:

ـ لماذا تقفين هكذا؟! أين القدَّاحة؟

أتيت بالقدَّاحة وأشعلت لها السيجارة فراحت تدخِّن بهدوء. لم تسعل ولم تبد على وجهها أي اختلاجة تنمُّ عن هذا الفعل الجديد عليها. وقفت أتابع يد خالتي وهي تقرِّب السيجارة من فمها، تستنشق منها الدخان ثم تبعد يدها وتنفثه من فتحتي أنفها كأنها تدخِّن منذ ما لا يحصى من سنين. بعد الدهشة، الأقرب إلى الذهول وجدت نفسي أضحك وأقول لخالتي: ما رأيك، هل أشتري لك علبة دخان؟!

طوال شهرين من القصف اليومي الشديد، والنزول إلى الملجأ ومغادرته ثم النزول إليه لم تعد خالتي إلى السؤال عن أخبار الحرب والفدائية. كانت تكتفي بالسؤال عن عِزّ. فأقول لها إنه دبّر طريقة للاتصال بأمين. كل يومين أو ثلاثة يتصل به ويقول سلِّموا على أمي واطمئنوا عليّ. أختلق الكلام. أستغرب وقع الألفاظ وهي تخرج مني عالية كاملة واضحة متخشبة. مداراة للكذب أو مغالبة لغصة في الحلق. لا أعرف مصير عِزّ وزوجته بعد أن دمرت عين الحلوة الطائرات وقصف المدافع عشرة أيام، لم تُبق فيه حجرًا على حجر حتى المستشفى دمَّروه على من فيه. أكرر: عِزّ بخير يا خالتي. تومئ برأسها كأنها توافقني على الكلام. لا أعرف إن كانت تصدِّق ما أقول

أو كانت قررت أن نصيبها من المعركة أن تحكم مخاوفها ولا تفصح عنها، وتصبر. وحين تهتز البناية ويتكسَّر زجاج النوافذ وتتطاير شظايا يمكن أن تقتلنا في لمحة، لا تعلِّق، لا تقول أي شيء. ولكنها في الملجأ تتكلم وتستفيض في الكلام في موضوع واحد لا تحيد عنه: الطَّنْطُورَة. تحكي عنها حكيًا متَّصلًا ومفصَّلًا تجذب به انتباه السامعين. ودائمًا ما تنهي الكلام بالعبارة نفسها: «لما نرجع بلدنا، أمانة عليكم تزورونا. بلدنا جميلة تستاهلكم وتستاهلوها». فتؤكد لها أم علي أنها ستزورها إن الله أراد.

أم علي مثل برج حمام، يسكن إليها الجميع على اختلافهم. يأنس لها الصغار والكبار. في عِزّ القصف، إن لم تكن مستغرقة في صلاة من صلواتها المتعددة الطويلة، تداعب وتساير وتهدئ وتطيِّب الخواطر. كيف استطاعت الاحتفاظ بهدوئها وسط حقل ألغام في ملجأ تحت قصف يكاد لا يتوقف. نعم حقل ألغام لأنه حين تنفلت الأعصاب، ينفجر الواحد منا في الآخرين ونفسه بسبب أو بلا سبب. ضربتُ مريم. أفلتت مني يدي. صفعتها على وجهها. صحت فيها أو صحت هكذا في لا أحد ثم بكيت. أحممها بالحد الأدنى الممكن من الماء. تقف في الطست (أذكره بوضوح: طست من البلاستيك أخضر اللون). أُصَبِّن رأسها وأُلَيِّف جسمها ثم أصب قليلًا قليلًا من الماء. لا ألقي بالماء المُتخلِّف من حمامنا الأسبوعي بل أستخدمه في مسح الدار وأبقي القليل منه لأسقي الزرع الذي بصدفة غريبة تمكن من البقاء على قيد الحياة: أعواد ريحان ومريمية وزعتر أخضر. الزرع ذكي يقدِّر الوضع، مثلنا صار يكتفي بأقل القليل من الماء. بالت مريم فجأة في

الطست. فانفلتت يدي. صفعتها ثم لطمت جبيني. ثم بكيت فبكت مريم. من الصفعة أم من بكائي المفاجئ؟

من أين كانت تأتي أم علي بكل هذا البونبون؟ ومن له عقل ليفكر في البونبون وأطفال الجيران والقذائف تتواصل كيوم حشر يفوق خيالات الأقدمين؟ كانت تمد يدها في جيبها العميق وتخرجها. تفتح كفها فيرى الأولاد حبات البونبون، تكشف أغلفتها اللامعة الشفَّافة عن ألوانها: أحمر وأخضر وبنفسجي وأصفر وأبيض. يسارع الصغار ليأخذ كل منهم حبة أو حبتين. وأسأل مريم بعد سنين عن ذكرياتها عن الملجأ، تقول ثلاثة أشياء:

- الصوت. لم تكن شدته تؤلم أذنيّ فقط بل أشعر أن القذيفة دخلت في أذنيّ واستقرَّت فيهما لتواصل انفجاراتها.

- وبونبون أم علي؟

- لا أدري من أين كانت تشتريه لأنني مهما حاولت لاحقًا أن أجد مثيلًا له، لا أجد. كان مذاقه مختلفًا، بإمكاني استحضاره حتى الآن.

- ألا تتذكرين يوم صفعتك وأنا أحممك؟

تلعثمتْ ثم:

- أذكر. بدا لي يومها أن هذا أسوأ ما يمكن أن يفعله الإنسان في حياته. بعدها كنت أستيقظ من النوم وأركض إلى الحمام فزعة كلما اشتدت علي الرغبة في التبول. ومرة استيقظت مفزوعة لأنني كنت تبوَّلت على الفراش. غيرت سروالي والملاءة

وغسلت الجزء الملوث بقليل من الماء، ونشرتها في الشرفة. وبقيت مستيقظة حتى جفَّت وأعدتها إلى السرير.

انقطع الكلام. ربما لاحظت مريم فعادت للحديث:

- والشيء الثاني الذي أذكره يوم ذهبت مع ثلاثة من أطفال المُخَيَّم إلى دكان مصطفى العمدة؟

- من هو مصطفى العمدة؟

- كان له دكان في شاتيلا. دكان صغير يبيع السكاكر والخردوات. اشتريت شكولاتة واشترت البنتان الأخريان ملبِّس. وكان معنا ولد طلب بنانير. فأتى صاحب الدكان بعلبة كرتونية ولما رفع غطاءها رأيت تلك الكريات البللورية الصغيرة الشفَّافة وبها مشحات من اللون: أزرق أو أخضر أو برتقالي. منها الصغير ومنها الأكبر. انبهرت. ثم انبهرت أكثر حين غادرنا الدكان وتوقّف الولد وقرفص وصار يدحرجها على الأرض. كان أكبر منا قليلا، ربما كان في الثامنة. بدا كبيرًا وجميلًا ومدهشًا وهو يدحرج واحدة ثم يصوِّب عليها بالثانية، ثم يغيّر موقعه ويقرفص ثانية ويحاول أن يصيب الاثنتين ببنوّرة ثالثة. قلت سأعيد الشكولاتة وأشتري بنانير. كان الولد لطيفًا جدًّا. قال لا تعيدي الشكولاتة. أعطاني واحدة من البنانير الثلاث التي اشتراها. عرضت عليه أن أن أقتسم معه لوح الشكولاتة. ابتسم. قال شكرًا، لا أريد. غريب. لا زلت أذكر ابتسامته.

- والثالث؟

- يوم صرخت فيك جارة من الجارات وقالت لك: أنت السبب. أنتم السبب. لولا الفلسطينية لما خربت بيتنا إسرائيل. كانت تصرخ فيك وكان وجهك لونه أصفر وغريب. توقّعت أن ترُدِّي عليها. أن تضربيها كفًّا على وجهها، ولكنك جذبتِني من يدي وسرتِ إلى أبعد زاوية في الملجأ. وطلبت من جارة سيجارة وغادرتِ. تبعتُك. صحتِ فيَّ: عودي إلى الملجأ سأدخِّن هذه السيجارة وأرجع. ولكنني بقيت متعلقة بك. جلست بجوارك على السلم ورأيتك تدخنين للمرة الأولى.

مدهشة أم علي. لم تحدثني في الموضوع طوال وجودنا في المخبأ. بعدها جاءت لزيارتي في البيت وطلبت أن أصنع لها فنجان قهوة. احتستها معي، ثم قالت: في الحرب لا يتصرف الناس كما خلقهم ربنا. يُجنُّ الخلق ويفلت الميزان. ساعتها لا يكون الشعر وحده أو الثوب مشعَّثًا بل يتشعَّث القلب. أعرف أنها آلمتك، لكنك ست الناس. قولي: الله يسامحها وسامحيها.

لم أعلِّق.

قالت أم علي: سآتي بها لزيارتك مساءً فتعتذر لك ونشرب القهوة سويًا.

لا أدري ما الذي قالته أم علي للجارة التي أهانتني. لم تأت بها لزيارتي، لأننا بعد ساعات وجدنا أنفسنا جميعًا في الملجأ. لم أقترب من الجارة ولا هي اقتربت مني. ولكن ابنها كان يلعب مع مريم بالقرب مني. ثم في لحظة قصف مزلزل فردت ذراعيّ واسعًا وأحطت بالصغيرين كلٌّ في ذراع وضممتهما إلى صدري وتقوَّس كتفاي ومال

رأسي عليهما لأحمي رأسيهما. بعدها جاءت المرأة وقالت: سامحيني. بكت.

لم أقل شيئا.

خالتي أيضًا تحب أم علي، تأنس بالحديث معها. ربما كانتا في العمر نفسه ولكن خالتي كانت صغيرة الحجم تبدو عليها آثار الشيخوخة أما أم علي فكانت طويلة ممتلئة وفي صحة جيدة وبارعة في الحديث. أنجبت اثنتي عشرة مرة، «عشرة أولاد وبنتين لا غير، ومن يراني هنا في بيروت ليس معي إلا عباس يظنني مقطوعة. الله لا يسامحها إسرائيل». كانت أم علي جاءت لزيارة ابنها حين احتلت إسرائيل الجنوب في العام ٧٨. بقيت مع ابنها الدكتور عباس وظل باقي الأولاد والأحفاد وأسرهم في بنت جبيل.

هي أيضًا كانت تنتظر.

في نهاية الشهر الثالث رحلت المقاومة عن بيروت. بدا أن الحرب انتهت: انتهت بهزيمتنا واحتلال لبنان ورحيل الفدائيين. لكنها انتهت. عاد المهجّرون إلى بيوتهم في صبرا وشاتيلا وبدأوا يصلحون ما دمَّرته الحرب. سافر حسن إلى القاهرة. عاد أمين للدوام في مستشفى عكا. وراح هو أيضًا وزملاؤه يصلحون الطوابق المدمرة من المستشفى، لأن الحرب انتهت.

لم تنته على خير ولكنها انتهت.

هذا ما اعتقدناه.

بعد ظهر الثلاثاء أذيع خبر انفجار بيت الكتائب في الأشرفية.

فزعت كأن المقتولين منا. غريب ذلك الحدس، كالكلاب تشم رائحة الخطر من بعيد. طرقت باب أم علي. أخبرتها. قالت: يُمهل ولا يُهمل. قلت: لو كان بشير بين القتلى ستحترق البلد. قالت: احترقت وكان ما كان. في الليل أذاع الراديو موسيقى كلاسيكية، جنائزية على ما يبدو. فرجّحت أن بشير الجمَيِّل قُتل. بعدها بقليل تأكّد الخبر.

يوم الأربعاء أيقظنا قصف شديد. لم تكن الساعة تجاوزت السادسة صباحًا. حملت مريم وهي نصف نائمة وأيقظت خالتي وأنزلتهما إلى الملجأ. ثم صعدت مرة أخرى وأنزلت الحقيبة والكيسين. تواصل القصف كأننا بعد في ذروة الحرب. من راديو ترازيستور كان بإمكاننا متابعة وصف جنازة بشير الجميِّل في بِكْفَيَّا. من محطات أخرى علمنا أن القوات الإسرائيلية تتقدم لاحتلال بيروت الغربية وأنها حاصرت مخيمي صبرا وشاتيلا والأحياء المتاخمة لهما. في المساء عاد أمين. قال إن القوات الإسرائيلية أقامت حواجز بالقرب من دُوَّار السفارة الكويتية وأمام المستشفى. دخل عدد من جنودهم إلى المستشفى. سألوا عن «المخرِّبين» قلنا لهم لا يوجد سوى مرضى وأطباء وممرضين وعمال. قالوا: «حبيبي ما بتؤذونا ما بنئذيكم. إحنا جايين حماية إلكم!». أكلوا في كافتيريا المستشفى بلا استئذان ثم، ولمزيد من الإذلال، وزَّعوا حلوى على بعض الأطفال. وأبلغتني إحدى الممرضات أنها رأتهم يعطون بسكوت وبونبون وشكولاتة للأطفال عند حواجز التفتيش ويسمحون لهم باللعب بالقرب منهم. سألتُه: كيف تفسر الأمر؟ قال: تذكرين ذلك اللقاء الموسَّع الذي عقده أبو عمار في مستشفى غزة. قال بالنص: «ما تخافوش أنا حاطلبلكم القوات الدولية على مداخل

المُخَيَّمات لحمايتها». لا يوجد لا سلاح ولا مقاتلون في المُخَيَّمات الآن. مخازن السلاح صادرها الجيش اللبناني، والمقاتلون رحلوا. رحلت القوات الدولية، لا أفهم لماذا، ربما لتفسح الطريق لإسرائيل لإحكام سيطرتها على بيروت. ولكنني أعتقد أن الإسرائيليين وقد احتلوا البلد ليسوا بحاجة لمزيد من العنف. قصفوا واجتاحوا وقتلوا ما فيه الكفاية وحققوا ما أرادوا. رحل أبو عمار والفدائيون ودخل الجيش الإسرائيلي بيروت الغربية. إذن حققوا أهدافهم بالكامل. الآن الوجه الآخر: شكولاتة وبونبون وابتسامة بالكلوروفيل و«جئنا لنحميكم».

نام أمين. وكنت بين النوم والصحو طوال الليل. شعرت به وهو يغادر الفراش فقمت. نظرت في الساعة، كانت تقترب من السادسة صباحًا. أفطر بسرعة ثم قبّل جبين مريم وقبّل جبين أمه، وكانتا مستغرقتين في النوم. قال وهو يودِّعني بالباب: لا أعتقد أنه سيكون هناك مزيد من القصف. سأعود في المساء.

بعد ذهابه بساعة نزلت لشراء خبز. كان الخبز مقطوعًا. الشارع شبه مهجور. أسرعت إلى البيت. ثم تذكرت بائع الجرائد الذي نقل بَسْطَتَهُ من الشارع إلى مدخل بناية مجاورة. تجاوزت البيت وذهبت إليه. وجدته. اشتريت الجريدة وحملتها إلى البيت.

غريب. لم أنتظر حتى أصعد إلى الشقة. وقفت عند أسفل السلم. عناوين الصفحة الأولى لا تحمل جديدًا: الهجوم على بيروت على خمسة محاور. مأتم بشير في بِكْفَيَّا. القوات الوطنية تتصدى للغزو. سمعت الأخبار نفسها في اللَيل من الراديو. انتقلت إلى الصفحات

الداخلية. صور للدبابات والآليات العسكرية الإسرائيلية في بئر حسن. في طريق المدينة الرياضية. في الرملة البيضا. عند المنارة والحمّام العسكري. توقفت عند الصفحة التاسعة حيث تفاصيل الخبر الأول. بيان من البيت الأبيض. لم أقرأه. ثم: «وفي وقت لاحق مساء أمس أعلن المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي أن القوت الإسرائيلية تواصل بسط سيطرتها على مناطق حيوية ومفترقات الطرق في بيروت. وأن قوات الجيش الإسرائيلي تتقدم دون مقاومة إلا في مناطق قليلة جرى فيها إطلاق نار بأسلحة خفيفة بين قواتنا والمُخَرِّبين وأن جيش الدفاع يتخذ هذه الخطوات لمنع «الفدائيين» والميليشيات اليسارية من إعادة تنظيم صفوفها في العاصمة اللبنانية...

وقالت إذاعة الجيش الإسرائيلي إنها اقتحمت منطقة الفاكهاني... وساحة سفارة الكويت التي كانت من أهم المعاقل التي احتمى بها المخربون».

أين عَبِدْ؟

جلست على درج السلم. واصلت قراءة التفاصيل كأن السؤال وإجاباته الممكنة عادية أو محتملة. إنزال بحري في الحمام العسكري. إنزال برِّي في المطار. تقدم القوات على خمسة محاور: طريق المطار وصولًا إلى مستديرة شاتيلا. مستديرة السفارة الكويتية، المدينة الرياضية، دوَّار الكولا، الفاكهاني. طريق البحر- الأوزاعي. المتحف. البربير.

أين عَبِدْ؟

لن يعطوه بونبون وشكولاته.

ربما كان في بيت أحد أصدقائه نائمًا لا يعرف أن الدبابة الإسرائيلية تحت البيت الذي ينام فيه.

حملت الجريدة. صعدت الدَّرَج. وضعت المفتاح في الباب. انتبهت أنني نسيت رسمة ناجي. لم أر الصفحة الأخيرة.

رأيتها.

لم أعد أذكر ما الذي فعلته.

لطمت؟ ربما. فتحت الباب وبقيت واقفة؟ دخلت المنزل ودرت فيه دورتين كالضبع ثم غادرت. أغلقته وهبطت الدرج لأكتشف أن عليَّ الصعود من جديد؟ لا أذكر. أذكر فقط أنني بعدها كنت في شقة أم علي. صباح الخير. صباح النور. الدبابات الإسرائيلية في الفاكهاني. لم أجد خبزًا. الإسرائيليون يعطون الأطفال بونبون وشكولاتة على الحواجز. قلت ما قلته ولم أسمع ما قالته. ثم شقة جارة ثانية. ثم جارة ثالثة. أكرر نفس الكلام كآلة تسجيل. ثم بدأ القصف يشتد ويتواصل فحملت مريم وخالتي إلى الملجأ. أين أم علي؟ تركت مريم مع جدتها وصعدت إلى أم علي. كانت تخبز. صحت فيها. هل هذا وقت الخبيز؟! قالت وجدت بعض الطحين قلت أخبز. أوشك أن أنتهي على أي حال. أصرَّت أن تواصل: «والأعمار بيد الله يا رُقَيَّة». علا صوتي وأنا أحاول إقناعها. ربما زجرتها. ربما تطاولت عليها بالكلام. هل قلت لها كلامًا قاسيًا؟ هل تشاجرت؟ لا أذكر. لم تنزل. بعد العصر وكان القصف يحيل إلى الجنون نزلت أم علي تحمل غلَّتَها.

وزَّعت الأرغفة وأعطت لكل من الأطفال التسعة الموجودين بالملجأ فطيرة بحجم الكف مرشوشة بالسكر.

قبل المغرب بقليل توقَّف القصف فغادرنا الملجأ. بعدها جاءت القنابل الضوئية. تضيء سماء المنطقة فجأة، تضيؤه بشكل ساطع كأننا في ذروة النهار. ما الذي يحدث؟ لم يكن أي منا يحتاج للاقتراب من الشرفة أو من النافذة ليرى السماء. كانت الحجرة التي نجلس فيها وهي شبه المعتمة بسبب انقطاع الكهرباء وظلال شمعتين صغيرتين، تضيء فجأة كأننا في عِزّ النهار. اقتربتُ من النافذة. كان إطلاق هذه القنابل المضيئة من جهة الجنوب، نواحي الحُرش وبئر حسن. ربما فوق شاتيلا. أسلحة جديدة؟ لم أَرَ دخانًا كثيفًا ولا حرائق، كالمعتاد بعد القصف. كانت أم علي تتمتم بالدعاء وخالتي صارت فجأة تقول ربما هو يوم القيامة. يوم الحساب في صالحنا. ربنا سيعاقبهم الآن على كل ما فعلوه فينا. ومريم تبدو مستثارة بإمكانية أن تضيء الأنوار الليل بهذا الشكل، تقول ماما الكهربا مقطوعة يمكن هذه طريقة جديدة ينيرون بها كل البيوت. وأنا لا أفهم ما يجري. أحاول جاهدة أن أدفع بعيدًا شعورًا بأن كارثة جديدة في الطريق. كان الشعور غالبًا كاليقين، نوع الكارثة؟ طبيعتها؟ لا أعرف؛ فأزداد اضطرابًا.

سألت مريم فجأة: «أين نحن يا مريم؟» فصاحت خالتي وهي ترفع كفها وتشرع أصابعها الخمسة: «هل ترين أصابعي؟» فضحكت بصوت عالٍ، هستيريّ. قالت: «ظننت أنك فقدت بصرك فجأة. حدث هذا الأمر من قبل لامرأة في بلدنا زمان. لم أنتبه أنك كنت

تمزحين». لم أقل لها إنني لم أكن أمزح. ولا أن عينيّ كانتا مفتوحتين تماما، أرى بهما بوضوح ولكنني للحظة فقدت كل اتجاه. لم أعرف أين نحن، في شقتنا أم في الملجأ أم في مكان ثالث، فسألت مريم.

في تلك الليلة سمعت طرقًا بالباب. قلت أمين أو عَبد. لم أفكر أن كلًّا منهما يحمل مفتاحًا ولا يحتاج لطرق الباب. قفزت وفتحت.

الفصل السابع والعشرون

ملجأ أبو ياسر

للوهلة الأولى لم أتعرَّف عليها. ثم تعرَّفت وإن بقيتُ واقفة متخشبة كأن عليّ أن أفهم أولًا لماذا تبدو بهذا الشكل وما الذي أتى بها في هذه الساعة المتأخرة من الليل. هي التي بدأت بالكلام:

- أنا هَنيَّة.

ثوانٍ أخرى والعقل يركض شرقًا وغربًا. أصيبت بشظية؟ أين الإصابة؟ لماذا تبدو هكذا؟ هل اغتصبها الإسرائيليون؟ هل تهدّم البيت عليها؟ فجأة أحطت كتفيها بذراعيَّ وقلت بصوت أعلى من اللازم والمعتاد:

- أهلين، أهلين، تفضلي يا هَنِيَّة، تفضلي.

كانت تحمل ابنها الرضيع بين يديها أما ابنتها فتحملها كخُرج على ظهرها. مربوطة ربطًا بقماش اقتطعته على الأرجح من ذيل ثوبها والكُمَّين. فككت الرباط وحملت البنت. كانت مستغرقة في النوم. وضعتها في سريري. ثم قلت اغسلي وجهك يا هَنِيَّة ثم نجلس

وتحكي لي ما حدث. هل أعد لك عشاء؟ لستُ جائعة. شاي؟ شَرْبة ماء. أعطتني الرضيع ودخلت لتغسل وجهها. ثم عادت وأخذته مني. تناولت كوب الماء. شربته دفعة واحدة.

ترددت هَنِيَّة على بيتنا يوميًا لمدة أسبوعين. كانت ممرضة. تقوم بإعطاء حقنة لخالتي التي رفضت رفضًا قاطعًا أن يعطيها لها أمين. ولم لا يا خالتي؟ أمين ابنك. حتى لو كان ابني لا يصح أن أتعرّى أمامه. فجاءت ممرضة لم تقبل بها خالتي وقالت إن يدها ثقيلة كالمرْزَبّة وإنها ستقتلها. أخذت حقنة أولى ورفضت أن تأخذ الثانية. في اليوم التالي قال لها أمين إنه سيرسل لها هَنِيَّة التي لا يجاريها أحد في خِفَّة اليد حتى أن المريض يتصور أنها على وشك أن تغرز الإبرة لإعطائه الحقنة وتكون غرزت الإبرة وأفرغت المصل وسحبتها دون أن يشعر. قال: «ثم إن أهل هنية بلديّاتنا». أشرق وجه خالتي فجأة: «من الطَّنْطُورَة؟ من دار من؟» تلعثم أمين ثم: «ولدت بعد ١٢ سنة من طلوعنا من البلد. أبوها من جَبَع وكان يعمل في مصفاة النفط في حيفا ويسكن في حوَّاسة بالقرب من بلد الشيخ». قالت خالتي: «أهل جَبَع أخوالنا». انشرحت خالتي لهَنِيَّة قبل أن تراها ثم انشرحت أكثر حين جاءت. كانت لطيفة خفيفة الروح تجاري خالتي في الكلام. فتصر خالتي أن تبقى هنية معنا لتناول العشاء. فتقول لها هَنِيَّة يا أم أمين كنت في المستشفى طول اليوم، وعليّ الآن أن أعود إلى البيت لأن البنت مع أمي، وزوجي ينتظر. لم تكن هَنِيَّة خلَّفت هذا الطفل الرضيع الذي حملته مع أخته حين دقت علينا الباب.

هل حكت لي هَنِيَّة في تلك الليلة تفاصيل ما حدث مساء يوم

الخميس في ملجأ أبو ياسر، أم حكت لي بعضه وسمعت منها ومن غيرها التفاصيل لاحقًا؟ لا أدري ولا أذكر. كل ما أذكره أنها قالت: «عندما اشتد القصف لجأنا إلى ملجأ أبو ياسر، على بعد مائة متر من بيتنا. أبي وأمي رفضا أن يذهبا معنا إلى الملجأ وبقيا في البيت. ذهبت أنا وزوجي والصغيرين وأختي وزوجها وأطفالها. بعد ساعة دخل علينا مسلحون لبنانيون وصاروا يصيحون فينا: أين المُخَرِّبين؟ صاحت جارة لبنانية: دخيلكم لا تقتلونا نحن لبنانية. ولكنهم راحوا يطلقون النار في المخبأ وسقط من سقط وعلا الصراخ. ثم أمرونا أن نخرج من الملجأ. أوقفوا الرجال صفًّا حذاء حائط مقابل للملجأ. أما النساء والأطفال فأوقفوهم في صف آخر وقالوا إنهم سيأخذوننا إلى مستشفى عكا. كانوا يصيحون فينا، يسبّون ويستخدمون ألفاظًا بذيئة. بدأنا نتحرك ثم سمعنا طلقات رصاص كثيرة ومتتابعة فعرفت أنهم يقتلون الرجال الذين صفُّوهم حذاء الحائط. كيف التقطت البنت ورفعتها عن الأرض؟ كيف حملت الطفلين معًا وخرجت من الصف وركضت مبتعدة؟ لا أدري. كأنما ساقاي هما اللتان قررتا أن تنجوا بي وبالصغيرين. وجدت نفسي أركض مبتعدة وكان الركض غريبًا لأنني كنت أقفز قفزًا عاليًا ومُتَعرِّجًا لتحاشي النار التي يطلقونها عليّ. كانوا يصيحون ويسبّون ويطلبون مني التوقف ويطلقون النار. وحتى عندما أفلتّ ولم أعد أسمع أصواتهم، بقيت ساقاي تجريان من زاروب إلى زاروب تتجاوزان الجثث الملقاة أمام البيوت. لا تتوقفان للتحقق من تلك الرائحة الغريبة النفّاذة التي أحاطت بالمكان. ولا أمام بركة تخوض فيها قدماي فيتطاير ماؤها في وجهي وثوبي ويديّ ولا أنتبه إلا لاحقًا أنها لم تكن بركة ماء. ثم توقفتُ، دقيقة ربما أو

دقيقتين لأن الصغير بدأ يبكي. خفت أن ينبههم الصوت. نزعت قطعة من ذيل ثوبي وربطت فمه.

كيف وصلتُ إلى مستشفى غزة؟ لا أدري. ما إن دخلت حتى صرت أصيح بأعلى صوتي: إنهم يقتلون الناس. رأيتهم بعيني. لم يصدقوني فَرُحْتُ أكرر أنهم أطلقوا علينا النار في الملجأ. وصفّوا الرجال على الحائط وقتلوهم. أعطتني ممرضة حبة مهدئة ثم قامت بإسعافات لي، ولم أكن انتبهت أن في جسمي ما يتطلب الإسعاف. أتت مديرة المستشفى وأحاطتني بذراعها وقالت: أعرف أنها أيام صعبة يا ابنتي. دخول الإسرائيليين بيروت ليس بالأمر الهيِّن على أي منا. فدفعتُها بعيدًا وقلت: الرجال الذين يقتلون يتكلمون بالعربية. إنهم من الكتائب. قتلوا كل الرجال الذين كانوا في ملجأ أبو ياسر في الحُرش. ورأيت جثثًا أخرى أمام البيوت، أكوامًا من الجثث. فخاطبتني بصرامة وقالت: لا تُفزعي الناس، لا تنقصنا الإشاعات! تركتها وخرجت إلى الباحة حيث كان المئات قد وصلوا إلى المستشفى وقلت: اهربوا سيصلون إلى هنا وسيقتلونكم. ثم طلبت من سيدة في سن أمي أن تساعدني على حمل ابنتي على ظهري قلت لها اربطيها على ظهري، فربطتها وحملتُ الولد وجئت ركضًا إليكم.

ما العمل الآن يا ست رُقَيَّة؟».

وصلت هَنِيَّة في الواحدة بعد منتصف الليل. وكنا في الثالثة فجرا حين استجابت لإلحاحي بأن ترقد قليلًا في السرير إلى أن يطلع الصبح فنذهب معًا إلى المُخَيَّم لنعرف ما جرى. كنت ممدَّدة على الكنبة في الصالة بين الصحو والنوم محاصرة بالكوابيس، أغفو قليلا ثم أعود

أنتبه على رعب السؤال: ماذا لو اقتحموا المستشفيات؟ ماذا يفعلون في أمين؟ وعَبِد، أين يمكن أن يكون عَبِد؟ مكتب الجبهة الشعبية قريب جدًّا من مستشفى عكا. ما زال مفتوحًا يتردد عليه عَبِد أحيانًا، هل هو هناك الآن؟ ربما يكون مع أصدقائه يقطعون اكتئابهم بلعب الورق أو العراك حول ما فعله أبو عمار. هذا يلعن أبو عمار ويحمِّله المسئولية وذاك يرى أن الرجل فعل أقصى ما يمكنه لحماية الشعب الفلسطيني. عراك يومي ينتهي بالصياح أو التشابك بالأيدي بين مناصر لأبو عمار وقراره وحانق على القيادة وسياساتها. عَبِد كالثور الذبيح. قضى ثلاثة أيام بعد رحيل المقاومة لا يغادر فراشه ثم صار يتغيب عن البيت يقول سأبقى مع أصحابي. أو يأتي متأخرًا تفوح منه رائحة الخمر فأعاتبه على سُكْره. مرة وبّخته فإذا به يقول لي اتركيني وشأني. لو وجدت حشيشًا سأَدخِّنه ولو وجدت أفيونًا سأشمّه. ترى أين عَبِد الآن؟ لماذا قالت مديرة مستشفى غزة ما قالته لِهَنِيَّة؟ هل فقدت هَنِيَّة اتزانها من طول القصف والرعب؟ وماذا لو كان كلامها صحيحًا؟

ماذا نفعل؟

وجدتها تقف أمامي:

- ست رُقَيَّة لو سمحت، سأترك معك الصغيرين وأذهب لأرى ماذا جرى لزوجي وأمي وأبي وأختي وأطفالها.

نظرتُ في ساعتي. كانت الخامسة فجرًا. قلت:

- سأذهب معك.

أعطيتها ثوبًا من أثوابي وطلبت منها أن تبدَّل ثوبها. طرقت باب أم علي، كنت أعرف أنها تستيقظ مبكرًا لصلاة الفجر. قررت ألا أخبرها بشيء، فقط أطلب منها رعاية طفلَيْ هَنِيَّة حتى نعود، وإخبار خالتي ومريم عندما تستيقظان أنني خرجت ولن أتأخر. ما إن فتحت أم علي الباب وقبل صباح الخير وصباح النور، سألت:

ـ هل دخل الإسرائيليون المخيمات؟

قلت:

ـ يبدو أنهم دخلوا ومعهم القوات اللبنانية.

ـ الطف بنا يا رب. ولكن إلى أين تذهبان؟

قالت هَنِيَّة:

ـ سنعود إلى حرش ثابت لأطمئن على أهلي، ثم نذهب إلى مستشفى عكا وإن شالله يكون الجميع بخير. فأعود لاستعادة الأولاد وأعطيهم لأمي وأذهب إلى المستشفى. لا يصح أن أتغيّب عن عملي، لا بد أن هناك مصابين كثيرين.

لم نفلح في الاقتراب من المُخَيَّم ولا مستشفى عكا. كان الحصار مُحكمًا حول المكان. اقترحت هَنِيَّة أن نذهب إلى الحاجز الإسرائيلي، نتحدث مع الجنود ونطلب منهم أن يسمحوا لنا بالمرور. حاولت أن أثنيها فلم أفلح. أصرّت. قالت ليس أمامنا إلا ذلك. سأذهب. تعالي معي يا ست رُقَيَّة. لم أكن خائفة منهم. سأقترب، ربما يبتسمون. ماذا أفعل؟ لا سلاح معي. لن أجد سوى بصقة أبصقها عليهم. أي عبث! بصقة في كفة وفي الأخرى ثلاثة أشهر من القصف والقتل والتدمير.

غير صحيح، في الكفة الأخرى سنوات عمري كله. وأبي وشقيقيّ. تسمَّرت في الأرض. «هَنِيَّة لن يساعدونا. لنعد إلى البيت». «لا بد أن أجد زوجي وأختي وأمي وأبي». رأيتها تبتعد، تهرول تقريبا باتجاه الحاجز الإسرائيلي. ماذا أفعل الآن لو أطلقوا النار عليها؟ هل أتركها مصابة أو ربما جثة هامدة وأركض مبتعدة.. أم أتقدم لحملها فأضيف لضحاياهم ضحية جديدة؟ لم يطلقوا النار. رأيتها تتوقف عند الحاجز. تتحدث معهم. سمحوا لها بالمرور. أي كرم. أي لطف. ستدخل هَنِيَّة المُخَيَّم في السابعة من صباح يوم الجمعة ١٧/ ٩ وسأقف في انتظارها ساعة أو ساعتين ثم أعود إلى البيت لأرعى صغيريها وأنتظر.

الفصل الثامن والعشرون

رسالة إلى حسن

عزيزي حسن..

لماذا ورطّتني في هذه الكتابة؟ ما المنطق في أن أعيش تفاصيل الكارثة مرتين؟ توقفت الأسبوع الماضي عند صباح الجمعة السابع عشر من أيلول. كان اليوم أمامي، عليّ أن أواجهه مرة أخرى، أستعيده من ذاكرة تغالبني وأغالبها كأننا في حلبة مصارعة. ليس التشبيه دقيقًا يا حسن، فلا هي لعبة ولا في نهايتها منتصر ومهزوم أو جمهور يصفّق ابتهاجًا بفوز من فاز. ليست لعبة. وإن كانت، فهي غريبة. خطرة. تقتل.

ما المطلوب مني؟ أنقل مشاعري آنذاك أم مشاعري الآن أم أسجّل ما سجْله من هم أدرى وأقدر مني في مقالات وشهادات وكتب؟ قبل عشرين عامًا اتصلت بي الست بيان نويهض زوجة شفيق الحوت مدير مكتب المنظمة في لبنان. قالت لي إنها تجمع شهادات الناجين من المجزرة، أهالي شاتيلا وصبرا والأحياء

المتاخمة. أرادت أن أجمعها بمن أعرف منهم. ففعلت. استمعت الست بيان إلى هَنِيَّة هنا في بيتي، واستمعت إلى عَبد وإلى آخرين وأخريات غيرهما رتبتُ لقاءها بهم. وبعد عشرين عامًا اتصلت بي الست بيان وقالت لي إنها انتهت من الكتاب وإنه صدر. وأخذت عنواني في الإسكندرية وأرسلته لي. وصل الكتاب. فضضت المظروف. كان للكتاب غلاف خارجي رقيق يحيط بغلافه السميك، عليه صورة ملونة لثلاثة قتلى: فتى، بالكاد خطّ شاربه، ممددًا على الأرض كاملًا بملابسه، استقرت رأسه على كتف قتيل آخر، واستقرت على فخذه الأيسر قدما قتيل ثالث، لا يظهر من هذا الثالث سوى حذائه الرياضي وساقيه في بنطلون «جينز». (حذاء رياضي مطابق لحذاء كان يرتديه أخوك عَبد في تلك الأيام. ربما لو رأيت الصورة في حينه وقبل أن أرى عَبد لصرخت أن ابني راح).
في أعلى يسار الصورة، صورة أخرى أصغر لجثمان متفحِّم يصعب تبيّن شيء من ملامحه. لم أطِق الغلاف. نزعته وخبأته في درج ما من أدراج غرفة النوم. بقي الكتاب الضخم بغلافه المقوى الأزرق قابلًا للاحتمال. قلت سأقرأه. لا بد. كل يوم. كل أسبوع. وشهرًا بعد شهر أقول سأقرأه. مر عامان والكتاب على المائدة الصغيرة المجاورة لسريري لا وضعته واقفًا بين الكتب المصفوفة في المكتبة ولا فتحته. لا بد أن الست بيان تكلمت مطوَّلًا عما جرى في مستشفى عكا، لا بد أنها ذكرت انتصار التي كنت استلطفها واغتصبوها حتى الموت، وزميلتها الأخرى التي يضيع مني اسمها ولكنني أتذكَّر وجهها ورنَّة صوتها، أعني الممرضة الثانية التي تناوبوا على اغتصابها ثم قتلوها.

حبيبي حسن..

لم تطق أمك قراءة كتاب يستحضر ما جرى ويرصد تفاصيله فكيف تطلب مني أن أكتب في الموضوع؟!

كثيرا ما أفكر في أمي وأنا أكتب. هي لم تطق فكرة رحيل ولديها فرحَّلَتهما إلى مصر. عاشت في ظل وهم اختلقته لتعيش. ربما أكون مثلها. ألم أعش سنوات بوهم أن والدك من المخطوفين؟ أنتظر طرقه على الباب فأفتح فأجده أمامي. زاد نحولًا ربما، أوغلب أبيض شعره على أسوده، منهكًا من سنين الغياب، مكسورًا لأنه اضطر أن يمزق بطاقته وينكر أنه فلسطيني ليعيش. أفتح الباب فأراه أمامي كاملًا. أَلُفّ كتفيه بذراعي وأقوده إلى بيته. أُجلسه وأجلس. أوجز له حكاية أهل بيته وما مر بهم ومروا به في سنوات الغياب. غريب، أوجز دون صوت أو كلام. أسكن إليه وهو أيضًا يسكن وقد عاد إلى امرأته وبيته، يميل خفيفًا ويسند رأسه إلى كتفي وينام.

وعدتك يا حسن أن أتم هذا الكتاب ولكنني حين وصلت إلى هذا الجزء من الحكاية تيقَّنت أنني لن أستطيع. سامحني يا حبيبي. ولكن هذه حدود قدرتي.

محبتي،

رُقَيَّة

وكأنني خفت أن أتراجع وأمزِّق الرسالة. وضعتها في مظروف وأسرعت إلى مكتب البريد. أرسلتها.

بعد خمسة أيام اتصل بي حسن.

سألني عن أحوالي. تحدث عن مريم وعَبِد وصادق. تحدث عن زوجته وطفليه. تحدث عن عمله. أطال في المقدمات ثم:

- وصلتني رسالتك. تقولين ما المنطق وما الفائدة؟ أقول إنني أردت أن يسمع الآخرون صوتك. صوت رُقَيَّة الطَّنْطوريَّة. نحن أولادك الأربعة نعرف هذا الصوت لأننا تربينا عليه. نعرفك ونعرف أن لديك الكثير الذي تنقلينه للناس. ليست الحكاية هي وحدها ما يشغلني، أطمع في الصوت، ولأنني أعرف قيمته أريد أن يتاح للآخرين أن يسمعوه.

كدت أُعلِّق ساخرة: لست أم كلثوم ولا فيروز. وما عشته لا يُغنّى! لم أقل لا هذا ولا سواه. جاءني صوته عبر الهاتف:

- ماما.. هل أنت معي؟ آلو.. ماما؟

- أسمعك يا حسن. أسمعك.

- أعرف من دراستي ومن خبرتي بالحياة أن إيصال صوتنا أمر صعب ومكلِّف. حتى الشعوب، الجماعات تسعى طويلًا وحثيثًا حتى تجعل صوتها حاضرًا مسموعًا فما بالك بإنسان مُفْرَد؟ اتركي الكتابة بضعة أسابيع ثم هِمِّي وواصلي. عديني بذلك.

- سلمِّ لي على زوجتك والصغيرين.

- لا تتهربي من الوعد.

- سأحاول يا حسن. ولكن ماذا لو متّ؟ ستقتلني الكتابة.

- لن تقتلك. أنت أقوى مما تتصورين. الذاكرة لا تقتُل. تؤلم ألَمًا لا يطاق، ربما. ولكننا إذ نطيقه تتحول من دوامات تسحبنا إلى قاع الغرق إلى بحر نسبح فيه. نقطع المسافات. نحكمه ونملي إرادتنا عليه.

لم أعد أسمع ما يقوله. ثم ثانية:

- ماما هل أنت معي؟ آلو ماما.

- سأحاول. سأحاول. مع السلامة.

وضعت السماعة. استفزّني الكلام. كنت غاضبة. لا أفهم المثقفين. لا أفهم هذا الكلام الغريب عن الصوت. أي صوت؟! حتى كلامه عن البحر لم أرتح له. عدم ارتياح؟ ليس الكلام دقيقًا أثار فيّ كلامه ضيقًا، كأن الكلام يخنق. بعدها شعرت بالغضب. أردت أن أصرخ فيه: لماذا تعذِّبني يا حسن؟! اتركني الله يرضى عليك. حِلْ عني. أمك في السبعين. تعبت. ربتكُم وكفى. ثأرها مع الزمان معضلة بلا حل. لم أصرخ فيه. حسن أرقّ أبنائي. أعذبُهُم. وديع منذ طفولته. لكنه حازم. يطلب الشيء ويسعى في اتجاهه كأن دوران الأرض متوقف على مسعاه. هكذا هو كلما بدأ بحثًا جديدًا أو مشروع كتاب. تعلّم ليصير باحثًا وكاتبًا. تدرَّب على ذلك وصار البحث مهنته. لماذا يزجّ بي في مجال لا علاقة لي به. ثم إنه يطالبني بالتنقيب في جسمي الحي. لست حقل بترول. وهذه الحفارات التي تخرم طبقات الأرض، تحفر في روحي. ما الذي يقصده حسن بالصوت؟ لم أتعلم بما يكفي لأفهم كلامه أم أن كلامه مُعقَّد لا يُفهم؟! لن أكتب. سأمزِّق الدفترين.

سأمزِّقهما وألقي بهما في سلة المهملات فيحملهما جامع القمامة. أقطع كل طريق للعودة. كأنني أهاجر من بلد إلى بلد، لأن طائرة تحوِّم فوقي وتهدِّد بقصف يُسقط السقف على رأسي ويقتلني.

لم أمزِّق ما كتبت.

أخفيته كغلاف كتاب بيان نويهض في درج من أدراج غرفة النوم.

يتصل كل ولد من الأولاد تليفونيًّا مرة في الأسبوع، وأحيانًا مرتين. صادق وأسرته يتصلون مساء كل خميس. ويكلمني عَبد مساء الجمعة. أما حسن فيتصل مساء الأحد ويكون التوقيت عنده صباحًا. ثم يمر الاثنين والثلاثاء والأربعاء في انتظار الخميس والأيام الثلاثة التالية. حين اتصل عَبد من باريس مساء الجمعة وجدتني أسأله عفو الخاطر وبلا تفكير سابق:

ـ عَبد هل تذكر المقابلة التي أجرتها معك الست بيان بشأن كتابها في إحدى زياراتك قبل عدة أعوام؟

ـ أذكر.

ـ ألم تسجِّلها؟

ـ سجَّلتُ المقابلة كما سجَّلتها هي.

ـ هل ما زلت تحتفظ بالتسجيل؟

ـ ألم تحملي معك الشرائط المسجلة التي كانت عندنا في بيروت إلى الإسكندرية؟

ـ بلى. كلها عندي هنا.

ـ إذن ستجدين الشريط بينها. الشرائط الأخرى تحمل عناوين المُسَجَّل فيها ما عدا هذا الشريط. أذكر أننا خفنا من تدوين عنوان عليه.

وجدت الشريط بسهولة. وضعته في المُسَجِّل. ورحت أستمع.

الفصل التاسع والعشرون

شهادة عَبِد

حدَّث عَبِد، قال:

عندما تم الاتفاق على رحيل المقاومة من لبنان، تركوا الخيار لشباب الثمانية والأربعين الذين تقيم أسرهم في لبنان ويحملون وثائق سفر لبنانية. قالوا بإمكانكم أن تبقوا إن أردتم أو ترحلوا مع المقاومين. كنت غاضبًا من الاتفاقات التي قَبِل بها أبو عمار. ولم أكن وحدي. شعرنا أنها اتفاقات تعرِّينا وتسلِّم بهزيمة لا نُسأل عنها. قادته هربوا من الجنوب. الزُعْرَان هربوا. طبيعي لأنهم زُعْرَان. شبابنا، حتى الأشبال الذين لم يتجاوزوا الأربعة عشرة أو الخمسة عشرة واجهوا الغزو باستبسال مدهش يفوق الخيال. لا أقصد بشبابنا شباب الشعبية، حرام. الأمانة واجبة. شباب فتح وشباب الشعبية والديمقراطية وكل التنظيمات الأخرى اللبنانية والفلسطينية. الحزب الشيوعي ومنظمة العمل والتقدمي الاشتراكي والقومي السوري والمرابطين وأمل. شباب من كافة التنظيمات، لبنانيون وفلسطينيون. كلنا واجهنا وصمدنا في بيروت ثمانية أسابيع ثم إذ بالقيادة تتخذ

القرار برحيل المقاومة. كان المهم أن يخرج المقاتلون بشكل لائق. «على طيزي». آسف يا ست بيان على التعبير. هل كان استعراضًا عسكريًا. لم يكن. كان الموضوع حياة أو موت. ذهبوا فجاءنا الموت. خرجوا بملابسهم العسكرية وبالأسلحة على أكتافهم ووقف أبو عمار يبتسم ويرفع إصبعيه بشارة النصر.

أنا يا ست بيان ولدت عام ١٩٦٠. لم أشهد وضع المُخَيَّمات قبل حضور المقاومة ولكن الخِتياريَّة معنا في التنظيم حكوا لي. قبل المقاومة كان المكتب الثاني يستَبِدُّ بالعباد. مرة انسرق ميكروفون من مُخَيَّم ويفل في بعلبك، لمّوا الشباب وأخذوهم على مقر الشُعبة الثانية في بيروت ضربوهم بالكرابيج ثلاث ساعات. بعدها استَحْلوا الأمر، كل أسبوع يلموا مجموعة من الشباب يوصلوا بيروت، ينضربوا ويرجعوا. رحلة أسبوعية: تشم الهوا عند المخابرات وتنضرب وترجع. كان الانتقال من مخيم إلى مخيم، أو استقبال زائر من خارج المُخَيَّم يحتاج تأشيرات وسين وجيم. دق مسمار. بناء سقف. إضافة حجرة. كلها مُحَرَّمَات. لأن المُخَيَّم يجب أن يبقى مخيمًا مؤقتًا تأكيدًا على أننا لاجئون. حفاظًا على حقنا في العودة. شكرًا، الله يكتّر خيرهم! مسئولي المباشر في التنظيم حكى لي أن معظم بيوت شاتيلا كانت حتى الستينيات مسقوفة بألواح الزينكو المغلَّفة بالقماش، تُثَقِّلها الحجارة. لأنه ممنوع منعًا باتًا بناء سقف. ولو الهواء اشتد، الخلق تقعد على السقف كي لا تطير ألواح الزينكو. ولكنها أحيانًا كانت تطير فترى أصحابها يركضون خلفها وقد يلحقون بها وقد لا يلحقون إلا بعد أن تصطدم بالخلق وتصيبهم بجروح. لما بدأت المقاومة تغيَّر الوضع،

ولما انتقلت القيادة إلى لبنان وجاء أبو عمار تغيّر الوضع في المُخَيَّمات. جمعة مشمشية على ما يبدو. جاءوا ورحلوا. سألت نفسي: هل يعود الوضع كما كان؟ كنت خائفًا متوجِسًا أتوقع كوارث، ولكن ما حدث فاق كل خيال. لا أقصد المجزرة وحدها بل ما حدث في صيدا وهنا في بيروت وفي المُخَيَّمات عندما استلمت الكتائب الحكم. الخطف والقتل والتمثيل بالجثث والاعتقالات والتعذيب في خريف العام ٨٢ وطوال العام التالي. في الاجتياح أصبح أكثر من نصف سكان المُخَيَّمات في الجنوب بلا مأوى. دمَّر القصف البيوت. حدث هذا في شهر ستة، أربعة شهور يا ست بيان وإسرائيل ترفض إرسال جرّافات لإزالة الأنقاض ولا تسمح بدخول أية مواد بناء لإقامة دور بدلًا من الدور التي هدمت أو حتى إصلاح ما يمكن إصلاحه. فقط في شهر عشرة أعلنت الأونروا أنه سُمِحَ لها باستيراد خيام لإيواء ٤٨٠٠٠ في منطقة صيدا و١٥٠٠٠ في منطقة صور. مطلوب نعيش في الخيام. يعني موت وخراب ديارومهانة ما بعدها مهانة. وقبل أن نلتقط الأنفاس، يشتد النزاع بين أبو عمار وسوريا فتحاصر أمل المُخَيَّمات. فتدفع المُخَيَّمات الثمن. ليست شهور الغزو والحصار وحدها بل سنوات من الهول والفواجع المتصلة.

نعم الحق معك يا ست بيان. حصار أمل للمخيمات موضوع آخر. تريدين أن أحدثّك عن استجابتنا لقرار الرحيل. بعض زملائي من شباب الثمانية والأربعين قرر أن يرحل مع المقاومة. بعضهم قرر أن يبقى. منهم من قرر أن يرحل وودّع أهله ورتّب أموره ثم قبل أن يدخل الميناء استدار وعاد. وفي حالات أخرى حدث العكس. قال

لن أرحل ثم وهو يودِّع زملاءه الراحلين، ارتاع وهزمه الفراق فقفز إلى الشاحنة فحملته معهم إلى السفينة. وأنا كنت ضائعًا. شقيقاي كلٌّ في بلد بعيد، هل أترك أبي وأمي وجدتي ومريم؟ ولماذا أختار اللجوء مجددًا؟ نحن من اللاجئين، نعم، لكنني ولدت في لبنان وعشت طول عمري فيه فلماذا أتركه وأضيف إلى اللجوء لجوءًا جديدًا؟ ولماذا أبعد أكثر عن فلسطين؟ تسللت إلى صيدا ـ كانت مغامرة خطرة مع وجود هذا العدد من جنود الاحتلال ـ تمكَّنت من الوصول إلى عين الحلوة. كان أولاد الحرام دمّروها بما يفوق الخيال. تهت في الشوارع لأن البيوت المُهَدَّمة غيَّرت معالم المكان. ذهبت لأودِّع عمي عِزّ، لم يكن واردًا أن أرحل دون أن أودِّعه. ثم عدت إلى بيروت وقررت الرحيل، ثم عدلت في آخر لحظة. رحلوا وبقيت. كانت معنوياتي في الحضيض. لا أعرف كيف تحملتني أمي. اجتاحني شعور بالعبث كأنني لم أكن فدائيًا أحمل السلاح. أمي لا تعرف أنني كنت أفكر في الانتحار. الحق أنني كنت قررت. ولم يردّني سوى نقاش مع زميل لي. قلت له طبيعي أن ننتحر. فإذا بزميلي وهو يصغرني بعامين، يوبِّخني كأنه مدرس وكأنني ولد صغير. قال تريد أن تنتحر؟ انتحر فلا حاجة لأحد بك. لأنك عندما تفكر في الانتحار تهرب من المعركة وتتخلى عن أهلك الذين وثقوا بك. وبخفة تثير الازدراء تقول: واجهوا وحدكم، أما أنا فأذهب إلى الموت لأرتاح. يلعن ربك يا أخي. غبي وحيوان. سبّني وغادر المكان. بكيت كالصغار. عادة ما أمسك بخناق أي شخص يسبُّني. أُدفِّعه الثمن أضعافًا. سبّني فبكيت. وفي اليوم التالي ذهبت إليه وقبّلت رأسه.

صباح الأربعاء الخامس عشر من أيلول دخلت الدبابات الإسرائيلية بيروت الغربية. كنت أبيت مع زملاء لي يسكنون الفاكهاني. صباح الأربعاء رأينا الدبابات وهي تتقدم. لم يكن هناك مسئول واحد نرجع إليه. قررنا أن نتصرف على مسئوليتنا. كانوا يتمركزون عند كلية الهندسة ودارت اشتباكات بيننا وبينهم. كنا مجموعات مختلفة بعضها كان من الشباب صغير السن، أشبال. استمرَّت المعركة طول اليوم. ثم تراجع الإسرائيليون إلى ما وراء كلية الهندسة.

في اليوم التالي قررنا أن نستكشف الوضع ونذهب إلى مكتبنا المقابل لمستشفى عكا، ونرى إن كان بمقدورنا توفير مزيد من السلاح. أكرر يا ست بيان لم تكن هناك أية قيادة محلية. والقيادة التي رحلت لم تترك لنا أية تعليمات. ولا كان هناك لجنة مسئولة عن أمن المخيم. تركونا مقطوعين كأننا لقطاء أو أيتام. وكان من الطبيعي أن يشعر الأهالي والوضع على ما هو عليه أن وجود شخص مسلَّح أو سلاح في المُخَيَّم يهدِّد المُخَيَّم وكل منٍ فيه. الكثيرون تخلّصوا من سلاحهم الفردي. أحيانًا تخلّصوا منه بلفّه بالجرائد وإلقائه في حاوية قمامة أو أي كوم من الركام.

توجَّهت مع عدد من زملائي إلى مكتب الجبهة الشعبية وهناك انضم إلينا مجموعة من الشباب وفتاتان، أذكر أن واحدة منهما كانت من فتح. قررنا أن نناوش الجنود الإسرائيليين على طريقة إضرب واهرب. يطلق الواحد منا مخزنًا أو نصف مخزن ويسرع بالانتقال إلى مكان آخر. لاحظي يا ست بيان أننا إلى تلك اللحظة لم نكن نعرف

بوجود القوات اللبنانية. كنا نتصور أننا نواجه الجنود الإسرائيليين فقط. تمكنّا من إصابة ضابط وجنديين أو ربما ثلاثة إسرائيليين. كانوا يقفون بالقرب من السفارة الكويتية على تلّة. وكانوا يتطلعون باتجاه المُخَيَّم بنظارات مُكَبِّرة. أطلقنا عليهم قذيفة بي سفن ورصاصًا.

وكان فيه مجموعة أخرى من الجبهة العربية. وكان مكتبهم في حي فرحات جنوب شرق المُخَيَّم. لما تركَّز القصف الإسرائيلي عليهم قرروا نسف مستودع السلاح الذي يملكونه لإيهام الإسرائيليين بأنهم يواجهون مقاومة عنيفة. كان في المخزن صواريخ جراد وكاتيوشا وقذائف مدفعية. تصوري مخزن سلاح نفجِّره بأيدينا، فما جدوى السلاح وقد رحلت الكوادر المدرَّبة والقيادات التي تشير علينا متى نستخدمه وأين؟!

فيه شبل اسمه هاني معروف في المُخَيَّم. شبل من فتح. صاح به أحدهم: الإسرائيلية تحتك يا هاني. ضرب هاني قنبلة يدوية على شاحنة إسرائيلية محمّلة بالجنود (تصورنا ساعتها أنهم جنود إسرائيليون، قد يكونون إسرائيليين وربما كانوا من القوات اللبنانية). أصابهم. ثم عاد فأصاب نصف مجنزرة. كان مُفردًا، ويتصرف هكذا وحده. وهناك أيضًا فتاة اسمها فاطمة من فتح. لحقت بنا وشاركتنا. فقدنا في ذلك المساء الرفيق بطرس، وهذا اسمه الحركي، وهو من مقاتلي الجبهة الشعبية.

عندما ليَّلت قررنا أن ننسحب على أن نلتقي في اليوم التالي. قرَّر البعض منا قضاء اليوم في منزل أصدقاء له في المُخَيَّم، وقرَّرت أنا وزميل لي أن نغادر المُخَيَّم. لم نكن نعلم بما يجري. لم نكن نعلم أن

القوات اللبنانية تقتل الأهالي بالرصاص والبلطات والسكاكين. كنا بطبيعة الحال نمشي بحذر. نستكشف المكان ثم نمضي في طريقنا بلا صوت. التقينا في طريق عودتنا بمقاتل فتحاوي قال لنا إنه شاهد اقتحام القوات اللبنانية لملجأ أبو ياسر في حي حرش ثابت. كانت المرة الأولى التي نسمع عنها أن القوات اللبنانية دخلت المُخَيَّم. قال علينا أن نُخرج الأهالي من الملاجئ ونقودهم بهدوء إلى خارج المُخَيَّم. عيّن لكل منا ملجأ وحدَّد لنا أسلوب التصرف وطريق الخروج. ونفَّذنا تعليماته. تمكنَّا من إخراج مئات الأهالي بأمان من الملاجئ وإخراجهم من المُخَيَّم. ورغم ما قاله لنا هذا المقاتل إلا أن أيًّا منا لم يستوعب ما كان يجري. أعني أننا حين وضعنا رءوسنا على مخداتنا ليلة الخميس على الجمعة كنا نعرف أن المُخَيَّم محاصر، وأن إسرائيل أضاءت سماء المنطقة بالقنابل الضوئية لتسهل للقوات اللبنانية الدخول. وأنها تنفذ لإسرائيل مهمة إيذاء السكان. قتل بعضهم وأسر البعض الآخر. لكن أيًا منا لم يتخيل إطلاقًا أننا إزاء مجزرة بهذا الحجم ولا أن الكتائب ورجال سعد حداد تدخل البيوت وتقتل الناس بالبلطات والسكاكين وتغتصب البنات، وتدِّمر البيوت بالجرّافات على سكانها. لم نعرف شيئًا بهذا الحجم من قبل ولا سمعنا بمثيل له فلم نتخيل. لم يكن بمقدورنا أن نتخيل.

في صباح اليوم التالي كانت المنطقة محاصرة تمامًا. فشلنا رغم تكرار المحاولة في الدخول. لم أشهد ما حدث في مستشفى عكا ولا في مستشفى غزة. قلت إنك تريدين مني شهادة عيان. ما رأيته ينتهي بليلة الخميس على الجمعة.

بعدها حكى لي الكثيرون ما رأوه في الأيام الثلاثة. كنت أسأل وأسمع وكنت حريصًا على معرفة ما حدث في مستشفى عكا لحظة بلحظة لأن أبي كان في المستشفى، ولا نعرف مصيره، واعتُبر من المخطوفين. تقصّيت كل التفاصيل لأعرف مصير أبي. وأيضا لأنني أردت أن أنقلها إلى أخويّ فهما يعملان خارج لبنان وكنت الوحيد بينهم الذي عايش الموقف. أحسست أنني مسئول عن معرفة كل ما حدث ونقله إليهما. إن أردتِ أحكِ لك. وإن أردتِ أعطيكِ صورة من التقرير الذي أرسلته إلى أَخويّ، إلى حسن في القاهرة وإلى صادق في أبو ظبي.

لم أطَّلع ساعتها على هذا التقرير. ولكنني حين أردت إعادة الشريط المُسجل عليه المقابلة إلى علبته البلاستيك وجدت في العلبة ثلاث ورقات فولسكاب مطوية عدة طَيّات.

الفصل الثلاثون

تقرير

كتب عَبِد:

العزيزين صادق وحسن..

هذه هي الصورة التي تمكَّنت من تجميع أجزائها عما حدث في مستشفى عكا يوم الجمعة السابع عشر من أيلول.

بدءًا من الخامسة من صباح يوم الجمعة سُمِعَت عبر مكبرات الصوت نداءات من الإسرائيليين الذين يحاصرون المُخَيَّمَات: «سَلِّموا تسلموا. على الجميع العودة إلى بيوتهم ووضع أي سلاح يملكونه أمام البيت. سَلِّموا تسلموا». أثارت النداءات حالة من الاضطراب بين الأهالي وكان المئات منهم لجأوا إلى المستشفى للاحتماء بها في الليلة السابقة. رأى البعض أن الابتعاد عن المكان هو الضمان الوحيد للسلامة، ورأى البعض الآخر أن البقاء في المستشفى أسلم. وكان هناك من يهدّئ الآخرين ويطمئنهم وينفي ما يتردد من كلام عن مذبحة ويعتبرها شائعات، رغم وصول امرأة تصيح

وتبكي وتؤكد أن هناك مذبحة وأن القتلة في طريقهم إلى المستشفى ليقتلوا الناس. باختصار يجمع الشهود أنه بين الخامسة والسابعة صباحا عمَّت حالة من الفزع والاضطراب والفوضى. ثم بدأ الأهالي يغادرون المستشفى تدريجيًا.

بين الثامنة والتاسعة صباحًا عُقد اجتماع للعاملين في المستشفى، أطباء وممرضين وعاملين في الإدارة. هنا أيضًا انقسم الرأي بين القائل بضرورة الرحيل ومن يُحَبِّذ البقاء لأن نقل المرضى لن يكون ميسورًا، ولأن إمكانية اصطيادهم خارج المستشفى أكبر. قرروا البقاء. وفي الاجتماع نفسه ناقشوا إجلاء الأطفال ولكن مدير المستشفى رفض الفكرة.

بعد الاجتماع انسحبت ممرضتا النوبة الليلية لتناما وبقيت ممرضتان في قسم الطوارئ وممرضتان أجنبيتان لرعاية الأطفال المعوَّقين، واثنتان في الطابق الأرضي، واثنتان أو واحدة في الطابق العلوي.

بعد الاجتماع مباشرة حدث أمران: خرجت عاملة لتشتري علبة سجائر لأحد الأطباء فأصابتها رصاصة قنّاص. ماتت. وخرج عرابي وهو شاب مصري يعمل في قسم الأشعة، ليُدخل إحدى سيارات المستشفى كي لا تصيبها قذيفة. عَبَر إلى محطة البنزين المواجهة للمستشفى. (وربما خرج عرابي لسبب آخر، طرح أحدهم احتمال أنه ربما كان يحاول الهرب. وهو ما أستبعده لأن زوجته كانت ممرضة في المستشفى وكانت متواجدة فيه يومها). ثم رأت الممرضات من النافذة شخصًا ممدَّدًا على الأرض شككن في كونه عرابي. وصلت إلى المستشفى سيدة تقود سيارة رينو فاستأذنوها في استخدام سيارتها

للعبور إلى الجهة الأخرى من الشارع حيث محطة البنزين، لينقذوا الشخص المُسَجَّى إن كان على قيد الحياة. (كان هناك قنص وإطلاق نار). قادت السيارة عاملة مصرية من عاملات المطبخ ورافقها ممرضتان أجنبيتان هما آن النرويجية وإريكا الفرنسية، قرفصتا عند المقعد الخلفي كي لا يظهر رأساهما من النافذة. قادت العاملة المصرية السيارة بسرعة محتمية بالمباني، يمينًا ثم يسارًا فيسارًا إلى أن وصلت إلى محطة البنزين. كان الممدد على الأرض عرابي. كان فارق الحياة. تعاونت النساء الثلاث على حمله في السيارة وعُدن به إلى المستشفى. كان مصابًا بالرصاص وبقذيفة أطاحت بجزء من وجهه. (يا حسن أنت في القاهرة وربما تكون الجهات المسئولة في مصر حرصت أن تعرف المزيد عن الموضوع. هل نُشر شيء عن عرابي في الصحف المصرية؟ هناك أيضًا بين الشهداء، عامل في محطة الوقود وطباخ بالمستشفى، مصريين، هل نشر عنهما شيء؟). ما إن انتهى أبي من تكفين عرابي حتى ظهر أول جندي من جنود القوات اللبنانية، تبعه الباقون. كانت الساعة الحادية عشرة.

منذ طوَّقوا المنطقة دخل الإسرائيليون المستشفى عدة مرات. سألوا عن «المُخَرّبين». قيل لهم لا يوجد إلا مرضى والعاملون في المستشفى. تجوَّلوا في أنحاء المستشفى وأكلوا في الكافتيريا ورحلوا.

لم يكن الإسرائيليون هم من اقتحم المستشفى يوم الجمعة بل القوات اللبنانية، الكتائب ورجال سعد حداد. هذا ما قاله بعضهم بصريح العبارة.

قالت لي إحدى الممرضات إنها قالت لأبي قبل الاقتحام، لا بد

من الهرب. سيقتلوننا. طمأنها. قال لها أنت أهلك في صور. احتلَّها الإسرائيليون ولكنهم لم يقتلوا المدنيين هكذا بشكل عشوائي. يقصفوننا بالطائرات والمدافع، ولكنهم حين يحتلّون المكان لا يتعرَّضون للنساء والأطفال. نحن في مستشفى. في أسوأ الحالات سيعتقلوننا نحن، الرجال. قالت له ولكنهم كتائب ولن يرحمونا لو وقعنا في أيديهم. ضحك وقال لها كنت أتصورك أشجع من ذلك. قالت لي الممرضة، بعدها بدقائق اقتحموا المستشفى. دخلوا من باب الطوارئ فخرجت من الباب الثاني أنا وثلاث ممرضات وطفل صغير هرّبناه معنا. وقضينا ليلتنا بعيدًا عن المنطقة.

حين دخلوا المستشفى كانوا يتحدثون بعنف بالعربية والإنجليزية، ويصيحون ويسبّون ويقولون كلامًا بذيئًا. ثم أخرجوا الأطباء والعاملين من المستشفى. أوقفوا الأجانب في صف والعرب في صف آخر. حقّقوا مع الأجانب ثم فرشوا لهم بطانية وسمحوا لهم بالجلوس عليها. أعطوهم سجائر وعِلْكَة. وكانوا لطفاء نسبيًّا معهم ولكنهم حين سمحوا لهم بالذهاب ورأوهم يرجعون إلى المستشفى لمواصلة عملهم راحوا يسبُّونهم ويعاملونهم بشكل مختلف.

شوهد أبي وهو يقف في الصف الآخر بمحاذاة الحائط مع حوالي عشرة أو خمسة عشر رجلًا. ثم شوهد بعدها بساعة أو ساعتين وهو يسير ضمن المئات التي ساقوها إلى المدينة الرياضية. وكان واضحًا أنه تعرَّض للضرب والتعذيب.

نجح في الهروب من المستشفى طبيبان وموظفان عن طريق بناية

يعقوبيان المتاخمة للمستشفى. دخلوا من بوابة وخرجوا من بوابة في الجهة الأخرى من البناية.

أثناء وقوف الأجانب والعرب خارج المستشفى بقي بعض رجال الكتائب داخلها. كانوا يضحكون ويمزحون أحيانًا ويطلبون شايًا وقهوة من الفتيات. فتاة لبنانية كانت ترافق والدها وشقيقها اللذين أصيبا في مُقْتَلة الليلة السابقة، قالت لي البنت كانوا يعاملوننا كالخدم. ثم بدأوا يُفحشون في الكلام. فخفت وهربت. وكان حدس البنت صادقًا لأنه في الوقت نفسه تقريبًا اختطفوا ممرضتين إحداهما فلسطينية والأخرى لبنانية. انتصار اللبنانية جرّوها من شعرها وأنزلوها إلى ملجأ المستشفى وتناوبوا على اغتصابها ثم أطلقوا عليها الرصاص. ثم عادوا لزميلتها واغتصبوها حتى الموت.

لا أعرف إن كان أبي حاول الهرب فقتلوه، أم أنهم عذّبوه ثم قتلوه أم ساقوه إلى المدينة الرياضية وحملته تلك الشاحنات التي تحمل الناس إلى أماكن غير معلومة لا يعودون منها. هناك طبيبان غير أبي لم يعثر لهما على أثر، الدكتور سامي الخطيب والدكتور محمد عثمان. ولقد شاهد البعض أربع جثث طافية في مسبح المدينة الرياضية بالرداء الأبيض. ولكننا لا نعرف إن كان أبي والطبيبان الآخران بينهم. لأن هناك ثلاثة مسعفين في الهلال الأحمر قصفوهم وهم في سيارة الصليب الأحمر الدولي فقُتلوا. وكانوا هم أيضًا يرتدون الزي الأبيض. وأنا لم أر الجثث الطافية في المسبح، بل حكى لي آخرون. ولو رأيت لأمكنني التعرف على أبي مهما كان وضعه.

عندما وصل الصليب الأحمر الدولي ـ جاء مرتين مرة في الثانية

ظهرًا (وكانت القوات ما زالت في المستشفى) ومرة في الرابعة والنصف بعد الظهر (وكانوا غـادروا)، نقلوا بعض المرضى إلى مستشفى نجّار، وبعض الأطفال مع ممرضة أجنبية إلى مركز أمل، ونقلوا أيضًا أربعة جثامين: امرأتين وطبيبًا وعاملًا مصريًا (الطباخ في المستشفى أم العامل في محطة البنزين المواجهة؟ لا أدري). هل كان أبي هو الطبيب؟ يؤكد شهود أن أبي لم يكن بينهم.

حكت لي ممرضة من سكان شاتيلا أنها ذهبت إلى مستشفى عكا يوم السبت بعد رحيل القوات من المنطقة. كانت المستشفى في حال يُرثى لها: الزجاج مُكسَّر والستائر محروقة والكافتيريا مُحطَّمة بما في ذلك الثلاجة، والتموين مدلوق على الأرض وصورة أبو عمار مُمزَّقة، إطارها مكسَّر والزجاج محطَّم. داسوها بالأقدام. وقسم الأطفال خال وكذلك الحضّانات. في اليوم التالي وجدت هذه الممرضة طفلًا مقتولًا ملقى به في حديقة المستشفى. وأضافت أنها عندما عادت إلى صبرا وجدت أطفالًا كانوا في المستشفى وتعرفهم في سن سنة وسنتين وثلاث مقتولين هناك ومنهم طفل مشلول مقتول ببلطة. وهي تعتقد أنهم ألقوهم هناك لكي لا يقال إنهم قتلوا الأطفال في المستشفى. وشهد عدد من الناس إنهم وجدوا في ملجأ مغلق جنوب غرب المُخَيَّم، في حي عِرسال، جثثًا مُكَوَّمَة على بعضها بينها جثث رُضَّع وأطفال غير مكتملي النمو (أعتقد أنهم المواليد الذين أخذوهم من الحضّانات).

نعود إلى أبي. هناك ثلاثة احتمالات: أن يكون أبي قُتل أو خُطف أونجح في الفرار. وكل احتمال من هذه الاحتمالات الثلاثة يطرح أسئلة ليس لدينا أي رد عليها:

إن كان أبي قُتل فكيف وأين ومتى؟ هل عذَّبوه وماذا قال أو فعل؟ أين جثمانه؟ هل بقي تحت الأنقاض؟ هل دُفن في إحدى المقابر الجماعية التي حفروها هم أثناء المجزرة والتي منعت الحكومة نبشها؟ هل حملته واحدة من الجرَّافات الثلاث التي شوهدت يوم السبت تغادر صبرا مُكَدَّسَة بالضحايا؟ أم ألقوا به في البحر، كما فعلوا بآخرين، بالقرب من الناعمة والدامور، بعد أن وضعوه في أكياس ثقَّلوها بالحجارة؟ أم حظي أبي بمراسم دفن شرعية فصلَّى عليه الشيخ سلمان الخليل أو أخوه الشيخ جعفر الخليل يوم الاثنين التالي حين كانوا يدفنون الشهداء مجموعات من عشرة أو اثنتي عشرة، حتى دفنوا ثمانمائة في يوم واحد في مقبرة جماعية واحدة؟

وإن كان أبي سيق مع المئات إلى المدينة الرياضية فهناك احتمال أنهم أطلقوا الرصاص عليه هكذا بلا سبب، وهو ما فعلوه مع الكثيرين. وهناك احتمال أنهم أنزلوه في حفرة من حفر الموت حيث كانوا يدفنون الناس أحياء. وربما تمكّن من الهرب لأنه أثناء سوق الناس أطلق شاب ما قذيفة آر بي جي فعمَّت الفوضى وارتبك الحراس ففرَّ، وهو ما أكده شهود العيان، العشرات. هل هرب أبي ساعتها؟ وإن كان نجح في ذلك فلِمَ لم يتصل بنا حتى الآن، وقد مرَّت على المجزرة ثلاثة أشهر؟ هل يكون معتقلاً؟ حاولت أن أعرف إن كان لدى الكتائب معتقلون. لم أتوصَّل لأية معلومات.

قانونيًا أبي من المفقودين. لم تُصدر الحكومة اللبنانية حتى الآن تقريرًا رسميًا رغم أنه من المعروف أن هناك تقريرًا أعدّه قاضي

التحقيق العسكري أسعد جرمانوس وانتهى من إعداده بعد أقل من أسبوعين من المجزرة. لم يُنشر هذا التقرير وإن أوردت جريدة السفير مؤخرًا ملخَّصًا له. ربما لم يُنشر لأن الرقم الذي يقدمه للضحايا «مضحك» إذ يُقَدَّر العدد بـ٤٧٠ قتيلًا! الصليب الأحمر الدولي قَدَّر عدد الضحايا بـ٢٧٥٠، ومصادر الصليب الأحمر اللبناني قدرته بـ٣٠٠٠، لا تشمل من بقي تحت الأنقاض ولا من جرفتهم الجرافات، ولا المخطوفين والمفقودين. وكالة الأنباء الفرنسية قَدَّرَت أن عدد من نقلوا في الشاحنات ولم يُشاهدوا بعد ذلك بـ٣٠٠٠ شخص. التقديرات الأخرى تقول إنهم ١٣٠٠. هذه الأرقام وحدها يمكن أن تحيل إلى الجنون، حين يصبح الفارق بين تقدير وآخر ألف أو ألف وخمسمائة.

العزيزين صادق وحسن..

حاولت قدر طاقتي أن أتقصّى ما حدث في مستشفى عكا صباح يوم الجمعة السابع عشر من أيلول، وهو ما وعدتكما به. لم أكتب سوى أربع صفحات ولكنني بذلت شهورًا في الحصول على التفاصيل. لديّ أوراق كثيرة وقصاصات من صحف وتقارير وبيانات. ولديّ ملحوظات وشهادات وسِجِلّ بأسماء الشهود الذين استمعت إليهم والذين يمكن الرجوع إليهم إن احتجنا. حاولت قدر استطاعتي تركيز ما توفّر لي من معلومات، وتقديمها بشكل واضح. أما الكتابة فأجاركم الله. صعبة. ولأن حق أبينا علينا أن نعرف مصيره، فهذا التقرير ليس إلا خطوة صغيرة على بداية الطريق. إن كان استشهد

فعلينا أن نتأكد من ذلك ونعرف ظروف استشهاده والمقبرة التي يرقد فيها. وإن كان مخطوفًا لا بد أن نبحث عنه ونقلب الدنيا للوصول إليه. وإن لم نفعل، لا نستحق لا اسمه ولا ما بذله في تربيتنا وتعليمنا ولا ساعة حب واحدة منحها لنا. وأعرف أننا نتفق أنه منحنا ما لا يُحصى من تلك الساعات.

أخوكم عَبِد

بيروت في ١٧/ ١٢/ ١٩٨٢

الفصل الحادي والثلاثون

أن تشقّ مجرى

لم يطلعني عَبِد على هذه الرسالة حين كتبها، ولا حين أعطى نسخة منها إلى الست بيان. قرأتها. استوقفني التاريخ. فهمت بعد ما يقرب من عشرين سنة سلوك عَبِد الغريب يوم وفاة جدته.

تُوُفِّيَتْ خالتي يوم ١٦/ ١٢/ ١٩٨٢، وشيعناها في اليوم التالي، التاريخ نفسه الذي ذيّل به عَبِد رسالته إلى صادق وحسن.

وجدتها بلا حراك في سريرها. ركضت إلى عَبِد. وكان منذ يومين لا يغادر حجرته، يجلس إلى مكتبه بذقن نابتة وشعر مشعّث كالأوراق وقصاصات الجرائد التي يحيط نفسه بها.

قلت:

ـ عَبِد.. جدتك...

قام من مقعده وتبعني إلى غرفتها. أكد لي أنها ماتت. قال: «سأذهب للبحث عن طبيب وعمل اللازم. ولكنه وهو يرتدي ملابسه كان

يسبّ ويلعن كأن جدته نصبت له مكيدة بتوقيت موتها وماتت قصدًا لتنكِّد عليه. في اليوم التالي سألني فجأة:

ـ دفناها وانتهينا. وجاء مُعزُّون اليوم فهل يأتون غدا؟

قلت:

ـ عادة ما يكون العزاء ثلاثة أيام.

ـ لا أريد معزين هنا غدًا. سأطردهم لو جاءوا. عاشت عمرها كله وماتت في سريرها. دفنّاها بشكل لائق. انتهينا.

صرخ مكررًا:

ـ انتهينا!

عَبِد في الثانية والعشرين من عمره، هل يجوز أن أصفعه؟ كدت أصفعه. لا أذكر ماذا قلت، كيف استجبت لوقاحته؟! كل ما أذكره أنه كانه يصيح بأعلى صوته كالممسوس وأن عِزّ أحاط كتفيه بذراعه وقاده برفق إلى غرفته وأغلق الباب، وظل الباب مغلقًا لساعة أو ساعات. كانت مريم تجلس بجواري ثم وضعت رأسها على فخذي وراحت في النوم، وبقيت جالسة مكاني كالحجر. لا حركة، لا فكرة حتى سمعت فتحة الباب ورأيت عِزّ يخرج من الغرفة. بدا لي أنني لم أره منذ سنين. تملَّيت حلقات الأزرق الداكن تحت عينيه. متى شاخ هكذا؟ ولِمَ لَمْ ألحظ ذلك من قبل؟ انتبه إلى مريم فقال هامسا: ستبرُد. حملها ووضعها في سريرها. عاد وجلس بجواري. مد يده إلى علبة السجائر. أعطاني سيجارة وأخذ أخرى. رحنا ندخِّن في صمت.

بعد يومين أو ثلاثة، فاجأني عَبِد:

- سأترك كلية الهندسة.

- ستتخرج العام القادم.

- لا يهم.

- أنت اخترت التخصص في الهندسة المعمارية، لم يفرضها أحد عليك.

- سأنتقل لدراسة الحقوق؟

- وتبدأ من جديد؟

- سأبدأ من جديد.

- هل يمكن أن تشرح لي السبب؟

- لديَّ أسباب. شرحها يطول.

- أسمعك. اشرح ولو اقتضى الشرح أيامًا.

تركني وغادر البيت.

نتناقر يوميًا كالديوك. لا يحتملني ولا أحتمله. أكرر على نفسي أن علي أن أطوِّل بالي. أنت أمه يا رُقَيَّة وهو ولد. شاب صغير مُثقل. أحاول. ثم ينفجر كاللغم في وجهي، وأنفجر. يبدو البيت كساحة حرب ما إن نطفئ حريقًا حتى يشتعل حريقٌ جديد فيه. حتى مريم كانت تجري يمينًا ويسارًا لتطفئ الحرائق. أبتسم للفكرة: بنت دون السابعة، في الصف الثاني الابتدائي، ترتدي خوذة وتقفز صاعدة

إلى سلم لتواجه النار المشتعلة بخرطوم ماء أضعاف أضعاف طولها. تقول لي:

- ماما.. ألا تحبين عَبِد كما تحبينني؟!

أبتسم.

- وألا يحبك كما أحبك أنا؟!

- لا أدري يا مريم.

- هو يحبك وأنت تحبينه فلماذا تتشاجران كل يوم؟

- لن نتشاجر.

ونتشاجر. ونعود نتشاجر كأننا زوجان على وشك أن تتحطم بهما السفينة فيذهب كلٌّ على قطعة خشب لحال. شكوت لصادق. قال: «عَبِد مُدَمَّر. إن لم تحتمليه فمن يحتمله؟!». ويبدو أنه اتصل بعَبِد وحدَّثه في الموضوع فجاءني عَبِد كالمجنون وقال:

- اتصل بي صادق يوصيني بك. قال أمك متعبة راعِها أكثر. يلعن دين صادق. يتكلم كأنك زوجة أبي. يتكلم كأنه المسئول. طبعًا مسئول ما دام يحوِّل بضعة دولارات كل شهر. هل تعرفين ما قاله لي ابنك المسئول؟ قال إنه يرتِّب لانتقالك أنت ومريم لتقيما عنده في أبو ظبي. قال إنه في تمّوز القادم سيأخذ زوجته وأولاده إلى أوربا: شَمَّة هوا. قال أسبوعين فقط، ثم تأتي ماما عندي ونُسَجِّل مريم في مدرسة هنا. هل أخبرك بذلك؟ هل تريدين الإقامة عنده؟ هل قررت مغادرة لبنان؟! يلعن ربه، يلعن سماه!

لم تكن لديّ أدنى فكرة عن نوايا صادق، وإن ضاعت المفاجأة في الحِدَّة التي طرحها عَبد بها. كأنه مُحَقِّق على وشك أن يرسل بي إلى السجن بعد حصوله على الاعتراف.

لن أرحل عن بيتي. لن أترك بيروت. عناد؟ ربما. بدا أنه قرار اتخذته لا مجال لإعادة النظر فيه. لماذا؟ لِمَ لَمْ أحمل ابني وابنتي وأنجو بهما بعيدًا عن هذا المكان الذي صار يقول لنا ضِمْنًا: اتركوا البلد، أنتم غرباء. هل قلت ضِمْنًا؟ خطأ. يقولونها صراحةً وكل يوم. رأيت بعيني العبارة مكتوبة على الجدران. وفي الجرائد تسريبات عن خطط لتقليص عدد الفلسطينيين في لبنان من نصف مليون إلى خمسين ألفًا. هل يريدون إلقاءنا في البحر؟! يلقون بمنشورات على المُخَيَّم تتوعدنا وتهدد. لا يقتصر الكلام على الكلام. الجيش يستبدُّ بالمُخَيَّمَات. القوات تفعل ما يعِنُّ لها. اعتقالات يومية. قتل على الحواجز. اختطاف. هدم لأي جدار يُبنى في المُخَيَّم: كيف يعيش الخلق في بيوت بلا جدران؟! وخنق: لا عمل ولا تصاريح عمل. رجال المُخَيَّم قُتلوا أو اعتُقلوا أو رحلوا عند الرحيل، والقلة الباقية عاطلة عن العمل. عادت النساء يتدبرن أمرهن وأمر عيالهن كأنهن خرجن للتوّ من صيف الثمانية والأربعين. لا لم يكن الفلسطينيون وحدهم غير المرغوب فيهم. اللبنانيون المُهجّرون من الجنوب والمتن الذين سكنوا الأوزاعي والضاحية الجنوبية مثلنا في العراء. اصطدم بهم الجيش وسقط منهم شهداء. يريدون هدم بيوتهم. إزالتها كلمة أدق لأن البيوت مهدّمة منذ الاجتياح وما دار في المنطقة من معارك مع الجيش الإسرائيلي. لا تسمح الحكومة للأهالي بإعادة البناء،

بإصلاح بيوتها، بإعادة الماء أو الكهرباء، برفع الأنقاض أو إزالة النفايات. ممنوع. مطلوب إخلاء المكان. إلى أين؟

في المستقبل سأتأمل الأمر طويلًا. أتساءل لِمَ لَمْ أرحل؟! هل كنت ورثت عن عمي أبو الأمين الشعور بأنني لست غريبة، أم كنت تمثَّلت تدريجيًا وعلى مهل، وقد تربيت في المكان، أن غربتي من غربة أهله، بعض أهله الذين يشبهوننا؟! ربما كنت غير راغبة في الابتعاد أكثر. كأن شاطئ بيروت، يقودني إلى شاطئ بلدنا. كأن شاتيلا عند طرف شارع إن سلكته وسرت في خط مستقيم أَصِل الطَّنْطُورَة. مجرد شارع ممتد. خط واحد كالخط بين الطَّنْطُورَة وحيفا أو الطَّنْطُورَة وقِيسارْيَة، بلد وِصَال. وربما كان الأمر أبسط من ذلك: كرهت أن أترك حياتي وأرحَل كما رحل الشباب. رحلوا اضطرارًا. أمرتهم قيادتهم فغادروا. لم يأمرني أحد، فلماذا أرحل؟

حكى لي عِزّ مُطَوَّلًا عما يحدث في صيدا: الخطف والقتل، والجثث المشوَّهة التي يجدونها بالقرب من عين الحلوة والمية مية، وفي قلب مدينة صيدا، يلقون منشورات بتوقيع «ثوار الأرز» تطالب الأهالي بطرد الغرباء الإرهابيين الذين قهروا لبنان وتسببوا في خرابه. «لن نسمح بوجود الفلسطينيين على أرض لبنان». يسموننا في المنشورات قَتَلَة وجراثيم وقمامة. يقولون إن الإسرائيليين جاءوا لإنقاذهم منا وإن لبنان وإسرائيل سيكتسبان قوة بالعمل معًا. يقولون ستجتمع الحضارتان. الكتائب لا تُوفّر أحدًا والإسرائيليون يكوِّنون ميليشيات من عملاء محليين بدعوى حفظ الأمن في القرى. لا يقتصرون على ميليشيات الكتائب وسعد حدَّاد وحرّاس الأرز بل ينشئون

ميليشيات أخرى. يُجبرون مُختار كل قرية أن يفرز عشرة أشخاص من القرية للعمل فيما يسمونه «الحرس المدني» ويجبرونهم على تدبير المال اللازم للصرف عليهم. والكل متضرر حتى التجار. صارت الخضرة والفاكهة الإسرائيلية في كل مكان. أتوا بمنتوجاتهم لبيعها في الجنوب. يعني موت وذل وخراب ديار، وطبعًا خوف. خوف لم أره في المُخَيَّم من قبل، حتى في زمن المكتب الثاني، في الخمسينيات.

قال لي عز: «صادق على حق. لم يعد لنا حياة في لبنان. اذهبي إلى أبو ظبي». كان قد قرر الرحيل إلى تونس. كريمة لا تريد. لم تستطع أثناءه عن قراره. أخذها وسافر. وبقيت. لماذا؟ هل كنت بدأت أتمثّل وإن ببطء وتدريجيًا، أن مجرىً آخر يشقّ طريقه في الأرض؟ نعم كنت أتابع أخبار المقاومة في الجنوب. أبحث عن تفاصيلها صباح كل يوم في الصفحة الخامسة من الجريدة. المظاهرات. الاعتصامات. العمليات المسلحة. مواجهة الاحتلال وجهًا لوجه بين العسكر المدرّعين بالسلاح وربات البيوت في القرية أو رجالها أو مسجدها أو تلاميذها.

في آخر شباط ١٩٨٤ ذهبت إلى جبشيت لتقديم العزاء لأسرة الشيخ راغب حرب. بعدها بعام ذهبت إلى صيدا لزيارة قبر أمي وقبر عمي أبو الأمين.

كان الإسرائيليون قد لملموا عتادهم وانسحبوا.

الفصل الثاني والثلاثون

المركز (١)

قلت لعَبِد الكبير:

ـ زارتني زوجتك بالأمس.

قال:

ـ جاءت لتشكوني لك، قالت لك إنني ضربتها، أليس كذلك؟

ـ لم تقل.

تطلّع في عينيّ. لم يصدقني. لم أكن أكذب لأن زوجته التي حدثتني طويلًا عن حالته واشتكته لي، لم تقل إنه ضربها. قال:

ـ لا أطيق نفسي. حتى الصغير لا أطيقه. لا أدري ماذا أفعل. أغادر البيت كل صباح كأنني ذاهب إلى المركز. أمشي في الشوارع أو أجلس على مقهى، أتحاشى المقاهي المعتادة لأنني لا أريد رؤية أحد من معارفي ولا التحدث مع أحد. وحين يبلغ بي الإرهاق والجوع حدّه أعود إلى البيت. أرغب في النوم ولا أنام. أكون جائعًا ولا أُقبل على الأكل. أُقبل على زوجتي

فجأة كأنني راغب فيها ثم أكتشف أنني عاجز عن معاشرتها. لا أقرأ ولا أكتب. قدرتي على التركيز صفر.

- ألا تذهب إلى المركز؟

- أغلقوه. الحكومة أغلقته. استدعت مدير المركز. وفي اليوم التالي جاءت شاحنات الجيش وحملت الأثاث والأجهزة وما تبقى من الأرشيف.

- سأصنع لك فنجان قهوة.

- لا شكرًا. سأذهب.

ثم:

- سأمر عليك غدًا أو بعد غد مع زوجتي والصغير لنُوَدِّعك ونُوَدِّع عَبِد ومريم. سأعود إلى عمّان.

قالها بسرعة وهو يقوم من مقعده. لم يسلِّم. لم يقف بالباب كعادته ليستكمل كلامًا بدأه أو ليحكي أمرًا أراد أن يحكيه أثناء الزيارة ونسي. قال: «بخاطرك»، ثم سمعت خطواته على الدَرَج.

رطوبة خانقة. يتصبب وجهي عرقًا. أمسحه بمنديل ورقيّ. أنتبه إلى أن قميصي مبلَّل بالعرق. أغسل وجهي وأغيِّر القميص. أغلي بكرج قهوة وأحمله مع فنجان إلى طاولة المطبخ وأجلس. أصب القهوة وأشعل سيجارة.

حين دخل الإسرائيليون إلى بيروت قبل تسعة أشهر، اقتحموا المركز. سرقوا نصف مكتبته وأرشيفه. حكى لي عَبِد:

ـ حمدت الله أن الدكتور أنيس لم يعد مدير المركز. لم يقتله اللُغم الذي انفجر فيه قبل عشر سنوات ولكنني متأكد أن رؤية الجنود الإسرائيليين في المركز كانت تقتله. شهد الجيران في البناية المقابلة الجنود وهم يُنزلون صناديق محمّلة بالكتب ويضعونها في الشاحنات، طوال ثلاثة أيام. رأوا بعضهم يلقي كتبًا وأوراقًا إلى الشارع من النوافذ والشرفات. وجدنا بعضها وجمعناه وأعدناه إلى مكانه. كان ذلك في اليوم الرابع حين تمكنّا من العودة إلى المركز. لم يكتفوا بالنهب، حطّموا الأثاث وما لم يأخذوه من الأجهزة وكتبوا عبارات بذيئة على الجدران. قلنا فليكن. أحضرنا طلاءً ومَحَوْنا أثر العبارات البذيئة وانتظمنا في العمل.

طوال تسعة أشهر، لم يزرني عَبِد، وحده أو مع زوجته وطفله، إلا وأشار إلى المركز. يتحدث في أي موضوع فيدخل المركز فجأة، يعترض مجرى الكلام لنصف دقيقة أو أقل، ثم يتوارى ويترك للحديث أن يعود لمجراه.

بعد ستة أشهر من نهب المركز انفجرت سيارة ملغومة أدت إلى إحراق المبنى واستشهاد عدد ممن كانوا فيه. لم أعرف ساعتها. لم أركض في الشوارع كالممسوسة كما فعلت قبل أحد عشر عامًا يوم الانفجار الأول الذي أصاب الدكتور أنيس في وجهه. لم أعرف إلا من عَبد نفسه في اليوم التالي. أتساءل الآن: لو عرفت في حينه هل كنت أَقطع الشوارع ركضًا أهشُّ الموت بعيدًا كأنه ذباب، أم أن الحواس تبلَّدت من كثرة ما انفجر من ألغام؟ لو ركضت مع كل

خبر عن لغم في مكان لي فيه أصحاب أو معارف لقضيت يومي كله أركض في اتجاهات متعاكسة، أركض باتجاه شاتيلا، أركض باتجاه الرَوْشَة، باتجاه الفاكهاني. باتجاه البحر. من فجّر المركز؟ قال عَبد: الأمن اللبناني. رئيسه زاهي بستاني، كتائبي يقولون إنه من رجال المخابرات الإسرائيلية ويقبض منهم، بانتظام.

لم يعد المبنى آمنًا ولكن عَبِد وزملاءه واظبوا على الدوام فيه. يذهبون إلى عملهم كل يوم. قوات الأمن والجيش قاما بالواجب. بعد ثلاثة أشهر حاصر الجيش اللبناني المركز. اقتحموه. قال عبد: أوقفونا بمحاذاة الحائط كأنهم سينفذون فينا حكمًا بالإعدام. فتشوا المكان وذهبوا. اجتمعنا بعد ذهابهم. اتفقنا. لن نغلق المركز. لن نرحل.

الآن سيرحل. تطلّعت إلى ساعتي. قفزت. غادرت البيت. كيف أنسى موعد خروج مريم من المدرسة؟ أنظر في الساعة. أُغُذّ الخطو. أكاد أركض. حين ألمح باب المدرسة في نهاية الشارع أعود أنظر في الساعة.

وجدتها داخل المدرسة بالقرب من الباب، مع بنت وولد من زملائها. لم تكن تبكي. ولم يبد عليها ما توقعته من علامات الفزع. قبّلتها. قالت وهي تبتسم:

- ماما تأخرت!

- آسفة يا مريم. آسفة. خفتِ؟

- لم أخف. زميلتي فَرَح خافتِ وبكت. وقالت إنه قبل أسبوعين

انفجر لغم في سيارة بالقرب من بيتهم. وإن جارتهم ماتت في الانفجار. قالت قد يكون حدث الشيء نفسه لماما. صارت تبكي. شاغلناها أنا وسمير بالكلام فانشغلت.

تطلَّعتُ إلى الصغيرة. كانت أصغر من مريم، نحيلة مُنَمْنَمَة. كانت تضحك الآن وتتكلم مع الولد. قلت:

- حين نتأخر قليلًا فكّروا أن السبب زحمة السير، أو أن ضيفًا هبط علينا فجأة فتأخرنا، أو أن الساعة تعطّلت.

بقيت أشاغل الأولاد حتى وصلت أم الولد ثم أخت البنت، وغادر الجميع في سلام.

سألتني مريم:

- ماما لماذا تأخرتِ؟

- زراني عمو عَبِد. سيسافر إلى عمّان. أغلقوا مركز الأبحاث.

- من أغلقه؟

- الجيش.

- لماذا؟

- لأنه مركز فلسطيني.

- ماما، لماذا يكرهنا الجيش؟

غيّرتُ الموضوع:

- سأشتري لك شكولاتة لأنك لم تبكي حين تأخرت ولأنك

اعتنيت بزميلتك لما خافت وبكت.

قالت مريم وهي تتشعلق في يدي وتتقافز:

- اشتري لي شكولاتة لأنني أحبها. لست صغيرة لأبكي عندما تتأخرين. عندي عقل يقول لي يا مريم: لا تخافي الآن. انتظري. إن تأخرت ماما حتى الليل تكون هناك مشكلة، لأنه لا يمكن أن تُظْلِم الدنيا ولا تأتي ماما. أما العناية بفرح فهذا طبيعي. لأن الكبير يساعد الصغير. المُعَلِّمَة قالت لنا ذلك. وأنا أكبر منها بعامين. أنا سبعة وهي خمسة.

أكدت العمر بفرد أصابع يدها اليسرى وإبهام وسبّابة اليد اليمنى ثم ثنت الإصبعين وأبقت الخمسة.

- لم تجيبي عليّ: لماذا يكرهنا الجيش إلى هذا الحد؟

- لأن قياداته كلها من الكتائب. والرئيس أيضًا من الكتائب.

- ولماذا تكرهنا الكتائب؟

- هذا موضوع طويل أشرحه لك لاحقًا. جعتِ؟ أعددت لك اليوم...

- قلت سيسافر عمو عَبِد إلى عمّان. هل يسافر ليقيم هناك؟

- نعم.

- وأخي عَبِد، هل يسافر هو أيضًا؟

- لا أدري. لم يقل.

ـ لو سافر لا يبقى لنا أهل في بيروت. هل نسافر نحن أيضًا؟

ـ لو سافرنا من تشتاقين له أكثر في بيروت؟

ـ أولًا، أم علي. ثانيًا، معلِّمتي وأصحابي في المدرسة. ثالثًا، أقراص الزعتر التي تصنعها أم نبيل في المُخَيَّم. وأم نبيل وأولادها. رابعًا، الدكتورة هَنَا في مستشفى المقاصد. ممكن لما أكبر أبقى طبيبة مثلها، ومثل بابا طبعًا. طوَّل بابا يا ماما. يعني خطفوه، وين؟ لما نلعب في المُخَيَّم بنلاقي الولد المِتْخَبي، دايمًا نلاقيه. يمكن لازم ندوّر أكثر.

عدت لتغيير الموضوع:

ـ صادق يقول تعالوا زوروني في أبو ظبي. ما رأيك؟

ـ العطلة بعد أسبوع واحد يمكن أن نزوره. بس نرجع قبل بداية المدرسة.

ـ وماذا لو قال ابقوا هنا معي.

ـ أحسن نزوره شهر أو شهرين ونرجع بيتنا. هل يأت عَبِد معنا؟

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ عنده دراسته وأشغاله.

ـ أفضل يأتي معنا أو نبقى معه.

أتردّد على المُخَيَّم. أشد أزر أم فلان أو جارة من جاراتها لأن ابنها إختفى أو اعتقل الجيش زوجها. أقرأ جريدة السفير على خِتْيارات أُمِيَّات. أساعد في إعداد قوائم المخطوفين. أشارك في مسيرة نسائية صغيرة الحجم (مضى عهد المظاهرات الكبيرة)، يُنَظِّمُها اتحاد المرأة لأهالي المخطوفين. أساهم في مساعدة أم كذا وأولادها الثمانية، وهي بلا عائل ولا عمل وبيتها مهدوم. أبحث عن واسطة أو أتدبَّر المبلغ اللازم للإفراج عن شاب من الشباب. أساهم في إعادة فتح الحضانات التي دُمِّرت لمساعدة الأمهات اللائي يخرجن إلى العمل بعد أن ترملن في الحرب أو المجزرة أو رحل أزواجهن مع من رحل من المقاتلين. أرعى صغار امرأة من معارفي ذهبت إلى عين الحلوة لتطمئن على أهلها أو لتنقل رسالة أو لتأتي بتطريز أخواتها لتبيعه في بيروت وترسل ثمنه فتفك ضائقتهن المالية. أصطحب مريم إلى المدرسة ثم أذهب إلى المُخَيَّم، وأبقى فيه إلى أن ينتهي يومها الدراسي فأعود لاصطحابها إلى البيت. وأحيانًا حين يستدعي أمر ما الذهاب إلى المُخَيَّم بعد الظهر، أترك مريم مع أم علي أو آخذها معي. تلعب مع رفيقاتها هناك.

الفصل الثالث والثلاثون

عن اعتقال عَبِد

لم يعد عَبِد إلى البيت ثلاث ليال. قلقت بقدر. قلت يبيت مع زملائه هنا أو هناكَ. أوسوس لحظة: وماذا لو تسلَّل إلى الجنوب؟ تسلَّل من قبل ولم أعرف إلا بعد أن عاد. أطرد الوسواس. لا جديد في تغيّبه عن البيت ليلتين أو ثلاثًا. في اليوم الخامس استبدَّت بي الوساوس. لم يعد وسواسًا بل يقينًا أن مكروهًا أصابه. هل خُطف؟ هل قتلوه عند حاجز من الحواجز؟ قفزت من سريري. تطلّعت إلى ساعتي. كانت تشير عقاربها إلى الثانية بعد منتصف الليل. علي أن أنتظر طلوع النهار فأتدبّر الأمر. كيف أتدبّره؟ من أين أبدأ؟ أمرٌّ على من أعرف من بيوت زملائه؟ أذهب إلى اللجنة الشعبية في المُخَيَّم؟ إلى مسئول في التنظيم؟ وأين أجد المسئول في التنظيم؟ لِمَ لَمْ أفعل ذلك من قبل. أكيد أصابك خَبَل يا رُقَيَّة. تقولين وسواس. أي وسواس والخطف يومي. وقتل الشباب روتين؟ من أين أتتك تلك الطمأنينة البلهاء. بلادة أم غباء؟ أقوم لغلي بكرج قهوة. تفور. أمسح ما انسكب منها على الموقد. أغسل البكرج وأملأه ثانية بالماء وأُلْقِمُه بالبُنّ. أتطلعّ

بحرص إلى البكرج. أنتظر أن تغلي القهوة. أُركّز النظر عليها كي لا تفور. أرفع البكرج عن النار بحرص. تهتز يدي هزة مفاجئة فينقلب البكرج بما فيه على الأرض وعلى ثيابي. لا حول ولا قوة إلا بالله! ألقي بالبكرج في المجلى وآتي بممسحة وأُنَظِّف الأرض. أغيّر قميص نومي. أغسل البكرج وأملأه بالماء. أجلس في الصالة أحتسي القهوة وأدخِّن. قد يكون عَبِد مع مجموعة من زملائه موزعًا كعادته بين دروسه وعمله السياسي. انشغل عنا. نسي أن يعود إلى البيت. حدث ذلك من قبل. أهدِّئ نفسي باستحضار يوم كذا ويوم كذا. تغيَّب ثم عاد. ما إن يصل الخيال إلى أنه بخير وأن قلقي وسواس لا داعي له حتى يقفز فجأة إلى الاتجاه المعاكس. أمسكوا به؟ خطفوه؟ ضربوه؟ ربما قتلوه. ماذا أفعل الآن؟

بعد صلاة الفجر طرقت باب أم علي. لم تفتح فعرفت أنها ما زالت تصلي. انتظرت بالباب وعدت أطرقه بعد دقائق. سمعت خطوتها الثقيلة وهي تقترب من الباب. سألَت. قلت: رُقَيَّة. فتحت. قالت: صباح الخير. قلت: عَبِد لم يعد إلى البيت منذ خمسة أيام. ربما اختطفوه. دعتني للجلوس ثم أَعدَّت لي فنجان قهوة. اقترحت أن أمر ببيوت زملائه أولًا. قالت سأصطحب مريم إلى المدرسة وأنت تذهبين إليهم مباشرة قبل أن يغادروا إلى أشغالهم. إن لم تجديه عند أي منهم نبدأ في البحث عنه.

كان ابني محظوظًا. وأنا أيضًا لأن الكثير ممن يُخطف من الشباب، يختفي ويُقتل ولا يعرف أهله أنه قُتِل وحين يتأكدون لا يعرفون المكان الذي دُفن فيه. لم تعد الكتائب وحدها تعتقل الشباب الفلسطينيين،

ولا الميليشيات المسيحيّة. دخلت أمل فجأة في المشهد. يا إلهي كيف؟ لماذا؟ قال لي صديق مخضرم في المُخَيَّم: يا ست رُقَيَّة، هل نسيت تل الزعتر؟ تتبدل التحالفات بين الكبار ويدفع شبابنا الثمن. المُخَيَّم يدفع الثمن. الآن سوريا وأبو عمار حَرابَة وأمل متحالفة مع سوريا فتصوّب أمل مدافعها على شاتيلا. ونشير لشباب أمل بالأعداء وكنا في الماضي القريب جدًّا نواجه الإسرائيليين معًا، في خَلْدَة وفي الشوف وفي الجنوب. لا حول ولا قوة إلا بالله!

كيف أُفرج عن عَبِد؟ لا أدري.

سلكنا طرقًا عديدة. وسّط صادق رجل أعمال من زملائه في الخليج تربطه علاقات عمل بشخص متنفِّذ في أمل. ولم توفر أم علي قريبًا ولا نسيبًا ولا شخصًا من معارفها أو معارف معارفها إلا وزارته طلبًا للمساعدة. نريد أن نعرف مصير الشاب. تقول: ابني. ربّيته على يديّ. هل يجوز أن تخطفوا ابني وتضربوه؟ لو كان عندكم أفرجوا عنه على ضمانتي. في المساء تضع أم علي بين يدي غَلَّة اليوم. زارت من وتحدثت مع من، ومن أخذها إلى من فأوصلها بمن. أتطلعّ إليها وتدهشني قدرتها في هذه السن على الذهاب إلى خمسة أماكن في يوم واحد. أتابع خطوتها الثقيلة وهي تحمل لي فنجان القهوة أو فطائر خبزتها فأنتبه إلى أن الساقين والقدمين تجاهد في حمل الجسم الفارع السمين.

في رحلة البحث اليومية التقيت بشخص أكّد أنه يعرف طريق عَبد. قال إن المختطفين طلبوا مبلغًا من المال. عينّه. بعت ما لدي من حَلي وأعطيته له.

هل أثمرت زيارات أم علي أم المال الذي دفعتُه أم أن الرجال الذين اعتقلوا عَبِد قرروا الإفراج عنه هكذا بلا سبب كما اختطفوه بلا سبب؟ وهل كانوا من شباب أمل أم كانوا من الكتائب أو مجموعة قائمة بذاتها، مجرد زُعران يستفيدون من الفوضى القائمة لتكوين ثروة سريعة بالحصول على معلومات وبيعها لهذه الجهة أو تلك؟ حتى الآن لا أعرف.

بعد الإفراج عنه، حكى عَبِد. قال:

كنت غادرت شاتيلا. فإذا بثلاثة شباب ينادون عليّ. كانوا شبابًا في ثياب مدنية. تصوّرت أنهم يريدون السؤال عن الساعة أو أنهم ليسوا من أبناء المنطقة ويريدون أن أدلّهم على شارع أو مكان. حين اقتربت منهم، سألني أحدهم إن كنت لبنانيًّا أم فلسطينيًّا. توجّست. ولكنني أجبت: فلسطيني. لماذا تسألون؟ فإذا بأحدهم يوجه سلاحه إلى رأسي. لا أدري أين كان يخفي السلاح. رفعه عليّ وأمسك بي الاثنان الآخران وجروني جرًّا إلى بناية. دخلنا شقة في الطابق الأول منها. راحوا يحقّقون معي. يسألون عن التنظيم الذي أنتمي إليه. عن مسئول التنظيم. عن المُخَيَّم، أسماء القادة فيه وكم السلاح والأنفاق التي تربط بين مبانيه. قلت لا أعرف. فبدأوا الضرب. كررت أنني لا أنتمي لأي تنظيم وأنني طالب حقوق في الجامعة اللبنانية ولا أعيش في المُخَيَّم. وليست لديّ أية معلومات ولا إجابات عن أسئلتهم. اشتد الضرب. ثم ربطوا عينيّ ونقلوني إلى مكان آخر وخلعوا ملابسي وضربوني مرة أخرى. حتى سالت الدماء من وجهي وصدري وظهري. قالوا سنقتلك إن لم تتكلم. ألصقوا المسدس

برأسي. قلت ليس لديّ ما أقوله. قيّدوا يديّ ورجليّ بحبل وألقوا بي مع ثلاثة شباب آخرين. كل يوم يأتون إلينا ويقولون سنقتلكم ثم يذهبون. بعد ثلاثة أيام نقلوني في صندوق سيارة، وأنا مقيّد وعيناي مربوطتان. وصلنا إلى مكان في بير حسن. رفعوا الرباط عن عينيّ وفكّوا القيد. وضعوني في زنزانة مُفْرَدَة.

بعد عشرة أيام، فتحوا باب الزنزانة وربطوا عينيّ مرة أخرى. ثم أركبوني سيارة. بعد أقل من عشر دقائق توقّفت السيارة ودفعوني إلى خارجها. رفعت الرباط عن عينيّ فوجدت نفسي في الأرض الخراب الواقعة بين أرض جلُّول ومستشفى غزة. مشيت إلى المستشفى. نظّفوا جراحي وضمّدوها وأعطوني دواء. ثم جئت إلى البيت.

نعم كان عَبِد محظوظًا. وكنت أكثر حظًا منه. قلت أفضل تسافر. قال سأبقى.

صادق يتصّل بأخيه، يوميًا أحيانًا ويلحُّ عليه: أرجوك أرجوك يا خوي، الله يرضى عليك، اترك لبنان الآن. يركبه العناد. أوقفوه مرة ثانية. لم تدم إلا ثلاثة أيام. بعدها قرر الرحيل. استخرج وثيقة سفر. فوجئ بالخاتم: «غير مسموح بالعودة». بقي كضبع في قفص. يدور في البيت حول نفسه ينقضّ على كل من يقترب منه. ثم سافر.

يُلحُّ صادق لننتقل للإقامة معه ومع أسرته في أبو ظبي. أقول: لا بد أن نبقى هنا لمتابعة قضية أبيك. ونعرف مصيره. أكذب عليه، كنت سلَّمت بأن أمين ذهب مع الآلاف الذين قُتلوا في الأيام الثلاثة الأكثر ترويعًا من شهور الحرب الثلاثة التي مهدت لها في الشهر الرابع:

شهر المجزرة. يعود يلحُّ: لماذا تبقين وحدك مع مريم في بيروت؟! حرب الميليشيات تجعل المدينة غير آمنة. سيارة مفخخة هنا ولغم هناك واشتباكات في مكان ثالث وخطف في رابع وخامس. ارحميني يا أمي. أكاد لا أنام قلقًا عليكما.

الفصل الرابع والثلاثون

... على الخليج

فجأة قبلت. كأنني لم أراوغ طوال أربع سنين متعلِّلة بأسباب حقيقية أو أختلقها.

بطاقات الطائرة والجوازان في حقيبة يدي. حقائب السفر في خلفية سيارة أجرة تَقِلُّنا أنا ومريم إلى مطار بيروت. أعرف المطار، قاعة الاستقبال وقاعة توديع المسافرين. أعرف السور ولا أعرف ما وراءه. لم أركب طائرة في حياتي. لم أمدّ يدي بجواز سفر إلى ضابط مسئول كما يفعل الممثلون في الأفلام فيختم الوثيقة ويمضون باتجاه الطائرة. هل كنت أنتظر أن ينسحب الإسرائيليون من صيدا وينفتح الطريق لأزور قبر أمي وقبر عمي أبو الأمين؟ ذهبت إلى صيدا وودعتهما. عدت إلى بيروت. زرت قبر خالتي.

وأمين؟

هو الذي جاء يودّعني ليلة السفر. في المنام. ربما لم يكن منامًا لأنني لم أنم. قبَّل رأسي وأوصاني بمريم. بكيت. قبَّلت يديه.

مريم تثيرها فكرة السفر والطائرة ولقاء أخيها وأسرته والمدرسة الجديدة. تثرثر بلا انقطاع. حزام المقعد مُحْكَم الرباط. الطائرة تحلِّق فوق الغيوم. أتابع مسار الرحلة كأنني في مكان آخر. أتابع عن بعد. أسمع ثرثرة مريم ولا أسمع ما تقول. تحط بنا الطائرة. حين أخرج من بابها يفاجئني أن لا هواء. أين ذهب الهواء؟ تبدو بيروت في أشد أيامها رطوبة أرحم. لا وقت للاختناق. علينا الوقوف في الصف. تقديم وثائق السفر. استلام الحقائب. ثم اللقاء. صخب اللقاء. صادق ورندة والصغار. نهى صارت في السابعة، حملتها ركبتاها فبدت كأنها في عمر مريم. هدى التي كانت تتعثر في المشي والكلام في آخر لقاء لنا، أصبحت بنت مدارس تحمل حقيبتها وتذهب كل صباح إلى الحضانة. أمين الصغير الذي لم أره من قبل، بدأ يمشي وينطق ببعض الكلمات.

نصل إلى بيت صادق. قهوة. مائدة عامرة. قهوة ثانية. حديث. تصبحون على خير. تصبحان على خير. أنا ومريم في المكان المخصص لنا. يسميه صادق جناحًا. تنام مريم. أفتح الشرفة لأدخن سيجارة. لا هواء. أطفئها وأغلق الشرفة. صوت المكيِّف كصوت قطار مكتوم. لا بكاء. أين ذهب البكاء؟ أعود لفتح الشرفة. أدخِّن سيجارة. أدخل الفراش. أتساءل ما الذي يقوله صادق لو طلبت منه غدًا أن أعود إلى بيروت؟

أعتقد أن الوليمة في الأسبوع التالي لوصولنا هي التي حسمت الأمر. حسمته مبكرًا حتى وإن استغرقني اتخاذ القرار وتنفيذه سنوات.

أرادت زوجة صادق إكرامي. قَصَدَت خيرًا. أعلنت بعد يومين من وصولي أنها تقيم مأدبة على شرفي. دعت الأقارب والأصدقاء والمعارف لتقدِّمهم لي وتقدِّمني لهم. ثلاثة أيام وهي تأمر وتنهى وتوجِّه وتوزِّع التعليمات. وتشارك أيضًا في الإعـداد. في البيت خادمتان. فسّر لي صادق: الفليبينية متعلمة نعهد لها برعاية الأطفال. راتبها ضعف السريلانكية. إنجليزيتها ممتازة. السريلانكية، أتت من الريف ولكننا درّبناها وعلمّناها. وظيفتها تنظيف البيت والطهي. عندما جاءت كانت لا تعرف شيئًا، اللهم أكل بلدهم. ثم علمتها رندة فأصبحت ممتازة.

أردت أن أساعد ولكنني لم أجد لي موقعًا في المطبخ. تذكرت خالتي وزوجة عِزّ فابتسمت. كدت أضحك. الوضع يختلف. في اليومين السابقين للوليمة كانت سومانا وإيفلين تعدّان المطلوب منهما بإشراف رندة. في يوم الوليمة جاءت بنتان أخريان. لاحقًا سأعرف أن إحداهما خادمة أخت رندة والثانية خادمة ابنة خالتها. سريلانكية وأفريقية سمراء. ستخبرني رندة أنها من الصومال:

- زوجة أخي متديِّنة جدًّا ولا تقبل إلا خادمة مسلمة.

كدت أسألها عن علاقة التديّن بالأمر. لم أسأل. سألت عن اسمها:

- مسلمة.

- اسمها مسلمة؟!

- لها اسم آخر لكن زوجة أخي قررت أن تسمِّيها مسلمة. في

الواقع هي تسمِّي خادمتها مسلمة. الخادمة السابقة والأسبق أيضًا كانت تناديها بنفس الاسم. أسهل!

ضحكت رندة.

لا أذكر تفاصيل كثيرة عن تلك الوليمة. ربما تطفو تفاصيل من ولائم أخرى تختلط بها فلا أعرف إن كانت جزءًا من هذا اليوم أو أيام أخرى اكتظَّ فيها البيت بالمدعوين. صادق كريم وزوجته أيضًا. يولمان مرة كل أسبوعين أو ثلاثة، يدعوان الأقارب والأصدقاء وأصدقاء الأقارب والأصدقاء. وقفت الخادمات الأربع في الزوايا، تحت الطلب. يرتدين ملابس خاصة للمناسبة على ما يبدو. أثواب متطابقة اللون والتفصيل. تربط كل على خصرها مريلة بيضاء منشّاة. يدرن بكئوس العصير. يضعن الصحون. يرفعنها. يستبدلن بالمنافض التي امتلأت بأعقاب السجائر منافض لامعة نظيفة. مائدة الطعام ممتدة بصنوف الأكل، وعلى مائدة جانبية صفوف الصحون الصغيرة والكبيرة. يأخذ كلٌّ صحنه ويغرف ما يطيب له ثم ينتقل الضيوف إلى موائد صغيرة مربعة أو دائرية على كل منها مفرش أبيض مطرّز، مكويّ بعناية ومنشّا، عليه الشوك والسكاكين والملاعق والكئوس. يحمل كلٌّ صحنه ويجلس في المكان المعد على هذه المائدة أو تلك. يعيدون الكرَّة حين ترفع الخادمات الصحون وينتقلون ثانية لاغتراف الحلوى والفاكهة. في تلك الوليمة الأولى كان المشهد جديدًا عليّ في المُجمل والتفاصيل. قبل العشاء، أثناءه، بعده، والبنات يدرن بالقهوة والشاي والقهوة البيضاء، لم أفتح فمي بكلمة واحدة كأنني أصبت بالخرس القديم. بعد أن ذهب الضيوف، قال صادق معاتبًا:

- جاءوا للتعرُّف عليك. كان عليك أن تكرميهم بالحديث. كانوا راغبين في الاستماع إلى ما يحدث في لبنان.

بدا أنني لن أرُدّ عليه. فوجئت بنفسي أقول:

- أخبار لبنان في الصحف اليومية. ولو كانوا أميين يمكنهم متابعتها عبر الإذاعة والتليفزيون. هل كان بينهم أميون؟!

امتقع وجهه. لم يعلِّق. فترة صمت قطعتها:

- شكرًا يا صادق. شكرا يا رندة. تصبحان على خير.

انسحبت إلى «الجناح». كنت غاضبة. لأنني جرحت صادق وقد أراد إكرامي؟ غاضبة من المشهد؟ غاضبة من صادق الذي لم يفهم. لم يفهم. لماذا وهو ذكي لمّاح، أرادني أن أجامل ضيوفه بالحديث؟ لماذا؟ ألم يكن راغبًا في أن يستمتع ضيوفه بالأطايب التي بذلت فيها زوجته جهد ثلاثة أيام من الإعداد؟ غضب حين قلت لأهل زوجته يوم ذهبنا لخطبتها في عمّان إننا أولاد المُخَيَّم. تفصل بين الوليمتين ثلاثة حروب ومجزرة.

في البلد بحر. خليج مغلق نذهب إليه في سيارة مُكَيَّفة. السيارة تحملنا من هنا إلى هناك. السيارة دائما. المكيِّف على مدى الساعات الأربع والعشرين. بين النوم واليقظة قلت ستفقد ساقاي قدرتهما على المشي. ويداي؟

سأشغلهما. أنظر من بعيد: رُقَيَّة هناك في بيت صادق تعمل بلا توقف في شغل الصوف. بجوارها كيس من نايلون به كرات الصوف، كرة أو كرتان أو ثلاث، بين يديها إبرتان معدنيتان تحركهما

بآلية يشاركهما سبّابة وإبهام يدها اليمنى حين تلفّ الخيط بسرعة وبشكل متكرر. يعلّق صادق ضاحكًا. جميل يا أمي. ولكن شغل الصوف في بلد لا يلبس أحد الصوف فيه، مضحك!

أقول:

ـ أشتغل كَنْزَات لأولاد صاحباتي في لبنان.

أتممت سبع سُتْرَات صوفيّة أرسلتها إلى لبنان. ثم اشتغلت كنزة لحسن في كندا. وأخرى لعَبد في باريس. في المستقبل حين أتطلعّ إلى صور أحد الصغار في شاتيلا أو الأولاد أو الأحفاد وهم يرتدون الكنزات التي صنعتها لهم، أتوقف. أشرد لا لأنني سعيدة بأنهم يرتدون ما اشتغلته لهم فحسب بل لأنني أعرف أن شغل الصوف في تلك السنوات، كان أقرب لملجأ أحتمي به من القصف. أراجع نفسي. أقول حرام. تحت القصف يكون المرء مفزوعًا يعرف أن الموت يترصّد به. التشبيه لا يفي بالغرض. خطأ. وربما لا يكون التشبيه بالقصف بعيدًا عن الدقة. فالقصف يخيف ويزلزل وكذلك ذاكرة بيروت في العام الأخير من إقامتي فيها. الحصار والطائرات الإسرائيلية، حتى المجزرة بدت مفهومة. معقولة وإن لم تُعقل. الأعداء معروفون معيَّنون. تدرك أنهم يريدون التخلّص منك. مَحْوَك إن أمكن. فتحتشد، لأن الإنسان في المواجهة يَهمَّ للدفاع عن نفسه. ذبحتني حرب المُخَيَّمَات. في الأول بدا الأمر كأنه اقتتال عابر أحمق وسخيف كذلك الذي ينشأ فجأة بين شباب فصيلين فلسطينين. يبدأ بخلاف أو مشاجرة فيُشرع كل منهما سلاحه في وجه الآخر وبدلًا من الاشتباك بالكلام يطلق هذا النار على ذاك وتتحول الطوشة والزعرنة

إلى قتال. يا إلهي، قتال؟! قلت أول رمضان. انفلتت الأعصاب والتوتر المتراكم من ضغوط الأعوام الثلاثة الماضية. سيهدأون وتعود الأمور إلى مجاريها. لم تهدأ. استمر الحصار. أمل والجيش يقصفون شاتيلا. يقصفون مسجد المُخَيَّم. الشباب في المُخَيَّم يقصفون مواقع أمل. يا إلهي، كأن أبناء أمل صاروا إسرائيليين. كأن أبناء المُخَيَّم صاروا أعداء الشيعة. كأن الشباب هنا وهناك لم يقاتلوا معًا وتمتزج دماؤهم وراء متراس واحد. من المسئول؟ قيادة أمل؟ سياسات أبو عمار؟ سوريا؟ أذهب إلى أم علي أو تأتي إليّ. نحاول أن نفهم. غادرت بيروت ولم أفهم. غادرتها مهزومة وفي الحلق غُصَّة مُعَلَّقة لا ترحم. محشورة عند اللهاة لا تخنق فأستريح من الحكاية كلها ولا تحل عنك لتتنفس كباقي الخلق فتعيش.

أجترُّ ما حدث في المُخَيَّمات. أشتغل الصوف، حركة محمومة وآلية لا تتوقف لعلها تصرف العقل عن أسئلة تدفع إلى الجنون. جئت من بيروت بهم ثقيل. لماذا جئت؟

ولكن مريم سعيدة. تقول إن المدرسة أوسع وأجمل. يسعدها حياتها مع صادق وأسرته. تصاحب البنتين وتُدَلِّل الولد الصغير. تمارس عليهم الأمومة أحيانًا واستبداد القيادة أحيانًا. أما المسبح الذي استغربت وجوده في حديقة الدار فكان أشد ما يسعدها. كانت تحب السباحة وتسبح يوميًا. تأكل بنهم. وتكبر. لم تخرج عن قاعدة الزنبركات في الرُكَب. أقول، فليكن، مريم سعيدة، فليكن.

الفصل الخامس والثلاثون

سومانا

كيف بدأت صداقتي بسومانا؟ ولماذا صادقتها وظلّت المسافة قائمة بيني وبين إيفلين؟ هل لأن إيفلين كانت تكثر من كلمة «مَدام» فأرتبك. أم لأنها كانت تتقن الإنجليزبة وتتحدثها بطلاقة فأتعثَّر في الكلام واعية بإنجليزيتي المكسَّرة؟ كانت تذكِّرني بطبيبة آسيوية تعمل في مستشفى غزة دعاها أمين مع عدد من الأطباء الأجانب ذات ليلة للعشاء. ليلتها أيضًا اختُزل الكلام إلى حدِّه الأدنى. ما الذي أقوله وسط هؤلاء الأطباء؟ اقتصر التعبير على ابتسامة مرحِّبة و«أهلين» و«شرّفتونا».

فهمت من سومانا أن إيفلين معها بكالوريوس في العلوم، وأنها تخرجت من الجامعة في بلدها، وأنها تريد أن يكون واضحًا أنها مربّية الأطفال تعلِّمهم الإنجليزية، وأنها ليست خادمة. كانت تحفظ المسافات. مهذّبة وبعيدة. هل كنت منزعجة وإن لم أنتبه، أن مسئوليتها الكاملة عن الصغار تقف حاجزًا بيني وبين أحفادي؟ هل

كنت أغار منها، أم أنها الأرواح تتآلف أو تتنافر هكذا لأسباب لا أحد منا يعلمها؟

علاقتي بسومانا تختلف. نتواصل بإنجليزية مهشّمة من الطرفين ومطعَّمة أحيانًا بجمل عربية تعزّزها الإشارات كلما اقتضى الأمر. كررتِ: لا داعي لـ«مَدَام» هذه، فصارت تناديني بماما. تطلب مني أن أعلمها طبخة جديدة فأفعل. أو تقرفص بجواري لترى كيف أحرد الكتف في الكنزة الصوفية التي أشتغلها، وحين تكون رندة خارج البيت في زياراتها الصباحية لصديقاتها تبدو سومانا أكثر قدرة على التواصل معي. تصنع لي قهوة دون أن أطلب. وأحيانًا أجلس معها في المطبخ وهي تعدُّ الأكل.

كنت أجلس معها في المطبخ حين ذهبت إلى حجرتها وعادت بمظروف كبير. فتحته وأخرجت كومة من الصور، راحت تطلعني عليها.

صورة ملّونة لطفلين في العاشرة:

- أراويندا وساميندا. في الثانية عشرة.

- توأم؟

- توأم ولكن ساميندا أطول قليلا من أخيه. شوفي ماما...

كانا متشابهين. ولدان نحيلان أسمران تغطي جبهة كلٍّ خصلة من الشعر الأسود الأملس. يرتديان قميصين وشورتين متطابقين. حدّقت في الصورة. كان أحدهما أطول من الثاني قليلًا وأكثر نحولًا، يحيط كتف أخيه بذراعه. يضحكان للصورة.

ـ مثل القمر ربنا يخلّيهما لك.

صورة مُفْرَدَة لبنت في الخامسة أو السادسة:

ـ الأصغر، أمانتي.

لا تبتسم. ربما تحسُّبًا من فكرة التصوير. تحدِّق بعينين واسعتين قلقتين، وشعرها مربوط بشريطة بيضاء. ترتدي ثوبا أبيض جميلًا. قلت وأنا أبتسم:

ـ كأنها أميرة!

ضحكت سومانا بارتياح.

ـ الأم لا تحب ولدًا أكثر من ولد ولكنني أحيانًا أشعر أنني أحب أمانتي أكثر. أفتقدها أكثر.

قلت:

ـ لأنها الأصغر.

قالت:

ـ أردت بنتا وكان عليّ أن أنتظر. جاءني التوأم ثم الولد الثالث وأخيرا أمانتتي. لم أرهم منذ عام وتسعة شهور.

ثم صورة أخرى لطفل شديد الجمال. قالت:

ـ هذا هو الولد الثالث. شهقت أمي حين رأته. كان شديد الجمال. قررنا أن نسميه بادمان. بالهندي بادمان تعني زهرة اللوتس.

ثم صورة لسومانا تحمل ابنتها وهي رضيعة. تمتمت كأنها تعتذر:

- هذه صورة قديمة.

تبدو فيها صبية صغيرة وشديدة النحول. كأنها التقطت لها قبل عشرين عاما.

- وهذه صورة للعائلة مجتمعة: أمي وأبي. وهذا الشاب زوجي. والأولاد.

أردت أن أؤكد الألفة. قلت:

- هذا أراويندا وذاك سواميندا و...

ضحكت:

- ساميندا.

ببطء راحت تكرر الأسماء كأنها تريد أن تنقشها نقشًا في رأسي فلا أخطئ فيها:

- أراويندا. ساميندا. بادمان. أمانتي.

كررت وراءها:

- أراويندا. ساميندا. بادمان. أمينتا.

- أمان تي.

قمت إلى الموقد وملأت بكرج القهوة بالماء. لحقت بي سومانا، قالت بارتباك:

- آسفة.

ـ لماذا آسفة؟

ـ كان يجب أن أنتبه أنك تريدين فنجانًا من القهوة. سأصنعها لك.

ـ أنا أريد أن أصنعها.

غليت القهوة وصببت فنجانين. قدمت لها فنجانًا، تمتمت: «شكرا». ولكنني لاحظت أنها لم تشرب منه. قالت:

ـ زوجي يذهب إلى نساء أخريات وهذا يؤلمني جدًّا. أقول لا يصحّ. ينفي. يقول لا تصدِّقي أمك. ولكنه يعتني بالأولاد وحنون جدًّا معهم. ويصرف ما أرسله له عليهم. أمي تقول إنه يصرف أيضًا على صديقاته. لا أعرف من أصدِّق.

ـ ماذا يعمل زوجك؟

ـ يصلح درّاجات. في المنطقة يستخدمون الدرّاجات كثيرا. ولكنه يقترح أن يشتري موتوسيكل ليتمكن أن يعمل عملًا إضافيًا يدرّ عليه المال. ينقل السمك إلى السوق، أو خضرة.

ـ في بلدكم بحر أليس كذلك؟

ـ قريتنا تقع على البحر. بيتنا على بعد خطوات منه.

حين عدت إلى حجرتي قررت أن أكتب أسماء أبناء سومانا الأربعة لكي لا أعود إلى الخطأ فيها. نسيت اسم الولد الثالث. كتبت لوتس. وعندما عادت مريم من المدرسة قلت لها اسألي سومانا عن اسماء أبنائها. وحين تقول لك اسم الولد الثالث تذكّريه جيدًا. لا تقولي

إنني سألتك. ضحكت مريم وسألتني: هل قررتِ أن نسمي ابن صادق القادم اسم سريلانكي؟! كانت تمزح. لم أرتح للملحوظة.

لاحقًا سوف أسأل سومانا عن بحر بلدهم. فهمت بعضًا مما قالته ولم أفهم البعض الآخر. كنت أريد أن أسمع منها عن رائحة البحر هناك، عن الزهور. قلت فلاورز؟ لم تفهم. قلت في بلدك زهور. مثل هذه؟ أخذتها إلى المزهرية الكبيرة حيث باقة من الورود الصناعية. قالت أسماء. لم أتعرَّف على أيٍ منها. ولكنها لم تنس السؤال لأنها بعد أسابيع حملت لي مجلة سريلانكية وأطلعتني على صور زهور. قالت هذه موجودة في قريتنا. هذه لا. ثم صفحة أخرى: هذه وتلك أيضًا تنبت بالقرب من البحر. وهذه الطيور.

تكتب سومانا إلى أهلها بانتظام. مرة في الأسبوع تمدُّ يدها لصادق بمظروفين مغلقين. يأخذهما صادق منها. وتظل تنتظر عودة صادق لا لتطمئن أنه أودع المظروفين البريد بل لأنه ما دام سيذهب إلى البريد فقد يجد رسائل من أهلها في الصندوق. في الغالب يأتي لها برسالة. ولكنه أحيانًا يقول: آسف يا سومانا لم يصلك شيء. تشكره وتبتسم ابتسامة مُجامِلة.

وفي يوم بدت آثار البكاء على عينيها. سألتها قالت: لا شيء. سألت رندة. قالت: وبختها لأنها كسرت صحنًا وحرقت حبات الكبيبة وهي تقليها. وفاتحة مناحة منذ ليلة الأمس لأن أمها أرسلت لها رسالة تقول فيها إن زوجها يقيم مع امرأة أخرى. إيفلين أخبرتني. هكذا الرجال لا تؤتمن. وما دامت تخشى على زوجها كان عليها أن تبقى بجواره! على أي حال ناديتها وقلت لها إن العمل لا دخل له

بالأمور الشخصية. قلت لرندة: وهل لو جاءها خبر بأن أولادها الأربعة ماتوا في حادث سير، يُسمح لها بالبكاء أم عليها أن تحرص على تقديم كُبَّة غير محروقة؟! فوجئت رندة بكلامي. حملت حقيبة يدها وقالت إن لديها موعدًا مع مصفِّف الشعر.

كنت حادة. أعترف أن رندة وصادق احتملا حِدَّتي. كانت حِدَّتي تفاجئني. لم أكن أتكلم كثيرًا. أفاجأ بالعبارة التي نطقتها تمامًا كما يفاجأ بها صادق أو رندة. صادق يحاول. أحيانًا يقول بنا يا أمي. إلى أين؟ يأخذني بسيارته. غالبًا ما نذهب إلى مقهى مكيّف. وفي شهري الشتاء حين يتراجع القيظ والرطوبة يقود سيارته إلى بقعة من الشاطئ يمكننا أن نمشي على الرمل. نخلع نعالنا ونسير متجاورين. أحيانًا تنفك عقدة لساني فأحكي لصادق، وهو أيضًا يحكي لي.

الفصل السادس والثلاثون

درس في الأخلاق

قلت لمريم:

- أريد أن أتحدث معك. لا تذهبي إلى النادي مع صادق وأولاده غدًا صباحا. سنجلس ونتحدث.

- عقاب؟

- ليس عقابًا، بل حديث قد يحتاج وقتًا.

- ولماذا يكون صباح الجمعة. لنتحدث الآن أو الجمعة مساء؟

- أريدك صباح الجمعة.

- ماما، الحديث لن يطير. وأنا أنتظر يوم الجمعة من الجمعة إلى الجمعة لأذهب إلى النادي وألتقي بصاحباتي.

أنهيت الكلام بحسم:

- لا نادي هذا الأسبوع.

تركتني وهي تبرطم احتجاجًا، ولكنها امتثلت.

سيذهلني أن مريم وهي تسترجع ما جرى وتنقله إلى أخيها تتذكر تفاصيل الحوار بالنقطة والفاصلة. كانت تحكي لعَبد في وجودي وبعد أكثر من عشر سنوات. تطعِّم كلامها بالتعبيرات المصرية التي التقطتها منذ انتقلنا معًا للإقامة في الإسكندرية.

حكت مريم:

- زنقتني في الحجرة و«فين يوجعك». درس في الأخلاق والتاريخ والجغرافيا وشجرة العائلة: أبوك كان... جدك أبو الصادق كان... أخوالك... جدك أبو الأمين كان... واللازمة: نحن فلسطينيون. لاجئون. أولاد مخيم. ويا ماما ماذا فعلت؟ قالت إنها لاحظت أنني أتعالى على الشغّالة السريلانكية وأنني بدأت أتصرف كما تتصرف البنات هنا في الخليج. ولو كانت إقامتنا هنا سوف تحوِّلك إلى واحدة منهن سنعود إلى لبنان. نعود إلى صيدا ونسكن عين الحلوة فيربِّيك المُخَيَّم ويعرِّفك من أنت. وكلام كبير يا عَبد. وأختك لايصة. لا تفهم لماذا أمها غاضبة إلى هذا الحد. كان عندي ١٢ سنة. لا أفهم طبيعة الجريمة. وهي نصبت المحكمة واشتغلت مدّعي وقاضي. وعينك ما تشوف إلا النور.

تدخَّلتُ في الكلام:

- كُفِّي عن مبالغاتك. كل ما فعلته أنني نبهتك أنك تنزلقين إلى أسلوب حياة لا ننتمي إليه ولا يجوز أن ننتمي إليه. لا أذكر

التفاصيل. ولكنني أذكر أنني سمعتك تنادين على سومانا بلهجة آمرة وفزعت. لم أنم طول الليل.

ضحك عَبِد:

ـ تخرجنا من هذا المعهد من قبل. الكتاب نفسه والدروس هي نفسها!

قالت مريم:

ـ كنتم ثلاثة. بإمكانكم الفضفضة لبعضكم البعض. وأنا مسكينة. أشكي لمين؟

ـ فاتن حمامة ولّا شادية؟

ـ فاتن، يتيمة ومظلومة.

ـ وماما؟

ـ ميمي شكيب، زوجة أبي. سمينة تلثغ في حرف الراء وترتدي ملابس أضيق مما ينبغي فيبرز حجم ردفيها وثدييها وتطلق شعرها مشعثًا قصدًا ومصبوغًا بأصفر ناري، وتضطهدني!

راحا يقهقهان. ثم انتبهت مريم أنها زادتها فقفزت من مقعدها وأحاطتني بذراعيها وقبّلت رأسي. مالت على أذني وقالت: شكرًا. كنت على حق.

كنت خائفة. هذا مؤكد. وكانت الغربة تزيدني فزعًا. ربيت الأولاد على قدر استطاعتي. أمسكت بيد كلٍّ وقطعت به الطريق من طفولته إلى شبابه دون حوادث مؤسفة. الآن صار كلٌّ مسئولًا عن نفسه. بقيت مريم. أريد أن أربِّيها كما يجب. هل كنت أخاف عليها فقط أم أنني كنت

أخاف أن تذهب إلى المعسكر الآخر فتتركني مُفْرَدَة في غربتي. غربة مطلقة كاملة شاملة في بيت من طابقين تعمل فيه خادمتان أتيتا من الشرق الأقصى، وتتكلف وليمة واحدة من ولائمه ما يكفي للإنفاق مدة عام أو ربما عامين على أسرة كبيرة من أسر المُخَيَّم.

لم أكن أختلي بصادق كما أختلي بمريم لأربّيها. مهمتي ودوري في الحياة أو ربما معنى الحياة الآن، مريم. أما صادق فكان الموقف منه ملتبسًا وغريبًا. أتأمله فأبدو أنني دخلت متاهة. أضيع. مهندس معماري ومقاول ناجح في عمله. تتوسع شركته يوما بعد يوم وتُدرُّ عليه أموالا تفوق قدرتي على التعامل مع الأرقام. يساعد شقيقيه. ينفق على أخته وعليّ. يتبرع لهذه المؤسسة الفلسطينية أو تلك. يلتزم بتعليم ثلاثة شباب من عين الحلوة. يتابع تعليمهم حتى يتخرّجون ويؤمِّن لهم وظيفة. ثم يتبنّى غيرهم. ما مأخذي عليه؟ اجتهد وساعده تعليمه وفطنته وحظه. باختصار جد في بلاد النفط فوجد. ما المشكلة؟ ما المأخذ؟ حكِّمي عقلك يا رُقَيَّة ولنحسب الأمور بهدوء: هل كنت تفضلين أن يختنق في الخزان فلا يصل إلى أرض النفط؟ أن يبقى في عين الحلوة يبحث عن عمل فيصطدم بالقوانين ولا يجد؟ أن يحمل السلاح وينتهي به الأمر في مكتب من مكاتب تونس، أو عنصرًا محاصرًا في معسكرات في اليمن والجزائر لا يجد سبيلا للالتقاء بزوجته وأولاده؟ أقفز فوق المتاهة أو أتسرب خارج جدرانها. تلاحقني. تتسع. تضرب بجدران جديدة على الحيِّز الذي خرجت إليه. وفي عين الحلوة ألا تخنقهم الغربة. ترى أين هَنِيَّة الآن؟ هل وجدت عملا في مكان آخر أم اضطرت لإنكار أنها فلسطينية لتجد عملا في أحد مستشفيات بيروت. أين أذهب؟ أين نذهب؟

الفصل السابع والثلاثون

أبو محمد

صدفة. صدفة محضة جمعتني به.

أوصلنا صادق لمجمّع تجاريّ كبير لشراء بعض الأغراض لمريم. قال إنه سيعود لاصطحابنا إلى البيت بعد ساعتين. أشار علينا بمقهى في الطابق الثاني يمكننا الجلوس فيه للراحة أو لانتظاره إن انتهينا من المشتريات قبل عودته.

في أقل من نصف ساعة كنت اشتريت لمريم ما تحتاجه. هبطنا إلى الطابق الثاني واتجهنا إلى المقهى. ما إن دخلنا حتى لمحته. كان يجلس مُفردًا. على رأسه حطَّة ويرتدي قُمْبَازًا وحزامًا جلديًا على خصره وفوق القُمْبَاز الجاكيت، مثل أبي وعمي أبو الأمين. جلسنا إلى طاولة مجاورة. طلبت لمريم آيس كريم كما أرادت ولنفسي فنجان قهوة. قلت قد لا يكون فلسطينيًا، ربما كان سوريًا، من الريف. ولكنني رجّحت أنه فلسطيني. بدا وجهه أليفًا يشبه العديد من الخِتيارية في عين الحلوة وصبرا وشاتيلا. كان بين الستين والسبعين وربما أكبر ولا يبدو عليه

العمر. نحيل وطويل، وجهه معروق أسمر وجبهته عريضة وله نظرة ثاقبة في عينين حاضرتين رغم بروز عظمتي الحاجبين وكثافة شعرهما الأبيض. غضضت الطرف. ما الذي يقوله الرجل وأنا أحدّق فيه هكذا؟

ـ نعم يا مريم.

قالت محتجة:

ـ أكلمك ولا تسمعين!

ـ نعم، ها أنا أسمع.

عادت تثرثر. لم أكن أتابع ما تقول إلا قليلا. قاطعتها:

ـ هل ترين هذا الرجل الذي يجلس عن يميننا؟

أشارت بيدها:

ـ هذا الرجل؟

كتمت الضحك:

ـ يا مريم. متى تكبرين؟! لا يصح أن تشيري إليه هكذا. أردت أن أقول لك إنه يُذَكِّرُني بجدك أبو الأمين.

تطلعت إليه مريم بشكل مباشر.

ـ لا تتطلعي هكذا، سينتبه أننا نتحدث عنه!

انتبه، وربما أُحرج فأراد أن يبدِّد الحرج بالتحية:

ـ مرحبا.

قلت:

- مرحبا أهلين.

قال:

- وصلت أبو ظبي بالأمس. حمّلني أحد المعارف رسالة لابنه. اتصلت به تليفونيًّا ما إن وصلت. قال ألتقي بك في المُجَمّع التجاري، في المقهى الذي في الطابق الثاني. مرّت نصف ساعة على الموعد الذي حدّده لي. ولم يظهر. هل هناك مقهى آخر في هذا الطابق؟

ركضت مريم إلى أحد العاملين في المقهى وسألت. عادت إلى مقعدها:

- هناك مقاهٍ متعددة في المجمّع لكن هذا هو المقهى الوحيد في الطابق الثاني.

- لا مشكلة. أنتظر.

سألته مريم:

- هل تسكن في لبنان؟

ابتسم:

- أنا فلسطيني. لم أزر لبنان في حياتي. جئت من الضفة الغربية، لزيارة ابني. أسكن في جنين. أنا أصلا من الطَّنْطُورَة. هل تعرفين يا بنت أين الطَّنْطُورَة؟ إنها...

هل صحت؟ هل هتفت؟ هل ضحكت؟ هل شردت في أنني ما

كنت أتطلّع إليه هكذا لولا أنني تعرّفت عليه رغم أنني لا أعرفه، لأن الدم يحنّ؟ دعوته للجلوس إلى طاولتنا وانفتح باب الكلام.

حين جاء صاحب الرسالة واصطحب أبو محمد للجلوس إلى طاولة أخرى، بدا لي الشاب متطفلاً يعطِّل لقاءنا بلا وجه حق. بقيت أنتظر. أتطلع في الساعة كل عدة دقائق لأكتشف أنه لم يمر سوى عدة دقائق. لِمَ لا يأخذ الشاب رسالته ويمضي؟ لِمَ لا يترك لي أبو محمد لأسأله إن كان يعرف أبي. إنه أصغر من أبي، ربما بعشر سنين. ربما كان من مجايليه وإن لم يبد عليه سنه. كيف نفد من المذبحة؟ ربما لم يكن في القرية ليلة السبت على الأحد. أين كان؟ هل فقد أحدًا من أسرته؟ لماذا يطيل صاحب الرسالة الجلوس مع أبو محمد. جاء منذ ساعة وعشر دقائق ولا يبدو أنه يستعد للذهاب. تسلمّ الرسالة، فما الذي يريده الآن؟ وماذا لو أخذه معه؟ ربما تقتضي الحكمة أن أقوم الآن وآخذ رقم تليفونه أو طريقة الاتصال به. هل سيقيم في أبو ظبي أم جاء في زيارة عابرة؟ كنت أزداد توترًا. ومريم تشكو من أنني لا أتابع ما تقول. أقول: أسمعك يا مريم. أسمع. ولكن كلامها يمر بأذني حفنةً من الأصوات لا يترجمها الرأس لأي معنى.

وأخيرًا ظهر صادق. عرَّفتُه بأبو محمد. تحدّثا لدقائق ولم نغادر المقهى إلا بعد أن دعاه صادق لزيارتنا مع ابنه، وتبادل معه أرقام التليفونات.

في اليوم التالي ونحن نتناول الغداء قال صادق موجِّها كلامه إليّ:

- مصادفة أعجب من مصادفة الأمس. محمد ابن أبو محمد يعمل محاسبًا عندنا في الشركة. شاب في الثلاثينيات. المأزق

أنه لم يسبق أن دعوت أيًّا من الموظفين، والآن ستبدو المسألة عشائرية. أدعوه لأنه من بلدنا.

تطلّعت في صادق:

- أين المأزق؟ وكيف تكون عشائرية إن دعوت شخصًا من قريتك تريد التعرّف عليه؟

ضحك صادق. بدا موزَّعا بين الحياء والكِبر.

- يا أمي، ابنك مدير الشركة!

- يعني؟

- يُمْكِن أن أدعو الموظفين في مناسبة ما. لكنني لا أخصُّ موظفًا صغيرًا بدعوته إلى بيتي إلا لو كان أخي أو ابن عمي.

قلت:

- اعتبرهما عمك وابن عمك!

- المشكل أن زملاءه قد يشعرون بتفرقة.

ضحك فجأة بما لا يخلو من ارتباك:

- هل أُفَسِّر الأمر بأن أمي تريد أن تلتقي بأبو محمد لأنه من الطَّنْطُورَة؟

لم أرتح للكلام ولا فهمت ما المقصود منه.

بعد زيارة أبو محمد وابنه لنا، حرصت على ردّ الزيارة. اصطحبت مريم معي وتعرّفت على زوجة محمد وطفليها ثم دعوت الجميع على

الغداء في بيت صادق. قلت أنا سأطبخ. أعددت وليمة لائقة بأبناء بلدنا. لم يبد صادق مُرَحِّبًا بسلوكي أو ربما رأى فيه اندفاعًا غير مبرر أو مفهوم. هذا ما التقطته وإن لم يضف شيئًا إلى ما قاله سابقًا. لكنني قررت أن أترك له ارتباكه وقلقه وأفعل ما أريد. أزورهم وأدعوهم إلى البيت. ويوم سفر أبو محمد إلى عمّان، اصطحبني صادق على مضض إلى المطار لكي نُوَدِّعُه. قال صادق:

- ألم تودعيه بالأمس. أرسلت لك السائق كما طلبت، لم تذهبي؟

- ذهبت.

ابتسم:

- نسيتِ تعطيه الكنزة الصوفية التي اشتغلتِها لوِصَال؟

- أعطيتها له. أوصيته أن يبحث عنها ويعطيها لها.

- إذن؟

كان يتطلع فيَّ باستغراب. قلت:

- صادق الله يرضى عليك، أريد أن أودّعه في المطار.

- حاضر.

الفصل الثامن والثلاثون

حديث المُعتقل

حدّثني أبو محمد، قال:

كنت بين الأربعين الذين أوقفوهم عند الحائط. لم أعد أذكر إن كنت نطقت بالشهادتين وسلّمت أمري لله أم كنت متشبثًا بأن الله قادر على كل شيء يبدّل من حالٍ إلى حال، في لمحة عين. لا أذكر إلا أننا كنا نقف ونرفع أيدينا كما أُمرنا. وجهنا للحائط، نكاد نرى ما يجري وراء ظهورنا: البنادق المُشْرَعَة في اتجاهنا، والوجوه الحاقدة والنظرة الخائفة المتعطّشة للدم. نعم يا ست رُقَيَّة كانوا خائفين، وإلا كيف تفسِّرين كل هذا القتل بعد أن انتهت المعركة لصالحهم، واستحلّوا البلد وقتلوا من قتلوا؟ كانوا يتحدثون بأعلى أصواتهم. كأنهم في صحراء أو كأنهم يعتقدون أن كل من حولهم به صمم. يصيحون ويسبّون ويلعنون ويدفعون هذا بكعب البندقية ويضربون ذاك على رأسه. كنا نقف بالقرب من المَرَاح، قلب البلد الذي سكنته فجأة رائحة غريبة تغلب على رائحة البحر. ثم فجأة قالوا ياللا ياللا. وساقونا تحت تهديد السلاح إلى الشاحنات، نحن الأربعين الذين

كان مقررا إعدامنا عند الحائط، وآخرين من أهل البلد. حشرونا في الشاحنات حشرًا كالأغنام، وأخذونا إلى مستوطنة زِخْرون يعقوف في زُمّارين. كنا عدة مئات. ربما ثلاثمائة رجل وربما أربعمائة.

لماذا لم يقتلونا عند الحائط؟ البعض يقول أن يعقوب المختار، مختار زِخْرون يعقوف هو الذي أنقذنا. يقولون إن خِتْيَارًا من أهل بلدنا من معارفه كان يقف في طابور آخر للإعدام وإنه قال ليعقوب حين رآه: «يا ابو يوسف، بلد وسقطت، وسلاح وأخذتوه. شو فيه بعد أكثر من هيك؟» فقال له يعقوب: «بدنا نحاول نصالحكم ع الهاجاناه حتى نستطيع وقف القتل». يقولون إن المختار غادر القرية وعاد بأمر مكتوب بوقف القتل. ويقولون إن بعض أهالي زِخْرون يعقوف الذين كانت تربطهم بأهالي البلد علاقة جوار تدّخلوا. والبعض يقول إنهم أرادوا وقف القتل لأنهم يحتاجوننا للعمل في مستوطناتهم. ويقول البعض إنهم أرادونا أحياء لأن عبد الله التلّ كان قد أسر ٣٠٠ منهم في معركة كفار عَتْسِيون قرب القدس، وأرادوا مبادلتنا. الله أعلم.

المهم، أنزلتنا الشاحنات في زِخْرون يعقوف، عند مبنى كان مركزًا للجيش الإنجليزي. وحبسونا كل ٣٠ في غرفة ضيقة رطبة مظلمة، لا تتسع لنا إلا وقوفًا. قضينا في هذه القبور الجماعية ثلاثة أيام بلا طعام إلا الضرب بكعوب البنادق والشتائم والإهانات.

لا يخفى عليك يا ست رُقَيَّة أن حالتنا المعنوية كانت سيئة جدًّا. البلد سقط. ورأينا بأعيننا أكوام الجثث. بل إن أربعة منا كانوا طلبوا منهم نقل بعض الجثث ودفنها في حفر كبيرة. وكان كل من شاهد

شيئًا يحكيه. حكى البعض أنه رأى مجموعات من أهالي زِخْرون يعقوف يطوفون بالبلد، والجثث في كل مكان، ويغنُّون ويصفِّقون، وأن آخرين كانوا يفعلون الشيء نفسه في مراكب في البحر قريبا من الشاطئ. كانوا يحتفلون. ومن يقول رأيت جثة فلان. سقط فلان قتيلًا أمام عيني. رأيت أبو فلان وأخاه وأولاد أخيه الثلاثة مقتولين بالقرب من الجامع. الذين استشهدوا في المعركة كانوا قليلين. في الواقع مات منهم أكثر ممن مات منا، لذلك أيضًا كانوا خائفين ومتعطّشين للقتل. ولكن غالبية من استشهدوا قُتلوا بعد تجريدهم من السلاح، بعد انتهاء المعركة. ثم إننا رأينا النساء والأطفال والرجال المسنين في الشاحنات ولم يعرف أحد منا إلى أين يأخذونهم. وشهد شخص معنا أن الجنود الإسرائيليين تعدّوا على بنت أمام عينيه ولما حاول أبوها حمايتها قتلوه. لا أحد يتكلم الآن عن اغتصاب البنات لأنه موضوع جارح والأهل لا يرغبون في الخوض فيه. لكننا علمنا من بعضنا ونحن معتقلون في زِخْرون يعقوف. كان عندي ٢٢ سنة ولم أكن تزوجت ولكن كان عندي أربع أخوات. لك أن تتصوري حالتي ومخاوفي. كنا جميعًا نفكر في الولايا. يعني موت وخراب ديار وذل ما بعده ذل. كل هذه الأمور يا ست رُقَيَّة كانت ثقَّالات من حديد. يأس مفزع لم أعرف له مثيلًا لا من قبل ولا من بعد، اللهم في العام ١٩٦٧. اعتقلت مرتين بعدها. لم أكن يائسًا رغم أنني كنت أكبر سنًا ولي أسرة وأولاد أحمل همّهم. في السبعينيات سُجِنْت خمس سنوات. وفي الانتفاضة اعتُقِلْت ستة أشهر. وفي الحالتين كنت جزءًا من مجموع مؤمن أنه قادر. كنا جزءًا من تنظيمات تقاوم. كان في المعتقل حياة لها معنى، لا تخلو من الأمل

ولا من لحظات الارتياح والرضا بل البهجة. في الثمانية والأربعين ونحن في المعتقل كان الوضع مختلفًا كل الاختلاف. كان اليأس كاملًا والحياة ضيقة ومظلمة ورطبة وخانقة كالحجرة التي حُشرنا فيها.

بعد عدة أيام شحنونا مرة أخرى إلى أم خالد. هل تعرفين أين أم خالد؟ قرية في قضاء طولكرم، في منتصف الطريق بين الطَّنْطُورَة ويافا، على خط نتانيا، بالقرب من البحر. كانوا استحلّوها وطردوا أهلها. حبسونا داخل أسلاك شائكة وكانوا يأخذوننا للعمل بالسُّخرة في المحاجر من طلعة الشمس حتى الغروب. نقطع الأحجار ونحملها على ظهورنا لنقلها إلى الأماكن التي يُعَيِّنونَها. غريب أننا احتملنا. أقصد لا أعرف كيف احتملت أجسادنا لأنهم كانوا يعطوننا حبة بطاطا واحدة في الصباح ونصف سمكة مُقَدَّدَة في المساء. وكان يضربوننا ويهينوننا.

ثم عادوا ونقلونا إلى معسكر اعتقال كبير في إجليل، في الطريق بين أم خالد ويافا. وبدلًا من العمل في المحاجر صاروا يسوقوننا إلى القرى التي استحلّوها وهدموا بيوتها لننقل حجارتها. كنا نحمل حجارة بيوت أهلنا لكي يستخدموها هم في بناية مستوطناتهم. وشغّلونا في بناء استحكامات، استحكاماتهم العسكرية، وفي دفن جثث الشهداء العرب. أخذونا إلى قاقون حيث دارت معركة بينهم وبين الجيش العراقي انتصروا هم فيها. وكان علينا أن ندفن عشرات الجثث. أحصيناها. تسعون جثة. عجيب أمر الإنسان، والله عجيب. منذ خرجت من بلدنا لم أبكِ. ولكنني بكيت في ذلك اليوم وأنا أدفن الشباب العراقيين. كنت حزينًا على الشباب ونافرًا من رائحة جثثهم،

يزيدني هذا النفور اضطرابًا، أقول كيف؟ إنهم شهداء. أدفن وأبكي. أنتحب بالصوت المسموع. أذكر من دفنتهم. أذكر وجوههم جميعًا. ولكن وجهًا بالذات يأتيني أحيانًا في المنام. يحدّثني. ولكنني عندما أستيقظ لا أذكر من الحديث أي كلام. وإن كنت موقنًا أنه حديث طويل.

وفي إجليل وصلت شاحنات تحمل مئات الرجال. كان واضحًا أنهم لم يتناولوا شربة ماء لأيام. أنزلوهم عند صنبور واحد من الماء. تدافعوا عليه فأطلقوا عليهم النار فمات منهم من مات. عرفنا لاحقًا أن هؤلاء الرجال أسرى من اللِّد والرملة.

وكان هناك أسرى مصريون في إجليل منهم الطيار الذي سقطت طائرته في تل أبيب صباح يوم ١٥ آيار، فكان أول أسير مصري، يحمل رقم ١، لذلك لم أعد أذكر اسمه. كنا نسميه الأسير رقم ١. وكان هناك طيار آخر اسمه عبد الرحمن عنان كان قائد سرب من خمس الطائرات أغارت على منطقة قرب حيفا في الأسبوع التالي. وكان الجو رديئا حتى أنهم أقلعوا من العريش ثم عادوا لسوء الأحوال الجوية. ثم جاءهم أمر بالإقلاع ثانية. يقول عنان إن البريطانيين هم الذين أسقطوا الطائرات الخمس وإنه هو الوحيد الذي قُدِّر له الحياة. كانوا يعاملون الأسرى المصريين بقسوة مثلنا. وحكى عنان لأحد زملائنا أن الجندي الإسرائيلي انتزع منه مصحفًا صغيرًا كان يحمله وألقى به على الأرض وراح يدوسه بقدميه.

وفي إجليل استطاع ٢٥ شابًا من شباب الطَّنْطُورَة الهرب. اكتشفوا

الأمر في الصباح فهاجوا هياجًا شديدًا. ضرب وسب وإهانات. بعدها أعادونا إلى أم خالد ومنها نقلونا إلى صَرَفَنْد، بالقرب من الرملة. معسكر كبير فيه ما يقرب من ١٥٠٠ معتقل. وكان في صرفند أسرى آخرون من الجيش المصري. ضباط وجنود. فصلونا عنهم ولكننا كنا نجد طرقًا للاتصال بهم. كنا نهوّن عليهم وهم يشدّون أزرنا. في الأسر يحنُّ الأسير على الأسير.

وفي صَرَفَنْد وصل ممثلون للجنة الدولية للصليب الأحمر. سجّلوا أسماءنا. أخبرونا أننا أسرى حرب تنطبق علينا اتفاقيات جنيف. أطلعونا على حقوقنا. سمحوا لنا بكتابة رسائل إلى ذوينا. لا تزيد الرسالة على ٢٥ كلمة. بعدها تحسَّنت المعاملة قليلًا. شغَّلونا عمالًا زراعيين نقطف لهم الثمار من الأراضي العربية التي استولوا عليها. وفي مقابل العمل، أعطوا كلًا منا بطاقة تمكنّه من الحصول على بعض المأكولات من الكانتين لأن طعام المعتقل كان قليلًا جدًّا لا يسدُّ الجوع.

خرجت من المعتقل بعد عام ونصف.

كنت محظوظًا. بعد شهرين من خروجي من المعتقل وجدت أهلي وكانوا في دمشق. كانوا في وضع قاس جدًّا ولكنهم كانوا جميعًا أحياء: أمي وأبي وأخواتي الأربع والولدان الصغيران. كانوا جميعًا ضمن من شُحنوا إلى الفريديس. وبالصدفة، صدفة سعيدة، لم يمت أي منهم لا في المجزرة ولا من الجوع والرحلة الشاقة التي تلت. قضينا في الشام عامًا ونصفًا ثم انتقلنا إلى جنين. انتقلت أختي مع زوجها ثم

أرسل زوجها يقول إنه استأجر بيتًا في جنين وإن ربنا منعم ومتفضل، ويطلب منا اللحاق به. وفي جنين الله فرجها. تعاونت مع زوج أختي على إعالة الأسرة. زوَّجت أخواتي البنات وعلّمت أخويّ.

ابتسم أبو محمد، ربما لأول مرة منذ بدأ الحديث وقال بنبرة اعتذارية: لهذا تأخرت في الزواج. لم أتزوج إلا بعد أن أمَّنت أخواتي البنات وتخرَّج الولدان من المدرسة الثانوية. بعدها تزوجت وربنا أكرمني بمحمد ثم باقي الأولاد.

الفصل التاسع والثلاثون

فَرَح

لم يكن الخيالُ ليصل إلى بيريُوس، مهما حلَّق أو جنَّح أو تعثَّر وضلّ الطريق. كيف يصل ولا سابقَ معرفة بها أو بموقعها أو حتى باسمها؟!

على عادته. بدأ صادق بالاعتراض. قال:

- كيف يا خوي؟ هل تبقى باقي عمرك في كندا؟ لو تزوجتها لن تستطيع الإقامة معك لا في لبنان ولا في الخليج ولا في أي بلد عربي، اللهم إلا مصر. وفي مصر لن يعطوك إقامة أو إذن عمل. وكلما توتّرت العلاقة بين الحكومة المصرية وأبو عمّار لا يسمحون لنا بالدخول. والله مشكل كبير يا خوي.

ساق صادق حُجَجَه. كوَّمها أمام أخيه وقال: مستحيل! طالت المكالمة. أعقبتها مكالمة ثانية ثم ثالثة. أخذ ورد. وشد وجذب. بعد يومين وافق صادق.

أخبرني حسن قبل أن يخبر أخاه. لم يشر لموضوع الزواج. حدَّثني عن البنت. قال سأرسل لك رسالة مفصّلة. فهمت:

- أقول مبروك؟

سكت فتأكدت. قلت:

- ربنا يُتَمِّم بخير.

جاء صوته متلعثمًا:

- هناك مشكلة.

- ما المشكلة؟

لم يخطر الأمر ببالي. وَمَض برأسي احتمال أن تكون أكبر منه، مطلَّقة ولها أطفال. أو متزوجة ولم تحصل على الطلاق بعد. لا يمكن أن تكون أجنبية. اسمها فاطمة.

- من اللِّد.

- ثم؟

- أقصد أهلها ما زالوا يقيمون هناك. لن نتمكن من الذهاب إليهم لخطبتها. ولن تستطيع أن تأتي معي لتتعرف عليكم.

لم أتمثَّل الأمر لأنني قلت:

- أهل رندة يقيمون في نابلس. التقينا بهم في عمَّان. ألم نكتب كتاب أخيك في عمَّان؟ محلولة يا حبيبي، وإن شالله خير. أنتظر رسالتك المفصَّلة. أرسل لي صورتها. مِنْ دار مَنْ في اللِّد؟ عندها كم سنة؟ تدرس أم انتهت من دراستها؟ ما هو تخصصها؟ أطلت عليك. لا تقلق. مبروك ألف مبروك.

اندفعت في سيل من الأسئلة. لم أستوعب وجود مشكلة حتى بعد أن وضعت السماعة، ولا توقفت للتساؤل عما يقلق حسن. أثارني الخبر وغمرني بفرحة لم تترك مجالًا للتفكير في التفاصيل.

صادق صاحب التفاصيل. ينهمك فيها. يبدأ بلا. قاطعة. ثم ينتهي بالتسليم بما يريده إخوته. وينهمك في تنفيذ ما أرادوه بحماس كأن الفكرة فكرته أوكأنه لم يعارضها.

تطلّعت إلى صادق. كان يجلس في المقعد المقابل، وعلى عينيه نظارة القراءة وبيده قلم ودفتر. كان يخوض في التفاصيل. رفع عينيه قال: قبرص أو اليونان. لا أرى حلًّا آخر. أمسك بسماعة التليفون. اتصل بحسن: «ما رأيك.. نلتقي في اليونان؟ في بيريُوس. نعم نقيم العرس هناك. أسبوع. لا. طبعًا لا. أنا الكبير سأتكفَّل بالأمر. بطاقات السفر والإقامة وليلة العرس. هذه مسئوليتي. الله يرضى عليك يا حسن لا داعي لهذا الكلام. أنا الكبير. انتهينا. هذا موضوع خارج النقاش. المهم الآن الترتيبات: عليك أن تتصل أولا بعمك عِزّ في تونس، تستأذنه وتحدِّد معه الموعد. ثم تتصل بأهل البنت وترى إن كان الموعد يناسبهم. وتعرف من منهم سيأتي. لا تحدِّد عددًا. لا يصح. قل مرحبًا بالجميع وشدِّد على دعوة الأخوال والأعمام. وطبعًا إخوة العروس ووالدها ووالدتها. خلال أسبوع أريد منك تحديد العدد وإرسال فاكس بالأسماء لأرسل لهم بطاقات السفر. ولو كان لديك أصدقاء تريد دعوتهم. ادعهم. وِصَال وعَبِد؟ طبعًا. اتصل بهما، ادعهما. ياللَّا على بركة الله.

وضع السماعة وعاد إلى دفتره. فجأة رفع رأسه وتطلع فيّ، قال:

- كيف أذهب إلى شركة السياحة التي أتعامل معها وأشتري بطاقات طائرة تل أبيب ـ أثينا ـ تل أبيب؟!

قلت في محاولة للتخفيف عنه:

- لا تُعقِّدها يا صادق. واضح من الأسماء أنهم عرب.

لم يكن صادق يشبه جده أبو الأمين. ولكنه حين تطلّع تذكّرت عمي أبو الأمين يوم ذهب إلى المُخَيَّم ليخطب لعِزّ وُحدّثه أبو كريمة عن التصاريح الضرورية للخروج من المُخَيَّم أو استقبال ضيوف فيه. فجأة نادى صادق على سومانا بصوت غاضب كأنه يوشك أن يوبِّخها على خطأ ارتكبته: أريد كاسة شاي بالميرمية. نسي «لو سمحت» التي ينهي بها طلباته. تطلّع فيَّ بوجه مُكْفَهِرٍّ وراح يلعن حسن ونفسه والطَّنْطُورَة واللِّد وفلسطين التي كتبت علينا هذا الشتات.

بيريُوس. كيف اكتسب الاسم هذه الهالة بين يوم وليلة؟ كيف تحوّل فَجأة من اسم مكان إلى اسم زمان نود لو نقفز قفزًا فوق الأيام لنصل إليه. كأنني عدت طفلة تحسب كل صباح على أصابعها الأيام المتبقية على العيد. لم أَرَ حسن منذ خمس سنوات. لم أرَ عَبِد منذ غادر بيروت في عام ١٩٨٥. ولم أر عِزّ منذ رحل مع زوجته إلى تونس. لم أرَ وِصَال منذ زرتها في بيت سِلفتها في مخيم البقعة، قبل أكثر من عشر سنين. سألتقي بهم في بيريُوس. غريب. سنقيم عرسًا لحسن فأتعرَّف على عروسه وعلى أهلها. نطلب البنت ونُزَوِّج الولدين. ونصبح أهلًا في أسبوع. هناك في بيرِيُوس.

مال عليّ عَبِد وقال وهو يبتسم ابتسامة ماكرة:

ـ كان لدي شكوكي منذ سنوات. اليوم تأكدت.

تطلعت فيه متسائلة. قال وهو يغالب الضحك:

ـ اتّضحت الرؤية: تحبين حسن أكثر منا. ما رأيك يا صادق؟

ـ لا مجال للرأي. حقيقة واضحة كالشمس.

التقطت مريم اللعبة فشاركت فورًا فيها.

ـ لا يمكنني عقد المقارنات. كنت صغيرة يوم عُرس صادق. المؤكد أنني لم أَرَ أمي فرحة بهذا الشكل منذ ولدت! ولا رأيتها بمثل هذا الجمال. كلام عبُّود دقيق. اعترفي: تحبين حسن أكثر منا. لدينا أدلة!

تدخّل عَبِد:

ـ وموضوع الجمال موضوع آخر فيه كلام. الناس تكبر وأنت تزدادين شبابًا وجمالًا. كأنك صِبيَّة في العشرين. الصبايا تعقَّدن. أما أنا فمسكين. كلما أعجبتني بنيّة أقارن. وترجعين تقولي لماذا لا تتزوج يا عَبِد، كأنني المسئول؟! ما رأيك يا خالتي وِصَال؟

ضحكت وِصَال وأشرعت أصابعها الخمسة في وجهه:

ـ خمسة وخميسة. سأرقيها من عيونكم.

التفتت إليّ:

- رُقَيَّة ما إن نرجع إلى الفندق حتى أرقيك. صادق، من أين نحصل على البخور؟ فيه عطّارين في ها البلد؟

ضحكنا. كنت أسمع الأولاد وإن كنت منشغلة بفاطمة. أختلس النظر إليها. كأنني أريد أن أتأكد. فعلا تشبهه. هادئة مثله، صغيرة الحجم. في عينيها الخضراوين عذوبة. ومثله لها وجه طفولي يجعلها تبدو أصغر من سنها. تطلعت فيهما وهما يقبلان باتجاهنا من قاعة الترانزيت. كأنهما صبي وصبية لم يتجاوزا العشرين. لم يكن هذا ما أدهشني. أدهشني أن حسن وهو يمشي بجوارها بدا وهو الأليف، أكثر أُلفة وثقة بالنفس. كأنه تمكّن أخيرًا من أن يُعلن عذوبته بلا حرج. أو كأنه وجد سندًا أسلمه الزمام فاستراح. من أين جاءتني هذه الأفكار؟ خيال؟ لاحقًا في الأيام السبعة التي قضيناها معًا في بيريُوس، وفي القادم من السنوات سأكتشف أن الحدس كان دقيقًا، وأَن فاطمة الصغيرة العذبة امرأة مُدهشة في قوتها. قادرة بلا جلبة أن تحب حسن وأن تثبّت قدميه في الأرض وتحميه. كأنها ذئبة. أو كلب حراسة. أو ملاك.

ثم ليلة العرس.

مطعم صغير على الشاطئ أراد صادق أن يستأجره فيقتصر الرُوَّاد علينا. ولكن صاحب المطعم اقترح أن يستقبل المطعم رُوّادًا آخرين لأن امتلاء المطعم سيزيد من حيوية الليلة وبهجتها. سيتشارك الجميع في الرقص والغناء. اعترض صادق وبقي نصف نهار يناقش صاحب المطعم ثم وافق على اقتراحه.

كان على حق. فما إن بدأ العازفون يعزِفون على آلاتهم حتى راح

اليونانيون يغنّون. ويتمايلون برءوسهم وجذوعهم يُمْنةً ويُسْرَة مع الغناء. ثم ضاقت عليهم المقاعد فبدأوا يغادرونها فُرادى وأزواجًا إلى حلبة الرقص، ويرقصون. ثم اتسعت الدائرة. كوَّنوا حلقة واسعة وتشابكت أيديهم وانهمكوا في رقصة جماعية تواكب إيقاع موسيقى العازفين. أشار أحدهم لمريم بأن تنضم إلى الحلقة. تطلَّعت إلى صادق. قبل أن يأذن لها كان عَبد سحبها من يدها وسحب حسن وفاطمة وانضموا إلى الراقصين. عاد عَبد وحاول أن يقنع الخِتْيَاريَات بالمشاركة. قالت له وِصَال: «اصبر شوي. سنرقص ونغني في حينه. بييجي دورنا، بييجي». ولما جاء حينه قامت وِصَال من مقعدها وتقدمت عدة خطوات وانطلق صوتها بالمُهَاهَاة:

إيوِيها... لزينة الشباب وزينة الحـارَ...ة

إيوِيها... إن وصفت بالوصف ما وفِّي...ت

إيوِيها... أمير صغيّر وتِلْبَق له الأمارة

ثم زغرودة طويلة باغتت الرواد اليونانيين ولم يكونوا استوعبوا بعد وقفة وِصَال أو معنى ما تفعله. ثم:

إيوِيها.. بحنَّة مكـة جيــت أحنّيك..ي

إيوِيها... يا بدِر ضاوي والحلى كله ليك...ي

إيوِيها... ما تِلْبـَق الحنــة إلا لإيديك...ي

إيوِيها... يافاطمةزين العرايس لِحَسَن أودِّيكي

زغرودة أخرى أشد من الأولى وأعلى، شاركتها فيها مريم وكريمة ورندة. ثم:

إيـويـهـا.. ضلِّيت أركـض ورا الأجـواد

لانـــــــاســـــــبـــــــهُ... م

إيويِها... هب الهوى ورماني على مصاطبهُ...م

إيويِها... دعيـت رب الســـما ينصرهُ...م

إيويِها... نصرة عِزيــزة تجبر بخاطِرهُم

لم تقتصر الزغرودة الثالثة على مائدة العرس. تعالت الزغاريد من أرجاء المطعم لأن الرُوَّاد الذين كانوا يتطلّعون إلى المرأة الكبيرة ذات الثوب المطرَّز والزنّار القماشي المربوط ربطًا تحت المعدة تاركا مدى لصدر كبير، كانوا التقطوا اللعبة وأرادوا المشاركة. زغردوا على طريقتهم فاختلطت الزغاريد المُتْقَنَة بغرغرات مبتهجة وصيحات مضحكة تقلِّد الأصل. وقالت وِصَال وهي تعود إلى الجلوس في مقعدها:

ـ وينك يا سمير. شو مستني؟

وكالحاوي أخرج سمير الطبلة والشُبَّابة، أعطى الشُبَّابَة لأخيه وبدأ يدق على الطبلة ويغني:

يا مرحبا بك ومن دلَّك ومن جابك

يا مرحبا بالطريق ال عرَّفْتْنا بك

لولا المحبة على الأقـدام ما جينا

ولا دعسنا أراضيكم برجلينا

إحنا كبار البلد واحنا كراسيها

واحنا الرواسي إذا مادت رواسيها

ثم: وينكم يا شباب؟ وين الدبِّيكة؟ قام صادق وحسن وعَبد وعِزّ وأبو العروس واصطفوا صفًا بجوار عازف الشُبَّابة الذي واصلَ النفخ فيها. يصاحبهم سمير بالدق على الطبلة والغناء:

طـــاحـــت الخـــيـــل تـــرقـــص

في مـــيـــدان الـــعـــريـــس

يـــا صـــلاتـــك يـــا محـــمـــد

يـــا خـــزاتـــك يـــا ابـــلـــيـــس

طـــاحـــت الخـــيـــل تـــرقـــص

في مـــيـــدان الـــعـــرســـان

يـــا صـــلاتـــك يـــا محـــمـــد

يـــا خـــزاة الـــشـــيـــطـــان.

ـ يالَّلا يا مريم. دبكة لبنان.

قالها عَبد من موقعه في صف الدبّيكة ثم قفز إلى مكاننا وجذب مريم جذبًا وأعلن بصوت عال كأنه يُقدِّم مغنية محترفة، أنها ستغني «دبكة لبنان» لفيروز. قلت عَبد أهوج. ورَّط أخته. سيغلبها الخوف فينحبس صوتها أو تنشِّز في الغِناء.

لم تنشّز.

رعشة في مطلع الصوت. ثم انطلق واستقام:

دبكة لبنان بالملقى دبكة شيل السواعد
نزلوا الفرسان ع الحلقة والسيف الأبيض واعد
ضاء الميدان بضيوفُه، والملعب لان لسيوفُه
طلُّوا الغزلان تا يشوفوا، والساعد يشبك ساعد

يدبكون على صوت الشُبَّابّة وغناء مريم. سواعدهم متشابكة. تتمايل أكتافهم خفيفًا. الجذوع تميل وتعتدل وتعود تميل. تنثني الركبة قليلًا أو كثيرًا. الأقدام تتصدّر الرقصة وتقودها. تخطو تقفز تدُب. تتراجع وتتقدم ودائمًا تعود تضرب الأرض بعزم. خمسة رجال لا غير. كأنهم عشيرة من الجن. تتثبت عينا مريم عليهم وهي تغني. هل بدَّدت الدَبْكَة خوفها فنسيت أنها تخاف، أم أن كلمات الأغنية ولحنها حملتها حملًا فطارت بها مثلما طارت بالراقصين الدَبْكَة؟

نزلوا الصبايا يضحكوا بخصورهن العيُّوقة
ما تقول خيّالة اتكُّوا ع رماحهن الممشوقة
ودراج الـدار عليانة بشلوح النار تعبانة
شاعر حامل غَمْر غناني وقاصد جيرتكُن قاصد

يا إلهي لم تعد طفلة. امرأة صغيرة مُطْلَقَة الصوت. غريب: وصَال تفكر في الشيء ذاته. مالت عليّ وهمست في أذني: «هل بلغت مريَم؟». قلت: «بلغت». أكملت الثالثة عشرة قبل شهرين.

خطروا الأصايل يرمحوا وِصْلوا ع باب الساحة

زاح الـبُرُج من مطرحه لخيولهُن الرمّاحة

طل من غياب واطلَّع وارتج الباب واتشرَّع

يا سنين ال عِزّك عم يرجع قصرك ع العالي صامد

«يخزي العين. يخزي العين!». كانت وِصَال تقول بصوت مسموع كأنها تحدّث نفسها. وكان سمير يخلق إيقاعًا موازيًا بعباراته عالية الصوت. تنطلق فجأة بين حين وحين: «الله أكبر» «حبيبي» «اللهم ما صلي ع النبي» «أحلى نشامى» «يا هلا بالشباب، يا هلا».

على الدار رجعوا صحاب الحاميّة

خـلّـوا الـــدار بالبشاير معليِّة

وين العيد وين لعيون الدبَّاحة

تشيل العيد وترشُّه ملو الساحة

ومنِ بعيد طلّوا خيول الرمّاحة

زيد وزيـد عُمر صحاب الحميّة

ياهلا ياهلا ياهلا ومعافى ومعافى

ومسيجة بالعِزّ

مسيجة

نكرر جميعًا كأننا جوقة أو كتيبة من المنشدين أو ربما حشدٌ أو جمهرة:

مسيَّجَة

ومسوَّرَة بالخير

مسوَّرَة

ومحصَّنَة ع العالي

محصَّنَة

ومْ نَ وَّ رَ... ة

يا هلا يا هلا يا هلا يا عيونك يا عيونك

ما الذي فعله فيّ صوت مريم؟

لم أَرْقُصْ في حياتي.

أقصد لم أَرْقُصْ منذ أخرجونا من البلد. كنت أَرْقُصُ هناك. ثم نسيت.

أعلنت: سأرقص مع فاطمة.

رقصت.

هل ساد الهدوء المكان فجأة أم أن حواسي الخمس تفرَّغت للاحتفاء بالعروس فذهبت إليها خالصة لا تعي وجود سواها؟ حتى صوت الشُبَّابَة الذي تواصل، بدا كأنه يتسلل تسللًا عبر المسافة. يلاحقنا عن بعد أو يحاول. أمد يدي للعروس. تلامس أناملي أطراف أنامل يدها الممدودة لي. أدورِّها وأدور. ببطء. أنثني معها خفيفًا. تنثني. كأن

الجسم صار نسيماً. تميل قليلًا وأميل. أقودها على استحياء. أسلِّم. عن طيب خاطر.

لماذا رقصت؟ كيف رقصت؟ هل كنت أرقص أم كنت أفعل شيئًا آخر؟ لا أدري. كل ما أذكره أنني عندما عدت إلى مقعدي على المائدة قام حسن من مقعده وأقبل عليّ دون أن يتطلع في عينيّ، ومال على يدي وقبَّلها. انتبهت لبلل خفيف على ظهر كفي. اليوم التالي قالت لي وِصَال:

- أعطني سيجارة.

قلت لها وأنا أناولها سيجارة إنني لم أكن أعرف أنها تُدَخِّن. قالت:

- سيجارة كل عدة شهور. رُقَيَّة كل الناس تقول وِصَال فصيحة. تستطيع التعبير عن نفسها بيُسْرٍ شديد.

ابتسمت. قلت:

- صحيح. ليتني مثلك. أنا عكسك وأنت تعرفين.

أومأت برأسها:

- أعرف. لكن بالأمس... أردت أن أضع ما رأيته في كلام فلم أتمكَّن. ما الذي حدث؟

- تقصدين الحفل؟

- أقصد رقصتك مع فاطمة.

ـ لم أكن أدري أنني قادرة على الرقص أو أنني أعرف كيف.

تَطَلَّعَتْ إِليَّ وِصَال وقالت:

ـ غريب.

ـ ما الغريب؟

ـ الرقصة. قلتِ فيها ما يستعصي على الكلام.

الفصل الأربعون

واقعة الثوب و «شو بدي أحكي تاحكي»

نتمشى على الشاطئ. لاحَقَنا رجل مربوع. كان يتطلع باتجاهنا ويبتسم. اقترب الرجل من سمير وتحدث معه ثم حيّاه وانصرف. توقفت وِصَال. سألت:

ـ ما الذي يريده؟ لم يكف عن التطلّع في اتجاهنا. في اتجاهي تحديدًا.

قال سمير:

ـ سألني بالإنجليزية هل أنتم من إسرائيل؟ استغربت سؤاله، فأشار إلى ثوبك وابتسم وقال: عرفتُ من الثوب.

ـ وماذا قلت؟

ـ لم أقل شيئًا. تركته يذهب.

ـ كيف تتركه يذهب؟!

هرولت وِصَال باتجاه الرجل وهرولنا وراءها وهي تنادي:

ـ يا خواجة. يا خواجة. يا مِستر.

التفت الرجل. وقف ينتظر السيدة الذي لفت ثوبها انتباهه. كان يبتسم ابتسامة عريضة.

أمسكت بقَبَّة ثوبها. قالت:

ـ هذا نو إزرائيل. هذا ثوب فلسطيني طرّزته بيدي. ترجمي يا مريم.

ترجمت مريم.

ـ إزرائيل سرّاقة. سرقت أرضنا وشرّدتنا وذبحتنا. وحتى الثوب الذي أرتديه تطمع فيه! ترجمي يا مريم.

أشارت وصال بسبّابتها إلى صدرها:

ـ هذه الغُرْزَةَ...

تدخلت مريم وقالت ببؤس:

ـ خالتي وِصَال، لا أعرف معنى غُرْزَة بالإنجليزي.

ـ لا يهم. قولي التطريز. قولي شغل اليد. هذا التطريز سهرت عليه الليالي. اسمه «فلّاحي». هذا ثوب فلسطيني فلّاحي. شو دخل إزرائيل؟

أشارت بسبّابتها إلى الرجل وسألت:

ـ يو إزرائيلي؟

هز الرجل رأسه. قال:

- نو.

- إذن لماذا تبتسم وأنت تقول إزرائيل. الإنسان المحترم ينغمّ لما يسمع اسم إزرائيل. أنا أقول لك شو معنى إزرائيل. ترجمي يا مريم.

راحت وِصَال تعدد ما تقوم به إسرائيل في الضفة وغزة. وما قامت به قبل الضفة وغزة. انطلق منها الكلام كالسيل. ومريم تحاول أن تلاحقها وتقول:

- شوي شويْ يا خالتي. الترجمة صعبة.

قالت وهي تشير بسبّابتها إلى نفسها ثم إلينا واحدًا واحدًا:

- ذِس وذِس وذِس، كله فلسطين. تعرف تل أبيب؟

أومأ الرجل برأسه. اختفت الابتسامة. بدا الآن مُكْفَهِرّ الوجه يتعجّل الانتهاء من هذا الموقف:

- تل أبيب ذات نفسها مسروقة. سرقوا يافا وسمّوها تل أبيب. ترجمي يا مريم.

جذبنا وِصَال جذبًا لكي تترك الرجل يذهب. ولما مضى انتبهت وِصَال لوجود سمير. سألته:

- ألا تتحدث الإنجليزية؟

قال:

- أتحدثها.

قالت:

- سبحان الله! لما لم تخبره شو إسرائيل بتسوِّي. مش أنت يا خالتي تعرف أكثر من الجميع شو معنى إسرائيل؟!

احْمَرَّ وجه الشاب. وقررنا أن نعود إلى الفندق.

ولكن الواقعة التي وتَّرت وِصَال، تحوّلت إلى موضوع للتندّر. حكى سمير لمن لم يشهدوا الواقعة فَأَلَحُّوا على وِصَال أن تعيد عليهم ما حدث. وأدهشتني قدرتها على الحكي، لأن المَشهد وهي تحكيه بدا أكثر حيوية وتفصيلًا: طوله ثلاثة أشبار، وجبينه حَزّ، وعِنيه خُرم هنا وخُرم هناك. وفاشخ تِمُّه، ووجهه متفَّح على سيرة الحبايب. يعني لو تِمُّه صغير شوي ماشي الحال، لو وجهه كبير شوي، نُص مصيبة. لكن فشخة تِمُّه بالعة تلات أرباع وجهه. هذا في الأول قبل ما يكتشف أننا لسنا حبايبه ولكن أولاد عمهم. وكل ما أسِبّ في إسرائيل كتافه تسْحَل فيبدو أقصر وعينيه تضيق أكثر ووجهه يجيب ألوان: يصير أحمر مثل الطربوش وبعدها يصير أصفر مثل الليمون ثم ينكتم لونه ويسوَدّ. تتوقف فجأة لتسألني: هو كان أحول ولّا تهيأ لي؟ تضحك. ثم تنهي الكلام بتنهيدة عميقة: ياللّا، تقولش فلسطين بدها ترجع بالكلام!

ستحكي لنا وِصَال مُطوّلًا عن الانتفاضة. حين سألها صادق قالت: شو بدي أَحكي تاحكي؟ ثم إنكم تتابعون الأخبار أكثر مني. في جنين لا نرى في التليفزيون إلا محطة عمّان ومحطات إسرائيل. وأنتم تليفزيونكم ما شاء الله فيه محطات الدنيا كلها. وبتقروا المكتوب في

الجرايد وفي الكتب. حين نسألها لا تحكي. ولكنها ونحن نتحدث في هذا الأمر أو ذاك، يدخل حديث الانتفاضة فجأة إلى الكلام ويتحول به إلى ما جرى وصار. غريب كانت وِصَال دائمًا تضحك وهي تحكي. دائما تختار وقائع مضحكة. لأنها تستقوى بالضحك؟ أم لأن الانتفاضة على ما فيها من تضحيات، مثل المقاومة حين دخلت مُخَيَّمَات لبنان ما بعد العام سبعة وستين، كانت تملأ أهلها زهوًا وثقة؟

تقول: ولِدَّة. والله ولِدَّة صغار. الولد منهم طوله شبر وما يعرف وين الله حاطُّه. على راسه طُنْجَرة وفي إيده سلاح طوله مرة ونص. يقولوا له روح اقتل. وهو خايف. خايف يقتل وخايف ينقتل. مدرّع ومسلّح ويقف في ستر باب سيارته المصفحة. فأر العادي. يطل برأسه ربع طلّة ويصوِّب سلاحه وفي ثانية يرجع يتخبّى ورا بابها. وولادنا ما شالله هاجمين عليهم مثل السباع.

سأتذكر كلامها. وأنا أتابع مجريات الانتفاضة عبر التليفزيون من أبو ظبي. أتابع الصغار وهم يحملون المقاليع ويُصَوِّبون حجارتهم على الجنود. أتابع الجنود وهم ينقضُّون على الشباب يضعونهم في سيارات الاعتقال أو ينفردون بواحد منهم لتحطيم رأسه أو ذراعه. أفكر كثيرًا في وِصَال وأولادها. أُدقِّق في الصور كلما أظهرت امرأة في ثوب فلّاحي مطرّز ترفع يدها بعزم لتلقِّي حجرًا على سيارة من سيارات الجيش أو تشتبك مع المجندين لتخلِّص منهم طفلًا أمسكوا به. تبدو أنها وِصَال. تُشبهها ولكنها ليست وِصَال. ترى ماذا تفعل وِصَال الآنَ؟ لن ألتقي بوِصَال إلا بعد خمسةَ أعوام في الإسكندرية. سَأراها في الحلم مرتين. مرة ونحن في البلد نمشي على شاطئ البحر. مجرد

بنتين تمشيان بأقدام حافية على رمال الشاطئ المبلل، تمشيان بحذاء الساحل. تتحدثان؟ ربما. لم أسمع في الحلم حديثًا. رأيتهما مقبلتين ورأيت ظهرهما وهما تبتعدان. الحلم الآخر كان كابوسًا. تذكرته ما إن فتحت عينيّ. ربما أيقظني من النوم كما توقظ الإنسان شرقة يختنق بها أو ألم شديد في البطن. هدأت قليلا ثم عدت للنوم. بعدها حاولت استعادة الحلم، لم أفلح.

الفصل الحادي والأربعون

مريم المفاجآت

في مقابلة صحفية أجريت مع ناجي العلي قال إنه خلق شخصية حنظلة ليحمي روحه بعد أن انتقل من مُخَيَّم عين الحلوة إلى الكويت ليعمل في صحافتها. قرأت المقابلة المنشورة في الصحيفة بمناسبة ذكرى استشهاده، قرأتها باهتمام لأنني كنت أحب رسوم ناجي وأتابعها في جريدة السفير وأنا في بيروت، خاصةً أيام الاجتياح. وأيضا لأن ناجي كان من عين الحلوة وصديقًا لعِزّ، ويعرفه عمي أبو الأمين ويتحدث عنه بإعجاب. فلما استشهد صرت أهتمّ به أكثر. قلت لا بد أن رسومه شديدة الأهمية ما داموا يخشونها إلى حد قتله. هل صحيح أن أبو عمار له يد في الأمر؟ تردد الشائعات ذلك، ولكنني أقول إنها إسرائيل.

في بيروت، بدأت أتابع رسوم ناجي بدافع الفضول لأنه قريبي ومن بلدنا أو من معارفنا. ثم تدريجيًّا بدأت أنتبه أنه يعبِّر عن أشياء أريد أن أقولها وإن لم أعِ إلا ساعة رؤية الرسوم أنني كنت أريد أن أقول ذلك. كأنه كان يسَبقني في الكلام فيحدِّدُه قبل أن يتحدَّد على

لساني أو حتى في رأسي. أو كأنه يعرفني أكثر مما أعرف نفسي. لم أنتبه أن حنظلة يشبهُني ولا وَرَدَ الأمر على خاطري. فحنظلة ولد في العاشرة من عمره، حافي القدمين، في ثوبه رقعة وشعره مشعّث، يقول ناجي في مقابلته إنه كأشواك القنفذ المستنفرة للدفاع عن النفس. (قبل قراءة المقابلة بدت لي الخطوط الصغيرة التي تحيط برأس حنظلة أقرب لأشعّة الشمس). يقول ناجي في مقابلته إنه خلق حنظلة ليحمي روحه. كأنه حِرز يحميه من الزلل. استغربت الكلام ثم تأملته ثم تذكرت أنني حملت من بيروت خمس قصاصات كل منها تحمل رسمة من رسومه اقتطعتها في حينه من الجريدة واحتفظت بها. ونحن نستعدّ للانتقال إلى أبو ظبي خفت أن أفقدها فوضعتها مع بطاقة هويتي في محفظتي. وضعت أربعًا منها في المحفظة وتوقّفت طويلًا أمام الرسمة الخامسة، الوحيدة بينها التي كتبت أسفلها: جريدة السفير. الخميس ١٦/ ٩/ ١٩٨٢. أذكر اللحظة التي رأيت فيها الرسمة. كنت أقف بباب البيت: حنظلة يتطلع إلى مقبرة جماعية: صلبان تمتد على مدى النظر حتى خط الأفق حيث تلتقي الأرض بسماء سوداء. كل صليب منها كأنه إنسان مصلوب، الخشبة الأفقية كأنها ذراعان ممدودان وتنتهي من الجهة اليسرى بيد تشير. كلها تشير للجندي الإسرائيلي الصغير في أقصى يسار اللوحة. غريب. رأى ناجي المجزرة قبل يوم من وقوعها. وقال.

وطوال الأيام الثلاثة التالية لم تحمل الجريدة الرسمة اليومية لناجي. لأن ما جري يفوق كل كلام؟ أم لأنه التزم الحداد ثلاثة أيام؟ فقط في يوم الأربعاء ٢٢/ ٩ نشرت الجريدة في المكان المعتاد في الصفحة الأخيرة رسمة لناجي: العلم اللبناني تتصدره الأرزة. يقطعه

شريط بالطول كتب عليه بالإنجليزية «The End» وتحتها بالعربية: «النهاية». وتحت العلم كومة من الجثث الدامية. وحنظلة يتطلّع.

غريب. أذكر التواريخ كأنها لم تمض من سنين أو كأنني حفظتها عن ظهر قلب.

قرأت مقابلة ناجي في الصباح. في الليل حملت الجريدة إلى الفراش وأعدت قراءتها. قلت ربما كان ناجي حين انتقل للخليج، خائفًا مثلي. كان شابًا صغيرًا وكان خائفًا على نفسه. لم أعد صغيرة. صرت جدة وصار أولادي في سنه حين غادر عين الحلوة للعمل في الكويت. نمت وقمت. وقبل أن أرفع رأسي عن المخدة وجدتني أقول: لست خائفة على نفسي بل على مريم. أي حِرز يحميها؟

وهي تستعد للنزول إلى المدرسة حدّثتها عن ناجي وعن حنظلة. قالت: كنت أتابع رسومه. أحبها جدًّا. استغربت.

في المساء حين اختليت بها في غرفتنا عدت إلى الحديث عن رسوم ناجي. قلت:

- ما الذي يعجبك في الرسوم؟

قالت:

- الوضوح.

لم أفهم فطلبت منها أن تفسّر لي ما تعنيه. قالت:

- حنظلة واضح من اسمه وشكله ووقفته. ولد صغير يتطلع. أعداؤه أيضًا واضحون: رجال قصار سمان شكلهم قبيح

يديرون الدنيا كما يحلو لهم. هم أيضًا واضحون في الخراب الذي يتسببون فيه.

كادت الدموع تطفر من عينيّ. احتضنتها. علَّقَت ضاحكة:

- فيلم عربي؟ ماذا جرى؟

ربما لا يجب أن أخاف على مريم إلى هذا الحد. مريم تفاجئني. سمّاها عَبد ذات يوم «مريم المفاجآت»، لأنه لم يرها عامين ففوجئ بالزُنْبَرَك إياه. يختلف عن زُنْبَرَك الشباب. يسمّونه خرّاط البنات. وجد عَبد أخته صبيَّة. امرأة صغيرة. لم تفُقه طولا ولا فاقت أخويها الآخرين، ولكنها كَبرت فجأة من طفلة لها ضفيرتان إلى صبية بكل استدارات الصبايا. خرطها خرّاط البنات. أبتسم. ولكن الزُنْبَرَك يفعل فعله في العقل أيضًا. أتفاجأ.

كانت في السادسة عشرة، في الصف الثاني الثانوي، حين عادت من المدرسة وأعلنت بزهو: حصلت على الدرجة النهائية في التعبير. في الصف قالت لنا المُدَرِّسة: أعمل في التدريس منذ عشرين سنة ولم يسبق لي أن أعطيت طالبة الدرجة النهائية. أعجبني ما كتبته مريم إلى حد أنني فكرت أن أعطيها الدرجة النهائية + خمس درجات. ضحكت البنات للفكرة. وبعد انتهاء الحِصَّة تحلّقن حولي يردن قراءة ما كتبت. قلت لهن غدًا. سأعطيه لأمي لتقرأه في الأول. سألتها:

- ما الموضوع الذي عيَّنته لكم المعلِّمة؟

قالت:

ـ ذكرى إنسان أحببتِه. معظم البنات كتبوا عن جدهم. لم أرَ جدي أبو الأمين.

ضحك صادق. قال:

ـ كتبتِ عن جدتك؟

قالت:

ـ لا.

فعرفت أنها كتبت عن أبيها. غيَّرتُ الموضوع:

ـ افتح التليفزيون يا صادق. ستفوتنا نشرة الأخبار.

ابتسم صادق:

ـ ماما تشاهدين النشرة سبع مرات في اليوم!

ضحكت مريم:

ـ في بيروت كانت الصحف والراديو. الآن التليفزيون!

ـ في بيروت كنتِ صغيرة وتريدين الانتباه. تغارين حتى من الجريدة!

ـ ماما، اعترفي: هل كنت تقرأين الجريدة أم تتوقفين عند كل فقرة وسطر وكلمة كأنك ستُمتحنين فيها صباح اليوم التالي؟ يمكن كان ناقصك قلم أحمر تخططين به تحت الفقرات المهمة لتحفظيها عن ظهر قلب! أما المقص فكان بجوارك تقصِّين خبرا هنا ومقالا هناك أو صورة. والرسمة اليومية لناجي

العلي. أسرَّ لي عَبد أنك تشتغلين بالسر في أرشيف ما، ولا علم عندنا ولا خبر!

ضحكت وضحك صادق، قال:

- غريب؟

- ما الغريب؟

- في مرحلة سابقة كانت ماما تبكِّر في شراء الجرائد. تنزل لشرائها قبل أن تتناول القهوة. ثم تلقي بها في الزبالة دون أن تقرأها. وأين الصحف يا ماما؟ تقول لا أدري ثم تعترف: تخلّصت منها!

قالت رندة:

- لا أصدِّق.

قالت مريم وهي تداعبني وتلف ذراعيها حول كتفي:

- صدّقي. هذه ماما. لكل مرحلة نظامها.

قلت:

- علِّي الصوت يا صادق. ستبدأ النشرة.

الأولاد على حق. أدمنت نشرات الأخبار. أحيانًا نفتح التليفزيون لمتابعة النشرة فيقول صادق أو مريم أو رندة وهي تغيِّر القناة: لا جديد. ولكنني أطلب العودة لذات القناة. أتابع صور الشباب يلقون بالحجارة على جنود الاحتلال. امرأة تواجه مجندًا، ترفع يديها في وجهه وتصيح. مجندون مدرَّعون يطلقون بنادقهم أو يتعقبون

الصغار في الأزقة. سيارات الجيش. سيارات الإسعاف. المداهمات. الاعتقالات. المظاهرات. ثلاجات المشرحة. الجنازات. نعم كانت بي رغبة لمشاهدة ما شاهدته في النشرة السابقة وربما الأسبق. لماذا؟ لا أدري.

أشاهد وأنتظر.

الفصل الثاني والأربعون

ابن الشجرة

كتبت مريم:

في الثاني والعشرين من شهر تموز ١٩٨٧ اغتال شخص ما بمسدس كاتم للصوت رسام الكاريكاتور الفلسطيني ناجي العلي. حدث الاغتيال في لندن وتسبب في وفاة ناجي العلي بعدها بخمسة أسابيع. في عطلة هذا الصيف حلّت ذكراه الخامسة. أشارت بعض الجرائد لذلك. ولكنني لم أعرف موعد الذكرى من الجريدة لأنني كنت أتذكَّر، ولا أعتقد أنني في المستقبل يمكن أن أنسى.

في تموز ١٩٨٧ وهو أول صيف لنا بعد انتقالنا من لبنان للإقامة في أبو ظبي، أخذنا أخي الأكبر وولي أمري، أنا وأمي وأسرته لقضاء جزء من العطلة في اليونان. كنت في الحادية عشرة من عمري، أحب اللعب وأحب البحر وأحب الرمل وأحب أكل السمك وأحب الاستماع إلى الموسيقى اليونانية التي تتردد في المطاعم والمقاهي التي يصطحبنا إليها أخي. بل أحب الرقص الجماعي الذي يرقصونه في المطاعم فأقفز وأشارك فيه، تشتبك يدي اليمنى بمن يقف عن يميني

واليسرى بمن يقف عن يساري وأرقص. كانت هذه الأيام من أسعد أيام حياتي. وحين عدنا إلى أبو ظبي عرفت بالصدفة من كلام دار بين أمي وأخي أن ناجي اغتيل في لندن. صحت: ناجي عين الحلوة؟ الرسّام؟ بعدها، طوال أسبوع أو أكثر، شعرت بضيق شديد. كنت حزينة لرحيل ناجي العلي ولكن ضيقي من نفسي وغضبي عليها كان أكثر من الحزن. كان أبي طبيبًا في مستشفى عكا واستشهد في مذابح صبرا وشاتيلا. هل يمكن مثلًا أن يُذكر مستشفى عكا، أو تمر ذكرى المذابح وأنا غارقة في متعة مصيف جميل فلا أنتبه ولا أقف ولو في الخيال دقيقةً حدادًا عليه وتحيةً لذكراه؟ لم أعرف باستشهاد ناجي العلي في حينه، فكرهت نفسي كأنني ارتكبت جريمة.

ناجي العلي من مواليد قرية الشجرة بالجليل الأعلى في فلسطين. لجأ أهله إلى جنوب لبنان أيام النكبة عام ١٩٤٨. وكان طفلًا في الحادية عشرة من عمره. عاش مع أهله في مخيم عين الحلوة وبقي مرتبطًا بالمُخَيَّم حتى بعد أن كبر وانتقل للعمل في الخليج كرسام كاريكاتور. لم ينس أبدًا أن أرضه سُرقت وأنه طرد بغير وجه حق من بلده فاضطر ليعيش لاجئًا في مُخَيَّم من مُخَيَّمَات لبنان. لم ينس أنه ابن المُخَيَّم وأن أمه كانت تحيك له سرواله الداخلي من مخلّفات أكياس الطحين التي توزِّعها وكالة الغوث، وتصنع له منها شنطة قماشية يضع فيها دفاتره وهو ذاهب إلى المدرسة. ولم ينس أنه كان يعمل وهو طفل في بيع الخضرة وفي قطف البرتقال للإسهام في مصروفات الأسرة. ولم ينس أن أهله يعيشون في عين الحلوة وأن الطائرات الإسرائيلية تقصف المُخَيَّم بانتظام كأن قتل الناس واجب يومي مقرر.

أُحب رسوم ناجي العلي. وهي كثيرة وغنية بالمعاني وتعلِّمُنا الكثير. أحب حنظلة لأنه صار أليفًا بتكراره في الرسوم، ولأنه لسبب لا أفهمه يجعلني أفكر أنني مثله. رغم أن حنظلة حافي القدمين وبثوبه رقعة تدلّ على أنه فقير، وأنا عندي بدلًا من الحذاء عدة أحذية، وكان أبي طبيبًا وأخي يعمل هنا في أبو ظبي يوفِّر لنا حياة سهلة بل مترفة. وأحب زينب أم حنظلة وهي وإن كانت ترتدي ثوبًا فلاحيًّا إلا أنها مثل أمي تحمل مفتاح دارها في فلسطين معلقًا في رقبتها بحبل. وأبو حنظلة الفلاح كبير القدمين، الحافي، المقهور دائمًا يذكرِّني بأبي وبإخوتي لأنني أعرف أنهم مقهورون. وحتى الفدائي الذي رسمه ناجي وهو يسبح عائدًا إلى بيروت بعد رحيل الفدائيين منها في عام ١٩٨٢ أرى فيه عَبِد أخي الذي كان فدائيًا والذي أوشك على ركوب السفينة عندما تقرر رحيل الفدائيين من بيروت، ثم استدار وعاد إلينا في البيت. وأخيرًا رسم ناجي أطفال الحجارة وسمّاهم قبل أن تقوم الانتفاضة وتُعرف بهذا الاسم، رسم الأطفال وهم يرمون الحجارة على المحتلين وشكَّل من الحجارة الصغيرة دبابة تواجه. بل رسم السيد المسيح على صليبه يرفع يده ليلقي بحجر على الظالمين.

أمي من الطَّنْطُورَة، وهي قرية على الساحل الفلسطيني، ليست من قرى الجليل. ولا أعتقد أنها التقت بناجي شخصيًّا. ولكنها تحب رسومه. أثناء الحرب وحصار بيروت كانت تتابع رسومه. وكانت أحيانًا تُطلعني على الرسم في الجريدة. ولأنني كنت في السادسة من عمري كانت تشرح لي المعنى. وعندما انتقلنا إلى أبوظبي حملت أمي في محفظتها خمس قصاصات من رسوم ناجي. منها رسمة لصبيّة تُطِلُّ من فتحة أحدثتها القذيفة في جدار بيتها. بيتنا أيضًا في بيروت

أصابته قذيفة وأحدثت فتحة مماثلة في جداره، ولكن لحسن الحظ جاءت الإصابة في الجهة الأخرى من البناية. في الرسمة تبدو الفتحة كأنها نافذة. تحتها حنظلة يرفع يده بزهرة ويقول: صباح الخير يا بيروت. حكت لي أمي أن الرسمة ظهرت في جريدة السفير بعد ليلة من القصف الشديد جدًّا حتى بدا للناس أنه لن يطلع عليهم نهار. وعندما طلع النهار وصدرت الجريدة وجدوا حنظلة يصبّح عليهم بزهرة.

وبين الرسوم الخمسة في محفظة أمي رسمة أخرى أريد أن أتحدث عنها. الأب، الفلاح الحافي القدمين، يقرفصٍ في يمين الصورة حاملًا لافتة مكتوب عليها «في ذكرى حطين». يفكر «لو كان صلاح الدين عايش». في يسارٍ الصورة، حنظلة يتطلع إلى الرجال القصار السمان كبار المؤخرة، يفكر كانه سمع فكرة والده: «كانوا اغتالوه».

لم يكن ناجي العلي قائدًا سياسيًّا أو عسكريًّا كصلاح الدين. لم يكن متوقعًا أن يقودنا في معركة ننتصر فيها على أعدائنا ونحرر فلسطين، ولكن رسومه تعبّر عني، تجعلني أكتشف مشاعري والأشياء التي تثقل عليّ وتؤلمني، والأشياء التي أرغب في تحقيقها.

رسوم ناجي العلي تعرّفنا بأنفسنا.

وعندما نعرف نستطيع.

ربما لذلك اغتالوه.

الفصل الثالث والأربعون

زمن آخر

قال لي صادق:

ـ كنت أُمَنِّي نفسي أن تتخصص مريم في الهندسة المعمارية فتشاركني العمل هنا في الشركة. البنت ذكية ومثابرة وسيكون لها شأن في مجال عملها. سأرسلها للدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت ما إن تتم الشهادة الثانوية.

نادى مريم، قال:

ـ إذن تنوين الالتحاق بكلية الآداب؟

تطلّعت إليه بدهشة، قالت:

ـ «إذن» عطفًا على ماذا؟

ضحك:

ـ عطفًا على موضوع الإنشاء الجميل الذي كتبتِه.

قالت:

ـ أولًا، ليس إنشاءً. ثانيا، سأدخل كلية الطب.

مفاجأة جديدة من مفاجآتها. لم تكن أشارت إلى ذلك من قبل. قال صادق:

ـ دراسة سبع سنين. وبعدها تخصُّص. متى تتزوجين؟!

انطلقت مريم في دفاع بليغ عن رغبتها في الالتحاق بكلية الطب. ولماذا تريد هذه الدراسة ولماذا تناسبها هذه المهنة ولماذا... ضحك صادق.

ـ لا آداب ولا هندسة. الأفضل أن تكوني محامية. أنت وأخوك عَبِد تعملان معًا فتغيّران نظام الكون... بالكلام!

عادت مريم تؤكد أنها ستلتحق بكلية الطب. وأعلن صادق أن هذه أحلام أطفال، وأنها تتصور أن هذا ما تريده، وأنها أصغر من أن تقرر. حسم النقاش:

ـ لن أسمح بدخولك كلية الطب.

ما إن غادر الغرفة حتى تطلّعت في وقالت:

ـ وأنا لن أسمح بأن يفرض عليّ صادق ما أدرسه!

مريم تسبق عمرها. أكرِّر على نفسي، لماذا تخافين عليها إلى هذا الحد؟ لا يُخشى عليها. ولكنني أخاف. في المستقبل ستقول لي مريم:

ـ قلقك الدائم عليّ غير مبرر. يقيّدني يجعلني أنشغل بخوفك، وأنشغل عليك.

قلت:

ـ فقدتُ أربعة رجال هم الأقرب إلى قلبي. طبيعي أن أخاف.

قالت:

ـ فكّري في النصف الآخر من الكوب: لك أربعة رجال مثل الورد.

تطلّعتُ باستغراب:

ـ أربعة؟

ـ صادق وحسن وعَبِد ومريم!

ضحكتُ:

ـ في الواقع هم ستة. صادق وحسن وعَبِد ومريم برَجُلَين والسادس زوج مريم.

ـ وأين هو زوج مريم؟

ـ موجود.

ـ هناك شاب على الطريق لا أعلم عنه شيئًا؟

ـ حين أختار المُختار الذي قد يكون خِتيارًا أو شابًا خفيف الروح وخاليًا من العيوب، أخبرك.

قفزت إلى السؤال:

ـ كم خاء استخدمتُ في جملتي؟

ـ مريم توقفي عن اللعب. أسألك بجد: هل هناك شاب...

ـ شباب، لا شاب واحد!

ـ احكي لي عنهم فأساعدك في الاختيار؟

ـ يكون تدخُّلًا في السيادة الوطنية وحق الشعوب في تقرير المصير!

ضحكت وانتبهت أنها بدهاء غيّرت دفة الحديث بعيدًا عن خوفي والرجال الأربعة الذين فقدتهم.

ـ بما أننا عدنا أسرة صغيرة من أم وابنتها ما المانع في أن تطلعيني على الطوابير التي تنتظر؟

ـ ماما، أمزح. عندي ٢١ سنة. أمامي عامان للانتهاء من كلية الطب وسنة امتياز وعدة سنوات للتخصص. على القرارات المصيرية أن تنتظر ما لا يقل عن خمس سنوات أو ست وربما سبع... ويمكن...

شهقت:

ـ خطبت ولم أبلغ الثالثة عشرة من عمري.

كانت تعرف حكاية ابن عين غزال.

ـ وتزوجت أباك وأنا في الخامسة عشرة.

ضحكت:

ـ زمن آخر.

ـ أعرف، لكن ستة وعشرين سنة كثير. يكون فاتك القطار.

قهقهت:

- المصريون يقولون: إن فاتك الميري اتمرَّغ في ترابه.

- يعني؟

- المثل يُقال عن أهمية العمل الحكومي والالتحاق بوظيفة حكومية بأي ثمن.

- وما علاقة المثل بموضوعنا؟

- يعني يفوتني قطار الزواج فأركض أتشعلق فيه، أليس الزواج وظيفة؟ وظيفة ميري يا أم الصادق. تخيَّلي مريم تركض وراء القطار وتتشعلق ببابه ثم تسقط منه وتتمرغ في ترابه. هذا لو حالفها الحظ وإن لم يحالفها، تتبتت تحت عجلاته!

- بعد الشر.

- أحسن أغني لك أغنية.

- غني.

كنا في الإسكندرية ومريم تدرس الطب في جامعتها. لماذا أستبق الأحداث؟ لم أنته من حكاية أبو ظبي، ما زلنا هناك.

الفصل الرابع والأربعون

المشروع

في طريقنا إلى المطار لاستقبال عَبِد قال صادق وهو يقود السيارة:

- أراهن أن عَبِد ينوي الزواج؟

قلت:

- هل ألمح إلى ذلك؟

قال:

- لم يُلمح ولكنني لم أره منذ ثلاث سنوات. كلما سافرت إلى أوربا اتصل به لنلتقي يقول مشغول. والعام الماضي ألححت عليه أن يأتي لقضاء الإجازة معنا في النمسا قال مشغول. قلت له على الأقل ترى أمك وأختك. اختشي على دمك. ثم يتصل فجأة ويقول دبّر لي تأشيرة في أسرع وقت، لا بد أن أراك. أكيد ينوي الزواج.

أزعجني انتقاد صادق لأخيه. لم أعلّق. ربما ينوي عَبِد الزواج فعلًا

وجاء ليطلعنا على الأمر لا ليطلب المساعدة المالية من أخيه. أعرف عَبد. وصادق، أعرفه. يتصرف كأنه رب العائلة. يتدخل وينتقد ويعترض ويقول لا أوافق وأنت حر تحمَّل مسئولية قرارك. ثم تنتبه أنه يقف ملاصقًا لأخيه، كتفًا بكتف يحمل معه أو يقول عنك يا خويْ ويرفع الجانب الأثقل من الحمل.

في طريق العودة من المطار طلبت من مريم أن تجلس في المقعد الأمامي بجوار صادق. جلست في المقعد الخلفي مع عَبِد. كان صادق يعلّق ساخرًا:

- معقول يا عَبد، تأتي من باريس بلا حقيبة؟! حسبتك تمزح حين قلت إنك لم تأت بحقيبة. هل ستقضي أسبوعًا في أبو ظبي بالبنطلون الجينز والقميص نفسه؟
- لا أحمل حقائب في السفر.
- لا تحمل إلا الخُرج!
- فيه كل المطلوب: قميصان والجوارب وغياران داخليان.

راحا يتناقران ويضحكان وتدخَّلت مريم في الحديث. اكتفيت بالإمساك بيد عَبد والتطلع خلسَةً إلى وجهه. لا تخفي خصلة شعر جانبية تغطي طرَف حاجبه الأيمن انحسار الشعر عن جبينه، ولا فاتني التقاط شعيرات بيضاء في شعره الأسود. لم أكن أرى وجهه الآن إلا جانبيًا. في المطار وهو يقترب باتجاهنا رأيته كاملًا. صار أنحف فبدا مع طوله، شديد النحافة. ألا يأكل هذا الولد في الغُربة؟ ما الذي يأكله؟ يرتدي بنطلون جينز وقميصًا وزوجًا من الأحذية الرياضيَّة

الشائعة بين أولاد المدارس. يصعب تصور أنه تجاوز الثلاثين وأنه محام له خبرة في مجاله. وذلك الخُرج المُعَلَّق في كتفه. أكاد أضحك. صادق على حق. نظرة أخرى مختلسة، شعره أطول قليلًا من المعتاد. نسي أن يذهب إلى الحلاق أم معالجة لبدايات الصلع؟ يا إلهي متى نُزَوِّجُه؟ أشد على يده قبل أن أنتبه. التفت إليّ:

- ست الحبايب ماذا تقول؟

- مشتاقة يا عَبِد!

قبّل يدي.

شعرت بالدماء تصعد إلى رأسي. لم أجد ما أقوله.

احتل موضوع ملابس عَبد حيزًا غير معقول من الزيارة. أم كان الأمر حنينًا من الولدين لعلاَقتهما القديمة القائمة على النقار. قال صادق:

- كيف تلتقي بأصدقائي ومعارفي ولم تأتِ ببدلة؟ لِمَ لَمْ تحضر معك بدلة وقميصًا وربطة عنق. مقاسي غير مقاسك.

- لا أملك بدلة.

- إذن نذهب معًا في الغد ونشتري لك بدلتين وقمصين و...

- الله يرضى عليك يا صادق، أملك أن أشتري بدلة ولكنني لا أحتاج بدلة لأنني لا أرتديها.

ركب صادق رأسه وعاد في اليوم التالي بأكياس وعلب. ثلاث حُلَل وست قمصان وثلاث ربطات عنق وزوجي أحذية. أخرجها من أكياسها وبسطها أمامنا. قال:

- هذه حُلَّة كُحلية للمناسبات. وتلك حُلَّة خفيفة ترتديها في الصباح وفي المواعيد غير الرسمية. والحُلَّة الثالثة أعجبتني ولم أرها إلا بعد شراء الاثنتين فقلت خير وبركة. وهذه القمصان وربطة العنق للكُحْليَّة، وتلك وربطة العنق الثانية للحُلَّة الأخرى. وهذا الزوج من الأحذية مع الكُحْليَّة وذاك...

علقت رندة:

- وكمان سينييه!

ملت على مريم، همست:

- ما معنى سينييه؟

- حرفيًا تعني عليها توقيع، والمقصود أنها من صنع شركات عالمية مشهورة. ماركة عالمية غالية الثمن.

بدأ عَبد يضحك. يضحك بصوت عال. وللحظة ارتبك صادق. ربما فقد الاتجاه. لم يفهم على ما يبدو ولا أنا فهمت. قلت يضحك عَبد حرجًا. فلمّا زاد الضحك توجست. بدأ الموضوع مزاحًا ومناقرة، سينقلب غمًّا. يغضب عَبِد ويرفض الهدية، يتألم صادق ويجرحه تصرف أخيه.

- الله يسامحك يا خوي. كم دفعت في هذه الملابس؟

- قل لي أنت أولًا لماذا تضحك؟

كان صادق مُسْتَفَزًا.

- لأنك كلّفت نفسك ودفعت مبالغ طائلة في ملابس لن

أرتديها. والآن دعنا نتصرف بحكمة. تعالى معي نعيد هذه الملابس للمحل الذي اشتريته منها وتسترجع ثمنها.

- ما الغلط في أن أهدي أخي الأصغر ملابس أنيقة؟!

كان صوته بدأ يعلو ويحتدّ

- وإن كنت بحاجة لثمنها؟

- خذ الهدية وقل لي كم تحتاج وسأعطيك.

- أحتاج مليون دولار. وإن كان في مقدورك أن تعطيني أكثر لا مانع.

- عَبد، الله يرضى عليك، كُف عن المزاح. ضغطي عالٍ يزيده هذَا الكلام.

- منذ متى عندك ضغط؟ لم يخبرني أحد. هل تأخذ حبة كل يوم؟

- ليس وقته. كم تحتاج؟ لِمَ لَمْ تقل لي إنك تعاني أزمة مالية؟ وما معنى أن أشتغل هنا كالبغل إن لم أوفِّر لأهلي ما يحتاجونه؟!

- أولًا سلامتك من الضغط وآسف. لنتكلم بهدوء. دعنا لا نخلط المواضيع. الهدية موضوع. ما أحتاجه من مال موضوع آخر. جئت خصّيصًا من باريس لأحدِّثك فيه. المشكل أن هديتك غالية وأن ثمنها يمكن أن يضيف إلى المبلغ الذي جئت أطلبه منك.

- هل قررت أن تتزوج؟

- إطلاقًا.

- مديون؟

- لا.

- إذن ما الموضوع؟

الموضوع المشروع. اسمع.

انسحبت رندة. قالت ستطول السهرة. سأذهب للنوم. وبدا لي أن عَبِد قد يكون بحاجة للتحدث إلى أخيه على انفراد. قلت:

- بنا يا مريم.

قالت مريم:

- أريد أن أعرف ما المشروع. وقد أساعد عَبِد في إقناع صادق. ألا يقول صادق إنني أصلح محامية؟!

قال عَبِد:

- اجلسي معنا يا أمي. أريد أن أسمع رأيك. ابقي يا مريم. قد تساعدينني في الدفاع عن مشروعي.

غمزت له مريم بطرف عينها وقالت:

- لو اقتنعت!

وضحكت. صادق لم يضحك.

جلسنا حتى الرابعة صباحًا. شرح عَبِد مشروعه باستفاضة. قاطعه صادق ليستفهم أو يستوضح أو يعترض أو يحتج. أو يهز رأسه فجأة

كأنه تنبّه أن عليه أن يفيق من شطحة خيال. في نهاية الجلسة فاجأني صادق. فاجأني رغم أن السلوك يشبهه تمامًا، قال:

- أوافق. سأعطيك ربع ما أملك.

أضاف وهو يضحك:

- حسب الشرع: لي ولأسرتي الربع، ولك الربع، ولحسن الربع، ولأمي ومريم الربع.

أردت أن أسأل «ماذا تقصد بحسب الشرع؟» ولم أسأل. كان جهدي منصرفًا في محاولة لحبس البكاء. لا أريد أن أبكي فيتحول انتباههم وتستيقظ مريم. كانت أسندت رأسها على كتفي ونامت.

قال صادق:

- شرط واحد. تقبل الهديه.

قال عَبِد:

- حسب الشرع. آخذ بدلة وقميصًا وزوجًا واحدًا من الأحذية.

- أي شرع؟

- شرعي أنا.

- والبدلتان الأخريان والقمصان؟ ليست مقاسي.

- نستبدلها في المحل بواحدة لك وواحدة لحسن أو تسترد نقودك. اتفقنا.

ربما كان صادق منهكًا. قال:

- حاضر. تصبحون على خير.

مال عَبِد على مريم وقال بصوت عالٍ قاصدًا إيقاظها:

- مريم هل أحملك كما كنت أفعل وأنت صغيرة؟!

فتحت عينيها:

- ماذا حدث في المشروع؟

الفصل الخامس والأربعون

بالقانون

كيف أصف المشهد؟ أحاول استعادته وأعرف أنه يصعب نقله لا لأن الذاكرة تُسقط وتضيف أو تصدِّر وتؤخِّر بل لأن ما جرى لم يكن ما قيل من كلام. سأنقل الكلام لأنقل ما جرى واعية بأن ما أنقله أقرب لخيال الشيء لا الشيء نفسه. كأنه بئر لا نرى منها سوى القليل الذي اغترفه الدلو. توتُّر؟ نعم. كان في المشهد توتر. وقلق؟ ربما. وعلاقة أخوين كحبل المراكب، غليظ يُظهر الشدّ مدى متانته. وأدوار تنقلب في لمحة عين. ثم تعود تنقلب. ثم تنقلب ثالثة ورابعة. أيهما الأكبر إذن؟ صادق هشّ في علاقته بمن يحب. أمر طبيعي. هكذا العاشقون. عَبد مندفع كقاطرة عمياء بلا سائق. يقول صادق أنا الكبير. يبدو فجأةً مستبدًّا. ثم تنكسر الموجة التي بدت عاتية وهي تعلو لأنها حين تلامس رمل الشاطئ تغدو وديعة أليفة كماء الجداول. وأمين؟ كان حاضرًا في المشهد وإن لم يظهر فيه ولا ورد اسمه. جلسة عاصفة؟ نعم. حزينة؟ لا. لأنني حين اختليت

بنفسي تلك الليلة بكيت. كأنني تصالحت مع الدنيا. كأنها حكمت لي بما ضنَّت به على أمي.

قدم عَبِد لمشروعه بحديث طويل متخصِّص عن السجال الدائر في أوربا حول التشريعات المُلْزِمة دوليًا. قال:

- هناك نقاش قانوني جاد عن ضرورة إنشاء محكمة دولية لعقاب الأفراد المسئولين عن جرائم الإبادة الجماعية أو أية جرائم ضد الإنسانية. وهناك جماعات نشطة تدفع في هذا الاتجاه. شخصيًا أتوقّع أن تصدر في السنوات القليلة القادمة تشريعات مُلْزِمة دوليًّا تعزِّز اتفاقيات جنيف والمواثيق الخاصة بالتعذيب. هذا فضلًا عن أن قوانين بعض الدول الأوربية فيها من البنود ما يسمح برفع قضايا على جرائم لم تقع على أراضيها ولا المتهم فيها ممن يحملون جنسياتها، وما يسمح بأن يكون المدعي أفرادًا لا دولًا. و...

قاطعه صادق:

- ما علاقة ذلك بمشروعك يا عَبِد. ما هو مشروعك؟

- صبرك عليّ يا خويْ. التشريعات الحالية قد لا تسمح لنا بعد برفع قضايا. أو أننا لم ندرس هذه التشريعات بما يكفي لنجد منفذًا لرفع قضايا. علينا أن نستعد. هنا تأتي قيمة المشروع الذي سألخص لك الآن العناصر الأساسية فيه.

كدت أتدخل في الكلام. أردت أن أقول لعَبِد ماذا دهاك يا ولد

هل تعتقد أننا يمكن أن نسترد أرضنا بقضية نرفعها أمام القضاء الأوربي؟! لم أقل شيئًا. صادق قال:

ـ يخرب عقلك. كنت فدائيًّا تحمل السلاح. لماذا؟ أجب لماذا؟

لم يمهله وقتًا للرد. أجاب بنفسه:

ـ لأن القانون الدولي لم يعطِك حقك لا في الأول ولا في الآخر. لا قانون ولا مجتمع دولي ولا أمم متحدة ضمنت لك حق العودة ولا استعادة الأراضي المحتلة في سنة الـ٦٧ ولا أي حق تم اغتصابه. كم قرار صدر من الأمم المتحدة؟! كم مجزرة تمت بعدها؟! هل عوقبت إسرائيل مرة واحدة؟!

ـ مشروعنا قائم على ثلاثة عناصر: عنصر قانوني محض يقوم بدراسة القوانين في مختلف الدول الأوربية بحثًا عن المنافذ التي يمكن استخدامها لرفع قضايا. الثاني هو عمل قائمة بعدد من القضايا المُمْكِنَة وتوفير المستندات الضرورية لها. الوثائق. الشهادات. الدراسات... إلخ. العنصر الثالث هو العنصر البشري: الاتصال بالمُضارين الذين قد تقام الدعاوى بأسمائهم أو قد يقومون بدور الشهود، والاتصال بمحامين. أقصد إقامة شبكتين: شبكة من المُضارين. وشبكة أخرى من القانونيين، المحامين والمستشارين القانونيين. هذا تلخيص مُخِلٌّ لأنني لا أريد أن أطيل عليك وأستفيض في كلام قانوني.

ـ عَبِد، هل تحلم؟ أم تبحث لنفسك عن عمل؟ يلعن سماك

يا أخي، ما تقوله لا يليق بشاب مثلك يعرف تاريخ القضية الفلسطينية ودور المجتمع الدولي في نكبتنا.

التفت إليّ صادق وقال ساخرًا:

- ابنك تأثر بالكلام الشائع عن نبذ العنف وإمكانية حل قضيتنا بشكل سلمي. زرت مصر قريبًا أم التقيت بأبو عمار؟!

احْمَرّ وجه عَبِد وعلا صوته:

- عيب يا صادق. أحدِّثُك حديثًا جادًا. مهتم اسمع للنهاية. غير مهتم. أسافر غدًا.

- لا أمك ولا مريم ولا أنا لنا علاقة بالزيارة! من باب الحياء قل أسافر بعد غد وأقضي يومًا معكم لأنني اشتقت لكم! ماذا جرى لك، جننت؟! أحيانًا تراودني نفسي أن أغصبك غصبًا للعمل هنا وأزَوِّجُك فتعيش كباقي الخلق. أوربا أفقدتك عقلك. لا زوجة ولا عمل مناسب، وتلبس كالصعاليك مُعَلِّقًا خرجًا على كتفك. ماذا جرى لك؟!

فَزَّ عَبِد واقفًا:

- عندك مشروب؟

- عندي

- تشرب كاس؟

- أشرب.

قام صادق وأحضر زجاجة ويسكي وكوبين ومكعبات ثلج. صبّ لنفسه ولأخيه. تطلّع فيَّ عَبِد.

- تشاركينا؟

ضحكت:

- شكرًا. صحة وعافية.

- سأوضِّح لك الأمر بمَثَلَيْن: مثل قريب ويبدو أبسط، والآخر بعيد نسبيًا وأكثر تعقيدًا. يمكن أن نرفع قضية. ليس الآن. بعد سنوات قليلة لأنني أتوقع صدور تشريعات جديدة ربما في خلال سنة أو سنتين. نرفع قضية ضد المسئولين عمَّا جرى في صيدا مثلًا: قصف المدرسة وقتل كل من كانوا فيها. تدمير المستشفى على من فيه. ما فعلوه في عين الحلوة. ما المطلوب؟ مطلوب أولا أن نتّصل بالمُضارين. حصر الضرر: القتل الجماعي. الاعتقال. التعذيب. تدمير البيوت... إلخ. سيرفع القضية شخص أو عدة أشخاص بالنيابة عن أنفسهم أو بالنيابة عن أنفسهم وآخرين. إذن مطلوب ثانيا الاتصال بهؤلاء الأشخاص. الاستماع إليهم. تصنيف من يصلح أكثر لرفع القضية ولديه الرغبة في ذلك، ومن يصلح لتقديم شهادته فيكون من الشهود. يُمكن الاتصال بمدير المدرسة والحصول على شهادة مُفَصّلة منه. يُمكن الرجوع إلى مسئول الدفاع المدني في الجنوب. لدينا تقارير المراسلين الأجانب التي نشرت في حينه في صحفهم. لدينا المقابر الجماعية ومنها المقبرة القائمة حتى الآن عند شبكة الباسكيت بول في باحة المدرسة والمغطّاة بالأسفلت.

- وعلى من تُرفع القضية؟

- على وزير الدفاع الإسرائيلي وعلى رئيس الأركان وعلى غيرهما أيضًا.
- ولكنها كانت حرب.
- كان غزوًا. ولكن الحرب والغزو لا يُحِلَّان الإبادة ولا قصف بيوت المدنيين وهدم المستشفيات على المرضى وقتل الأطفال في المدارس. ولا تسمح الاتفاقيات المُنَظِّمَة لمعاملة أسرى الحرب بتعذيبهم وقتلهم. كل ذلك حدث في صيدا وعين الحلوة. مطلوب دراسة ما حدث، والعمل على التكييف القانوني والبحث في التشريعات الجنائية لبلاد أوربية تسمح بإقامة دعاوى من هذا النوع.
- فرضًا تمكَّنت من رفع قضية. هل تتم المحكمة غيابيًّا؟ وهل يسمح القانون الدولي نفسه بطلب تسليم المتهم؟ ماذا عن سيادة الدول وحصانة قادتها؟
- المبدأ الأساسي في التشريع المُلْزِم دوليًا يسمح بحق الدول في أن تقوم محاكمها في التحقيق والنظر في الحالات الصارخة، تحديدًا جرائم الإبادة والتعذيب وجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية حتى ولو تمت هذه الجرائم خارج أراضيها وإن لم يوجد رابط مباشر بين هذه الدول والمجرم أو الضحية أو موقع الجريمة. ومن لديه حصانة اليوم لأنه رئيس وزراء أو وزير ستسقط عنه الحصانة بعد عام أو اثنين. الآن أعطيك المثل الآخر الأصعب: تصوَّر لو سمحت التشريعات التي نتوقع صدورها والتي بدأت بشائرها بأن نرفع قضية بشأن

الطَّنْطُورَة. يمكن أن ترفع الوالدة قضية. هناك قتل جماعي. جريمة حرب. وجريمة ضد الإنسانية. هناك عملية نهب تقتضي التعويض عن أراضي القرية وحقولها ومزروعاتها والماشية التي استولوا عليها والدور وأثاث الدور.

- ونتنازل عن حق العودة؟

- طبعًا لا. هذا حق في عودتك لوطنك. طردونا ولنا حق العودة. نهبوا ملكيتنا الخاصة، فلنا حق المقاضاة لاستعادتها.

- وعلى من ترفع القضية في هذه الحالة. وهل تسقط بالتقادم؟ معظم قادة الجيش في الثمانية والأربعين ماتوا وربما كلهم ماتوا.

- هذه نقطة قيد البحث. هناك عشرات الأمور التي نحتاج لبحثها. نحتاج لقانونيين أَكْفَاء ولباحثين ولمؤرخين، ونحتاج لإقناع الأهالي بجدوى إقامة هذه الدعاوى. رفع القضايا مكلِّف. لكنني لا أتحدث الآن عن رفع القضايا. لأن هذا يأتي لاحقًا ومشروعنا قد لا يدخل في هذا الأمر بشكل مباشر. نحن فقط نريد أن نمهِّد الأرضية، بمعنى. نبحث أ - في المخارج القانونية. ب - تكوين شبكة من الأهالي أصحاب المصلحة من ناحية، ومن القانونيين والمحامين القادرين والراغبين في الإسهام في هذا المشروع من ناحية أخرى. ج - أن نكوِّن بنكًا للوثائق والدراسات التي تسمح مستقبلًا برفع هذه القضايا. تصوَّر يا أخي لو كل شخص أو مجموعة أشخاص من قرية فلسطينية دُمِّرت ونهبت أراضيها وممتلكات أهاليها رفعوا

قضايا. ستنظر المحاكم في ٤١٨ قضية بحد أدنى. ولو أن أهالي القرى التي تعرضت لمجازر رفعوا قضايا فأمامنا ٢٠ مجزرة بعضها أكبر من مجزرة الطَّنْطُورَة ودير ياسين. هذه هي المجازر المعلومة لكن الباحثين قد يكتشفون مجازر أخرى لم يؤرِّخ لها أحد.

كان صادق الآن يتمشى ذهابًا وإيابًا. ويتمتم:

- بتحلم يا خويْ. والله بتحلم. يا ريت بالقانون نحصل على حقنا. من منا يختار كل هذا الدم؟!

جلس فجأة. قال:

- ولماذا لم تشر إلى قضية عن مجزرة صبرا وشاتيلا والمخطوفين، وأنت طرف مباشر فيها. أنا وأنت وحسن وأمي ومريم؟

- على الجدول عشرة ملفّات. كل ملف منها قضية مُحْتَمَلَة تحتاج عملًا. منها طبعًا صبرا وشاتيلا. ربما الفكرة كلها دارت في رأسي وأنا أفكر فيما دار في مستشفى عكا. باختصار يا خويْ نريد وقتًا. ونريد مالًا. ونريد أن نعمل ليل نهار.

- وماذا تفعل إن لم تصدر أيٌّ من هذه التشريعات التي تتوقع صدورها؟

- ستصدر. كل المؤشرات تؤكِّد ذلك. صدر فعلا في بلچيكا قانون منذ أشهر في هذا الاتجاه ولكنه لا يكفي.

- وماذا لو رفعتم قضية وثانية وثالثة وخسرتم. أو صدرت

تشريعات مضادة تقيّد مثل هذه القضايا.

ـ هذا مُحْتَمَل. الخسارة واردة حين تغامر بمشروع جديد. ولكن في حالتنا ستخلق هذه القضايا رأيًا عامًّا يعرّف الناس بهذه الجرائم.

ـ أي ناس؟

ـ في أوربا.

ـ ملعون أبوهم. إنهم متواطئون. تجري الجرائم أمام عيونهم ولا يحركون ساكنًا.

ـ هذا تبسيط يا خويْ. عموم البشر ليسوا بهذا السوء. هناك المؤسسات القابضة ذات المصالح. فعلا قتّالين قُتَلَة على استعداد للذهاب إلى أبعد مدى. وهناك البشر، عموم البشر. ناس عادية تريد أن تعيش بأمان. تربّي صغارها وتسعى إلى متع صغيرة. مباراة كرة قدم أو أسبوعين من الكسل على شاطئ مشمس. ناس تجزع وتتألم فعلًا عند رؤية طفل يُقتل ظلمًا. ليسوا وحوشًا بل بشر مثِّلي ومثك، وأحيانًا يكونون أفضل لأنهم لم يتعرضوا لعنف يُوَلِّد فيهم عنفًا.

الفصل السادس والأربعون

السلسال

ضحكت. ضحكت طويلًا. أمسكت بخصري من شدة الضحك. قلت: الله يجازيك يا عَبد! كنا نحتسي القهوة، على وشك أن نغادر إلى المطار لنودِّعه. قال صادَق:

- تأكد أن معك جواز السفر وبطاقة الطائرة. تأكد أنك لم تترك محفظتك أو أيًا من بطاقاتك. تأكد...

ضحكت مريم:

- صادق، لماذا تصرّ على معاملتنا كأطفال؟!

الوداع ثقيل. أقول تعوَّدت. أكتشف ساعة السفر أن التعوُّد وهم. تطلعّ عَبد إلى ساعته. قال سنغادر بعد عشر دقائق، أليس كذلك؟ خمس دقائق وأكون جاهزًا. دخل إلى الغرفة التي ينام فيها ثم خرج منها يحمل حقيبته الجلدية الصغيرة معلّقة على كتفه وفي يده اليسرى مغلف من النايلون السميك به البدلة التي أهداها له أخوه. وفي اليمنى كيس نايلون.

علّق صادق:

ـ ما لها الحقيبة.. أليست أفضل من شغل يديك الاثنتين هكذا؟!

قال عَبِد وهو يضع كيس البدلة بجواره ويفتح الكيس الآخر:

ـ هذا الكيس لكم. الهدايا.

ـ أية هدايا؟

ـ الهدايا التي أحضرتها لكم.

ـ وتعطيها لنا وأنت مسافر؟!

ـ نسيت. كنت مشتاقًا إلى حد أنني لما رأيتكم نسيت!

ضحكت. وواصلتُ الضحك حتى وأنا أرى عَبِد يعطي مريم وصادق وزوجته وأولاده هداياهم. وعندما مدّ لي يده بكيس صغير جدًّا أصغر من نصف الكف كنت ما زلت أضحك. قال:

ـ سلسال من الفضة.

فردته على صفحة يدي لأتأمله.

قال عَبِد وهو يقبّل رأسي:

ـ سأحكي لك حكايته ونحن في الطريق.

أراد أن يقطع عليّ طريق التأثّر. استغرق في حكاية طويلة عن صديقه العراقي مصطفى الذي صمم له السلسال. مصطفى كردي ولكن أستاذه يحيى نصير من الصابئة. هل تعرفين من هم الصابئة؟

حكى عن الصابئة. حكى عن يحي نصير الذي علَّم مصطفى الصياغة. حكى عن عائلة مصطفى التي تعيش في كردستان العراق. حكى عن الأكراد. قال مصطفى فنان تشكيلي ليست الصياغة حرفته ولكنه صمم لي الحلية. قال: عبقري. حكى عن فنهّ. عن معرض أقامه في باريس وبهر الناس. حكى كيف التقى به. كيف صار صديقه. حكى متى ترك العراق ولماذا تركها وكيف تنقَّل بين عدد من البلدان إلى أن استقرّ به المطاف في باريس. لم يتوقف عَبِد عن الكلام إلى أن دخلنا المطار ولم يعد أمامه إلا أن يقبِّلنا مودِّعًا ويمضي إلى ما وراء السور.

في طريق العودة صارت مريم تحكي بلا انقطاع كأخيها. تحدّثت نصف الطريق. ثم فرغ الكلام. قالت:

- هل أغني لكم؟

قال صادق:

- لا.

لفّنا الصمت طوال النصف الثاني من الطريق.

ما إن عدت إلى البيت حتى علَّقت السلسال. بقي في رقبتي. تستقر حليته أسفل النحر بقيراطين ومن حوله الحبل، يتجاوزه إلى الصدر أعلى الثديين، به مفتاح دارنا في البلد. أصحو وأنام بالسلسالين، ومثل أمي لا أخلعهما حتى وأنا أتحمم.

غريب: حديث عَبِد المُمِلّ عن صاحبه الكُردي ومعلمه الصابِئي والذي كدت لولا الحَرج، أن أطلب أن يكُفّ عنه، صار جزءًا من

الهدية، لا ليلتها فقط وأنا أفتح محبس السلسال وأعلِّقه في رقبتي بل كلما نظرتُ إلى المرآة أو تحسستُ حليته بأصابعي أو انتبهتُ لملمسها على جلدي. حلية فضّية أقرب لغلاف كتاب بحجم عقلة إصبع أو صفحة مُنَمْنَمَة منزوعة من دفتر مُنَمْنَم مثلها. لائحة من فضة نُقشت عليها حفرًا بالمينا وبخط كوفي كلمة «الطَّنْطورِيَة».

الفصل السابع والأربعون

مركز الأبحاث (٢)

نادى صادق على سومانا وسلّمها الرسائل التي حملها لها من صندوق البريد. ثم فتح مُغَلَّفًا بُنِّيًا وأخرج منه مجلات، قال:

- أرسلها لي حسن بالبريد. له مقال فيها. أرسل نسخة لي ونسخة لك ونسخة لمريم.

ناولني المجلة بعد أن فتحها على بداية المقال. رأيت العنوان وتحته اسم حسن. تصفحته.. كان مقالًا طويلًا.

غريب. أقرأ كل ما يكتبه حسن، حتى إن لم استوعب نصفه أو ثلثيه. قرأت رسالته للماچستير لأنها مكتوبة بالعربية، أما الدكتوراه فكانت بالإنجليزية ولم أتمكّن من قراءتها. وصلتني بالبريد ونحن في الإسكندرية. طلبت من مريم أن تقرأها وتوجز لي ما جاء فيها. ضحكت مريم وقالت: عليّ أن أقرأها ثم أتأكد أنني فهمتها فأقرأها مرة ثانية ثم أُلخصها ثم يأتي حسن فتكتشفين أن ابنتك حمارة ولـخَّصت غلط لأنها فهمت غلط!

يحرص حسن أن يرسل لي نسخة من أي مقال أو كتاب ينشره. ينتظر أسبوعين أو ثلاثة ثم يتصل:

- ما رأيك؟

أضحك. في كل مرة أضحك وأشعر بالدم يصعد إلى رأسي. أقول:

- لم أتجاوز الثانوية العامة يا حسن!

أو:

- لم أُتِمّ كتابًا بعد ترك المدرسة إلا كتبك، فكيف تأخذ برأيي؟!

وهو دائما يردد العبارة نفسها:

- يهمني رأيك. ثم إنني لا أؤلِّف كتبًا في الفيزياء أو الرياضيات. هل قرأت الكتاب؟

- قرأته مرتين. وأحببته جدًّا، ولكن...

- لكن ماذا؟

- رأيي مجروح. ثم إنني وأنا أقرأ لك أتخيَّلك وأنت تكتب، أرى وجهك، جلستك، حركة يديك، مكتبك. فأشتاق أكثر!

قلت ذلك مرة واحدة ثم لُمت نفسي لتورّطي في كلام عاطفي. سيتأثر الولد. تكفيه الغُرْبَة. صرت أقول له رأيي صراحة: أحببت كذا، لم أفهم كذا، ضقت بكذا وبدا لي ذلك الجزء مُمِلًّا... إلخ. ولكنني دائمًا أنهي الكلام بأن ما أقوله هو إحساسي بما قرأت. يصعُب أن أسميه رأيًا. يضحك، يضحك بارتياح ويقول، في كل مرة يقول:

- هذا رأي مهم. أحترمه وأتعلَّم منه. لن تصدقيني ولكنني صادق!

حملت المجلة ودخلت إلى غرفتي. جلست على المقعد الوثير المقابل للسرير ورحت أقرأ في مقالة حسن.

تحت عنوان «شهادة»، كتب حسن:

مدخل شخصي جدًّا:

بدأت علاقتي بمركز الأبحاث الفلسطيني في بيروت بكذبة كذبتها على أبي. قلت له إنني بحاجة لبدلة لأنني مدعو لحضور عرس شقيق صديق لي: لا بد لي من بدلة وقميص أبيض جديد وربطة عنق. كنت في الخامسة عشرة.

كانت زيارة المركز مناسبة مهمة أنتظرتها طوال أسابيع، حلمًا كبيرًا بدا أنه على وشك أن يتحقق. وأردت أن أكون بحجم الحلم، كبيرًا ومقنعًا. من هنا جاءت فكرة البدلة وربطة العنق.

حين اصطحبني عبد الرحمن علي الباحث في المركز وصديق الأسرة، لم يدلّني على الطريق لأنني كنت ذهبت إلى المكان أكثر من مرة. أسير حتى نهاية شارع الحمرا ثم أطلع طلعة السادات وأنحرف يمينًا في شارع كولومباني، مائة متر ثم أجد المبنى ذا الطوابق الستة. أقف ولا تواتيني الجرأة على الدخول. أبقى واقفًا على أمل أن ألمح الدكتور أنيس صايغ. فلا ألمحه فأمضي.

في يوم من أيام صيف ١٩٧٢، أول أيام عطلة نهاية العام الدراسي، تحممت وارتديت القميص الجديد والبدلة وربطة العنق،

ولـمَّعت حذائي بعناية حتى بدا كأنني اشتريته قبل لحظات. التقيت بعبد الرحمن عند تقاطع شارع الحمرا بشارع السادات واتجهنا معًا إلى شارع كولومباني. دخلنا المبنى. عرَّفني عبد الرحمن على المركز وبعض العاملين فيه وعلى التسهيلات التي تُقَدَّم للباحثين.

فجأة وجدت الدكتور أنيس أمامي، كأنه خرج من إحدى صوره: الوجه المدوّر والنظارة والشارب الكث. في لمحة أدركت أنه أصغر مما تصورت وأكثر امتلاءً. قَدَّمني له عبد الرحمن. صافحني الدكتور أنيس وسألني عن الكلية التي أدرس فيها. قلت إنني انتهيت من الصف الأول الثانوي فابتسم وحيّاني وذهب. ولكن اللسعة في أذنيّ لم تذهب، كنت أعي احمرارهما واحمرار وجهي وأتساءل إن كان الدكتور أنيس لاحظ ذلك. تركني عبد الرحمن في المكتبة بعد أن أطلعني على أقسامها وكيفية البحث عن كتاب أو خريطة. طلبت كتابًا وجلست طويلًا أمامه أقرأ دون أن أستوعب أي شيء. كنت مضطربًا وغاضبًا من البدلة التي أتت بمفعول عكسي. وعندما عدت إلى البيت علَّقت أمي: لماذا ارتديت البدلة قبل العرس؟ قلت: كان لدي موعد مهم. أما العرس فأُلغي.

بعد أسبوع واحد من زيارتي. انفجرت الرسالة الملغومة في وجه الدكتور أنيس وأصابت وجهه وكتفه ويده اليسرى. يومها كنت في المُخَيَّم في معسكر للأشبال. ما إن سمعت بالخبر حتى طرت إلى المركز لأعرف التفاصيل.

كانت هذه على ما فيها من اضطراب، هي بداية علاقة حميمة ربطتني بالمركز. أتردد عليه في عطلة الصيف. أطالع. أبسط الخرائط

أمامي وأطيل النظر فيها كأنني سأرسمها من جديد. صار العاملون في المركز يعرفونني ويألفونني. وصار الدكتور أنيس حين تعافى وعاد إلى عمله، يعرفني. يقول: «كيفك يا حسن» وهو يبتسم لي ابتسامة مشجِّعة. أرد التحية وأبتسم ولكن لا أجرؤ على التطلّع إليه، رغم أنني كنت أرى دون أن أتطلع، الأصابع الثلاثة المبتورة، والنظارة السميكة التي تعوِّض قليلًا مما راح.

مدخل شخصي سريع عن ولد ألهمه المركز وغذَّى خياله وعقله ووعيه بموقعه، وفتح أمامه الباب واسعًا على البحث والمستقبل، كم من الباحثين الشباب وغير الشباب أفاد هذا المركز بمكتبته ووثائقه وخرائطه ومخطوطاته ومنشوراته الدورية وغير الدورية!

ننتقل لصلب الموضوع:

حين دخل الإسرائيليون بيروت في الخامس عشر من سبتمبر عام ١٩٨٢ قام الجنود الإسرائيليون باقتحام المركز. وجاء في مانشيت جريدة السفير يوم السبت ١٨ سبتمبر:

بيروت تحت الاحتلال
حملة مداهمات واعتقالات واسعة
اقتحام مكتب منظمة التحرير ومركز الأبحاث الفلسطيني
ومصادرة معظم الوثائق والمستندات.

لم تحمل الجريدة تفاصيل المداهمة التي جرت في اليوم السابق (يوم الجمعة ١٧ سبتمبر) وهو اليوم الذي استكملت فيه القوات

الإسرائيلية احتلال بيروت. كان على الجريدة تغطية مواقع انتشار القوات الإسرائيلية، والمعارك التي دارت بين القوى الوطنية وقوات الغزو، والأماكن التي قصفتها الدبابات الإسرائيلية، والحرائق التي نشبت، وأعداد الشهداء والجرحى، والاعتقالات والمداهمات التي طالت منازل وفنادق ومقرّات أحزاب ومجلات ووكالات أنباء. باختصار لم يكن للجريدة أن تتوقف طويلًا أمام احتلال مركز للأبحاث وقوات الاحتلال تتوغل في العاصمة، تحكم قبضتها عليها وعلى ضواحيها. وفي تغطيتها المُفَصَّلة لأحداث يوم الجمعة (موضوع المانشيت في عدد يوم السبت) تُفرد الجريدة صفحة كاملة، ترد فيها السطور التالية عن المركز: «كما داهم عدد من الضباط الإسرائيليين مركز الأبحاث الفلسطينية في شارع السادات. وذكر شهود عيان أن الضباط مكثوا في المركز حوالي ساعتين خرجوا بعدها منه بعد زرع عبوة ناسفة في أحد جدرانه جرى تفجيرها كَهْرُبَائِيًّا من الخارج حيث كانت ترابط دبابتان وعدد من الجنود ثم دخل الضباط المركز ثانية ومعهم أكياس كبيرة. وذكر أنهم أخذوا من المركز عددًا كبيرًا من الوثائق». وهنا ينتهي الجزء الخاص بالمركز والذي يرد ضمن تغطية المداهمات والاعتقالات. وبالعودة إلى العمود الثامن والأخير من الصفحة نفسها، نجد سطورًا قليلة تقول: «وفي الضاحية الجنوبية أيضًا داهمت القوات الإسرائيلية العديد من المنازل خاصة في برج البراجنة ومُخَيم شاتيلا. وذكرت مصادر أمنية أن عناصر من ميليشيا سعد حداد دخلت مُخَيَّم البرج وشاتيلا وصبرا وتحدثت التقارير عن عمليات تنكيل بالفلسطينيين أقدمت عليها ميليشيات حداد».

من الواضح إذن أن خبر المجزرة التي بدأت مساء الخميس

وتواصلت طوال يوم الجمعة لم يكن وصل إلى الصحفيين حتى الجمعة ليلا فلم يعلموا إلا بحدوث «تنكيل» بالفلسطينيين. فقط يوم الأحد وبعد انتهاء المجزرة سينتشر الخبر وتنشر الجريدة في مانشيت صفحتها الأولى:

مذابح في المخيمات

ثم صورتان متجاورتان بعرض الصفحة التقطتا لبعض الضحايا، وتحتها مانشيت أصغر:

أنباء عن سقوط ١٤٠٠ قتيل في مخيمي صبرا وشاتيلا

الغزاة اقتحموا المنازل والمستشفيات

وأبادوامن فيها من جرحى ونساء وأطفال

أعتذر عن الاستطراد (وإن كان في نظري على الأقل، ضروريًّا) وأعود إلى مركز الأبحاث الذي حرصت القوات الإسرائيلية على اقتحامه ما إن انتشرت في بيروت. وبذلك تزامنت المجزرة مع تدمير المركز ونهب محتوياته، لا يفصل بينهما زمنيًّا إلا ساعات، إذ بدأت المجزرة مساءً أما المركز فقد دوهم نهارًا. (لأن العتمة النسبية في الحالة الأولى كانت أداة مطلوبة، أما ضوء النهار في الحالة الثانية فكان هو المطلوب لفحص الكتب والوثائق). فحصوا ومزَّقوا ودمَّروا وخرَّبوا ثم غادروا بعد ثلاثة أيام وقد حملوا ما حملوا. قيل إن محتويات مكتبة المركز نُقلت في قافلة من الشاحنات اتجهت إلى إسرائيل، وإن خبراء انضموا إلى الضباط والجنود لفحص ما يريدون نهبه. نقلوا ما يقرب

من عشرة آلاف كتاب بالعربية والإنجليزية والفرنسية والعبرية، فضلًا عن مخطوطات وخرائط نادرة ووثائق، منها وثائق الهيئة العربية العليا وحكومة عموم فلسطين وأوراق دائرة المخابرات في الشرطة الفلسطينية في عهد الانتداب، ومجموعة كاملة لإحصاءات وبيانات دائرة الأراضي في حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين بها كشف مُوَثَّق بملكية أراضي فلسطين أيام الانتداب، وصحف ومجلات من أيام الانتداب البريطاني. كما نقلوا الملفات وأشرطة المايكروفيلم، والتسجيلات الصوتية.

ثم حطّموا أثاث المركز والأجهزة في غرفة المطالعة: آلات الكتابة وآلات التصوير وأجهزة قراءة أفلام المايكروفيش، وتركوا المكان مُدَمَّرًا بشكل كامل.

ويقول الدكتور أنيس صايغ مدير المركز من عام ١٩٦٦ إلى عام ١٩٧٧، إنه حِرصًا على محتويات المكتبة، قام المركز بإعداد أربعة أفلام مُصَوَّرة لمحتويات ملفات المعلومات، احتفظ بنسختين منها وأعطى نسخة لجامعة الدول العربية ونسخة لجامعة بغداد، وإن المركز كان يُصدر نشرة فصلية فيها كشوف بمقتنيات المكتبة من الكتب الجديدة، ترسل إلى المكتبات ذات الشأن، ثم إنه وضع خطة سرية للحفاظ على الكتب النادرة والوثائق والخرائط تتيح نقلها بسرعة عند أي خطر داهم. يقول: «كانت لدينا خطة سرية متكاملة للحفاظ على محتويات المكتبة، يعرفها المسئولون عن المركز، لماذا لم ينفذوها؟». يسأل الدكتور أنيس بصوته الخفيض وهو يتطلع من وراء زجاج نظارته الطبية السميك، ويكرر السؤال بهدوء كأن الغليان في صدره أمرٌ شخصي لا يجوز إعلانه أو إطلاع آخرين عليه.

أتعجّب مثله. وأتعجّب أكثر لأن الباحثين في مركز الأبحاث والمسئولين عنه والذين عادوا إلى عملهم بعد أيام من الواقعة لم يقوموا بإعداد كشوف بالكتب والوثائق والمخطوطات المسروقة مستفيدين من الأفلام المودعة في الجامعة العربية وفي جامعة بغداد، وبكشوف الكتب الجديدة المحفوظة في أكثر من مكتبة.

في نهاية عام ١٩٨٣ انتهت مفاوضات منظمة التحرير مع إسرائيل عبر الصليب الأحمر الدولي بشأن تبادل الأسرى. وتضمّنت المفاوضات مُحتويات المكتبة المنهوبة وتم الاتفاق على استعادتها. وصلت الكتب من إسرائيل إلى جنيف في مائة وثلاثة عشر صندوقًا خشبيًّا كبيرًا، حملها ممثِّل الصليب الأحمر الدولي إلى الجزائر لتسليمها. لم يظهر أي شخص يمثِّل المركز ولم يكن لدى مكتب منظمة التحرير في الجزائر قائمة بالمحتويات المنهوبة. فظل يؤجل الاستلام. ثم أخيرًا استلمها.

بعد استلام الصناديق تم نقلها إلى معسكر الخرُّوبة ومنها إلى معسكر تيبسَّة الذي استقبل وحدات من جيش التحرير الفلسطيني التي رحلت مع المقاومة من بيروت في أواخر شهر آب/ أغسطس ١٩٨٢. ويقول سميح شبيب الباحث في المركز ورئيس قسم التوثيق فيه، إنه ذهب في مطلع شهر آذار/ مارس ١٩٨٦ إلى الجزائر برفقة صبري جريس مدير المركز (أي بعد عامين ونصف من التاريخ الذي كان يتعيَّن عليهما أن يكونا في الجزائر)، وإنهما التقيا بالسفير الفلسطيني هناك، الذي أخبرهما أن مندوب الصليب الأحمر ومندوبًا عن الأرشيف الدولي بقيا أسبوعين في الجزائر في انتظار مدير المركز أو

ممثِّل له لاستلام الكتب والوثائق، وإنه اضطر في نهاية المطاف لاستلام الصناديق بالوزن دون فحص ما فيها لعدم وجود قائمة بالمحتويات.

ويقول سميح شبيب إنه سافر إلى تيبسَّة للاطلاع على محتويات المكتبة. ولما وصلها سأل مدير المعسكرِ عن مكتبة مركز الأبحاث فاستغرب الرجل السؤال إذ لم يكن لديه أي علم بالأمر. بالبحث والتقصِّي اتضح أن المكتبة في عهدة ضابط جزائري في معسكر متاخم لمعسكر الفلسطينيين في تيبسَّة. ويضيف شبيب أن الضابط اصطحبه إلى مخزن كبير مغلق بقفل. وأنه وجد الصناديق المتطابقة مغطاة بخيام. وقال الضابط الجزائري لشبيب: «هذا هو الأرشيف الفلسطيني، منذ أكثر من عامين وأنا أرعاه وأتفقده يوميًا، وأخاف عليه من القوارض وغيرها، الحمد لله بقي على حاله منذ تسلمه، إنه أمانة كبيرة. نصركم الله وأعادكم إلى دياركم». في اليوم التالي تمكَّن شبيب من الكشف على عشرين صندوقا. كانت جميعًا سليمة.

ويواصل شبيب روايته قائلًا إنه قضى أربعين يومًا في الجزائر يحاول الحصول على تصريح بشحن الكتب إلى قبرص (كان مركز الأبحاث انتقل إلى قبرص). ويشير تلميحًا أحيانًا وتصريحًا في أحيان أخرى أن بعض المسئولين في الحكومة الجزائرية عرضوا على السفير الفلسطيني مبنى في العاصمة الجزائرية يستأنف فيه عمل المركز وتنقل إليه المكتبة، وإن السفير كان يميل لذلك الاقتراح وبالتالي لم يسع لتسهيل الحصول على الأذونات الضرورية للشحن. كما كان أبو عمار يُفَضِّل التريُّث في نقل المكتبة أملًا في قبول الحكومة المصرية لفتح المركز في القاهرة. لاحقًا سيرسل أبو عمار ـ وهذا ما يقوله شبيب ـ صبري

جريس مدير المركز إلى القاهرة ليعرض إهداء المكتبة لمؤسسة الأهرام (وبها مركز للأبحاث الاستراتيجية).

لم تُقبل الهدية.

وينهي شبيب روايته قائلًا إن المكتبة نُقلت لاحقًا إلى معسكر آخر هو معسكر البيّض نُقل إليه الفلسطينيون و«لم تحظ المكتبة بأي اهتمام جدي. ولم تتوافر أدنى الشروط اللازمة للتخزين. فبدأ التلف يفعل أفاعيله بها، إضافة إلى أفاعيل القوارض. ومن بعدهم البشر».

قبل شهور التقيت بالدكتور أنيس في عمّان وسألته عن المكتبة. قال إن الكتب التي لم تُسرق نُقلت إلى قبرص عام ١٩٨٣ ثم إلى عواصم أوربية. وإنه لا يدري كيف ولماذا وماذا حدث لها. أما الكتب المنهوبة فقد نجح الصليب الأحمر في نقلها إلى الجزائر وقيل إنها ضاعت هناك، كما قيل إن جزءًا منها وصل بحرًا إلى ميناء أسدود وإن سلطات الميناء الإسرائيلية أبلغت المنظمة فلم ترد استجابة، ثم أنذرت المنظمة أنها ستتلفها إن لم تتسلمها.

تطلع فيّ الدكتور أنيس فجأة وقال: «هذا كل ما أعلمه يا حسن».

لماذا استطردتُ في الحديث عن مجزرة شاتيلا والأحياء المتاخمة لها؟ مؤكد أنني لم أقصد مقارنة فجة بين الكتب المنهوبة والشهداء، أو المساواة بين نهب المركز والمجزرة، ولكنني أردت أن أشير ولو بشكل ضمنيّ للسياق الذي نشأ فيه هذا المركز وتم جمع وثائقه وخرائطه ومخطوطاته وكتبه النادرة. أن تقيم مركزًا للأبحاث بهذه القيمة في سياق المذبحة وبالرغم منها (لا أقتصر هنا على مذبحة شاتيلا

والأحياء المتاخمة أيام الخميس والجمعة والسبت ١٦ و١٧ و١٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢، بل أعني التاريخ الفلسطيني طوال نصف قرن: المذبحة الممتدة من العام ١٩٤٧ حتى مذبحة الخليل قبل أيام) أقول: أن تنشئ هذا الصرح في سياق مذبحة شيء فَذٌّ في قيمته، نادرٌ في تاريخ البشر. لذلك فإن المشاركة في تبديده أو العبث به جريمة مُرَكَّبَة تتضمن من بين ما تتضمن الاستخفاف بالاسم الفلسطيني والدماء التي أعطته هويته ومعناه.

الفصل الثامن والأربعون

خرّاط البنات

نعم، «خرطها خرّاط البنات». من أين أتيتُ بهذه العبارة؟ سمعتها من زوجة خالي أبو جميل. طَفَت العبارة، كما تطفو مَنْسِيَّات الذاكرة لنكتشف فجأة أنها محفوظات لم ينل منها تواريها في ركن ما أو زاوية. هل كانت أم جميل تكرر العبارة من حين لآخر أم قالتها مرة واحدة تعليقًا على انتباهها أنني صرت صَبيَّة؟ أرى مريم تكبر يومًا بعد يوم. الزُنْبَرَك يقوم بفعله. أعرف. ولكنني انتبه فجأة كأنني لا أعرف. أقول: «خرطها خرّاط البنات». أفكر في أمين. أمعن النظر كأنني أريد أن آخذ له نصيبه. هل كانت تترقرق عيناه وهو يرى ابنته صبية بهذا الحسن؟ ابتسم فجأة، أقول «كغصين البان» قدها تزيده الاستدارات ملاحة. قال أمين: تطلَّعي يا رُقَيَّة، ما أجمل هذا الوجه! كانت رضيعة مدوَّرة الوجه، شعرها كثيف السواد وعيناها كحيلتان. بشرتها ناعمة رائقة هشة كأنها من أوراق الورد المحيَّر بين الأبيض والوردي الشفيف. صارت صَبيَّة يا أمين. جميلة كما كانت دائمًا. الآن زادها حسنًا لسان طويل. ثرثارة يا أمين. كثيرة غَلَبَة كأخيها عَبِد،

تفوقه في حب المناقرة والمناكفة، الرد السريع دائمًا على طرف لسانها. وتغنِّي. كان يعجبك صوتها عندما كانت تغني. صوت طفلة. اختلف الصوت. بالأمس غنَّت لي أغنية قالت إنها تعلمتها من زميلة لها في المدرسة. أغنية عن الإسكندرية:

يا اسكندرية بحرك عجايب.. يا ريت يـنوبني من الحب نايب
تحدفني موجة على صدر موجة.. والبحر هوجة والصيد مطايب
أغسل هدومي وانشُر همومي على شمسة طالعة وانا فيها دايب
كأنـي فلاح في جيش عرابي مات ع الطوابي وراح في بحرك
كأني نســـمة فوق الروابي م البحر جاية تغرق في سحرك
يا اسكندرية يا مصراوية على سن باسم على ضحكة هلّه
البحر شبَّـــاك ومشربية وانت الأميـرة ع الدنيا طالّه

افتقدتك يا أمين. افتقدتك لأنك كنت معنا وغائبًا، ولأن ألم الغياب بدا كخيط دقيق مضفور بخيط آخر من الزهو ربما، ومن الامتنان لك. لم تعد طفلة يا أمين. صوت امرأة أطلقه اللحن والكلمات. فاجأتني مريم. فاجأني أنها وهي في الخامسة عشرة من عمرها لم تعد طفلة. كانت امرأة امرأة قوية.

حين اختلينا في جناحنا في الليل طلبت منها أن تغني لي الأغنية مرة ثانية. قالت: «لا. أحسن تشتاقي لها». ضحكت. ثم وأنا في السرير وجدتها تقف بجواري وتغني لي بعض أبيات الأغنية بصوت خافت

كأنها تهدهدني لأنام. وبدّلت في الكلمات، والأداء والصوت، حتى الإيقاع صار مختلفًا:

يـا طَـنْـطـوُرِيَّـة
بحرك عجايب..
يا ريت يـنوبني
من الحب نايب..
تحدفني موجـة..
على صدر موجة..
والبحـر هـوجة
والصيد مطايب.
أغسل هدومي
وانـشـر هومي
على شمسه طالعة
وانا فيها دايب.

ثم

يـا طَنْطُـورِيَّـة
يـا حَـيفَـاوِيَّـة
على سـن باسم..

عـــلى ضحكة

هـــالـــــه..

البحر شبــَّـاك

و مشر بيــه . . .

وانـــت الأمــيرة

ع الدنيا طالّه.

كانت تبتسم وهي تغني. تقطِّع الكلمات بإيقاع لعوب. تدلِّلني بالغناء. أقاوم بكاء يتفلَّت مني. لا أريد للبهجة أن تنقلب إلى أمر حزين. قلت:

- تصبحين على خير يا مريومة.

ضَحِكَتْ:

- مريومة لعَبِد فقط. الاختراع مُسَجَّل باسمه.

ابتسمتُ:

- مسموح استخدامه مع الاحتفاظ له بحق الاختراع!

ضَحِكَتْ:

- غير مسموح!

قبلّتني وذهبت إلى فراشها.

غريب. نمت. رأيتك في الحلم يا أمين. تستقبل جاهةً جاءت

تطلب يد ابنتك. ترتدي حلتك الكحلية وقميصك السماوي وربطة العنق النبيذية الداكنة. تبدو راضيًا. تبتسم. سألت فجأة: «أين الشاب الذي يريد مريم؟» واستيقظت.

ثم حلمت حلمًا آخر. أطول. رأيت الشاب الذي طرحه البحر. رأيته كاملًا تمامًا كما رأيته في بحر الطَّنْطُورَة. تحت شمس ساطعة. مشدود الساقين عاري الصدر يقترب بخطى وئيدة على الرمل المبلل. حتى حبّات البلل على كتفيه كانت واضحة في الحلم. بدا شديد الجمال، ربما أجمل مما رأيته قبل أكثر من أربعين عامًا. ولكن الجالسة على الشاطئ لم تكن رُقَيَّة بل كانت مريم. قلت لها إن اسمه يحيى وإنه من عين غزال. كانت تتطلع إليه وتومئ برأسها وهي تبتسم وتكرر: أعرف.. أعرف.

غريب. كأنما في الحلم رؤيا يا أمين. حدَّثتني جارة من الجارات أنها ترغب في خطبة مريم لابنها. تحدَّثت عن ابنها الذي يدرس في القاهرة. أطلعتني على صورته. قلت: مريم صغيرة، ستدرس في الجامعة بعد انتهائها من المدرسة. قالت الجارة وهي امرأة لطيفة طيبة: لا نتحدث في الزواج الآن. حين يأتي في العطلة تتعرفون عليه، ويتعرف على مريم وتتعرف عليه. إن أعجبها نتشرف يا ست رُقَيَّة بالنسب. حدَّثت صادق فضحك كأنني أقول نكتة. فلما أعدت دفة الحديث إلى الجد، رفض بشكل حاسم. قال: لا أحد يرتبط الآن في الخامسة عشرة ولا حتى السابعة عشرة. مريم صغيرة لماذا تكبلينَها بزوج وصغار ومسئوليات! أمامها مسئوليات من نوع آخر. الدراسة ومستقبلها العملي. حدَّثت مريم. تصرفت كصادق ولأنها أطول

منه لسانًا راحت تُعلِّق على الشاب الذي يطلب يدها دون أن يراها. ويكتفي بعيني أمه. هل سأتزوج أمه؟! ثم راحت هي وصادق يتندّران على الأمر ويحوِّران فيه ويبدِّلان إلى أن أصبح موضوعًا للضحك.

مريم قررت أن تدرس الطب يا أمين. لا تفوِّت مناسبة لإعلان قرارها. صادق يبدو قلقًا. ليس متأكدا أنها ترغب في الأمر. قال: تريد أن تكون مثلك. أسرَّ لي بذلك. وأسرَّ لعَبد أيضًا في زيارته الثانية لنا في أبو ظبي. لم يتغير عَبد. أتى كما في المرة الأولى لأسبوع واحد بالحقيبة الجلدية الصغيرة ذاتها المعلقة على كتفه. والبنطلون والقميص والحذاء الكاوتش. وأعلن منذ وصوله أنه لم يستخدم البدلة إلا مرة واحدة والبدلة والقميص وربطة العنق كلها جديدة على حالها. هذا إنذار مبكر يا سيد صادق لكي لا تعود لارتكاب ذات الحماقة! وتمامًا كما في المرة السابقة لم يتذكّر الهدية إلا يوم سفره. ضحكنا. علَّق صادق: أعتقد أن عَبد خبيث يدَّعي أنه نسي ليجعلنا نضحك ونحن نودِّعُه. ضحك عَبد وقال مازحًا: «مظلوم يا بيه، والله مظلوم!» فضحكنا أكثر. أثناء زيارته جلس مع مريم ليناقش معها أمر دراستها. قال:

- يا مريومة، حين تختارين تخصُّصًا، لا تتوقفي كثيرًا عند المواد الدراسية التي تحبينها أو لا تحبينها، انظري أبعد قليلًا. فكري فيما تريدين أن تفعلي بحياتك. كلامي صعب؟ مثلًا لو قررت حفر مجرى، مهم أن تعرفي كيف، أقصد أن تحصِّلي المهارات اللازمة لمعرفة طبيعة التربة وأساليب الحفر وتأمين حافتيه... إلخ. أليس كذلك؟

قالت:

- تمام.

ضحك، قال:

- أبدًا مش تمام. الأهم، أن تعرفي مكان هذا المجرى، من أين وإلى أين ولماذا، أقصد لماذا تحفرين هذا المجرى هنا تحديدًا لا في مكان آخر، ما وظيفته، ما هدفك أنت منه.

تدخّلت في الكلام:

- لا أفهم شيئًا مما تقول يا عَبِد. ولا مريم فهمت.

تطلّعت فيّ مريم، قالت:

- ماما، انتظري قليلًا. أكمِل يا عَبِد.

قال عَبِد:

- باختصار فكِّري فيما تريدين أن تفعليه بحياتك. وهذا يقتضي التفكير في خيار كل منا من يكون، ماذا يكون، أين يقف ولماذا؟

قاطعته:

- أريد أن أكون طبيبة.

- تريدين أن تكوني مثل أبي؟

- ممكن!

- كنت أدرس الهندسة المعمارية. ربما لأنني أردت أن أكون مثل صادق لأنه الكبير ولأن أبي وأمي كانا دائمَي الإشادة

بتفوُّقِه. وربما لأنني كنت شغوفًا بالبناء. شغوفًا بكتب المعمار. بعد ١٩٨٢ انتبهت ذات يوم وأنا أتطلع حولي في الأنقاض والدمار الذي حل بالمدينة، وبالمُخَيَّمات قلت: ما جدوى بناء البيوت الجميلة أو تخطيط المدن إن كانوا سيهدمونها على رأسك، ما الجدوى؟ قلت لنفسي أمامك خياران يا ولد، لا ثالث لهما. أن تتخصص في العلوم الحربية فتصير فدائيًّا على مستوى. أقصد تخطِّط عن علم ومعرفة، أو تتخصص في القانون. تحمي المكان أولًا، تؤمِّنه ثم اجمح بخيالك كما تريد لتخطط مدنًا جميلة كالأحلام. الاختيار الأول لم يكن متاحًا فذهبت للثاني.

- فهمتِ يا مريومة؟
- فهمت يا عبّود.
- وست الحبايب فهمت؟

لم أجب عن سؤاله. كنت أفكر في اليوم الذي أبلغني فيه أنه سيترك كلية الهندسة. ووقعت بيننا مشادة، كنت ساخطة لقراره بترك دراسة قطع فيها ثلاث سنوات ليبدأ من جديد. قلت لنفسي أجاب الولد عن سؤالي بعد تسع سنوات. هل هي إجابة مقنعة يا أمين؟

قال:

- أين تريدين الدراسة. في بيروت؟
- لا أريد بيروت.

- أين إذن؟

- مصر.

- لماذا؟

- لأنها مصر. ولأن التكلفة تكون أقل على صادق. أقصد أقل من أوربا مثلًا. ومن بيروت أيضًا.

- في القاهرة؟

- في الإسكندرية لو سمح المجموع. يطلبون درجات عالية جدًّا. إن لم يكن في الإسكندرية ففي جامعة أخرى من الجامعات الإقليمية.

- لماذا الإسكندرية؟ لأنك تحبين أغنية فيروز.

غنت له مطلعها:

- شط إسكندرية يا شط الهوى/ رحنا إسكندرية رمانا الهوى.

ضَحِكَت:

- لا، بسبب أغنية الشيخ إمام.

غنت:

- يا إسكندرية بحرك عجايب يا ريت يـنوبني من الحب نايب/ تحدفني موجة على صدر موجة والبحر هوجة والصيد مطايب. بصراحة إسكندرية من أجل ماما.

- وهل تأتي ماما معك؟

ـ طبعًا.

ـ كيف ستتعلمين وأنت لابدة في حضن أمك؟

ـ أَلْبَد. ثم أتسحّب وأذهب إلى الجامعة أتعلّم قليلًا ثم أعود أَلْبَد. كل يوم شوية علم، وشوية على شوية يبقوا كثير رغم أنني لابدة!

ضحك للصورة. عادت للجد:

ـ ماما ترغب في اصطحابي. ليست سعيدة هنا وعندما عادت من بيروت ظلت مريضة شهرًا كاملًا. ماما تحب البحر ولذلك اخترت الإسكندرية لا القاهرة.

التفت لي عَبِد:

ـ موافقة على الإسكندرية يا ماما.

لم أجب.

لم أكن أعرف.

الفصل التاسع والأربعون

بيروت (٣)

«حُطّ راسك بين الروس وقول يا قَطّاع الروس». جاءني المثل وأنا بين اليقظة والنوم منشغلة بفكرة سفرنا إلى مدينة لا نعرفها ولا نعرف أحدًا فيها. لماذا لا نعود إلى لبنان، نسكن بيروت، أو نرجع إلى صيدا نعيش كما يعيش باقي أهلنا فيها، وليكن ما يكون. قال صادق وضع الفلسطينيين في لبنان يزداد صعوبة يومًا بعد يوم. قال إن صديقًا له زار بيروت مؤخرًا والتقى بشاب رفع عينيه فجأة وقال هامسا: «أنا فلسطيني!»، كأنه يُسرُّ له بالأمر أو ينقل حقيقة على استحياء، تستدعي الشرح أو الاعتذار. قال المجتمع غدا طاردًا للفلسطينيين. يقول لهم بألف لسان لا نريدكم. لا يجد الشباب عملًا. ولا تسمح لهم الحكومة بممارسة عشرات الوظائف. فضلًا عن سَمِّة البدن اليومية في الكلام المتطاير هنا وهناك عن الغرباء الذين خربوا البلد وتسّببوا في تدميرها.

لن نعود إلى لبنان. سنذهب إلى الإسكندرية. بداية جديدة. في الستين. من يبدأ مجددًا في الستين؟ أفضل أن نعود إلى لبنان، نَحُطّ

راسنا بين الروس. سمعت هذا المثل من زوجة خالي أبو جميل. غريب. تأتيني بعد غياب. لا يمر يوم إلا وأتذكر مثلًا قالته أو مشهدًا كانت طرفًا فيه. لم أعد قادرة على استدعاء ملامح وجهها. أذكر أنها كانت قمحية اللون وفي شعرها جعدة واضحة، وأنها كانت فصيحة في الكلام. أذكر يوم دعتنا لتناول الْمَسَخَّن في دارها. نقترب من دارها فتستقبلنا رائحة خبز الطابون والبصل المخلوط بالسُّمَّاق وزيت الزيتون. فجأة قلت: جوعانة. ضحك أخواي. قالا إنها الرائحة، أسالت لعابك. قلت صحيح، حين خرجنا من البيت لم أكن أشعر بالجوع، ولما استنشقت الرائحة تخيَّلت الفرُّوج المحمَّر مستقرًا على رغيف الطابون فجُعت. ضحكا أكثر. مْسَخَّن أم جميل لا يُعلى عليه، ولا المقلوبة التي تطبخها. ويضيف عِزّ: ولا الملوخية.

هل كانت أم جميل تدعونا كثيرًا أم أن أكلها كان طيِّبًا إلى حد يصعب نسيانه فيبقى كأننا تناولناه عندها عشرات المرات؟ يوم أكلة المسَخَّن أو يوم آخر قالت أم جميل إن جدها لأبيها أخبرها أن كثيرًا من أهل الطَّنْطُورَة جاءوا من مصر على أيام إبراهيم باشا ابن محمد علي الكبير، واستقروا فيها. فضحك عمي أبو الأمين وقال:

- يمكن كان سيدك يحب مصر فقال أصلنا منها. هل درس في الأزهر يا أم جميل؟

- درس في الأزهر. وكان يزور مصر مرة كل عام. يركب حصانه ويقول بخاطركم ويعود محمّلًا بالهدايا من كل شكل ولون. كنت صغيرة طولي خمسة أشبار.

تدخَّل خالي أبو جميل وقال وهو يحرك يده:

- على زمن تركيا كانت الدنيا مفتوحة على بعضها. الناس ترحل وتقيم حيثما أرادت ما دامت كلها أرض عرب ومسلمين.

عاد عمي أبو الأمين يضحك ويقول:

- أو كل واحد يختار يُرْجِع أصوله للمكان الذي يحبه أكثر. من يقول نحن أشراف من نسل الرسول جئنا في الأصل من مكة. ومن يقول نحن في الأصل أتراك، ما دام الأترك حكام البلد. ومن ينتسب لحلب بيت الإمارة والمركز أيام زمان. لا نعرف خيط الحقيقة من الخيال.

توتّر خالي أبو جميل فجأة. قال:

- الله يرضى عليكم. كفّوا عن هذا الحديث. اليهود لو سمعوه يقولوا لنا روحوا مصر أصلكم من هناك. لا ينقصنا هذا الكلام!

لم أعد أذكر شكل خالي أبو جميل. لا أذكر إلا أنه كان مسِنًّا ويحمل مسبحة طويلة في يده ويصلي كثيرًا، وأنه كان معنا في الشاحنة التي حملتنا إلى الفريديس. لا أذكره في الفريديس ولا في المَسْكُوبيَّة في الخليل. ولكن أمي كانت تقول إنه وزوجته ذهبا عند ابنتها المتزوجة والمقيمة في الشام.

قالت مريم إنها لن تدرس في لبنان. هل هذه رغبتها أم أنها تصورت أنني لا أريد العودة للإقامة في بيروت؟ عندما عدت من زيارتي لبيروت، الزيارة الوحيدة بعد تركنا للبنان، مرضت ولازمت الفراش شهرين. قال صادق إن الزيارة هي السبب. ربما تأثرت مريم بما قاله أخوها.

نعم زرت بيروت. زرتها بعد خمس سنين من الغياب. أقمت في فندق. أضعت طريقي في الـمُخَيّم. لم أجد البيوت التي كنت أتردد عليها ولا المدرسة التي كنت أدرِّس فيها. اختلطت عليَّ الزواريب والاتجاهات. لم أجد أحدًا من معارفي، لا هنية ولا غيرها. أين ذهبوا؟! ألزمني الاضطراب غرفتي في الفندق يومين. ثم محاولة جديدة لاستعادة المدينة، رَبْط المستقِر في الحواس منها بالمستجدّ فيها. أمشي. أدقق النظر. أقول هنا كان. أُنَقِّب كأنما أبحث عن مدينة غارقة في المدينة، مغمورة في الركام. إنشاء سخيف. ليس كذلك. على الأقل ليس تمامًا. كان البحر في مكانه. بحر بيروت الأليف. والجبل حدّه الشرقي كالمعتاد. شارع بليس أيضًا على حاله. الجامعة الأمريكية. أتتبع خيطًا رفيعًا في الشوارع. أُدَقِّق النظر. أجد. ماذا أجد؟ دمارًا مزلزلاً كأنني لم أعِه من قبل. كأنني لم أره من قبل. في الطريق الجديدة. الفاكهاني. شارع الحَمْرَا. منطقة الأسواق. خط التماس. هل لأنني أشاهده الآن للمرة الأولى جملةً ومن خارجه؟ مستشفى عكا قائم، يتردد الخلق عليه وفيه أطباء وعاملون. مبنى مستشفى غزة قائم أيضًا، يسكنه مهجّرون، ولكن الـمُخَيّم تغيّر. بيروت كلها تغيّرت.

أتداعى يا أمين وأخلط الكلام. لم أقل لك لماذا تركت بيروت. كنت قررت أنني لن أغادر. كان صادق يلِحُّ ويضغط ويقول إنني أحمِّله ما لا طاقة له به. يتشاجر معي. يقول تأتيني كوابيس من شدة قلقي عليك وعلى مريم. لا أفهم ما الذي يربطك ببيروت. قلت لن أغادر. ثم غادرت. غادرت بسبب مريم. كانت تخاف كلما سَمِعَتْ صوتًا عاليًا. تقول إنه انفجار. ولأيام تالية يكون وجهها شاحبًا. قلت لنفسي ستتحمل كغيرها. ليس لكل أطفال البلد أخ يعمل في الخليج

يلجأون إليه من الانفجارات. قررت السفر يوم جاءتني مريم وجهها أصفر ويبدو عليها اضطراب واضح. سألتني:

- ماما هل سمعت عن أبو أرز؟

- أبو أرز؟ لا.

- من هو أبو أرز؟

- زميلتي في المدرسة حكت لي عنه. قالت إنه مثل الكتائب لكن أسوأ. هو ورجاله يخطفون الفلسطينيين ويذبحونهم ثم يربطونهم في سياراتهم ويقودونها بسرعة، ويتركون جسم القتيل يتخبَّط في الشارع ويتجرَّح ويتقطَّع. قالت لي إنه ورجاله يقطعون آذان من يقتلونهم ويعلقونها في سلاسل المفاتيح.

نهرتها. قلت:

- لا تصاحبي هذه البنت. هذه خيالات. خيالات مريضة. لا أحد يفعل ذلك.

تطلّعت فيّ مريم:

- ليست خيالات يا ماما، لأن البنت لطيفة وعاقلة وصديقتي منذ ثلاث سنين. لم تكذب عليّ أبدًا. أنا أيضًا لم أصدِّق ما حكته لي. قلت لها من حكى لك هذا الكلام كذّاب. قالت لم يحكِه لي أحد. سمعت أبي يحكي لأمي. كان عمي اختفى منذ شهرين وكنا نبحث عنه. ثم عرف أبي ما حدث له. حكى لأمي وبكى. ولم يكن يعرف أنني أسمعه. كان يظن أنني نائمة. حين قالت ذلك صدقتها. ماما، ماذا سنفعل؟

عادت مريم تتبول في فراشها أثناء النوم.

قررَّتُ الرحيل.

في بيروت يتحدثون عن الغرباء يا أمين. عن خراب لبنان الذي تسببنا نحن فيه. النغمة قديمة من الثلاثة وثمانين، أيام حكم الكتائب. لكن الغريب أنني في زيارتي لبيروت سمعتها من آخرين ليسوا من حزب الكتائب ولا أنصارهم.

وفي بيروت التقيت بعَبد شقيق وِصَال. عاد من عمّان. يعمل الآن في مؤسسة أخرى للدراسات. صار له ثلاثة أطفال.

حكى لي عَبد الكبير مُطوَّلًا عن عموم الأوضاع في لبنان وعن أوضاع الفلسطينيين فيها. يعرف التفاصيل لأنه يعايشها وأيضًا لأن عمله يقتضي تتبعها والبحث فيها. سألته عن عين الحلوة. قضى يومًا كاملًا معي يحكي لي ما لم يحكه لي عِزّ ولا كريمة. فهمت لماذا قرر عِزّ الانتقال إلى تونس والاستمرار مع المنظمة رغم سخطه على القيادة وأدائها أثناء الاجتياح. لن تتعرف على عِزّ يا أمين. دعنا من بياض الشعر. أبيض كنَدْف القطن، ولا شعرة واحدة سوداء. هكذا حاله منذ أكثر من عشر سنين. حين التقيت به في بيروت بعد الاجتياح ثم بعدها بعامين كان صاخبًا، يسبّ ويلعن كأنه عَبد الصغير لا عِزّ الضحوك. فهمت اضطرابه وارتباكه. فهمت أشياء كثيرة لأن عَبد شقيق وِصَال يعرف وكنت أسأله وكان دائمًا يجيب. لم أرَ عِزّ إلا مرتين، يوم عرس حسن في اليونان، ومرة أخرى هنا في أبو ظبي. جاء في مهمة ما والتقينا. لم أشهق ولا صحت حين رأيته. هداني الله للهدوء. احتضنته. وتكلمت معه بشكل عادي كأن شكله الجديد

لم يزلزل الأرض تحت قدميّ. في الليل بكيت. أي والله بكيت. لا لأنه اكتهل. كان اكتهل منذ رحلتَ وصار في عين الحلوة ما صار. في الاجتياح وما بعد الاجتياح. كان عِزّ يبدو أصغر من سنه، لأنه نحيل أو لأنه ضحوك، بسبب حيويته ونشاطه أم هكذا خلقة ربنا، منحته عذوبة من سمات الصغار. حين تسلَّل من صيدا بعد مجزرة شاتيلا ليطمئن علينا، بدا وكأنه كبر عشر سنوات في بضعة أشهر. بدا كهلاً. ولكن حين زارنا في أبوظبي يا أمين بدا ثمانينيًّا، أكبر من عمي أبو الأمين في آخر أيامه. كأن الشيخوخة سكنت روحه وراحت تنتشر في جسده كالورم الخبيث. صامت وبعيد. حتى مشيته صارت مشية المسنين، بطيئة هشة وفيها حذر.

الفصل الخمسون

مصر التي...

غادرنا أبو ظبي إلى القاهرة في الأسبوع الأول من أيلول عام ١٩٩٣. ما إن ربطنا الأحزمة وأقلعت الطائرة حتى أغمضتُ عينيّ. كنت في طريقي إلى مصر للمرة الأولى في حياتي. مصر التي قالت أمي إن الصادق وحسن ذهبا إليها. عاشت وماتت وهي تردِّد ذلك وتعتقد فيه. ما إن بدت القاهرة على بعد ثلاث ساعات من الطيران حتى جاءتني أمي. تلبَّستني. لازم عقلها الممسوس عقلي. الصادق وحسن هناك في تراب الطَّنْطُورَة. أعرف. فلماذا أجنح إلى خيالات أمي، فيبدو لي كأن عليّ ما إن تحط الطائرة على أرض مصر، وأنزل وأختم جواز السفر، أن أخرج إلى الشوارع للبحث عنهما؟ كأن ما اختلقه خيال أمي غدا نبتة نمت على مر السنين. ضربت في الأرض. صار لها دغلٌ من الجذور. أقول ماتت أمي قبل ثلاثة وأربعين عامًا. دفنّاها في صيدا في قبر معلوم. أقول مات الصادق وحسن وأبي قبل خمس وأربعين سنة. دفنهم الشباب تحت تهديد السلاح في أرض الطَّنْطُورَة. لا شاهدة، لا علامة. تحررت جثامينهم ربما، فغدوا من

رمل البلد وصبّارها. ولكن أمي، غريب، أتت معي. أهشُّها. أدفعُها بعيدًا أو أكلمِّها كلام العقل فأقول أنت ميتة هناك في صيدا. ما الذي أتى بك هنا؟ ولماذا جئت بهم؟ إنهم هناك. اتركيهم لشجر اللوز في البلد. اتركيهم للزيتون فهو معمِّر يعيش ألف عام.

ـ هل أنت نائمة يا أمي؟

أفتح عينيّ وأهز رأسي.

ـ حسبتك نائمة.

ـ لست نائمة يا مريم.

أغلق عينيّ فأرى أمي كاملة. أسمعها تردِّد: «الصادق وحسن هربا إلى مصر». تكرر: «سأسافر إلى مصر ولا أعود إلا وهما معي». لماذا تأتين معي إلى مصر يا أمي؟!

لم أرَ مدينة بحجم القاهرة. رأيتها مرارًا وتكرارًا في الأفلام. وقبل الأفلام أَلِفْت الاسم وبعض صفاته. يقول أبي سمعت كذا من إذاعة القاهرة، أوتغني أم جميل:

يا مصر ما أبعدك كل الحبايب فيك

لو قصّرت خيلِنا على الإجرين باجيك.

أغنية صرت أردِّدُها في السر لنفسي حين خطبني ابن عين غزال. قلت لن أستغرب شيئا فيها. أعرفها. ولكنني استغربت. أفزعني الزحام وأربكتني الفوضى. واستوقفتني فيها الحياة. القوة والزخم. كانت مريم تريد أن ترى ألف شيء. أقول سننتقل إلى الإسكندرية

بعد خمسة أيام. يمكنك العودة ثانية وثالثة ورابعة، أكتفي بمشاهدة الأهم الآن. ولكن مريم تريد سياحة مكثّفة. تريد أن ترى الأهرام والقلعة والأزهر. تريد أن تزور المتحف المصري والمتحف الإسلامي والمتحف القبطي. تريد أن تذهب إلى قبر جمال عبد الناصر. تريد أن ترى جامعة القاهرة حيث دَرَس حسن. تريد أن تركب سفينة في النيل ساعة الأصيل. ويا مريم هلكت، لا أستطيع. تسحبني سحبًا وتواصل سياحتها. أتبعها. تروقني رغم الإرهاق، فرحتها بما ترى. مريم لا تمشي. تطير. لم ادخل متحفاً في حياتي من قبل ولا قمت بجولة سياحية. أكرر: القاهرة كبيرة لو زارتها أمي ما جنح خيالها لإمكانية أن تجد ولديها فيها. هل تصورتها أكبر قليلا من الطَّنْطُورَة؟ من صيدا؟ لم تزر أمي لا حيفا ولا بيروت. ولم تَرَ من دمشق سوى مسجد أقامت فيه وعيادة طبيب مجاور. ربما رأت فيلمًا قديمًا لعبد الوهاب أو لأسمهان فرأت شارعين أو ثلاثًا، عدد المارة فيها يمكن عدّه على الأصابع. تعبتُ في القاهرة. من برنامج مريم الأهوج. من الصخب والزحام. ولكنني أحببت النيل. أحببته واندهشت. كبير كأنه بحر. هادئ. لا صوت، لا موج، لا هواء مشبعًا بروائحه يعلن عن وجوده قبل أن تراه. لا يحتاجها على ما يبدو. هيبته في ذاته وتكفي. وعندما ركبنا القطار إلى الإسكندرية تابعت الأرض المبسوطة كالكف، مزروعة منسّقة مستطيلات ومربعات مرسومة رسماً على التربة. لا زيتون ولا لوز. أشجار أقل وزرع كثير. قلت أرض مصر تصاحب نهرها. بساط يلازمه بساط. حتى الجنون فيه منطق وعقل. قالت ذهبا إلى مصر. ككل الأمهات تمنّت لكل خطوة من خطى ولديها السلامة. أسعفها خيالها بأرض كالبساط.

على مشارف الإسكندرية راحت مريم تغني لي همسًا «يا إسكندرية بحرك عجايب»، فأضحك وأتابعها بنصف انتباه. أنظر في الساعة. لم أركب قطارًا من قبل في حياتي. وكان صادق نبهني: محطة سيدي جابر ليست آخر محطة في الخط. لا يتوقف القطار فيها إلا خمس دقائق أو ربما عشر ثم يتابع بعدها إلى محطته الأخيرة. تستغرق الرحلة ساعتين وعشر دقائق. استعدي قبل الوصول. احملي أنت ومريم ما وضعتماه بجواركما من أمتعة. واطلبي من العامل أن يستعد بالحقائب الكبيرة التي سلمتها له. يُنزلها لك ما إن يصل القطار. على المحطة ستجدي صديقي الذي حدثتك عنه. أكّدت عليه أن يكون في انتظارك. سيرافقك أنت ومريم إلى الشقة. هذا تليفونه. إن أردت أي شيء اتصلي به. وفرضًا لأي سبب لم تجديه، اطلبي من أحد الحمّالين أن يحمل الأمتعة على عجلته ويرافقكما إلى موقف سيارات الأجرة خارج المحطة. تعطين السائق العنوان. معك مفتاح الشقة. البناية من سبعة طوابق. شقتنا في الطابق الرابع. ما إن تصلي حتى تتصلي بي في التليفون لأطمئن.

كان صادق يحدِّد ما سنفعله ولا نفعله. ومريم تقول إن صادق يتعامل معنا كالأطفال. وصادق يزجرها بالنظر ويواصل الكلام.

عندما قمت من مقعدي في القطار. قالت مريم: ماما كل الناس قاعدة في أماكنها. سيضحكون علينا. ولكنني قمت فتبعتني. وكانت على حق لأننا وقفنا بجوار باب العربة ربع ساعة قبل أن يعلن السائق عبر مكبر الصوت: «محطة سيدي جابر». وبعدها بخمس دقائق توقف القطار. وكانت مريم تضحك.

الفصل الحادي والخمسون

جنائن منزلية

كيف تمر السنين؟ كيف مرت؟ في ومضة أم بطيئة كجَمَل يقطع صحراء تمتد في الأفق إلى ما لا نهاية، من أمامك وخلفك وعن اليمين واليسار؟ ما الذي أتى بالصحراء وأنا في الإسكندرية أسكن شارعًا تتلاصق فيه البنايات، في كل بناية منها طوابقُ عدة وشققٌ وسكان، ومارة وسيارات تَدْرُج في ثلاث شعب، طريق للسيارات المتجهة شرقًا وآخر للاتجاه المعاكس وبينهما خطوط الترماي، أسمع صوت احتكاك عجلاته بالحديد وأزيز مكابحه حين يقترب من المحطة ويقف، أو يبدأ في التحرك من جديد. صخب على مدار اليوم ومن طلعة النهار. لا يهدأ إلا في الساعات المتأخرة من الليل. يترك المدينة للبحر. أستنشق رائحته وإن حال الظلام دون رؤيته. لا أراه. أسمع هديره واصطدام موجه بالكسارات الحجرية على الشاطئ. من أين أتت الصحراء؟

مريم منهمكة في دراستها. تخرج في الصباح ولا تعود إلا بعد الظهر وأحيانًا في المساء. أنتظر عودتها أو إتمامها لتعليمها كي نرجع.

إلى أين؟ لا أدري. ربما إلى صيدا لو قَبِل الأولاد. لا أعرف أحدًا في الإسكندرية. غير دقيق. أعرف. جارة لطيفة هنا وهناك. البقال واللحّام وبائعة الخضرة وبائع الفاكهة والصِبْيَة الذين يعملون عندهم. أصحاب مريم وأحيانًا أمهاتهم. أدعوهن لشرب القهوة في بيتي أو أذهب إليهن مرة لا تتكرر أو تتكرر من حين لآخر. أتعلَّل بمناسبة أو بلا مناسبة وأدعو زميلات مريم وزملاءها على غداء أو عشاء. تنظيف البيت وشراء لوازمه وإعداد الطعام تنتهي جميعًا قبل الظهر بساعة وأحيانًا بساعتين. ما الذي أفعله بباقي ساعات النهار أتمشى على الكورنيش أحيانًا ثم أضجع بالزحام وصخب السيارات وأبواقها وعوادمها. أعود إلى البيت. أحيانًا أنزل إلى الشاطئ. أخلع نعليّ وأخوض بقدمَي العاريتين في الرمل، أقطعه في خط عمودي مستقيم باتجاه الماء. ثم أقف. أسْلِم نفسي لرائحة البحر ووشيش أمواجه ولما ينثره على وجهي وجسمي من ملح ورذاذ، يتسلل لا أدري كيف، إلى طرف اللسان. أظل واقفة هكذا أنظر. أو أتراجع خطوتين وأتربَّع، أو لا أتراجع، أقرفص كما كنت أفعل وأنا صغيرة في الثالثة، لم أتجرَّأ بعد على القفز في الماء. أقرفص عند باب البحر، أو أمشي شاردة لا أعي أو أفكر في أي شيء. فقط رمل مبلل تنغرس فيه قدماي، وزرقة مطرزة بالزبد، وهواء مُشْبَع برائحة أليفة يتسلَّل عبر الثوب إلى جسمي.

ذات صباح سألت بواب البناية إن كان يعرف الطريق إلى مشتل قريب. قال مشتل لنباتات الزينة؟ استغربت التعبير. قلت للنباتات. دلَّني. ذهبت مشيًا. وعدت بسيارة أجرة لأنني كنت اشتريت شتلات وأحواضًا من بلاستيك وتربة وسمادًا إضافيًّا. وعندما عادت مريم

من كليتها ورأت ما أحضرته من المشتريات ضحكت وقالت: دخول الجنينة مجانًا أم بفلوس؟

أحيانًا أتأمل الأمر فأقول إنني أتحايل على نفسي وعلى الوحشة والانتظار. وأحيانًا أنسى التأمل وأنهمك في الشغل في بستاني الصغير. أذكر أن أمي كانت تقول إن لزوجة خالي أبو جميل يدًا خضراء. كنت في الرابعة أو الخامسة حين سمعت العبارة فصرت أدقق النظر في يد زوجة خالي أبو جميل كلما التقيت بها، بحثًا عن يدها الخضراء. كان لون يديها قمحيًا. أغمق قليلًا من يدي. أقول ربما كانت خضراء ثم عادت إلى اللون الطبيعي. وربما تصبح خضراء في أوقات من النهار لا أراها فيه، أو في الليل وهي نائمة.

هل كانت أمي تقول إن يدي خضراء لو شاهدت بستاني الصغير؟ لم يكن بستانًا واحدًا. ثلاث جنائن صغيرة. لأن ما بدأ فكرة يوم سألت البواب عن مشتل قريب، تحوّل إلى شاغل يوميّ. زرعت زهور الخبّيزة في سبعة أحواض مستطيلة علقتها في سور الشرفة. الخبيزة يناسبها هواء الإسكندرية وشمسها. حتى في الشتاء تحتفظ بأوراقها وألوانها: أحمر ناري. وبنفسجي ناعم ولون ثالث مُحَيِّر بين اللونين. كانت الخبّيزة أول ما اشتريته من النباتات. استهوتني اللعبة. لاحقًا وضعت حوضين عميقين في جانب من الشرفة، زرعتهما بالفل والياسمين. الياسمين كالبنات يكبر بسرعة ويعرِّش. هذه هي الجنينة الأولى. (أحب الكلمة منذ وعيت أنها تصغير لكلمة جنّة). الجنينة الثانية صغيرة. على رخامة المطبخ الممتدة تحت النافذة الكبيرة حوض نعناع، حوض ريحان، وحوض ميريمية (قلت لن تنمو داخل البيت

في حوض صغير، ولكنها فاجأتني مفاجأة سعيدة). وكوز بطاطا حلوة في كوب ماء، شرّش ثم ورّق. ربطت أعواده بخيط شبكته بمسامير دقيقة، فامتدت وتسلّقت بأوراقها الخضراء على الإطار الخشبي للنافذة. الجنينة الثالثة على مدخل الشقة، خارج الباب، إلى يسار الداخل. كلها صبّار. سبعة أحواض متفاوتة الأحجام. منها الكبير والصغير. أنواع مختلفة. تُزهر. مرة واحدة في العام.

أردت أن أتشاغل بالزرع. غواني فانغويت. صرت أرويه. أُقلِّب تربته. أُغذِّيها بالسماد. أنظف أوراقه. أُدَلِّله وأفكر فيه. أفتقد شجرة اللوز. في الربيع أفتقدها أكثر. أحيانًا أتأمل ما أفعله فأكاد أسخر من نفسي. أتمتم: لا بأس لا بأس.

وأحيانًا تركبني حُمّى الزهور. أدور على المحلات وأشتري. أُنَسِّقُها في مزهريات أوزِّعها على البيت. في مصر زهور جميلة. زهرة غريبة بديعة الشكل غريبة لم أرَ مثلها من قبل. تنتهي ساقها الطويلة بما يشبه رأس عصفور الدوري، وأعلى الرأس عُرْف من أوراق ناهضة صفراء برتقالية تحيط بورقة أو ورقتين في لون البنفسج. سألت عن اسمها فلما قال البائع عصفور الجنة، أحببتها أكثر. أحمل معي إلى البيت عصفور الجنة في موسمه. وأحيانًا الورد الجوري. أفضِّله أحمر. وأحيانًا يستوقفني القرنفل فأشتري. لا أشتري الزنبق. لا يشبه زنابق البلد. رائحته مختلفة. لا أحبها. لا أحب المزهريات الثمينة. ولا المزهريات الفخّارية الملونة أو المنقوشة. أنفر من مزهرية تجذب العين. ما الداعي للزهور إذن؟ أضعها في أوان زجاجية، أوان عادية كالتي أحفظ فيها الزيتون أو البن أو السكر.

حين أنهمك في رعاية الزرع لا أفكر إلا فيه. أرويه. أُقلِّب تربته. أمسح الغبار عن أوراقه. أنقل نبتة ضاق عليها حوضها إلى حوض أكبر تنمو فيه براحتها. أُكَلِّم الزرع. دائمًا أُكَلِّمه. أُعَلِّق على سلوكه بالتشجيع أو التأنيب. أقول للنشيطة «ما شالله عليك، يخزي العين، شو هادا؟!» أوبِّخ الخاملة على كسلها: «يا هبلة. شوفي جارتك ورّقت وزهَّرت وصارت طولك مرتين!» تُعَلِّق مريم أنني أبدو كمدرِّسة تتعامل مع تلاميذ صغار. أستغرب التشبيه. أسألها: كيف؟ تضحك.

يشغلني الزرع. وحين أدخل إلى فراشي أتأمله وأتأمل علاقتي به. أقول لنفسي: جنينة في سجن. لا بأس. لا ضرر.

بعد أقل من أسبوع من وصولنا إلى الإسكندرية شاهدت أبو عمار في البيت الأبيض يصافح رابين وبيريز. وعن يساره محمود عباس وفي الوسط الرئيس الأمريكي. وقّعوا اتفاقية أوسلو. بعد دقائق من انتهاء البث التليفزيوني المباشر لحفل البيت الأبيض، اتصل صادق بالتليفون. قال: شو سوَّى الختْيَار؟ الممثل الشرعي والوحيد أسقط الساحل من الاتفاق. من يُمَثِّل الطَّنْطُورَة إذن؟ من يُمَثِّل صفد وطَبَرِيَّا والجليل وحيفا ويافا والرملة والنقب؟ من يُمَثِّل عكا والناصرة؟ من يُمَثِّلُنا؟ كان غاضبًا. وعلَّق بمرارة على حرص أبو عمار على مصافحة رابين وبيريز، وتمنُّعهما كأنهما يتنازلان بالمصافحة. «شو ها المهزلة؟! شو سَمِّة ها البدن؟!». ما إن وضعت السماعة حتى رن التليفون مرة أخرى. كان عَبد على الطرف الآخر. سب ولعن. وعلى عادته لم يوفِّر عبارة بذيئة إلاَ واستخدمها. لم يتصِل حسن فعرفت أنه يبتلع حزنه

على طريقته، وينكمش كفرخ حمام مبتل. اتصلت أنا به. قلت شو يا حسن؟ قال: «مطوّلة يا أمي. مطوّلة».

حسن على حق. من الإسكندرية. من نفس جهاز التليفزيون. من على المقعد ذاته وعبر الجهاز ذاته سوف أتابع أخبار مجزرة الخليل. وقتل رابين وجنازته. وحرص أبو عمار على تأدية واجب العزاء. مال على يد أرملته وقبّلها. شاهدتُه. ثم وقائع اجتياح إسرائيلي جديد لجنوب لبنان. ومذبحة قانا. وجنازة الشهداء. أتابع في صمت. أكرر عبارة حسن. أتمتم: مطوِّلة.

أتّصل بوصَال في جنين. يأتيني صوتها عبر التليفون فيبدِّد الصوت وحشةَ ما أوَ غصَّة خانقة أو على وشك.

أواصل الكتابة لأن حسن يسألني أين وصلت، وما الذي أنجزتُه. في كل مكالمة يسأل. أحيانًا يبدو الحكي ميسورًا. يأتي سهلًا فينكتب الكلام كأنما من تلقاء نفسه. أو يكون الحكي ممتعًا فأعايش مجدّدًا لحظة أليفة أو طريفة مع الأولاد أو عمي أبو الأمين. كأنني أستحضرهم فيحضرون فيملأون عليّ الدار. ثم أتوقّف. تصعب الكتابة. تثقُل. تبدو حملًا من حديد أضعه بمحض اختياري على صدري. لماذا يا حسن؟ بإمكاني ألا أطيعه. بإمكاني التوقّف. لماذا أطيعه؟ أجلس أمام الدفتر أتطلع في صفحة بيضاء مفتوحة كهاوية. ستقتلني الكتابة. قلت لك ذلك يا حسن. قال: «الكتابة لا تقتل». لماذا يبدو واثقًا إلى هذا الحد؟

أهرب إلى الزرع. إلى البحر. أقرر فجأة أن زجاج النوافذ مترب. يجعل البيت معتمًا ويحول بيني وبين الفضا. آتي بالسلم ومسّاحة

الكاوتشوك وفرشاة التنظيف ذات اليد الصغيرة والفرشاة الأخرى ذات العصا الطويلة، ودلو به ماء وصابون. أنظف السواتر الخشبية بالفرشاة. أغسلها بالماء والصابون. أمسح الزجاج بسائل منظف. أدعكه دعكًا. ألمعه. أجففه بالمسّاحة. ولا أنتبه إلا عندما تعود مريم. تقول ماما حرام عليك، قبل أسبوع واحد نظّفت نوافذ البيت وغسلت كل الزجاج. أقول دقائق، سخّني العشاء أكون انتهيت.

الفصل الثاني والخمسون

نيو جرسي

اتصل حسن، أخبرني أنه أرسل لي نسختين من كتابه الجديد.

ـ واحدة لك والثانية لمريم.

لحظة صمت ثم:

ـ ليست دراسة ولا بحثًا يا أمي. إنها رواية.

ـ قصة؟

ـ نعم قصة.

اندهشت.

اندهشت أكثر عندما وصلني الكتاب. كان على غير كتبه السابقة، صغير القطع والحجم، تسعين صفحة لا أكثر. قال إنه عن غزو لبنان. كيف؟ هل يمكن حكاية ما جرى في هذه الصفحات المعدودة؟ كيف يحتمل كتاب صغير أو كبير آلاف الجثث. قدر الدم. كمّ الأنقاض. الفزع. رَكْضُنَا طلبًا للحياة ونحن نتمنَّى الموت. ثم «نيو جرسي»، ما

هذا العنوان الغريب؟ ما علاقته بما جرى في لبنان؟ هل يتحدث في روايته عن أبيه؟ هل يُفرد لمستشفى عكا مساحةً أكبر، أم هل تدور الرواية كلها عما حدث في مستشفى عكا؟ هل يحكي عن بيروت، أم يكتب عن صيدا وعين الحلوة وقد استمع من عمه عِزّ إلى التفاصيل؟ لا أعرف كثيرًا عن القصص والروايات. ولم أقرأ من قبل إلا قصتين لغسان كنفاني أعارهما لي عِزّ أيام صيدا. القصة القصيرة لم أعد أذكر منها إلا عنوانها: «أرض البرتقال الحزين»، والقصة الطويلة عن ثلاثة شباب فلسطينيين أرادوا الدخول تهريبًا إلى الكويت فاختبأوا في خزان مياه فارغ في شاحنة. عطّل موظفو الحدود السائق فمات الثلاثة خنقًا دون أن يجرأوا على دق جدران الخزان.

شغلني أمر كتاب حسن طوال النهار، ولكنني لم أحاول تصفحه أو قراءة أية فقرة منه. في الليل، جلست في المقعد المجاور للسرير وفتحت الكتاب. قرأت. لم أنم إلا بعد أن انتهيت منه.

تدور الرواية حول بارجة اسمها نيو جرسي. عمارة بحرية هائلة بحجم ثلاثة ملاعب مجتمعة من ملاعب كرة القدم. طولها ٨٨٧ قدمًا ووزنها ٤٥ طنًّا وارتفاعها بارتفاع بناية من تسعة طوابق. في بطاريتها الأساسية تسعة مدافع قُطْر كل مدفع منها ١٦ بوصة وفي بطاريتها الفرعية عشرون مدفعًا أصغر. تطلق المدافع الكبيرة قذائف زنَة القذيفة الواحدة أكثر من ألف ومائتي كيلوجرام ومداها ٣٧ كم. أَما المدافع الأصغر فتصل إلى بعد ١٤ كم.

البارجة هي بطل القصة. نتتبع تاريخ مولدها، بل تاريخ ما قبل النشأة: واحدة من ست عمارات بحرية تفوق كل ما سبق. قررت

الولايات المتحدة صنعها عند بداية الحرب العالمية الثانية، لإسناد قواتها في مسرح العمليات المُحْتَمَلة في المحيط الهادي. في ٧ ديسمبر ١٩٤٢ تم تدشينها وتعميدها وغدا اسمها مدرجًا في سجلات البحرية الأمريكية. ولم يحتفل بمولدها الرسمي إلا عند استلامها للعمل وتكليفها بمهمتها الحربية الأولى في ٢٣ مايو من العام اللاحق. ساهمت البارجة في كل حروب الولايات المتحدة منذ منتصف القرن العشرين: في الحرب العالمية الثانية، في اليابان والفليبين في الأربعينيات. في حرب كوريا في الخمسينيات. في ڤيتنام عامي ١٩٦٨ و١٩٦٩، بعد تجديدها. ثم في مطلع الثمانينيات تحديث آخر وإضافة منصّات لإطلاق صواريخ هاربون وتوماهوك بعيدة المدى، ذهبت بعدها إلى المتوسط قاصدة لبنان. وفي ١٩٩١ اتجهت إلى الخليج.

يشدنا الحكي عن حياة البارجة. نتابع حركتها، عمارة سابحة تجوب أعالي البحار على متنها أكثر من ألفي رجل. تحملهم إلى المحيط الهادي. إلى الأطلسي. إلى الكاريبي. إلى المتوسط. إلى الخليج. واضحة تحت الشمس. ضبابية مغبَّشة في الغيوم وتحت المطر. ساطعة بأضوائها في ظلام الليل. نعرفها عن قرب وهي تؤدي وظيفتها بهمة ودقة وكفاءة: توجه مدافعها. تطلق. تصيب. طاقمها ـ ضباطها جنودها ملاّحوها أطباؤها ميكانيكيوها عمال نظافتها القائمون على تقديم الطعام الطباخون ـ طاقم نشط. كلهم يعملون. في المطبخ على سبيل المثال ينتجون يوميًا ١٨٠٠ قالب خبز طازج و٢٥٠ جالونًا من الآيس كريم.

عند نهاية الخدمة تتقاعد البارجة بسجلِّها الحافل وحصيلة من

الأوسمة تفوق كل ما عداها من بوارج البحرية الأمريكية. تسعة عشر وسامًا: تسع نجوم لدورها البارز في الحرب العالمية الثانية وأربع نجوم لأدائها في حرب كوريا ونجمتان لإنجازها في حرب ڤيتنام وأربع نجوم لخدماتها في حرب لبنان وحرب الخليج الثانية.

في القسم الثاني من القصة نتعرف على البارجة أكثر في مرحلة تالية. بعد التقاعد تحوّلت إلى متحف في كامدن بنيوجِرسي حيث ترسو على شاطئ نهرها. الزوار: رجال ونساء. شباب وكهول. رحلات مدرسية تريد لتلاميذها المعرفة والتربية الوطنية. أسر تصطحب أطفالها. يتجولون في أنحاء السفينة. ينزلون إلى باطنها. يمرّون صفوفًا عبر ممرّاتها. يشاهدون غرف قادتها وأَسِرَّة جنودها. غرفة القيادة والتحكّم. غرفة الأميرال. غرفة القبطان. حجرات الطعام. الحجرات الصغيرة الوثيرة حيث اعتاد الضباط على تناول طعامهم. و«الميز» الكبير المخصّص لأكل الجنود والبحارة. غرفة المحركات. العيادة. ورشة الإصلاحات. يصعدون إلى ظهرها. يتسلّقون أبراجها. يطلّون من طاقة هنا أو هناك. يتطلّعون إلى مياه النهر. إلى متحف الأحياء المائية القريب. إلى السماء. يعودون ويهبطون إلى ظهرها. يتوقّفون أمام المدافع، يرفعون رءوسهم مبهورين بحديدها الصلب واتساع فُوَّهاتها. ورغم شارة ممنوع اللمس، يلمسون خلسة ما تصله أيديهم: فُوَّهَة مدفع، أو حبلًا أو حلقات الصلب في السلسلة الممتدة بطول البارجة. ينصتون باهتمام إلى شرح المرشد السياحي أو إلى مسجِّلة تتصل بسماعات دقيقة في آذانهم. أو يثرثرون أو يضحكون أو يدوّن أحدهم ملحوظات في دفتره، أو يلتقط صورًا لأهله أو أصحابه.

ليس مجرد متحف مفتوح لزيارته بعد دفع ثمن التذكرة الأغلى للأفراد، والأقـل تكلفة للرحلات المدرسية أو للمجموعات السياحية. يمكن استئجار جزء من المكان لإقامة حفل عشاء، صغير في غرفة القبطان لا يزيد المدعوون فيه عن عشرين، أو كبير على ظهر السفينة يوفِّر عشاء لأربعمائة شخص جلوسًا أو حفل استقبال لثمانمائة شخص عادة ما يكونون واقفين. يُمكن إعداد حفل عرس. يمكن ترتيب إقامة فندقية في عطلة نهاية الأسبوع لشباب يريدون أن يقضوا ليلتهم في أسرَّة الجنود. يمكن للرحلات المدرسية أو الأفراد شراء وجبات جاهزَة بثمن اقتصادي من الكانتين. يمكن لمن يريد أن يحمل معه كيسه البني الصغير بشطائره التي أعدّها سلفًا في بيته أو اشتراها من بقّال. ما إن يدخل البارجة حتى يُسلِّم كيسه البني، وعند انتهاء جولته يستردّه ليأكل ما فيه.

بعدها يأتي القسم الثالث: ثلاث صفحات. البارجة التي تم تحديثها بإضافة ١٦ صاروخ هاربون و٣٢ صاروخ توماهوك بعيد المدى، تدخل المتوسط. تقترب من شواطئ لبنان. تنضم إلى الأسطول الأمريكي الذي يمكن رؤيته من شاطئ بيروت. المهمة هذه المرة ليست الحرب، بل السلام، إسناد قوات حفظ السلام المتعددة الجنسية. لأن الحرب في لبنان انتهت. لأن هناك وقفًا لإطلاق النار. لأن إسرائيل بعد القصف الجوّي والاجتياح والحصار يُمكن أن تعتمد على حكومة لبنانية حليفة وجيش حليف. الدروز ليسوا حلفاءها. فكيف يسيطرون على جبل الدروز؟! هذه تفاصيل يقررها القادة. تقوم نيو جِرسي بمهمتها كالمعتاد. يحمل طاقمها النشط القذيفة في المجرى المخصّص لها. يُغلقون باب المجرى بإحكام. ثم

بوم. تنطلق القذيفة مُخَلِّفَة في سماء البحر كتلةً هائلةً من اللهب الأحمر الداكن سريعًا ما يختلط بالبرتقالي والأصفر ثم أسود سميك يلتهم الألوان ويتحوَّل تدريجيًّا إلى دخان. بعدها صمت تقطعه غيمات كندف القطن، بيضاء بلا سُمك تتطاير بالقرب من البارجة وتختفي. يضع العاملون قذيفة أخرى في المجرى. يغلقونه بإحكام. وبوم.

في الجبل عند البيوت المتراكبة لبني معروف، سكان الجبل الدروز. الشيوخ بعمائمهم التقليدية. المزارعون الذين يشبهون أجدادهم لأنهم لم يبدِّلوا شكل قمصانهم ولا سراويلهم. الشباب الذين على غير آبائهم وأجدادهم يرتدون القميص والتي شيرت والأحذية الرياضية. الجدّات. الأمهات. البنات صاحبات الضفائر أو الشعر الصبياني القصير. الصغار جدًّا الذين لم يتُقنوا بعد المشي أو الكلام. الصغار الذين أتقنوا هذا وذاك. تتداعى عليهم الجدران. تحترق. يموتون. حرقًا أو نزفًا أو يتعطل أمر ما في الجسم فجأة فيموتون رغم أن شكلهم أصحاء.

الفصل الثالث والخمسون

الزيارة

قالت مريم:

- سلوكك مضحك يا أمي. معك نقود!

قلت:

- ما معي يرسله صادق لمصروفات تعليمك وتكاليف المعيشة. لن أدعو صديقتي على حساب صادق.

ضحكت:

- الإسوارة التي بعتها اشتراها صادق، هو ماله في الحالتين!

كدت أقول إنه أهداني الإسوارة فصارت لي أفعل بها أو بثمنها ما أشاء. لم أقل. عاودت الاتصال بوِصَال لتحديد موعد السفر. قالت: نَجِدُّ الزيتون ونعصره ثم آتي لزيارَتك.

اشتريت بطاقة الطائرة. أرسلتها. رحت أعد الأيام وأنتظر.

قالت مريم وهي تضحك:

ـ الفقي لما يسعد.

قلت:

ـ لا أفهم الأمثال المصرية.

قالت:

ـ المثل يقول: الفقي، أي المقرئ، لمّا يسعد تأتيه خاتمتان في ليلة. أي أنه يُدعى لتلاوة القرآن مرتين فينعم بوليمتين في الليلة نفسها.

ضحكتُ.

تدهشني سرعة مريم في التقاط اللهجة المصرية وأمثالها وتعبيراتها الدارجة. صحيح خاتمتان في ليلة. في انتظار وصَال، تتصل فاطمة وتقول: إنها «في البلاد» وأنها ستأتي لزيارتنا ثلاثَة أيام.

ـ فقط؟!

ـ لا بد أن أعود إلى كندا. عملي والأولاد وحسن.

ـ فاطمة. هل أطلب منك خدمة؟

ـ تأمرين.

ـ هل يمكن أن تزوري الطَّنْطُورَة. وتلتقطي لي بعض الصور.

ـ طلب مني حسن ذلك وفعلت.

ـ زرتِها؟

ـ زرتُها.

كدت أسألها أن تحكي لي ماذا رأت. لجّمت السؤال. ما الذي أسأل عنه؟

* * *

تعلّق مريم على انهماكي في الإعداد لوصول وِصَال وزوجة حسن: هل تأتيناكِ من مجاعة؟! تضحك. أرد: هذه طَريقتنا في إكرام الضيف!

اشتري لحمًا ودجاجًا. أنظّف. أتبِّل. أضع في الفريزر. أقول فخذة الخروف لليوم الأول. والضلع أحشوه لليوم التالي. والدجاجِ لليوم الذي يليه. أقول: وِصَال تحب الملوخية والبامية. أشتري. أقطف أوراق الملوخية. أقمّع قرون البامية. أغسلها. أتركها تجف ساعتين ثم أحفظها في الثلاجة.. أشتري ورق دوالي وكوسا. ألفُّ الورق. أؤجل الكوسا. أعجن وأكوِّر وأترك العجين يختمر وأعد حشوة السبانخ. أحشو الأقراص ثم أدفع بها إلى الفرن. كلما انتهيت من خبز دفعة من الفطائر تأكل مريم ربعها. أزجرها: ستأتي عليها قبل أن يأتي الضيوف! لا تنزجر. أهشّها بعيدًا. تعود. أقول: فاطمة تحب المكدوس: أشتري باذنجان أسود صغيرًا أحشوه بالجوز والشطة. أكبسه بالليمون وزيت الزيتون في آنيتين زجاجيتين كبيرتين. والكُبَّة؟ تقول مريم. أكيد الضيوف يحبون الكُبَّة. أضحك: أكيد أن مريم تحب الكُبَّة! أنقع البرغل. أفرم اللحم. أتبِّله. أكور أقراص الكُبَّة وأحشوها. أضعها في كيس نايلون في الفريزر. أذهب إلى البقالة. أقول نسيت كذا. أذهب ثانية. أذهب إلى الفاكهاني. أشتري. أعود أشتري. أتمم. ما الذي ينقص؟

ضحكت طويلًا حتى ترقرت عيناي بالدموع. وكررت مريم وهي ترى وِصَال تُفرغ حقيبة المأكولات التي أتت بها: هل نحن في مجاعة؟!

ما إن دخلنا البيت وطلبتُ من مريم أن تعد لنا قهوة حتى قالت وِصَال: أجِّلي القهوة قليلًا يارُقَيَّة، نرتِّب الأغراض اولًا. شمَّرت عن ساعديها ونقلت إحدى الحقيبتين اللتين وصلت بهما إلى المطبخ، الحقيبة الأكبر. قَرْفَصَت بجوار الحقيبة وراحت تُخرِج منها ما حملته من مأكولات. ناولتني ثلاث زجاجات بلاستيكية مُحْكَمَة الإغلاق فيها زيت زيتون، ثم ثلاثًا أخرى كبست فيها الزيتون. قالت: «لي جارة في المُخَيَّم كِنَّتُها من مصر. والله حملت حالي ورحت أشرب معها قهوة لأسألها. قلت مالذي ينقصهم في مصر؟ آخذ بامية وملوخية؟ المصرية ضحكت وقالت: لا أكثر من البامية والملوخية في مصر. قلت لها: الزيت والزيتون من شجرنا سأحمله لرُقَيَّة حتى إن كانت تسكن في معصرة زيتون! سألتها عن الأشياء غير المُتَوَّفِرَة فقالت لي». أخرجت علبة بلاستيك كبيرة. قالت «جبنة نابلسية». كانت قوالب الجبن المجمّدة مصفوفة في العلبة. ثلاثة أدوار. صرت أُلُفّ كل مجموعة قوالب معًا وأضعها في كيس نايلون في الفريزر. أبقيت ستة نقعتها في الماء. ثم الأكياس: زعتر بلدي مجفّف مخلوط بالسمسم والسُّمَّاق. زعتر أخضر. ميرمية. سُمّاق. فريكة. وأخيرًا كيس كبير. ضحكت وِصَال ضحكة حيية. «كنت سأصنع لكم مْسَخَّن لولا طول الطريق. الجسر فعمّان فالقاهرة فالإسكندرية. قلت سيخرب. قالت لي كِنَّة جارتي المصرية: خذي سُمَّاق. في مصر لا يعرفون السُّمَّاق. لا يستخدمونه.

قلت وكيف يسوون مْسَخَّن؟ قالت: لا نعرفه. فقررت أن أشتري لك خبز طابون».

حتى خبز الطابون أحضرته وِصَال معها من جنين.

ضحكت مريم وكررت:

ـ واضح أننا في مجاعة يا خالتي وِصَال؟

قلت:

ـ لسنا في مجاعة ولكننا نشتهي أكل بلدنا. إن لم تشتهيه اتركيه لي.

سارعت مريم بالتراجع:

ـ أشتهيه ونص. متى تصنعين لنا مْسَخَّن يا خالتي وِصَال؟

ـ الآن لو أردت.

ـ لا، الآن تشربين القهوة.

جلسنا في الشرفة. وقالت وِصَال فجأة:

ـ رُقَيَّة لم أرَ بحر يافا منذ غادرنا البلد!

الفصل الرابع والخمسون

على حمار

حكاية عابرة من آلاف الحكايات الصغيرة التي تمر بنا كل يوم لتسقط في الزحام. طَفَت فجأة. استعدتها ثم عدت أجترّها وأقول لَمَ لا؟ كان الرجل تجاوز المائة ولم أبلغ السبعين. خايلتني الحكاية. وَددت لو أسمعها ثانية من كريمة لعلها تضيف تفاصيل أخرى أفلتت منها.

كانت الحكاية تخص عم أبيها، أبو خليل. رحل معهم إلى لبنان. توقّف مثلما توقّفوا في رميش. عاد معهم عبر الحدود قاصدين صَفُّورْيَة. أُلقي القبض عليهم وأُودِعوا سجن عكا. ومن السجن رحّلُوهم إلى لبنان فوضعتهم السلطات اللبنانية في القَرعون، ومنها نقلتهم إلى عين الحلوة. قالت كريمة: كنا في عين الحلوة حين أعلن أبو خليل أنه سيعود. قال له جدي كيف تعود؟ سيقتلونك على الحدود أو يعتقلونك ويُرَحِّلونك مرة أخرى. قال إنه نوى: إن أردتم أن تأتوا معي أهلًا وسهلًا وإن قررتم البقاء، أذهب. تذهب وحدك؟ قال: أبي وأمي هناك، وابني البكر وابنته. كان يشير إلى الموتى من أهله فاعتبر

الكبار في العائلة أنه فقد عقله. أصبحنا ذات نهار ولم نجده. تصورنا أنه ضلّ طريقه إلى المُخيم. قلت كان تجاوز المائة وربما كان عمره مائة سنة وعشرًا. بحثنا عنه في عين الحلوة وفي صيدا. لم نترك أحدًا إلا وسألناه. مرَّ أسبوع، لا حِسّ ولا خبر. ثم سمعنا أنه اشترى حمارًا وعاد. لم يهدأ لنا بال إلا عندما وجدنا الرجل الذي اشترى منه الحمار والشخص الذي دلَّه على الطريق من صيدا. كدنا نسلِّم أن الإسرائيليين قتلوه على الحدود أو أنه مات. فكيف لرجل تجاوز المائة أن يقطع الحدود وحده وينام تحت شجر الزيتون ولا زاد معه ولا حتى شربة ماء؟ ولم يكن يملك فلسًا لأنه دفع في الحمار كل ما لديه ولدى امرأته (اكتشفت بعد رحيله أنه أخذ الليرات القليلة التي كانت خبأتها في الفراش). قالت زوجته: لا تخافوا، سيدبِّر حاله. ستستنكر جدتي كلام سلفتها حين تختلي بأمي وتصفها بأن قلبها حجر. كيف تنام ليلها الطويل وزوجها شارد بين الضباع وعسكر الدولة؟! يا عيب الشوم، رجل في المائة تتركه زوجته هكذا لحاله! لو كنت مكانها للحقت به. صرنا نحن الصغار نتندَّر على الكلام. نحاكي كلام جدتي ساخرين، لأن المرأة المُطالبة برعاية زوجها كانت في الثمانين، بلا أسنان، تستند إلى كتف واحد منا نحن الصغار إن أرادت الانتقال من دارها في المُخَيَّم إلى دارنا الملاصقة لدارها. استعوضت العائلة جدي أبو خليل وسلَّمت بأنه لا بد مات على الطريق أو قُتل. بعد أربع سنين حين بدأ يفد إلى لبنان لاجئون جدد طردتهم إسرائيل، علمنا أن جدي أبو خليل ما زال على قيد الحياة. قال شخص من نواحي بلدنا إنه رآه، وإنه يقيم في مقابر صَفُّورْيَة. ويقول إنه حارس المقبرة. سألنا وكيف يتدبّر حاله؟ قالوا: لا ندري ولكنه كان بصحة جيدة وكان يدخِّن ويشدد على

دعوة من يزور المقبرة على كاسة شاي! عادت جدتي تُعَلِّق على الأمر بينها وبين أمي وتقول: من المؤكد أن أبو خليل ذهب ليتخلص من امرأته لأنها شرّانية وبخيلة ولا تطاق.

كانت كريمة تضحك وهي تحكي. غريب. أذكر كل ما قالته في تلك الليلة وإن بدا كلامًا عابرًا كباقي الكلام. ثم طفت الحكاية وصارت تُلِحّ. قلت سأحكيها لمريم. تساءلت فجأة: هل أُمَهِّدُها؟ قلت لنفسي: ربما.

مريم تلتقط الفكرة الطائرة. حين حكيت علَّقت: وتنوين أن تفعلي مثله؟! تقولين إن كان رجلا تجاوز المائة تمكَّن من ذلك، فلا بد أنني أستطيع! لاحظي يا ماما أن كريمة كانت طفلة في الخامسة وقد يكون جدها الذي تصورت أنه تجاوز المائة، رجلًا في الستين أو في الخامسة والخمسين. هكذا الأطفال يتصورون الكبار كبارًا جدًّا. على أي حال انتظري حتى أتخرج فآتي معك. نشتري حمارتين ونتوكَّل على الله. قالتها وهي تقهقه فلم أستمرئ ضحكها. شعرت بالغيظ.

في الستين أو تجاوز المائة أو في عمر نوح، بلغ تسعمائة عام، حمل عمره على كفِّه أو على متن حمار وتمكّن مما أراد. لا الدولة ولا عسكرها ولا الأسلاك الشائكة عند الحدود كسرت إرادته.

أعود مثله.

لا على متن حمار بل بمنطق الطير.

قالت فاطمة: أهالي الفريديس يعرفون مواقع المقبرة.

نعم مواقع. جمع لا مفرد. المقبرة القديمة والمقبرة الجماعية.

وربما مقبرة ثالثة. لو صحبك أحدهم إلى هناك سيشير إلى جزء من إسفلت الطريق ويقول هنا المقبرة الجماعية تحت موقف السيارات، عند الباركينج. تنصب رُقَيَّة لها خيمة عند موقف السيارات. يا إلهي شِدِّي اللجام يا رُقَيَّة. لاجئة. في خيمة. في البلد؟! أين أذهب إذن، إلى شاليه من الشاليهات السياحية التي على شاطئ البحر؟ نعم صارت القرية منتجعًا. للاصطياف. أعطتني فاطمة الصور وقُرصًا مُدْمَجًا وضعته مريم في الكمبيوتر فرأيت الطَّنْطُورَة. بحرها والجزر والنخل والصبّار. على حالها. ما الذي جدّ؟ الشاليهات. القوارب الشراعية. صيد السمك، صيدٌ للمتعة لا الرزق، والله أعلم ماذا أيضًا. قالت فاطمة:

- في مدخل المدرسة لائحة بأسماء من قُتلوا.

- أسماء الشهداء؟

طيف ابتسامة. انتبهت لغباء السؤال.

- لا. لائحة بأسماء قتلاهم يوم المعركة. لم أصوّر لا اللائحة ولا المدرسة. خشيت من أن يظهر أحدهم أمامي فجأة ويصادر آلة التصوير. المدرسة صارت مركزًا لبحوث الزراعة.

الصور: ضريح الجريني بقي على حاله. قالت فاطمة:

- وجدت امرأة هناك تصلي. عندما انتهت من الصلاة سلّمت عليّ. قالت: لم يقدروا على الشيخ ولا ضريحه. لا أحد يملك زحزحته من مكانه.

أتطلع. أشير. أشرح لمريم:

ـ هذا مصنع الزجاج.

قالت فاطمة:

ـ نعم. يقولون إن روتشيلد، لا أدري أي روتشيلد منهم، واحدٌ من الروتشيلدات، زار البلد في العشرينيات ورأى الكروم. قال هنا خير كثير لا بد من استغلاله. أنشأ مصنعًا للزجاج. الأرجح لإنتاج الخمور.

ـ على أيامي كان معملًا مهجورًا.

ـ الآن متحف للزجاج. ثم هذا المبنى عليه كتابة بالعربية تؤكد تاريخ بنائه.

ـ هذا بيت اليحيى، العائلة الأكبر في البلد. هل يسكنه أحد؟

ـ مهدَّم. مجرد واجهة وغرفتين أو ثلاث، يستخدمها بعض شباب الفريديس في تخزين أدوات الصيد.

ـ وباقي البيوت؟

سكتت فاطمة.

كررت السؤال.

ـ هُدِمَت.

أتطلعّ في الصور. أتملاَّها. هل تغذي الصور منطقَ الطير؟ تنقلني في غمضة عين. لا معابر. لا أسلاك شائكة. لا جندي مدرَّعًا. أنتقل. ثم ماذا؟ أنصب خيمة؟ أنصبها بجوار أهلي على أرض الباركينج أم أجاور الصبّار فيأتنس كل منا بالآخر؟ حين يسافر الضيوف سأطيل

التمعُّن في الصور. في وجودهم أشاهدها معهم مرة. مرة واحدة فقط ثم أحملها وأحفظها في درج من الأدراج بين قمصان أمين. أعرف. سلوك غريب. أعني الاحتفاظ بثلاثة من قمصان أمين. أغسلها بين حين وآخر. أكويها وأطويها وأعيدها إلى مكانها في خزانة الملابس. انتبهت لها مريم منذ زمن. ثم عادت وانتبهت حين انتقلنا إلى الإسكندرية. أوشكت أن تسأل ثم تضرّج وجهها بالأحمر. وغادرت الغرفة.

قال عَبِد وهو يرحب بوِصَال عبر التليفون:

- في نشرة أخبار الأمس أذاعوا خبر زلزال الإسكندرية.
- لم يحدث زلزال. أو ربما كان خفيفًا جدًّا لم يشعر أحدٌ منا به.
- يا خالتي وِصَال تجتمعين أنت وأمي ومريم وفاطمة في مكان واحد بلا زَلزال، كيف؟!

انتبهت للدعابة. ضحكت.

نتناول قهوة الصباح معًا. نذهب إلى البحر. نجلس في مقهى مُشْرِف. تحكي فاطمة عن اللِّد. عن طفولتها وعن والديها. أسألها عن أخبار حسن. تحكي. تُضحكنا وِصَال وهي تحكي عن الانتفاضة وأولادها.

- الخمسة اعتقلوهم. حتى البنت أوقفوها. هذا يوقفونه يومين، والتاني أسبوعًا أو شهرًا، والثالث ستة أشهر ثم يعودون لاعتقاله. طرق الباب وجه الفجر صار أمرًا مألوفًا. يطرقون. أفتح لهم الباب. أصيح فيهم: مستعجلين على شو؟! بِدْنَا

نهرب؟ كيف؟! ما في إلا باب واحد والشبابيك واقفين تحتها؟ وبعدين ما في حيا؟ أنا وبنتي كنا بقمصان النوم. هل نفتح لكم ونحن بقمصان النوم؟ يا عيب الشوم عليكم!

- تحدثينهم بهذا الشكل؟!

- نعم. في أول مرة قلت إني زدتها. ثم عرفت أنه في الغالب لأنهم صغار تحمّر وجوههم. هم يشعرون بالذنب أصلاً فلما أوبِّخهم يشعرون به أكثر. طبعًا هادول لوْلِدَّة الصغار. الضباط أو القوات الخاصة مسألة أخرى. يأتون للقبض على قائد أو فدائي فيكونون عنيفين جدًّا. يضربون مباشرة بكعب البندقية هذا إن لم يطلقوا النار.

- ويوم جاءوا لاعتقالك؟

- جاءوا لاعتقالي. قلت ماشي لكن لن أركب سيارة إسرائيلية. صاحوا فيّ فصحت فيهم. كانوا من الجنود الصغار؛ ما كنت أستجرى لو كانوا من الآخرين. قلت ممكن في تاكسي. ضحكوا وقالوا: مَرَة مجنون! وأنا قلت لا مجنون ولا عاقل. لن أركب سيارة إسرائيلية تحملني في شوارع جنين. هذا يضر بسمعتي! لو أبي على قيد الحياة لقتلكم وقتلني وقال واخدين بنتي خَطيفَة. لم يفهموا معنى خَطيفَة. كنت أسخر منهم. ويمتعني أكثر أنهم لا يفهمون أنني أسخر. كررت: لن أركب في سيارة إسرائيلية إلا لو قيدتموني وحملتوني حملًا. ستر ربك أني طويلة ووزني ثقيل، ثلاثة منهم لا يقدرون على حملي. ركبت رأسي. قالوا إذن تمشي. قطعت الطريق من المُخَيَّم للمخفر وأنا

أمشي بهدوء، راسي مرفوعة كأني ملكة. وهم يحرسونني من الجانبين والسيارة العسكرية تسير ورائي ببطء. كنت أضحك في عبي. لا أُظهر الضحك حتى لا ينقلب الموقف غمًّا. لكن الضحك كاد ينفلت مني حين رأيت بعض معارفي يقفون في الشارع. لمحت الضحك في عيونهم. يفهمون عليّ وأفهم عليهم. ولكني لم أضحك.

ومرة كانت ليلة عيد وطلع شباب المُخَيَّم على أسلاك الكهرباء وعلَّقوا الأعلام. أصبح العيد، والمُخَيَّم مرفرفة عليه أعلام فلسطين كأنه عيد تحرير مش عيد ربِّنا. ركبتهم العفاريت. دخلوا المُخَيَّم وشتائم وبذاءات. «نزِّلوا الأعلام». الشباب كأنه ملح وذاب. قالت نساء المُخَيَّم لا نستطيع أن نصعد، اصعدوا أنتم. وقفنا نتفرج عليهم هم يصعدون ويُنزلون الأعلام وكل واحدة منا تدعو في سرها أن يسقطوا وتُدَقّ أعناقهم. لم يستجب ربنا إلا في حالة واحدة. شَنْدَل الجندي من فوق العمود، جا على بوزه كَفِي، الله لا يردّه. حدا قال له اقهر في العباد واخدم في جيش احتلال؟!

الفصل الخامس والخمسون

العودة إلى لبنان

تتحدث مريم عن السفر. تتحرق للحاق بعَبد في فرنسا. رَتَبَّت معه كل التفاصيل: مُتَدَرِبْةَ في العام الأول ثم تبدأ في دراسة التخصص. لا أعلّق. هي تعتقد أنني قلقة لأنني أريدها أن تتزوج. أتمت الثانية والعشرين. متى تتزوج؟ عَبد تجاوز الخامسة والثلاثين. هل تصير مثله؟ أفصح عن قلقي ولا أَفصح عن الموضوع الآخر: إلى أين من هنا؟ أبو ظبي؟ لا أريد. تقول مريم تعالي معي. عَبد أيضًا يقول تعالي. يريدني أن أقيم معه. لن أذهب. غُصَّة. فقط غُصَّة تلازمني ربما لأنني لا أحكي لأحد عنها. لم يعد صادق يكتفي بالاتصال مرة في الأسبوع. يتصل مرتين وأحيانًا ثلاث مرات. يلتقط ما يشغلني. يؤكد أنهم ينتظرون وصولي بفارغ الصبر. أقول: إن شاء الله. تقلقه العبارة أو ربما طريقتي في قولها. يؤكد أكثر: لن تبقي في الإسكندرية يومًا واحدًا بعد سفر مريم. ما الذي يربطك بالإسكندرية؟ لا أقول بيتًا وإن كان مؤقتًا. أضع السماعة وأنفجر في مريم كأنها هي صادق أوتمثِّله: الأولاد أمرهم غريب يتصورون

أمهم حقيبة يحملونها أينما ذهبوا. يرفعونها من هنا ويحطُّونها هناك. سبحان الله! كنت غاضبة. قبلتني مريم. قالت: الأولاد لا البنات. أنا مثلًا أحب أن أبقى حقيبة. تحملينني. تأخذينني معك أينما ذهبت. تصوري ماذا يحدث لو تركتني؟! حقيبة مسكينة متروكة لا تخص أحدًا. تبكي بحُرقة. ينتبه عابر سبيل طيِّب ويقول لها مالك يا حقيبة؟ تقول أمي تركتني. فيحملني الرجل الطيب ويدور بي في الشوارع بحثًا عن أمي. تريد إضحاكي. لا أضحك. صحت بصوت بدا لي أعلى مما يجب: يلعن أبو الغُربة. وفلسطين. توتَّر الجو. اختفت مريم. ظهرت تحمل صينية عليها فنجانين من القهوة. وضعت الصينية في الشرفة وقالت: تعالي نشرب القهوة معا. تتطلعين إلى البحر وتشربين القهوة مع حبة عينك. أقصد الدكتورة مريم شخصيًّا. ضحكتُ. لا بسبب كلامها بل لأنها كانت وهي تسحبني سحبًا إلى الشرفة تمسك يدي بيد وتدغدغ بأصابع اليد الأخرى جانبي وكتفي وتحت الإبط.

- صادق سأعود إلى صيدا.

- في زيارة؟

- لا، سأستأجر شقة هناك وأقيم. وفي الصيف نجتمع جميعًا هناك.

- الله يرضى عليك يا أمي، ألم تجدي سوى جنوب لبنان؟ وجيرة الإسرائيليين؟

- سيرحلون.

- قرر الجنرال جياب. قال: سيرحلون فرحلوا!

ضحك. قهقه.

- من هو الجنرال جياب؟

- قائد قوات جيش تحرير ڤيتنام في الخمسينيات والستينيات. الآن الجنرال رُقَيَّة قررت.

لم أغضب من تهكّمه. كررت ببرود:

- سيرحلون!

- حتى إن رحلوا. مع كل احتكاك أو تأزّم سيقصفون الجنوب ويجتاحونه. ثم إن حسن وعَبِد لن يستطيعا زيارتك في لبنان.

- لا مشكلة لدى عَبِد. معه جواز فرنسي.

- وحسن؟

لم أجب.

- يا أمي...

ساق حججه وامتدت المكالمة نصف ساعة. وضعت السمّاعة. في المساء سألت مريم:

- كم من الوقت ستبقين في الإسكندرية بعد الامتحان؟

قالت:

- أنتظر النتيجة ثم أستخرج شهاداتي من الجامعة وأوثّقها وأسافر. ربما أحتاج شهرين. لماذا تسألين؟

- لا أريد أن أبدأ في الإعداد للسفر وأنت تستعدين للامتحان. ما إن ينتهي امتحانك حتى أبدأ بلملمة أمور البيت.

- قررتِ؟

- قررت.

- صيدا؟

- نعم.

- هل وافق صادق؟

- لم يوافق، ولكنني قررت.

من الإسكندرية سوف أتابع تحرير الجنوب. كانت مريم تقدم امتحان البكالوريوس. تكون في الكلية تمتحن أو في غرفتها تدرس، أكاد أنادي عليها لكي ترى ما أرى. أقيِّد النداء. لا أقيِّد الدموع. ربما لو كانت تجلس بجواري لقيّدتها استحياءً. غريب من أين جاءت كل هذه الدموع؟ لماذا ترتبط الدموع بالحزن والهموم؟ دموع فرح إذن؟ لا، لا حزن ولا فرح. شيء أكبر. أبعد غورًا. ملتبس. كنظرة عينيك حين يُمسك أحدهم بوليد انزلق للتوِّ منك. وليد مبلّل بمائك ودمك ما زال يمسكه أيًّا كان من يمسكه، طبيب أو قابلة أو أمك، يُمسكه من قدميه مقلوبًا. دافئًا. يوشك أن يفتح عينيه. يوشك بصرخة أن يعلن أنه فتح مجرى الهواء في حلقه ليعيش. وتكونين متعبة، معلَّقة ربما بين الحياة والموت، تتطلعين في وهن فينساب من عينيك الدمع، لا حزنًا ولا فرحًا بل... بل ماذا؟ هذا ما يفوق قدرتي على الوصف بالكلام. ربما نبعٌ من مكان غامض في باطن الجسم أو الروح أو

الأرض كذلك النبع في الكهف القبلي شرق البلد. تقول أمي إن ماءه عذب كماء الكوثر. وما الكوثر يا أمي؟ تقول نهر في الجنة. أستغرب. كيف تعرف مذاق نهر في الجنة، هل زارتِها من قبل؟ لاحقًا سمعت أحدهم يقول: الجنة تحت أقدام الأمهات. كنت في السابعة. قلت إذن زارتها. لَمِ لم تخبرني؟! التليفزيون ينقل مشهد التحرير مباشرة على الهواء. الأمهَات في التلفزيون. يشبهن أمي وخالتي. يزغردن. يُهاهِين. ينثرن الأرز وأوراق الورد على القادمين. سأقيم هناك. أجاور قبر أمي وعمي أبو الأمين، وحين يأتي الميعاد أستقر بجوارهما. ويومًا ما ربما، ينقلوننا جميعًا إلى هناك. عند البارِكنج؟ قالت فاطمة إنهم هناك تحت البارِكنج. استخدمت هذا التعبير. لماذا ينقلوننا؟ ربما أفضل أن نبقى حيث نحن. كأننا حراس على الباب، بين مخيمنا القديم وبلدنا الذي صار لنا من جديد.

سأحذف كل ما كتبته. لو قرأه حسن سيقول لا داعي لهذا النوع من الكلام. عاطفيّة مبالغ فيها قد تُفسد الكتابة، وتحرير عام ٢٠٠٠ تابعه الناس على الشاشات ووصفته آلاف التقارير في الصحف وكتب عنه المتخصصون وغير المتخصصين. أريدك أن تكتبي شهادتك. وهذا الكلام، أليس جزءًا من الشهادة يا حسن؟ تتسارع دقات قلبي وعلبة المناديل الورقيَّة وتمخّطي مرارًا وأنا أشاهد الأهالي وهم يعودون إلى قراهم بعد عشرين عامًا. الله يرضى عليك يا صادق لم يبق من العمر قدر ما مضى. دعني أفعل ما أريد.

نعم سيكون البيت السابع والأخير. أقعد فجأة بعد أن كنت أرقد على الفراش بين اليقظة والنوم. أعدّ على أصابعي: بيتنا في البلد. بيت

عمي أبو الأمين في صيدا القديمة. بيت الزوجية مع أمين، أيضًا في صيدا. بيت الطريق الجديدة في بيروت. ثم أبو ظبي فالإسكندرية. البيت السابع سيكون هناك في صيدا. عند الباب. أحب الرقم سبعة. لعلّه خير. أتحسس المفتاح المُعَلَّقِ في رقبتي وهدية عَبِد: الحلية الفضية التي صنعها الكردي بحرفة مُعَلِمِه صائغ الصابِئَة.

قمت وبدأت أعد حقيبة من حقائب السفر. طرقت مريم على الباب:

- قدَّرت أنك نائمة.

- أما زلت تدرسين؟

- أوشكت على الانتهاء. سأدخل لأنام. ماذا تفعلين، هل هذا وقت الترتيب؟

- أُعِدُّ للسفر.

الفصل السادس والخمسون

الباب

«يعني الله يرضى عليك، ما دمت ستقبل بإنتقالي إلى صيدا لماذا قضينا كل هذه الشهور في المناقرة؟!». كنت أُعلِّق على هِمَّة صادق في استئجار شقة في صيدا. يسأل ويستعلم ويعاين ويقارن: شقة في الطابق الرابع لها شرفة تطل على البحر ونوافذ واسعة مفتوحة على الفضا وضوء الشمس. «ممتازة. ما رأيك يا صادق؟». «كيف تسعنا جميعًا حين نلتقي في الصيف؟!». شقة ثانية أكبر. خمس غرف. «بعيدة عن البحر. والبناية قديمة». شقة ثالثة: جديدة وتطل على البحر. «البناية بلا حارس». أخيرًا نجد شقة تستوفي كل شروط صادق: جديدة وواسعة ومشمسة وقريبة من البحر، وعلى بابها حارس قويّ البنية وطيِّب الوجه. استوثق صادق من أصله وفصله والبلدة التي جاء منها، وأعلن في ابتهاج: «جد الحارس كان يعرف جدي أبو الأمين، وأخو جده كان يعمل في عكا على زمن فلسطين. زرت قريته منذ سنين. يمكنني الآن أن أطمئن كأنني أنا الذي أحرس البناية. على بركة الله. غدًا أوقِّع العقد».. ثم يتعرَّف صادق على الجيران: «لم أرتح

لهم. الجيران أهل. أقرب من الأهل. ستكونين وحدك لشهور طويلة، لن أطمئن عليك بينهم؟!» ولم يكن صادق يبحث وحده. أشرك أصحابه القدامى والجدد وشباب عين الحلوة الذين وظف بعض أقاربهم أو تبنّى تعليمهم، وأصدقاءهم وأصدقاء أصدقائهم حتى بدت صيدا كلها منشغلة بالشقة التي يبحث صادق عنها لسكنى أمه.

أخيرًا أستأجرنا الشقة. أثثناها وسافر.

الله يرضى عليك يا صادق. ما الذي فعلته؟ كأنني تلميذة في بلد غريب. عيَّن لي قبل سفره بدلاً من ولي أمر واحد حشدًا من أولياء الأمر. صغار وكبار. قلت لمريم عبر التليفون: تصوّرت أنني لشهور على الأقل سأبقى وحدي حتى أتعرّف تدريجيًّا على جارة هنا أو هناك أو أجد بعض معارفي القدامى في صيدا أو أعيد الوصل مع أهل كريمة. أخطأت الحساب، كأنني لا أعرف صادق. أسبوع واحد في صيدا، استأجر الشقة وأثثها وحوّلها إلى مضافة. عرَّف أصحابه بالبيت وبي، «... ولن أوصيكم يا شباب...» والشباب الذين يسكنون في صيدا يسألون عني يوميًّا، ومن يسكن منهم في عين الحلوة يقطع الطريق إلى صيدا ليسأل. وأحيانًا يمنعه الحياء من الدخول لتناول فنجان قهوة! أحيانًا يأتون بأمهاتهم أو زوجاتهم وصغارهم. يدعونني إلى بيوتهم. يا إلهي كم تغيّرت صيدا! كم تغيّر المُخيِّم!

يسألني حسن عبر التليفون، أقول:

- على حالها. البحر، والقلعة وخان الإفرنج. والحارة القديمة وسوق الخضار.

لحظة صمت ثم أضيف:

ـ وبنايات جديدة من طوابق متعددة.

ـ والمُخيَّم؟

أسكت. يكرر السؤال:

ـ وضعه أصعب.

يستعلم عن موقع بيتنا الجديد. أقول له اسم الشارع ورقم البناية.

ـ كم يبعد عن البلدة القديمة؟ صفي لي الطريق يا أمي.

أضحك، أقول:

ـ هل ستفاجئني بالزيارة؟ لن تضيِّع طريقك في صيدا يا حسن. ما إن تصل اسأل عن الشارع يدلك بدلاً من شخص واحد، ألف.

ـ صفي لي موقع البناية من بناية جاد.

لم أجد ردًّا شافيًا. البنايات التي تهدّمت تهدّمت. أنشئت بنايات أخرى مكانها. لماذا يذكر بناية جاد تحديدًا. لم أعد أذكر موقعها. ما الذي يريده حسن؟ أن يتخيّل موقع بيتنا الجديد أم يعيد رسم المدينة على الورق في خريطة كتلك الخرائط الكثيرة التي كان يبرع في رسمها وهو صغير؟ وكيف يجمع بين المدينة التي تهدّمت والجديد الذي أنشئ على الأنقاض في خريطة واحدة؟

لا يستطيع أن يأتي إلى لبنان لزيارتي. كان صادق على حق. أقام الدنيا

وأقعدها. اتصل بي في الإسكندرية. قال: «كلِّمي حسن وحاولي أن تردِّيه عن هذه الحماقة. لا نحتاج أن نضيف بإرادتنا، تعقيدات جديدة إلى حياتنا. لا يريد أن يسمع مني. قد يسمع منك». كان حسن قرر أن يسافر مع زوجته. قال سأزور فلسطين. جُنَّ صادق. قال: ستزور إسرائيل. نعم هي فلسطين لكنها رسميًّا إسرائيل، وحين يختمون خاتم الدولة في مطارهم على جوازك الكندي لن تتمكن من زيارة معظم البلاد العربية. لستَ كنديًّا وإن كنت تحمل جواز سفر كندي. اسمك حسن ومن مواليد صيدا. وهات اقْنع ضابط الجوازات في سوريا أو لبنان أنك أردت أن تزور بلدك. يا خويّ ربنا عرفوه بالعقل وآدي الله وآدي حكمته. زيارتك لفلسطين ترفٌ لا نملكه. كيف تزورني؟ كيف تزور أمك؟ ولو تزوجت مريم في سوريا أو لبنان، كيف تزورها؟ قال لي صادق وهو يعيد الحديث الذي دار بينه وبين أخيه عبر التليفون: قال لي ماما تقيم في الإسكندرية. يمكنني زيارة مصر بلا مشاكل. لم أقل له إنك تقيمين فيها مؤقتًا، وما إن تتخرج مريم حتى تعودين للإقامة معي في أبو ظبي. لم أقل لأن ضغطي كان وصل السما فأنهيت المكالمة.

الآن يسألني حسن أن أصف له بيتنا. لا يستطيع القدوم إلى لبنان. يوجعني قلبي عليه. أقول صادق على حق. أتراجع عن الكلام. أراد حسن أن يزور فلسطين. كيف رآها؟ لا أدري. لم يتصل بي في الإسكندرية أثناء زيارته. لم يحدِّثني في التليفون ليقول لي «أنا في الطَّنْطُورَة يا أمي. أقف على شاطئ بحرها». لم يكتب لي رسالة عن رحلته. لم يتحدّث عن الرحلة حتى عندما زارني بعدها في الإسكندرية. لم يحك لي لا عن الطَّنْطُورَة ولا عن الفريديس أو حيفا أو اللِّد، رغم

أن فاطمة أخبرتني أنه قضى شهرًا لم يترك مكانًا إلا ذهب إليه. قالت زار الساحل من عكا إلى غزة، والضفة من نابلس إلى الخليل. قضى ثلاثة أيام في القدس، زار وِصَال في جنين. ذهب إلى أهل رندة في نابلس. التقى بأقارب له في الفريديس وبأصدقاء تعرّف عليهم منذ زمن في كندا، ذهب للقائهم في الناصرة. وزار النقب».

لم يحك لي حسن. غريب! كأنما أصابه الصمت الذي أصابني.

الفصل السابع والخمسون

متتاليات

أيقظني رنين جرس الباب. نظرت في ساعتي كانت الواحدة بعد منتصف الليل. من يطرق بابي في هذه الساعة؟ أفتح. أصيح. عَبد ومريم يقفان أمامي. عَبد يضحك ومريم تقول: «عفريت العلبة لَا يطلع إلا بعد منتصف الَليل!». بعد الأحضان والضحك وأنصاف الجمل المتطايرة والجولة السريعة في البيت «لأننا نريد التعرّف على بيتنا الجديد»، ننتقل إلى المطبخ.

- سأعِدُّ لكما عشاءً.

- أكلنا في الطائرة.

- نريد قهوة.

مريم تصِرّ أن تعد القهوة:

- أين البن؟ أين السكر؟ أين تضعين الفناجين؟

يذهب بنا الكلام شرقًا وغربًا. تفور منا القهوة. نغلي بكرجًا آخر. نحمله إلى غرفة الجلوس.

يقول عَبِد:

- الآن لدينا مشكلة. نريد حلًّا.

هل يمزح؟ يتكلم بجدية. ما الخبر؟ أتوجّس.

- مريم تحقد عليَّ!

إذن يمزحان.

تقول مريم:

- هناك دوافع وجيهة جدًّا للحقد. والخوف أيضًا. عطلتي خمسة أيام. سأسافر وأترك عَبِد لشهر كامل وحده معك. أولًا، ليس هذا عدلًا. ثانيا...

بدأت أضحك.

- ثانيا، هناك مخاوف حقيقية من أن يستغِلّ غيابي ويحتلّ مكاني، مع أنه معروف ومُثبت ومُعلن بنص كلامك إن الأولاد الثلاثة كوم ومريم كوم. أنبِّهك لنواياه الخبيثة.

يقفز عَبِد إلى مسند المقعد الذي أجلس عليه، يقعد عليه. يحيطني بذراعه:

- سأبدأ فورًا بتنفيذ نواياي الخبيثة. أعتقد أن الست مريم تربَّعت على العرش بما يكفي. حان وقت خلعها. أنا جمهوري! ما رأيك، هل نسرِّبها كالقطط؟ نتخلص منها ونبقى بلا عذول.

لم ننم حتى شقشق الفجر.

وعندما دخلا إلى الفراش، أعددت لنفسي قهوة ثانية. انتظرت حتى طلع النهار وغادرت إلى السوق. ساعدني صبي في حمل ما اشتريته إلى البيت. كانت مريم نائمة أما عَبِد فكان تحمم وغيَّر ملابسه. أفطرنا معا، ثم

- بخاطرك يا أمي.

- إلى أين؟

لدي أشغال. نلتقي على الغداء.

لا تعرف مريم صيدا. لم تعش فيها كإخوتها. ربما لم تزرها إلا مرة أو مرتين وهي دون الخامسة. تقول إنها لا تذكر.

أصحبها إلى صيدا القديمة.

إلى ساحة باب السراي، أقول هنا كان...

أشير إلى جامع باب السراي، إلى الخان، إلى لافتة عتيقة على باب مغلق لشقة في الطابق الأرضي، مكتوب عليها: مطبعة العرفان لصاحبها أحمد عارف الزين تأسست عام ١٩١٠. كان جدك يعرف الشيخ أحمد عارف الزين شخصيًا. حكى لي عنه، قال...

ننزل بضع درجات ونمشي عبر عقد معتم. هذا حيّ أبو نخلة. أشير إلى مسجد أبو نخلة عن يساري والفرن عن يميني. أقول حين كانت جدتك تنذر نذرًا كانت توصي فرن أبو نخلة فيخبزون ما أوصتهم به ويوزِّعونه في المسجد.

بضع خطوات تحت العقود الواصلة بين جانبي الزقاق. هنا حيّ

السبيل. وهذا البيت إلى يمينك هو البيت الذي عاش فيه جدك وجدتك.

نواصل المشي. وهنا بقايا حمام المير الذي تحمم فيه عمك عِزّ يوم عرسه. دمره القصف الإسرائيلي عام ٨٢.

أصحبها إلى الجامع العُمري الكبير. أقول هنا اجتمع الرجال يوم... ومن هنا شُيِّع...

ثم مدرسة المقاصد الإسلامية المتاخمة للجامع. تحاول مريم أن تقنع الحارس بالسماح لنا بالدخول. يقول آسف ممنوع. المدرسة شغّالة والطلاب يدرسون. تتطلع مريم عبر الباب إلى مباني المدرسة يمين الباحة ويسارها. أشير إلى البحر وراء الباحة: هنا كانت ترسو المراكب المُحمّلة بالسلاح ليلًا و...

أصحبها إلى سوق النجاّرين. سوق الكُنْدَرْجِيّة. سوق العطّارين.

أصحبها إلى القلعة البحرية وخان الفرنج.

نجلس في مقهى مطل على البحر، يفصلنا عنه طريق السيارات. قلت كنا نسميه «بحر العيد». الآن صار «الواجهة البحرية». لم تلتقط ما أردت قوله ولم أفسِّر الكلام.

قالت مريم حسن على حق. قال لي: صيدا القديمة متتاليات من الضوء والظل. ويكون الزقاق مُعتِمًا لأنه ضيِّق وعلى جانبيه دور ودكاكين، وعليه عقود وقناطر قد تحمل هي أيضًا فوقها دورا معلَّقة، ولكنكِ قبل أن تعتادي الظل تفاجئك ساحة أو مستطيل مشمس. ولأننا كنا أطفالًا لم نكن نمشي بل نطير، فننتقل في غمضة عين من نور

لعتمة ومن عتمة إلى نور. كأننا نلاعب الشمس أو تلاعبنا. وليست الأزقة وحدها بل الدور أيضًا. تدلفين إلى مكان مظلم تكاد قدماك تتعثّر فيه لأنك لا ترين موطئهما، أو لأن العفاريت كامنة لك وتنتظر. ثم فجأة تكونين على سلَّم يتوهّج في ضوء النهار. تصعدين الدرج قفزًا أو تتوقفين لحظة لتميلي على حوض من التنك مزروع بالنعنع أو الياسمين. أو تجدين نفسك أمام البحر متوقِّدًا كأن تحته نارًا.

كتب لي حسن ذلك في رسالة. لكنه لم يقل لي شيئا عن الفقر والبيوت المتهالكة والوجوه المتعبة.

غريب. لم تشتري مريم من صيدا حلوى كعادة الزوار. ولا اشترت فلقات الصابون التي تشتهر بها المدينة. اشترت من سوق النجّارين صندوقًا صغيرًا وغربالًا وزوجًا من القباقيب. علَّقت على القبقاب:

- ما دمت تريدينه للزينة. نبحث لك عن قبقاب شامي مطعّم بالصدف.

ثم وأنا أضحك:

- صرت كالخواجات يا مريم. تعلِّقين الغربال على الحائط وتضعين القبقاب على طاولة حجرة الجلوس. تذكارات شعبية من أيام زمان. آمل ألا تطلبي مني ثوبًا فلاحيًا مطرزًا لتعلقيه على حائط شقتك في فرنسا.

قالت وهي تقهقه:

- مظلوم يا بيه! الصندوق أضع فيه صورتك وصورة أبي ورسالة غرامية ستأتيني حتمًا ذات يوم! أُغلق عليها الصندوق

وأحفظها في خزانتي.

- والغربال؟

- أضعه بجوار سريري لكي لا أنسى أن أغربل أفكاري ومشاعري كل ليلة قبل أن أنام.

ضَحِكْت.

- والقبقاب؟

- هنا بيت القصيد. أستخدمه كل يوم ولو لساعة. أدُبّ به على الأرض فيرجع لي وقعه فأطمئن أنني موجودة، موجودة ونص!

- الله يخزي شيطانك يا مريم!

- ماما، أحيانًا نحتفظ بأشياء ربما يصعب أن نختزل قيمتها في معنى واحد. هل تذكرين البنّورة التي أعطاها لي الولد في شاتيلا؟

- أية بنورة وأي ولد؟

- الذي اشتراها الولد من دكان مصطفى العمدة.

- من هو مصطفى العُمدة؟

ذكَّرتني بالحكاية، ثم قالت:

- ما زلت أحتفظ بها. لا لأنني أعتقد أنها تجلب الحظ أو أنها حِرز أو حجاب بل لسبب ما أو أسباب. بنّورة صغيرة، بِلْيَة يلعب

بها الصغار، حين أُخرجها من المكان الذي أحتفظ بها فيه، أضعها في كفّي وأحدِّق فأسترجع لحظات وأماكن ووجوهًا. أرى الولد الذي أعطاها لي. كان جميلًا جدًّا، مبهرًا. كنت في الخامسة. هل يمكن أن تقع طفلة في الخامسة في الحب؟ أقول ترى أين هو الآن؟ هل ترك المُخَيَّم وحملته الدنيا إلى منفى جديد أم بقي في مكانه، مطمورًا تحت الأنقاض منذ خريف سنة ٨٢؟ أتأمل بنّورته فأرى أشياءً وأرى نفسي وربما أرى الماضي أو المستقبل. أغلق يدي عليها بحرص وأعيدها إلى مكانها.

في البيت نجلس معًا أو نقف في المطبخ. نتشارك في إعداد طبخة أو صنع فنجان قهوة نتناولها في الشرفة. نتحدث. بلا انقطاع. نضحك. تحكي وأحكي. نكاد لا نرى عَبد. يُبكّر في الخروج من البيت. نادرًا ما يعود للغداء، ولكن غالبًا ما يتناول عشاءه معنا. يستعدّ لرفع قضية في المحاكم البلجيكية. لماذا بلجيكا يا عَبد؟ يجيب برد مُطَوَّل ومُعَقَّد عن القوانين والأحكام المُلزمة دوليًا ومعاهدة روما وما تلاها من قرارات، والدول الأوربية التي التزمت بها. وفي نهاية الكلام المُفصَل يأتي الجواب المُحَدَّد:

- لأن بلجيكا هي الدولة الوحيدة في العالم، التي تتيح للأفراد رفع قضايا من هذا النوع. يتقدمون بشكواهم إلى قاضي تحقيق فيكون مُلْزَمًا إذا توفَّرت أركان القضية، أن ينظر فيها. هذا أولًا. ثانيًا، لا تُعتبر الحصانة عائقًا أمام محاكمة جنائية في بلجيكا. ثالثًا، لأن المحاكم البلجيكية تقبل مبدأ المحاكمة في

غياب المتّهم، أي أن المتّهم بالتعذيب أو جرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية يمكن أن يُحاكم غيابيًّا، وإن لم يكن مواطنًا بلجيكيًّا أو مقيماً في البلد. قبل أسبوعين رفعت مجموعة من الزملاء قضية باسم ٢٣ شخصًا على إريال شارون وعاموس يارون وآخرين، إسرائيليين ولبنانيين، بشأن مذبحة صبرا وشاتيلا. قدَّموا الوثائق إلى قاضي التحقيق في المحكمة الجنائية البلجيكية. نحن الآن نستعد لرفع قضية أخرى بشأن مدرسة صيدا الابتدائية، وبناية جاد.

ـ عَبِد أين عمارة جاد؟

ـ هُدِمَت. سآخذك إلى موقعها. لماذا تسألين؟

ـ كلما اتصل بي حسن يسألني: أين موقع البناية التي تسكنين فيها من بناية جاد؟ كيف أصل لك من بناية جاد؟

ـ ألا تعرفين حكاية بناية جاد؟

ـ أعرف. قُصفت بالطائرات في بداية الاجتياح وراح كل من كان في ملجئها؟

ـ وحسن؟

ـ حسن؟

ـ أقصد حكاية حسن؟ ألم يخبرك؟

ـ عن؟

غَيَّر عَبِد الموضوع. استغربت.

مريم هي التي حكت لي عندما خرج عَبِد. قالت: حسن كان يحب بنتًا تسكن في هذه البناية. كان يحبُّها منذ كان تلميذًا في المرحلة الإعدادية. ظل يتردّد على صيدا لرؤيتها عندما انتقلتم إلى بيروت. قال لي عَبِد إن حسن عندما جاء إلى بيروت في عام ٨٢ تسلَّل إلى صيدا للاطمئنان عليها. ذهب إلى صيدا، قبل مغادرته لبنان بيومين.

- وبعدين؟

- ما في بعدين. كان يعرف ما حلَّ ببناية جاد ولكنه كان يأمل. راحت البنت وأمها وأبوها وجدها وإخوتها، والجيران وكل من جاء من أماكن أخرى للاحتماء في قبو البناية.

لم أجد ما أقول. في الليل سألت عَبِد:

- هل رأيت الصبيّة التي أحبّها حسن؟

- رأيتها.

- ما اسمها؟

- ميرا.

- صفها لي.

- صغيرة. شعرها شديد السواد وعيناها كذلك. قصيرة وممتلئة قليلًا ولها ضفيرتان وغمازتان في وجنتيها. وجهها صبوح مبتسم غالبًا.

- تصغرة بكثير؟

- لا. أصفها لك كما أذكرها من أيام صيدا. أعتقد كانت في سن

حسن أو أصغر بعام. ربما كانت بنت ١٣ أو ١٤ سنة. لم أرها بعد انتقالنا إلى بيروت. في الاجتياح كانت انتهت من دراستها وتعمل.

- ولماذا لم يطلبها حسن للزواج بعد تخرّجه؟

- أعتقد أنها كانت تحاول إقناع أهلها بالزواج منه.

سمّى حسن ابنته على اسمها. بعد سنين من رحيلها. لم يحك لي أبدًا عنها. إخوته يعرفون. لماذا لم يحك لي؟ أستعيد التفاصيل: زيارات حسن المتكرِّرة لصيدا. وصوله المفاجئ إلى لبنان أثناء الاجتياح. سفره المفاجئ. ذات صباح قال سأعود اليوم إلى القاهرة يا أمي. اليوم اليوم؟! هل حكى حسن لأمين. أشك. لو حكى له لأخبرني أمين. لم يتحدّث مع أبيه في الأمر حياءً. حسن حييّ وسَكوُت. غريب. تظنين أنك تعرفين ابنك أكثر من الخلق جميعًا. لا تفوت عليك شاردة أو واردة تخصُّه. تركنين لفكرة أنك تضمّينه تحت جناحك وتؤمِّنينه من كل سوء حتى عندما يطير ويُحطّ بعيدًا عنك. غريب!

هل يعيش عَبد وهمًا؟ هذه القضايا التي انهمك في الإعداد لها منذ سنين. هل تعيد حقًا لقتيل؟ هل تعيد إليه الحياة فيتحرّك في قبره ويقوم، ينفض التراب عن جسمه، ويمسح وجهه ويمد يده يمسك بيد أخته الصغيرة ويبتسم؟ عَبد يعيش وهمًا. لا أفصح له عن رأيي. يقول هناك طرق عديدة لاستعادة الحقوق وهذه واحدة منها. يحاول إقناعي أم يجيب على صوت داخلي يشكِّكه فيما يقوم به؟ يعمل بلا كلل. يقول التقيت اليوم بمدير المدرسة، أعني من كان مديرًا عام ٨٢. قال: أنا الذي سمحت للنساء والأطفال بقضاء الليل في

المدرسة عندما وصلوا من صور ليلًا في اليوم الأول للاجتياح، تصوّروا أنه اجتياح صغير لن يصل إلى صيدا. جاءوا من صور مشيًا على الأقدام. ١٢٠ كلهم تقريبًا نساء وأطفال. عدد قليل من الرجال المسنّين وثلاثة شباب. أتيت بالمفاتيح وفتحت لهم قبو المدرسة. قلت تفضلوا. أمَّنْتُهم. ليتني ما فعلت. نقلنا بعضهم إلى المقبرة الجماعية. هل زرت ساحة الشهداء، في نهاية شارع رياض الصُلْح؟ نعم إنهم هناك. لا ليس كلهم. البعض بقي هنا في المدرسة. للدقَّة نصفهم بقي في المدرسة. مدفونون تحت ملعب كرة السلة. تعال أرِك. نعم هنا، تحت عمود السلة. عَمَّرنا المدرسة. رممناها وأعدنا طلاءها. الملعب رصفناه. لم أقل للأولاد. كذبتُ عليهم. قلت نقلناهم جميعًا هناك. إنهم أطفال. كيف يأتون إلى المدرسة ويُقبلون عليها لو عرفوا أن أطفالًا مثلهم وأمهات كأمهاتهم مدفونون تحت الملعب الذي يلعبون فيه؟ نعم، كذبت عليهم.

يقول عَبد. التقيت بمسئول الدفاع المدني. لديه ملفات. دَوَّن كل شيء في حينه. عقب القصف مباشرة. أكد أن عدد من راحوا في بناية جاد، المقابلة للمدرسة، ١٢٥. قال جمعت عظامهم. لم أتمكّن من تحديد العدد بدِقَّة لأن الجثث كانت محترقة ومُمَزَّقة. ولكن سبعة من سكان العمارة تصادف وجودهم خارجها ساعة القصف، ساعدوني في تحديد الرقم. نعم، ١٢٥ . أقترح أن تلتقي بهم، أقصد السبعة الذين كانوا بعيدًا عن البناية ساعة قصفتها الطائرات. كلهم فقدوا أسرهم. لا بد أن تلتقي بأحمد شمس الدين. فقد زوجته وأولاده الأربعة وأخته وأولادها الخمسة. لست متأكدا أن بإمكانه أن يشترك في رفع القضية. ربما يكون من الشهود. لم أره من فترة. ربما استعاد بعض

توازنه. لم يصدِّق أنه فقدهم جميعًا. لأسابيع أو ربما لشهور كان يدور على المستشفيات يسأل ويكرِّر الأسماء والأوصاف. كان يذهب إلى الجنود الإسرائيليين المتمترسين هنا وهناك، يسألهم وهم جالسون فوق دباباتهم يأكلون البرتقال أو يقفون عند الحواجز يُشرعون أسلحتهم. يذهب إلى مركز قيادتهم يطالبهم بالبحث عن أولاده. ثم حصل على تصريح منهم وذهب إلى نهاريا هناك. كانوا نقلوا بعض اللبنانيين للعلاج. دار على مستشفيات نهاريا. ربما استعاد الآن بعض توازنه. الله يعينه. لا بد أن تلتقي به.

هناك رجل آخر، لا يسمح وضعه بالمشاركة في رفع قضية أو يكون من الشهود. اختلَّ عقله تمامًا. ولكن مفيد أن تراه وتسجِّل اسمه وتدرِج حالته. كان خارج البناية ساعة القصف ولما عاد ورأى ما رأى، صار يمشي في الطرقات وهو عار تماما. لم يذهب لا هنا ولا هناك. لم يقترب من الإسرائيليين. وكلما ساعده أولاد الحلال وأعطوه ما يستر به بدنه، نجده يمشي في الطرقات عاريًا.

يوميا يلتقي عَبد بالأهالي، مسئولين وغير مسئولين. يسمع منهم. يقول لدينا شهود كثر. ولدينا وثائق. ولدينا تقارير نشرت في حينه في الصحف العربية والأجنبية. ولدينا كتب توثِّق ما جرى. سنرفع القضية.

الفصل الثامن والخمسون

على جانبَي سلكٍ شائك

اتصلت بالأولاد وبمريم. قلت: بعد غد. قلت: سأذهب مع أخوات كريمة. عَبد ومريم قالا: يا بختك. ليتنا عرفنا بإمكانية ذلك ونحن في صيدا. قال صادق: لو أبلغتني قبل يومين اثنين لرتَّبت أموري وجئت معك. حسن راح يسألني: أين بالضبط؟ في أي موقع؟ في أية ساعة؟

في السادسة من صباح اليوم المعيَّن، كنت في عين الحلوة، أطرق باب أهل كريمة. شربت معهم قهوة ثم انتقلنا إلى مركز التجمّع. سبعة باصات كبيرة ستنقلنا إلى هناك. نساء المُخَيَّم تزينّ كأنه صباح العيد. وكذلك الأولاد والبنات. الكل تحمم وارتدى أفضل ما لديه من الثياب. النساء يحملن أغراضًا كأنهن ذاهبات إلى رحلة في الخلا. قلت سيفترشن الحصر والأحرمة ويجلسن بين صغارهن يتناولن معهم غداءهن ويشربن القهوة والشاي. غريب أمر هذه الرحلة. تخيّلت الشباب يقفون عند السلك، يدخنون ويفكرون ربما في الغد وما يكون. تخيّلت الخِتْيارِيَّة في حَطَّاتِهِم البيضاء يتطلّعون إلى الأرض

الممتدة تحتهم يتأملون الذي كان وما يمكن أن يكون. كنت أستبق اليوم بالخيال.

قصُر الخيال.

قطعت بنا الباصات تلال الجنوب. لو كان عمي أبو الأمين معي. يعرف أرض الجنوب كأنها أرض فلسطين. يعرف الطرق والأسماء والتلة التي هنا أو هناك، والنهر والجدول، والقرى والبلدات ولكل منها عنده حكاية أو له فيها ذكريات. الله يرحمك يا عمي أبو الأمين. لو اطَّلع أبي على الغيب، هل كان يقول «عرَّى ظهري»، ويغضب منه ويصيح فيه؟ لم يعرِّه. غطّاه. ترك له اثنين ورعى الخمسة الباقين.

أنتبه على صوت الأهازيج. الشباب واقفون في الباص يقودون الغناء. الكل يشارك، الخِتْيَارِيَّة رجالًا ونساءً، الصبايا والصغار. سائق الباص يُزَمِّر لا لدواعي الطريق. أطربته الأهازيج على ما يبدو فدخل مع الركاب في العيد. يضغط على بوق سيارته بإيقاع منتظم. يسرِّع أو يُبطِئ حسب المزاج. يتجاوز باصًا أمامنا أو يترك لباص أن يتجاوزنا، فيلوِّح الجميع للجميع، والجميع يضحك للجميع. فزَّت خِتْيَارَة من مقعدها بشكل مفاجئ وقالت: «الله يحميه السيد حسن لَولاه ولولا المقاومة ما كان بإمكاننا أن نطأ هذه الأرض. اثنين وعشرين سنة احتلال، وراحوا بلا رجعة». تعالت الأصوات تدعو للسيد: الله ينصره. الله يحميه. الله يخليه إلنا. قدمه علينا سعد، إن شاالله عقبال فلسطين. تدخَّل شاب من الواقفين في مقدمة الباص، قال: «قائدنا أبو عمار. ادعو لابو عمار يا شباب». لحظة توتّر. بدا أنها ستطول. بددها فجأة صوت امرأة كبيرة ترتدي ثوبا فلاحيًّا. انتصبت

واقفة وأطلقت مهاهاة كأنها في عرس، أعقبتها بزغرودة. تعالت في الباص الزغاريد وعاد الشمل يلتئم في الدلعونا والعتابا والعاليادي وظريف الطول.

لم تكن الساعة تجاوزت الثامنة والنصف صباحًا حين توقّفت بنا الباصات. صفَّت متجاورة ونزلنا. قال الشباب المسئولون: من هنا الطريق، اتبعونا. سرنا خلفهم في طريق ترابية صاعدة. «هاي فلسطين» صاحت امرأة تتقدمني قليلا. خطوتين ورأيت ما رأت. كانت الأرض تمتد من تحتنا. تربتها حمراء. وبيوت كمكعبات متناثرة تبعد قليلا عن الأسلاك الشائكة. أشبه بشاليهات المنتجعات السياحية ذات الحوائط الجاهزة. مطلية بالأبيض وسواتر نوافذها خشبية زرقاء. مستوطنة أم مجرد محطّة للجنود؟ في الناحية الأخرى من السلك الشائك عدد من المجندين الإسرائيليين. السلاح على أكتافهم وعلى رءوسهم خوذ الحديد.

قال شاب من الشباب:

- استريحوا قليلا. سيأتون؟
- من هم الذين سيأتون؟
- أهالينا في الداخل. وأيضا ستلحق بنا باصات قادمة من صور.

بعد أقل من نصف ساعة، وصلت سبعة باصات أخرى قادمة من صور. ثم ظهرت الباصات والسيارات في الجانب الآخر. رأيناها تَصُفُّ وينزل منها ركابها. كانوا يحملون لافتاتٍ وأعلامًا. وكأنها في

غمضة عين، غاب السلك الشائك عن النظر. غمرته أجسام الأهالي على الجانبين. يتبادلون التحية على استحياء في الأول ثم ينطلق الكلام. يتعرَّف الناس على الناس:

- نحن من حيفا...

- جئنا من عين الحلوة. في الأصل نحن من صَفُّورْيَة. من الزيب. من عَمْقَا. من الصفصاف. من الطيرة. من...

- نحن من إم الفحم...

- جئنا من مُخَيم الميّة ميّة...

- نحن من شفا عمرو...

- جئنا من مُخَيم الرشيدية...

- نحن من عكا...

- جئنا من مُخَيم بُرج الشمالي...

- نحن من عرَّابة...

- جئنا من مُخَيم النصّ...

- نحن من الناصرة...

- جئنا من صيدا...

- نحن من البعنة...

- جئنا من صور...

ـ نحن من يافا...

ـ جئنا من جزّين...

ـ نحن من سخنين...

ـ جئنا من الغازيّة...

ـ نحن من اللّد...

ـ جئنا من شحيم...

ـ نحن من دير القاسي...

ـ جئنا من البازوريَّة...

ـ نحن من الجديدة. نحن من الرامة. نحن من...

ـ والست من؟

ـ من الطَّنْطُورَة.

صاح الشاب بأعلى صوته:

ـ هنا ست من الطَّنْطُورَة. فيه حدا من الطَّنْطُورَة؟

قفزت صبيَّة في العاشرة ربما. زرقت بين الصفوف. صعدت على حجر ومدّت لي يدها عبر السلك الشائك: أنا من الطَّنْطُورَة.

تسكنين فيها؟

ـ لا. غير مسموح. أسكن مع أهلي في الفريديس. اسمي مريم. لما احتلُّوا بلدنا كان جدي عمره خمس سنين. شَرَدوا على

لبنان ثم تسللوا وعادوا. دقيقة. لا تتحركي من هذا المكان. سأعود.

اختفت. وقفت أنتظر. كانت النساء تتبادل ما حملنه. غبية يا رُقَيَّة. نساء المُخيَّم أحدّ ذكاءً وأوسع خيالًا. أردن إطعام الأهل في الجانب الآخر من صنع أيديهن. في الجانب الآخر كانت امرأة تضحك وتقول:

- أنا من ام الفحم. صنعت لكم مْسَخَّن.

- نحن من عين غزال.

تطلعت إلى المرأة الواقفة بجواري. قلت لها:

- عين غزال على خط بلدنا. كانوا يذهبون لها مشيًا على الأقدام. أنا من الطَّنْطُورَة.

ضحكتُ.

- طلبني شاب من عين غزال قبل ما يطلعونا من البلد. جئنا إلى لبنان وكلٌ ذهب لحال.

قالت المرأة:

- من دار من؟

قلت لها. أضفت:

- كان اسمه يحيي وكان عمه شيخ البلد.

قالت:

ـ الدكتور يحيي؟

ـ صار طبيبًا؟

ـ لا صار أستاذًا في الجامعة. يعيش في عمّان. تأخَّر في الزواج. ثم تزوّج ابنة عمه. ليست بنت شيخ عين غزال، بنت عمه الثاني، الأصغر. صار له منها خمسة أولاد.

عادت البنت ومعها جدّها. عرّفني بنفسه وسلّم عليّ. قال:

ـ أهلين، أهلين ب...

تلعثم. قلت:

ـ أم صادق.

من أين أتت كل هذه البالونات؟ في لمحة عين كانت مئات البالونات ترتفع هنا وهناك. تطير من هنا إلى هناك. بعضُها كُتب عليه اسم فلسطين وبعضُها كُتب عليه أسماء القرى أو البلدات. بعضها مرسوم عليه العلم بالألوان وبعضها أربع بالونات مضفورة خيوطها، تطير معًا ولكلٍ منها لون من ألوان العلم: أسود. أبيض. أخضر. أحمر. امرأة فاقً خيالها خيال الجميع كانت أتت بقفص حمام. أطلقته. طار الحمام. السماء فوقنا أسراب حمام وعيد من ألوان البالونات. انتحيت جانبًا. جلست على حجر. هل يُنهك الفرح؟ هل هو فرح أم شيء آخر أعقد ويأتي من بعيد؟ أسمع صوت حسن. غريب لماذا حملني الخيال إلى حسن دون باقي الأولاد؟ لَمَ لا أسمع صوت صادق أو عَبد أو مريم؟ لِمَ لم يأت لي الخيال بعميَ أبو الأمين أو بابنه أمين؟ أسمعَ الصوت ثانية. أقفز من مكاني. ليس خيالًا. هذا

صوت حسن. أندفع إلى السلك الشائك. أنادي بأعلى الصوت. هل فقدتِ يا رُقَيَّة عقلك؟ هل اختلَّ الميزان؟

أية مفاجأة. أية مفاجأة؟!

كان حسن في الجانب الآخر من السلك يلوِّح. يبتسم ويقترب وهو يشقُّ طريقه بين الحشد. أنا هنا يا أمي. هنا. هنا. يمشي في اتجاهي. أمشي في اتجاهه. صرنا متقابلين على جانبي السلك. أمدّ يدي ويمدّ يده. تتماسك اليدان. ينحني ويمرر رأسه عبر السلك. يقبّلني. أقول: حاسب يا حسن. سيجرحك السلك. سيُجَرِّح وجهك. لا يسمع الكلام. يندفع بكامل جسمه حتى يطولني ليحيطني بذراعيه. يزداد تشبثا بي. متى وصلت من كندا؟ لم تقل لي؟ يضحك ويشير. أنتبه أن فاطمة معه والأولاد. ميرا وأنيس يقفان بجوار أمهما وهي تحمل بين يديها الوليدة التي وضعتها قبل أربعة شهور. يأخذها حسن من فاطمة ويرفعها عاليًا. يمدّ رجل طويل ذراعيه ويأخذها منه. يتطلع في الصغيرة: «يخزي العين. ما شاء الله». يطبع قبلةً على جبينها ويعطيها لي. أحملها بين ذراعيّ. أمسح عينيّ لأتمكّن من التحقُّق من ملامحها. «رُقَيَّة الصغيرة» يقول حسن بصوت عال. ما الذي أهديه لرُقَيَّة؟ أحمِّل الصغيرة لامرأة تقف بجواري. أمد يدي إلى صدري قاصدة أن أهديها الحلية التي تحمل اسمها، حلية الكردي، صديق عَبد. ألمس الحلية. أتحسَّسُها. ألمس المفتاح. أرفع الحبل عن رقبتي. أضَعه حول رقبة الصغيرة. أُقَبِّلُ جبينها. أُعطيها للرجل الطويل فيعيدها عبر السلك إلى حسن، فتأخذها أمها منه. قلت بصوت عال: مفتاح دارنا يا حسن. هديتي إلى رُقَيَّة الصغيرة.

أرى دموع حسن.

أسمع امرأة تقف بجواري تزغرد.

تتحرك بنا الباصات تحملنا عائدين. قرص الشمس يسقط تدريجيًّا في البحر الذي نشم رائحته ولا نراه. يلفّنا الصمت. أفكّر: انتهي العيد. في غمضة عين. كلٌّ يعود إلى حيث كان. غريب! كأننا عائدين من سفر بعيد. يقطع الصمتَ صوتٌ قويّ لشاب يجلس في مقدّمة السيارة يغنّي أغنية لفيروز:

تلفي خيامٍ لهُن من الصحارى البعيدِة

و تضوِّي ع ظلِّهُن نار الليالي السعيدِة

وما في حدًا يدِلهُن عن الجراح الوجيدِة

و ترحل خيامٍ لهُن وآني وحيدِة، وحيدِة

يابا أوف يابا أوف، أوووف

من أين لشاب بكل هذا القدر من الشَجَن؟ من أي بئر يغترف؟ من... لا تكتمل الفكرة. يُجَنُّ الصوت بانتهاء الموّال. يندفعً صاعدًا. يقفز كأنما إلى السما فوق. أو كأنما سكنته الجِنّ في راقصي الدَبْكَة وهم يزلزلون الأرض بدقّات أقدامهم. يشاركه الشباب في الغناء:

دُقــوا المهابيج خــلِّي الهــوا جنوبي

صــوت المهابيج ينده يا محبوبي

والريح السودا تهيج، دقوا المهابيج

يعود الصوت المفرد مفردا:

شِـــدوا لِخيام غـرَّب جناح الطير
وهَـــوا لِخـيـام ينده نجدٍّ السير
والريح السودا تهيج، دقوا المهابيج
على باب الليل صوَّت علينا الديب
ونسيمَ الليل ياخد عتب ويجيب
والريح السودا تهيج، دقوا المهابيج.

يرد الشباب على المغني:

ع اللالا، ولالا، ولا لا، ع اللا لا، ولالا ولالا
ع اللا ولا لا ولالا

أغمض عينيّ. أتابع تلاوين الصوت:

شمس الضحى ميَّالة، عيني يا لالا، شوقي يا لالا
غرَّبوا صوبِ العالي وضَوِّ القمر ناطرهُن
وأني لاقعد لحالي ويلي، بالليالي أنطرهُن
أنطُرهُن
آني لاشرف ع الوادي وقُل لها يا شمِس غيبي
خوفي نورك يحرقني، ويلي، ما يعرفني حبيبي
تحت الشجر سهرانة وفاتح بالزور عيوني

خوفي النعس ياخدني ويلي، وانتوا تروحوا وتنسوني

هل كنت أغالب النُّعاس. أم أسقط فيه ثم أنتبه؟ هل أخذتني سنة من النوم؟ هل رأيته في المنام أم كان الولد يجلس بجواري ويتطلع فيّ؟ هل يمكن أن يرى المرء حوله وعيناه مغمضتان. كان الشاب ما زال يغني. عاد الصوت المفرد إلى شجن الموال، يوشك أن يصل إلى الختام:

أخـــذوا حبي وراحـــوا شْـمالي
يـا ويـل يـا ويـل يـا ويـل حالي
أخـــذوا حبي وراحـــوا شْـمالي

أين ذهبت المرأة التي كانت تجلس بجواري؟ متى جلس هذا الصبي مكانها؟ كان يتطلّع فيّ بعينين واسعتين. انتبهت إلى وجوده فتطلّعت. فتح دفتر رسم كبيرًا. قال:

- أردت أن أُطْلِعَك على صورتك.

- صورتي أنا؟

- رسمتها ونحن هناك؟

- أنت رسّام؟

- أرسم. ما زلت تلميذًا في الصف الثاني الإعدادي.

سكت. واصل:

- وأعمل أيضًا.

- ماذا تعمل؟

- أجمع برتقال في موسم البرتقال. أجدّ الزيتون في موسم الزيتون. أساعد في أعمال البناء أحيانًا. وأحيانًا أبيع كعكًا على الرصيف.

- تساعد والديك؟

- يَمْكِن أن أساعدهما أكثر. أعطيهما جزءًا مما أكسب. أحتاج بعض المال لشراء دفاتر الرسم. الدفاتر غالية. لا أرسم بالألوان. أرسم بالفحم أو بالحبر الأسود. أقلام الفحم ليست رخيصة. والحبر كذلك غال.

مرات أقلّ عقلي وأشتري لوحًا أو لوحين من الشكولاتة أقتسمها مع إخوتي. أشتهيها فأقول لنفسي ليس خطأً كبيرًا أن تفعل ما تريده أحيانًا. ما رأيك؟

ابتسمت. قلت:

- عين العقل.

فتح الدفتر. في الرسمة سلكٌ شائك وحشدٌ من بشر على جانبيه. تتصدر الرسمة امرأة بثوبٍ فلاحي ترفع ذراعيها عاليًا، تحمل طفلة في الأقمطة على وشك أن تُحمِّلها لشاب في الجانب المقابل من السلك يرفع يديه باتجاه الطفلة. على صدر الطفلة مفتاح كبير عتيق يغطي ثلثي جسمها. الخلق على جانبي السلك كلهم طوال، خطوط فارعة تميل خفيفًا على كل جانب في اتجاه الجانب الآخر كأنها تلتقي في تعريشةٍ توشك أن تكوِّن قوسًا.

قَلّب الصفحة.

ـ هذه رسمة ثانية رسمتها لك الآن وأنت نائمة.

خطوط قليلة بالفحم تستحضر الشبه. الوشم تحت الأنف واضح كأن الغجرية دقّته قبل يوم أو يومين. الشعر المعقوص خلف الرأس صار في الرسمة جديلتين. وهنا أيضًا ألبسني الولد ثوبًا فلاحيًّا. قلت:

ـ لماذا رسمتني مرتين بثوب فلاحي. ولماذا صرتُ بجديلتين؟

هزَّ كتفيه:

ـ لا أدري. هكذا رأيتك.

ـ لم تقل لي اسمك.

ـ ناجي.

ـ من أين أنت يا ناجي.

ـ من عين الحلوة.

ـ أعرف، لكن أصلًا من أين؟

ـ من الجليل الأعلى.

سمعت أحدهم يقول وصلنا. فتحت عينيّ. كان الباص توقَّف وبدأ ركابه يغادرونه. نزلت وسلّمت على أخوات كريمة ومن تعرَّفتُ عليهم في الرحلة، بعد أن تواعدنا على لقاء قريب. أوقفت سيارة أجرة حملتني إلى البيت.

بين النوم والصحو في سريري يلتبس علي الأمر. أقول هل كان ناجي يجلس بجواري أم كان طيفًا في المنام؟ هل أجده صباح الغد في عين الحلوة؟ هل نلتقي ويسمح لي أن أتعرَّف عليه أكثر وأتابعه يومًا بعد يوم وهو يكبر؟ هل يلتقي ناجي برُقَيَّة الصغيرة ذات يوم. عبر السلك أو بدونه؟

سأنام.

أرهقني اليوم بأحداثه الكثيرة.

سأنام لأصحو مبكرًا وأذهب إلى المُخَيَّم لأبحث عن ناجي وأتأكد أنه هناك.

تمت في ٥ ديسمبر ٢٠٠٩

إشارات

- □ الطَّنْطُورَة وقِيسَارِيَة وصَفُّورْيَة وعين غزال وبلد الشيخ وغيرها من القرى والمدن المذكورة في هذه الرواية حقيقية، يمكن الكشف عنها في أية خريطة، فهي جزء من جغرافيا فلسطين وتاريخها.
- □ المجازر التي تناولتها الرواية وقائع موثّقة: مجزرة الطَّنْطُورَة، مجزرة صبرا وشاتيلا، ملجأ مدرسة الأطفال في صيدا، عمارة جاد وغيرها.
- □ باستثناء بعض الشخصيات التاريخية وأسماء الأعلام التي يرد ذكرها في النص فإن شخصيات الرواية كلها بمساراتها وعلاقاتها ومصائرها مُتَخيَّلة.

قائمة ببعض الكلمات والعبارات
الواردة بالدارجة الفلسطينية

ابن العم يِطَيَّح عن ظهر الفرس: مثل دارج يُستخدم للدلالة على أن ابن العَم أولى بالزواج من ابنة عمه من الغريب، (يستطيع أن يتزوجها حتى لو كان العريس يركب الفرس استعدادًا ليُزَفّ إليها).

أسماء الأشهر: كانون ثاني: يناير ـ شباط: فبراير ـ آذار: مارس ـ نيسان: إبريل ـ آيار: مايو ـ حزيران: يونية ـ تموز: يولية ـ أيلول: سبتمبر ـ تشرين أول: أكتوبر ـ تشرين ثاني: نوفمبر ـ كانون أول: ديسمبر.

بحر يافا: البحر المتوسط.

بَنْدوق: ابن حرام. لقيط.

تَنَكَة: صفيحة.

جاهة: كبار العائلة والوجهاء الذي يذهبون لِخُطْبَة البنت.

حَرابَة: خصام.

حَطَّة: كوفية.

حَفَّايَة: شبشب.

حَلْقُوم: الملبن. نوع من الحلوى.

خبز الطابون: أرغفة مستديرة كبيرة تخبز في الريف الفلسطيني على حصى ساخن.

خِتْيَار أو خِتْيَارَة وجمعها خَتَايِر وخِتْيَارِيَّة أو خِتْيَارَات: الرجل أو المرأة كبار السن. تستخدم أيضًا بمعنى الوالد أو الوالدة. وكان يُطلق على أبو عمار «الخِتْيَار».

زَعْرَنَة. بلطجة. أزعر والجمع زُعران: بلطجي

زمْبَرَك: ياي.

سُمَّاق: نوع من التوابل أحمره داكن وله طعم لاذع يُخلط بالزعتر الناشف أحيانًا ويستخدم في الطهي في أحيان أخرى.

شباط الخبّاط يشبُط ويخبُط وريحة الصيف فيه: مثل دارج بمعنى أن فبراير مهما اشتدّت فيه العواصف يحمل رائحة الصيف وبالتالي يشي بما يأتي بعده.

شباط ما عليه رباط: شهر فبراير متقلِّب.

شَقْفَة والجمع شُقَف: جزء. قطعة. قسم. مثلًا: شقفة خبز أو قسم الشيء إلى ثلاث شقف.

عامورة: غول.

الطابو أو أوراق الطابو: كلمة تركية تعني أوراق الملكية، وثائق ملكية البيوت أو الأرض.

طُلبة: طقس طلب العروس حيث يذهب أهل العريس وعدد من وجهاء القرية أو العائلة لطلب البنت.

طُنْجَرة: إناء لطهي الطعام. حلّة.

طوشة: خناقة. عراك.

العتابا والميجانا والأوف والعلياي: أنواع من الأغاني الشعبية الشائعة في بلاد الشام. ولكل منها قالبه المعروف.

قَشَل: عبارة استنكارية تعني «بلا خيبة» أو قشل يحتّك: خيبة تُصيبك.

قُمْبَاز: الثوب التقليدي للرجل الفلسطيني في الريف، وهو جلباب غالبًا ما يرتدي عليه الرجل حزامًا جلديا وجاكيت.

كَنْزَة: سترة من الصوف المشغول. بلوفر.

كوبّانية: درج الفلاحون الفلسطينيون على الإشارة إلى المستوطنات اليهودية بهذا الاسم المشتق كما هو واضح من كلمة «كُمباني» الإنجليزية وتعني شركة، ربما لأن المستوطنات لم تكن قرى طبيعة بل أقرب إلى مشروع اقتصادي صارم في نظامه.

مْجَدّرة: أرز بالعدس. أقرب إلى الكُشَري المصري لكن بدون مكرونة أو صلصة طماطم.

مْسَخَّن: أكلة دجاج شائعة في الريف. يوضع كل فرخ دجاج محمّر بالبصل وزيت الزيتون والسُمّاق على رغيف طابون طازج ويقدم للضيف.

مَقْلوبَة: أرز مطبوخ بالباذنجان واللحم.

ناصح: بدين.

نتْفَة: جزء يسير من شيء.

نُصيّة جبن: نصف تنكة. صفيحة صغيرة مربعة تتسع لأربعة أو خمسة كيلو من الجبن.

نَهْفَة: طُرفة أو فعل مثير للتندّر.

النَّوَر: الغَجَر.